

# الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين

تركيبه. تنظيمه. أسلحته. بحريته. وأبرز المعارك التي خاضها

## تأليف

الأستاذ الدكتور مُحسن مُحَمَّد حُسَيْن  
كُلية التربية - جَامعة بَغدَاد "سابقاً"  
جامعة صلاح الدين - أربيل - كردستان

دار ئاراس للطباعة والنشر



السلسلة الثقافية

\*

**صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين**

**رئيس التحرير: بدران أحمد هبيب**

\*\*\*

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر - حي رابهرين - اربيل- كوردستان العراق

ص.ب رقم: ١

# الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين

تركيبه، تنظيمه، أسلحته، بحريته، وأبرز المعارك التي خاضها

تأليف

الأستاذ الدكتور مُحسن محمد حسين  
كُلية التربية - جامعة بغداد "سابقاً"  
جامعة صلاح الدين - أربيل - كردستان

اسم الكتاب: الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين (تركيبه. تنظيمه. أسلحته. بحريته. وأبرز المعارك التي حاضها)

تأليف: الأستاذ الدكتور مُحسن محمد حُسين

من منشورات ناراس رقم: ١٩٠

التصميم والإخراج الفني: شاخوان كركوكي

الغلاف: شكار عفان النقشبندي

خطوط الغلاف: الخطاط محمد زادة

تنضيد: نثار عبدالله

تصحيح: شاخوان كركوكي

الإشراف على الطبع: عبدالرحمن محمود

طبع بمطبعة وزارة التربية - أربيل ٢٠٠٣

رقم الإيداع في مكتبة المديرية العامة للثقافة والفنون في أربيل: ٢٠٠٢/٢٤٢

## إشارة وشكر

كتاب (الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين) أصل أطروحة نلنا بها درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي / من كلية الآداب- جامعة بغداد.

جرت المناقشة في قاعة (الطبري) بتاريخ ١٩٨١/٢/٩. وكانت بإشراف الأستاذ الجليل محمد توفيق حسين. وقد تناهى الى سمعي خبر رحيله حينما كنتُ في ديار الغربية في ليبيا، فله منّي إحترامي الجَمِّ وعرفاني بجميله - رحمه الله.

وتكوّنت لجنة المناقشة من الأساتذة المحترمين الدكتوراة بشار عواد معروف ورشيد عبدالله الجميلي وخاشع عبادة المعاضيدي، وعبد المنعم رشاد الذي غاب عن الجلسة.

تمّ طبع الكتاب لأول مرة في بيروت - لبنان - مؤسسة الرسالة عام ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م. ثم توالى طبعاته دون علم منّي. وها هي دار ناراس للطباعة والنشر تقوم بهذا الجهد المشكور وتتبنى إعادة طبعه في وطن آباء صلاح الدين/ في أربيل عاصمة إقليم كردستان العراق، فلها منّي ثنائي وإمتناني الوافر...

المؤلف

أربيل ٢٦/١/٢٠٠٢

الإهداء

إلى مَنْ رَبَّيَ صَغِيرًا...  
رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى

## المقدّمة

### نطاق البحث

تعد دراسة النواحي العسكرية في التاريخ من المواضيع البالغة الأهمية، ومكتباتنا بحاجة ماسة إليها. فالابحاث العسكرية في التاريخ الإسلامي ما زالت في مراحلها الأولية، في حين أن الجوانب الأخرى فيه نالت قسطاً أكبر من الاهتمام، ولاسيما الجانب السياسي والفكري منها. وهذا ما دعاني إلى اختيار الفترة التي قاد فيها القائد صلاح الدين الجيوش الإسلامية لتحرير أرض الشام من المحتلين الصليبيين بعد أن سنحت له الظروف أن يتبوأ مكانة المسؤول الأول، إثر وفاة السلطان نورالدين محمود ابن المجاهد عماد الدين زنكي، في ذلك الصراع الدامي، معتمداً على الطاقة البشرية الهائلة التي صارت تحت تصرفه، وعلى قدرات الشام ومصر والجزيرة الاقتصادية، مضافة إلى مواهبه في التنظيم والقيادة ونبوغه العسكري.

وقد تطلب طابع الدراسة العسكرية عدم الانسياق في التاريخ السياسي، فتجنّبنا الكلام عن تفاصيل الأحداث المبكرة التي عاشها صلاح الدين مع أسرته في بلاد الشام، ثم التطورات التي حصلت في مصر، وكيف آلت إليه قيادة الحكم فيها، وقدمه إلى دمشق، وتفصيل تحركاته في بلاد الشام والاستيلاء على بقايا الحكم النوري فيها، وكذلك تجنبنا الدخول في تفاصيل علاقته مع الأطراف الإسلامية الأخرى، مثل الخلافة العباسية في بغداد وأتابكة الموصل وأمراء الجزيرة والقوى الحاكمة في شمال أفريقيا وغيرها، وعلاقته مع حكام أرمينيا وامبراطور بيزنطة، إلا حين تدعو الضرورة القصوى إلى التحدث عن ذلك.

وحاولنا ألا نتقيّد كلياً بفترة الربع قرن التي حكم خلالها صلاح الدين مصر، ثم الشام، فالتنظيمات والمؤسسات (العسكرية، الادارية والاقتصادية... الخ) لا يمكن لها أن تختفي بانتهاج مرحلة وبدء مرحلة جديدة، بل إنها تستمر في احشاء النظام الجديد فترة، ثم تبدأ بالضعف والاضمحلال، إذا أريد لهذه المؤسسات هذا المصير، أو أنها تبدأ مرحلة جديدة من النمو و الازدهار. فمن الامور الشائكة في دراسة التنظيمات، إثبات ما اضافته هذه الدولة أو ذلك العهد، من أنماط جديدة من المؤسسات والتقاليد. فلا يمكن، لدولة ما، أن تقيم دعائم تنظيماتها دون الأخذ عما سبقها، ولاسيما تلك التنظيمات العسكرية التي تلائم أوضاعها. ومن ثم تبدأ إرهاصات جديدة، وتفرز ما تستحدثه لتضيف إلى الخبرات السابقة، وتنتج من هذا تنظيمات تنسب إلى الدولة الجديدة.

ولم تخرج تنظيمات الدولة الأيوبية العسكرية عن هذه القاعدة، فإذا استثنينا التغييرات الجذرية التي أحدثتها صلاح الدين في مصر، ولاسيما في تركيب الجيش الفاطمي والقوة البحرية، نجد أن الدولة الأيوبية قد سارت، في الأغلب على التقاليد الزنكية التي طبعتها بطابعها، نظراً لكون الأيوبيين نشأوا في الأصل في كنف عماد الدين زنكي وولده نورالدين محمود، ولأن بلاد الشام صارت الميدان الأساسي الذي تحرك فيه جيش صلاح الدين، فبذت تنظيمات الأيوبيين وكأنها استمرار لتنظيمات دولة نورالدين، وبهذا المعنى يقول القلقشندي: «إن الدولة الأيوبية، لما طرأت على الدولة الفاطمية، وخلفتها في الديار المصرية، خالفتها في كثير من ترتيب المملكة، وغيرت غالب معالمها، وجرت على ما كانت عليه الدولة الأتابكية في عهد عمادالدين زنكي بالموصل، ثم ولده الملك العادل نورالدين محمود بالشام»<sup>(١)</sup>، ولعل هذه الاستمرارية تنطبق على تنظيم الجيش وأزياء الجند والاقطاع العسكري وإستعمال (اتخاذ) الماليك، أكثر من غيرها. وقد وضحنا ذلك خلال فصول البحث.

ولسنا بصدد دراسة تفاصيل التنظيمات العسكرية في الدولة النورية أو الزنكية، لأن هذا يجزنا إلى الخروج عن الموضوع، ومن ثم العودة إلى التنظيمات التي سبقت التنظيمات الأتابكية، ولاسيما تنظيمات الدولة السلجوقية التي انبثقت منها الأتابكيات. أو كما أعلن أبو المحاسن بن تغرى بردي حين قال: «إن بني بويه أنشأوا بني سلجوق، وأنشأ بنو سلجوق بني أرتق وأق سنقر جد بني زنكي» ثم «أنشأ بنو زنكي بني أيوب سلاطين مصر (والشام) ثم أنشأ بنو أيوب الماليك ودولة الأتراك في مصر، فانظر إلى أمر الدنيا، وكيف كانت كل طائفة نعمة طائفة ونشوتها إلى يومنا هذا»<sup>(٢)</sup>، أي إلى أيام المؤرخ (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م).

هذا أضافة إلى أن بحثنا ليس بحثاً مقارناً، بل يتضمن دراسة الجيش الأيوبي - الصلاحي، كما كان قائماً، مع إلقاء الضوء، عند الضرورة، إلى ما كان متبعاً في الجيش النوري في بلاد الشام والمجزيرة، وفي الجيش الفاطمي في الديار المصرية. ونرى أن معرفتنا لمكونات الفرقة النورية التي قادها أسدالدين شيركوه، عم صلاح الدين، إلى مصر، ولاسيما في الحملة النورية الثالثة (الأخيرة) التي استقرت في هذه الديار، تكفي، إلى حد ما، لمعرفة مكونات الجيش النوري عموماً، مع الأخذ بنظر الاعتبار التغييرات والتوسعات التي حصلت للجيش الأيوبي، حين استقر في بلاد الشام.

ولايد من الإشارة إلى أننا لانتطرق إلى الفرقة الأيوبية التي أرسلت إلى بلاد اليمن، بقيادة أخ صلاح الدين الملك المعظم شمس الدولة توران شاه ابن أيوب (٥٦٩ - ٥٧٧هـ / ١١٧٣ - ١١٨١م) لأننا قصرنا البحث على الجيش الأيوبي الصلاحي في مصر والشام، ولأن بلاد اليمن لم تشترك في أي مجهود حربي في جيش صلاح الدين. لكننا نذكر أن هذه الحملة، وحملة تقي الدين عمر بن أخ

(١) صبح الاعشى في صناعة الإنشا، المطبعة الاميرية، ج ٤، ص ٥.

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة دار الكتب المصرية، ج ٥، ص ٢٧٩.

صلاح الدين إلى بلاد برقة (ليبيا) والتي انقطعت اخبارها بسرعة، قد اشغلتنا جزءاً من الجيش، بالمرايطة في هاتين المنطقتين. فالمعروف أن توران شاه صحب معه إلى بلاد اليمن ألف فارس، عدا من سيرهم معه من حلقتة الخاصة<sup>(١)</sup> سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م<sup>(٢)</sup>.

## فصول الكتاب

وقد قسمنا البحث إلى سبعة فصول، تناولنا في الفصل الأول سمات المرحلة التي مرت عليها الدولة الفاطمية في أواخر أيامها، وكيف تحولت مصر إلى دولة ضعيفة، بعد أن كانت، في فترة ازدهارها دولة قوية مترامية الأطراف، استطاعت أن تضم أجزاء واسعة من أرض الشام وشمال أفريقيا، وهذا الضعف دفع بالصلبيين إلى أن يطمعوا بمصر للاستفادة من مواردها التي لا تنضب<sup>(٣)</sup>، وجعلها تحت تصرفهم لتحقيق سيطرتهم الكاملة على أرض الشام وفلسطين ومصر. إلا أن الصراع الداخلي حول منصب الوزارة في مصر، دفع أحد أطراف النزاع إلى الاستنجاد بنورالدين محمود، فأرسل هذا قواته بصورة متتالية إلى مصر، استطاعت أخيراً أن تضع حداً لمحاولات الصليبيين، وتستقر في مصر وتمهد لإحداث انقلاب ضد الخلافة الفاطمية.

وتحدثنا في هذا الفصل عن العناصر التي تكون منها الجيش الفاطمي، لمعرفة التغييرات التي أحدثتها صلاح الدين بعد أن صار وزير الخليفة العاضد، ثم سلطان مصر بعد موت الخليفة. والفصل الثاني خصصناه للحديث عن تنظيم الجيش الأيوبي، وتكلمنا فيه عن مدينة دمشق والأسباب التي دعت صلاح الدين إلى اتخاذها مركزاً لجيشه في بلاد الشام، ينطلق منها حين يتوجه إلى ميادين القتال، وجعل منها مأوى للأسرى الصليبيين، ومقراً لديوان الجيش في الشام، وتحدثنا عن التغييرات التي طرأت على الزي العسكري في عهد صلاح الدين وخلفائه، سواء بالنسبة لغطاء الرأس أو ثياب البدن، أو ما كانوا يحتذونه. ثم عالجتنا موضوع التموين، والاقطاع العسكري النوري والفاطمي وامتدادهما في عهد صلاح الدين. ثم تناولنا التعيينة العسكرية والأساليب التي طبقت فيها، وكذلك الحلقة الخاصة والماليك السلطانية، ونظام الاطلاع، وأصناف الجيش حسب سلاح كل صنف. وتحدثنا عن المتطوعين في الجيش الأيوبي، الذين دفعهم حب الجهاد للتطوع وقتال العدو

(١) ابو شامة، كتاب الروضتين في اخبار الدولتين، تحقيق د. محمد أحمد حلمي، طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٢، ج ١، ق ٢، ص ٥٥٤.

(٢) ابو مخرمة، تاريخ نجر عدن، مطبعة بريل، ليدن ١٩٣٦، ج ١، ق ١، ص ٥٣٧ الخزرجي، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تصحيح وتنقيح الشيخ محمد بسيوني عسل، مطبعة الهلال، مصر ١٩١١، ج ١، ص ٢٩. الهمداني، كتاب السمط الغالي الثمن في اخبار الملوك من الغز باليمن، تحقيق ركس سمث مطبعة جامعة كمبردج ١٩٧٤، ص ١٥. الثماني، بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق مصطفى حجازي، مطبعة مخيمر، اليمن ١٩٦٥، ص ٧٥ - ٧٦.

(٣) رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة د. السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٨، ج ٢، ص ٦٧٣.

الصليبي، ثم الفرق الملحقة بالجيش، كالفرقة الهندسية والفرقة الطبية وفرقة الموسيقى العسكرية وحملة أعلام الجيش...إلخ.

وفي الفصل الثالث واصلنا الكلام عن مؤسسات أخرى مساعدة لتنظيم الجيش وإدارة شؤون القتال والسلم والأسرى. وقسمنا الفصل إلى قسمين، تحدثنا في القسم الأول عن البريد، واليزك، والحمام البريدي (الهوادي) والكمائن. وذكرنا أن استخبارات صلاح الدين عرفت طريقة التعامل بالشفرات. أما في القسم الثاني من هذا الفصل فقد تحدثنا عن مجلس الحرب الاستشاري الذي كان أعضاؤه من الأمراء والقادة، يساعدون صلاح الدين بإبداء آرائهم في الشؤون العسكرية الخطيرة، ولاسيما حين يتأزم الموقف الحربي. ثم الخطط والأساليب التي كان يضعها الجيش في معاركه المختلفة، ومواسم نشاط الفعاليات العسكرية، أو توقفها. ثم تحدثنا عن طرق معاملة الأسرى الصليبيين، واختتمنا الفصل بالكلام عن المعاهدات التي عقدت بين صلاح الدين وبين الصليبيين، وآخرها معاهدة الرملة التي أعقبها رحيل ريتشارد قلب الأسد عن فلسطين وعودته إلى بلاده.

وأفردنا الفصل الرابع للتحدث عن أسلحة الجيش الأيوبي، وكان علينا أن نسلك أحد طريقين، أولهما: البحث عن بدايات استعمال هذه الأسلحة في التاريخ الإسلامي، وإن كان من ابتكار المسلمين أو مقتبساً من الأمم الأخرى؛ وثانيهما البحث عن الأسلحة والمعدات، كما وجدت واستعملت في هذا العصر. وقد اخترنا الطريق الثاني، لأننا لا نبحث عن السلاح عامة، وإنما عن أسلحة عصر صلاح الدين.

وقد تحدثنا عن خزانة السلاح، أو ما كانت تسمى (بالسلاح خاناه) أو (الزرد خاناه) كما أطلق عليها في عهد المماليك. وذكرنا الأماكن التي توفرت فيها المواد الأساسية لصناعة الأسلحة، مثل الخشب والحديد. ثم قسمنا الأسلحة إلى خمسة أقسام، ففي الأول تحدثنا عن الأسلحة الفردية التي يحملها شخص واحد عادة، كالسيف والرمح والنبوت والقوس، وقد تطور السلاح الأخير كثيراً، وظهرت منه أنواع مختلفة، فتحدثنا عن سبعة أنواع، بينها أقواس يرمي بها أكثر من شخص واحد، فخرجت بذلك عن كونها من الأسلحة الفردية، إلا أننا تكلمنا عنها جميعاً ضمن الأقواس.

ثم تكلمنا عن الأسلحة الثقيلة، منها قاذفات النار، ووصفنا المنجنيق وأنواعه، والدبابة وملحقاتها، وكذلك بحثنا عن أنواع من أسلحة وقاية الجسم، كالمغفرة والبيضة والجوشن، وأخيراً تكلمنا عن المثلثات والعجلات.

وفي الفصل الخامس تناولنا البحرية في عهد صلاح الدين، لكي تكتمل الصورة عن جيش صلاح الدين. فتحدثنا عن وضع البحرية المصرية في أواخر عهد الدولة الفاطمية، والإصلاحات التي قام بها صلاح الدين في هذا المجال، ثم تكلمنا عن مراكز صناعة السفن في مصر، وأنواع المراكب في البحرية الأيوبية، والمعدات والأسلحة التي استعملت في سفن القتال، وكذلك الأجهزة الخاصة بمقاومة معدات العدو. وتحدثنا أيضاً عن المراحل التي مرت على البحرية الأيوبية. وقسمناها إلى ثلاث مراحل، فبعد

مرحلة الإعداد، ووضع الأساس، جاءت المرحلة الثانية التي انتعش خلالها الأسطول المصري، وإضطلعت البحرية الأيوبية فيها بدور ملحوظ في الصراع مع البحرية الصليبية القوية، في عباب البحر المتوسط الذي كان الميدان الذي التقى فيه الأسطولان، باستثناء محاولة الإنزال الفاشل الذي قام به الصليبيون على سواحل البحر الأحمر. أما المرحلة الأخيرة التي مرت على البحرية، فهي المرحلة التي أعقبت موقعة حطين.

وفي الفصلين الأخيرين (السادس والسابع) تحدثنا عن الفعاليات العسكرية لجيش صلاح الدين في أبرز المعارك التي خاضها ضد الصليبيين، لنظهر تنظيمات هذا الجيش وخطته، وهو في حالة الحركة والتطبيق. وقد ميزنا في الفصل السادس بين معارك الأسوار والمعارك المكشوفة، وتكلمنا عن تلك التي كانت علامة واضحة بين معاركه، ولم نسهب في الكلام عن جميع المعارك نظراً للتشابه بين تفاصيلها. وتكلمنا عن الإخفاقات التي لحقت بالجيش الأيوبي. ولم نقتصر في كلامنا عن معارك ساحة الشام وفلسطين، فتحدثنا عن الحصار الذي ضربه الصليبيون على الاسكندرية، وكيف انتصر فيه المسلمون، وأفشلوا خطة الصليبيين في الاستيلاء على الساحل المصري مرة أخرى، بعد فشلهم في دمياط. ثم حصار الكرك المتكرر ونجاح الجيش الأيوبي في الاستيلاء عليها بعد حطين، وكذلك حصار ثغور الساحل الشامي، ونجاحات صلاح الدين في تحريرها، ثم تحرير بيت المقدس الذي كان له دوي عظيم في كل أرجاء العالم الإسلامي، وتحدثنا عن حصار صور وأسباب فشله، وكيف أصبح هذا نقطة تحول في توجيهات الجيش الأيوبي المقبلة. وقد توقفنا في الفصل السادس عند انتهاء معركة حطين الحاسمة.

وفي الفصل السابع تحدثنا عن حصار عكا الطويل الذي استمر قرابة السنتين، والمصادمات التي وقعت بين الجيش الصليبي المحاصر للمدينة وبين الجيش الأيوبي الذي يطوق الصليبيين، ثم سقوط عكا المفجع، رغم البسالة المنقطعة النظير التي أبدتها المدينة أمام قوات العدو، وأسباب هذا السقوط بيد ريتشارد. وتكلمنا عن التطورات التي أعقبت حادث السقوط، والضعف الذي انتاب الجيش الصلاحي، ولاسيما أثناء المسير نحو عسقلان. ومع ذلك فإن هذا الجيش لم يتوقف عن التحرش بالصليبيين الذين يقودهم الملك المذكور الذي استطاع إلحاق الهزيمة بالمسلمين عند غابة أرسوف.

وهذان الحادثان (سقوط عكا وهزيمة أرسوف) جعلتا صلاح الدين يغير خطته الدفاعية السابقة إلى خطة دفاعية جديدة تتضمن تخريب الحصون ذات المواقع الاستراتيجية التي لا يستطيع الجيش الأيوبي الدفاع عنها، والتي يمكن أن تسقط بيد الصليبيين ويتخذوها نقطة ارتكاز ينقضون منها للهجوم على المراكز الهامة، مثل مصر وبيت المقدس، فما كان من صلاح الدين إلا أن يتخذ أسلوب تخريب هذه الحصون، وعندما فرغ من هذا العمل لجأ إلى تنظيم الدفاع عن بيت المقدس أمام هجوم ريتشارد المرتقب، وأخيراً قام الجيش الأيوبي بأول عمل هجومي منذ أمد غير قصير، مستغلاً غياب ريتشارد الذي واصل مشاوراته مع أركان جيش صلاح الدين، مبدئياً رغبته في عقد الصلح مع السلطان.

ولا بد لي، وأنا أختتم هذا الكلام، من الاعتراف بأن دراستي هذه لم تحقق الإحاطة الكاملة بالحقيقة، والإمام الشامل بكل جوانب الموضوع، فذلك طلب عسير المنال، فمن الصعب لدراسة واحدة أن تفي بكل الجوانب، وما قمت بتحقيقه إنما هو محاولة لشق طريق يمهّد لدراسات أخرى مكتملة في المستقبل. وأرجو أن أكون قد أضفت، ولو إضافة متواضعة، لدراسة تاريخ جيش صلاح الدين المجاهد المحرر.

ولا يسعني أخيراً إلا أن أسجل شكري الوافر، وعرفاني بالجميل للأستاذ محمد توفيق حسين المشرف على البحث، فقد أسدى لي، خلال تحضير الأطروحة، توجيهات ثمينة دون كلل أو ملل. وكذلك أشكر المشرفين الاستشاريين الدكتور مرتضى حسن النقيب والدكتور رشيد عبدالله الجميلي لتجشهما عناء قراءة البحث وإبداء الملاحظات. وأشكر أيضاً الأساتذة الدكتور أحمد عثمان أبوبكر للمساعدة التي قدمها لي في مجال الترجمة، والدكتور فيصل السامر والدكتور عبدالقادر أحمد اليوسف للتوجيهات السديدة التي قدمها لي خلال العمل. كما أشكر السادة المناقشين الكرام، لما أبدوه من ملاحظات سديدة أثناء مناقشة الرسالة. هذا ومن الله التوفيق وهو وليّه.

المؤلف

## تحليل مصادر البحث الأساسية

لقد اعتمدنا في بحثنا على مجموعة من المصادر تضم كتباً في التاريخ العام وتاريخ الاسرة الأيوبية ومعارك صلاح الدين وتاريخ بعض المدن العربية، كدمشق وحلب وبيت المقدس وبيروت وغيرها، وكتباً في التراجم وأخرى في أصول القتال وصناعة السلاح والإدارة وكتباً في الجغرافية واللغة والآداب وغيرها، وليس من الضروري استعراض أو تحليل جميع هذه الكتب، بل نكتفي بالمصادر الأصلية التي لها مساس مباشر بموضوع بحثنا، ولاسيما التي ألفها أشخاص عاصروا صلاح الدين، أو اقتبسوا من مصنفات ألفت في ذلك العصر وفقدت أصولها، ويأتي في مقدمة مؤرخي العصر:

١- العماد الكاتب الأصفهاني، أبو عبدالله محمد بن محمد بن صفى الدين محمد بن حامد (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) ويعتبر هذا المؤرخ من أبرز كتّاب ومؤرخي عهد صلاح الدين، ومن أكثرهم صحبة له، وقد أحاط بثقافة عصره، ومارس وظائف عدة في التدريس، وديوان الإنشاء، والسفارات، والتحق بصلاح الدين في دمشق في ٨ جمادى الآخرة سنة ٥٧٠هـ/ بداية سنة ١١٧٤م، فاستكتبه واعتمد عليه، حتى صارت مكانته تضاهي مكانة الوزراء. وان لم تصل إلى المكانة التي كانت للقاضي الفاضل الذي تعرف عليه العماد، وتوطدت أو اصر الصداقة بينهما، ودارت مراسلات ومحاورات أدبية لطيفة بينهما، ووصفه القاضي الفاضل بقوله: «العماد كالزناد الوقاد»<sup>(١)</sup>.

صنف العماد مجموعة من الكتب بلغ عددها عشرين كتاباً، أكثرها في التاريخ والشعر، إلا أن ما يهمننا من هذه الكتب بالدرجة الأولى كتابان هما «البرق الشامي» و«الفتح القوسي في الفتح القدسي» أما الكتب التاريخية الأخرى فقد ألفتها عن الفترة التي سبقت عصر صلاح الدين. وكتاب «البرق الشامي» ألفه العماد في سبعة مجلدات، وبدأ فيه بالكلام عن نفسه، وانتقاله من العراق إلى الشام، وما جرى له في خدمة نورالدين، ثم كيفية التحاقه بخدمة صلاح الدين، وقد سماه بالبرق الشامي لأنه شبه أيامه في ذلك العهد الجميل بالبرق الخاطف لطيبها وسرعة انقضائها<sup>(٢)</sup> وقد أنهاه العماد عند وفاة صلاح الدين، أي أنه ضمن كتابه أحداث ثمان وعشرين سنة، هي فترة التحاقه بديوان نورالدين، ثم صلاح الدين.

ومن المؤسف أنه لم يبق من هذا الكتاب سوى مجلدين، وهما موجودان في مكتبة بودليان

(١) ابن الساعي، الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، المطبعة السريانية الكاثوليكية، بغداد ١٩٣٤، ٦٤/٩. الصفدي، الوافي بالوفيات، باعثناء هلموت ريتز، ط. فيسبادن، المانيا ١٩٦١، ج ١ ص ١٣٩.

(٢) سنا البرق الشامي (اختصار البنداري) تحقيق د. رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٧١، ص ٥٢.

بأكسفورد ، فالمجلد الثالث يتناول الأحداث الممتدة من سنة ٥٧٣ إلى ٥٧٥هـ / تموز ١١٧٧م - أيار ١١٨٠م. أما المجلد الخامس فيتناول أحداث سنة ٥٧٨ حتى بداية ٥٨٠هـ / أيار ١١٨٢ - تموز ١١٨٤م<sup>(١)</sup>.

ويمكن التعرف على أحداث الأجزاء الباقية - إضافة إلى أحداث الجزأين - من نقول أبي شامة من البرق الشامي، وكذلك من كتاب «سنا البرق الشامي» الذي اختصر فيه البنداري «ت بعد ٦٤٢هـ/ ١٢٤٣م) كتاب البرق اختصاراً فنياً دون المساس بجوهر الأحداث، وكان البنداري قد قام بهذا العمل بإيعاز من الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشق<sup>(٢)</sup>.

ومما يذكر أن العماد تكلم في كتابه عن الحوادث الجارية بين سنتي ٥٦٣ - ٥٦٩هـ مختصراً، إلا أن هذه الفترة لاتتعلق بتاريخ صلاح الدين، وكذلك الحوادث الجارية بين ٥٨٣ - ٥٨٩هـ، لأنه فصل عنها في كتابه «الفتح القسي» أما حوادث ٥٧٠ - ٥٨٢هـ فقد تحدث عنها بإسهاب<sup>(٣)</sup>.

وقد لازم العماد صلاح الدين في سلمه وحره، فقد صحبه في زيارته التفقدية إلى شمال الدلتا لمشاهدة تحصينات الشغور المصرية، واستعرض الأسرى الصليبيين بقلمه في أكثر من مناسبة. وشهد انتصارات صلاح الدين في بيت الأحزان وحطين وفتح الساحل الشامي «السوري والفلسطيني» وكتب كتب المستأمنين الصليبيين، كما كتب البشائر إلى الأقاليم بالنصر.

ومن قوله في فتح القدس: «فكتبت اليوم سبعين كتاب بشارة، كل كتاب بمعنى بديع» على الرغم من أنه لم يحضر القدس إلا في اليوم الثاني من فتحها بسبب مرض ألم به<sup>(٤)</sup> وكذلك لم يحضر نوبة الرملة سنة ٥٧٣هـ / ١١٧٤م<sup>(٥)</sup>، وفي معركة عكا الطويلة قام بدور الصحفي الأمين من حيث الدقة في الرواية والإخبار عنها<sup>(٦)</sup>.

واسلوب العماد في كتاباته التاريخية تظهر عليه صنعة التعقيد والتكلف، فكتابه مملوءان بالسجع والمحسنات اللغوية من تورية وجناس وطباق وتنظير، وكذلك الاقتباس من أي الذكر الحكيم، وتضمين بديع في الشعر والنثر وتصوير جميل.

وتتسلسل جملة في أوصافه للمعارك بايقاع وألفاظ ذات جرس محبب، إلا أنها تتعب القارئ في استخلاص الحقائق التاريخية بسهولة.

(١) البروفسور جب، هاملتون أ.ر. صلاح الدين الأيوبي، حررها يوسف أيبش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٣، ص ٧٣. د. محمد احمد حلمي، مقدمة (كتاب الروضتين) ج ١ ق ٢، ص ٣٦.

(٢) سنا البرق، ص ٤٩.

(٣) سنا البرق، ص ٢٤-٢٥.

(٤) الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح محمد صبح، طبعة الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٥، ص ١٣٢.

(٥) سنا البرق، ٢٥٣. الروضتين، ج ١ ق ٢، ص ٦٩٧.

(٦) د. سعادوي، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين، لجنة البيان العربي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٢، ص ٢٣.

وقد تذر «لين بول Lane-Poole» من ذلك وأعلن أن «خطابيته لا تحتل»<sup>(١)</sup>. «وقد عاب الناس من له ذوق وفطرة سليمة كثرة التجنيس، لأنه دليل التكليف»<sup>(٢)</sup>.

وقال أبو شامة: ان العماد في كتابيه «البرق الشامي والفتح القسي» طويل النفس في السجع والوصف، يمل الناظر فيه ويذهل طالب معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسيه<sup>(٣)</sup>.

وإذا كان العماد قد جعل من وصوله إلى بلاد الشام والتحاقه بخدمة دولة نورالدين محمود بداية لكتابه «البرق الشامي»<sup>(٤)</sup>، فانه جعل معركة حطين بداية لكتابه «الفتح القسي» لأنه اعتبر انتصار الجيش الإسلامي الأيوبي في حطين هجرة ثانية... هي هجرة الإسلام إلى بيت المقدس... وهي أبقى الهجرتين<sup>(٥)</sup>، وقد سماه «الفتح القسي» باقتراح من زميله القاضي الفاضل<sup>(٦)</sup>.

وأهمية كتابي العماد أنهما بمثابة يوميات الحرب يرويها شاهد عيان يمتلك اقتداراً عالياً في إبراز الصورة الواضحة التي تكاد تنبض بالحياة، وكأن ما يرويه هو مشاهدات مراسل حربي يرويها لحظة وقوع الأحداث ساعة بساعة، ولهذا فالكتابان وثيقة تاريخية هامة لعصر صلاح الدين. وقد سلك المؤلف فيهما نظام الحوليات، فيروي ما حدث خلال العام، ثم يربط ذلك بأحداث العام الجديد، مع ذكر اليوم والشهر، مع ذكر مواطن الضعف والقوة في الجيش الأيوبي، ومشاعر المحاربين في البر والبحر أثناء القتال، وكأنه كان يصاحب المقاتلين في صولاتهم، ووصف وقائع الحرب والأسلحة والمعدات التي استعملها هذا الجيش، ونجح إلى حد بعيد في وصف البقاع والبلدان والمنشآت التي حدثت عندها الوقائع العسكرية.

إلا أن كتابات العماد لم تخل من نبرة المبالغة في ذكر الأرقام، على غرار بقية المؤرخين، وكذلك إعجاباه المفرط بالسلطان وبجيشه، ففي موقعة «تل السلطان»، التي جرت بين أتاكب الموصل وصلاح الدين، ذكر العماد أن جيش الموصل كان تعداداه «في عشرين ألف فارس سوى سوادهم، وما وراءهم من امدادهم... وانهم يزيدون كل يوم في القوة والشدة، وما كان اجتمع من عسكرنا سوى ستة آلاف فارس»<sup>(٧)</sup>. أي أن صلاح الدين استطاع بستة آلاف فارس إلحاق الهزيمة بجيش الموصل الضخم الذي يفوق حجمه حجم جيش السلطان بأكثر من ثلاثة أضعاف. فما كان من مؤرخ بلاط الموصل ابن الأثير إلا وانبرى ليفند قول العماد المبالغ فيه<sup>(٨)</sup>.

(١) جب، صلاح الدين، ص ٧٢.

(٢) الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٣٣/١.

(٣) الروضتين، ج ١ ق ١، ص ٨.

(٤) سنا البرق، ٥٥. الروضتين، ج ١ ق ٢، ص ٣٦٨.

(٥) الفتح القسي، ص ٤٩.

(٦) الفتح القسي، ص ٥٧. الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٤٠/١.

(٧) سنا البرق، ٢٠٠-٢٠١. الروضتين، ج ١ ق ٢، ص ٦٥١.

(٨) الكامل، طبعة دار صادر- دار بيروت ١٩٦٦، ج ١١ ص ٤٢٩.

ولاشك أن هذه النزعة مردها ميل العماد الشديد إلى صلاح الدين، رغم ما عرف عنه من صدق الرواية، بحيث لم يكن يدون من الأحداث - كما ذكرها في نهاية مقدمة كتابه «الفتح القسي» - إلا ما شاهده فيقول: «وما شهدت إلا بما شاهده وشهدته... وما عنيت إلا بإيراد ما عاينته، ولا بنيت القاعدة إلا على أسس ما تبينته، وما توخيت إلا الصدق، وما انتهيت إلا الحق ولا ذكرت كلمة تسقط ولا اعتمدت إلا ما يرضي الله ولا يسخط»<sup>(١)</sup>.

٢- ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم محمد الجزري «ت. ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م» وكتابه «الكامل في التاريخ».

ولد هذا المؤرخ في وقت كان الصليبيون قد استقروا في الديار الإسلامية منذ خمسة وستين عاماً، وكان الصراع المرير بين المسلمين والصليبيين على أشده، حتى جاء الوقت الذي خرج فيه إلى ميادين القتال في الشام ليشاهد بنفسه المعارك التي دارت بين صلاح الدين وبين الصليبيين.

ومن الأحداث المحلية المشيرة التي شاهدها ابن الأثير في أواخر عمره، سقوط الدولة الزنكية التي عاش المؤرخ وأسرته تحت كنفها ورعايتها، منذ نزوحهم من مدينة (جزيرة ابن عمر) الكردية إلى الموصل، وكانت علاقة أتابكة الموصل غير ودية مع صلاح الدين الذي حاصر الموصل ثلاث مرات، حتى ألحق الأتابكية بدولته بموجب معاهدة ٥٨١هـ / ١١٨٥م. وظلت هذه الذكريات عالقة في ذهنه حين بدأ بكتابة تاريخه بتكليف من بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل الذي قضى على حكم آخر أبناء الاسرة الأتابكية. فكان ابن الأثير ينظر إلى صلاح الدين نظرة ملؤها الشك في أهدافه ويظهره بمظهر من لا يههمه سوى إشباع نزعاته<sup>(٢)</sup>.

فقد فسر -على سبيل المثال- فشل صلاح الدين في فتح صور بأن جنوده قد الفوا تيسر الفتح، ثم رمى المسؤولية على عاتق صلاح الدين حين قال: لم يكن لأحد ذنب غير صلاح الدين لأنه منح الصليبيين سكان المدن المفتوحة الأمان، فتجمعوا في صور، وصاروا قوة لا تقهر<sup>(٣)</sup>.

كما أعلن هذا المؤرخ أن سبب إرسال الحملة إلى بلاد اليمن يعود إلى خشية صلاح الدين من نورالدين، فأراد أن يعتصم في هذه البلاد هو وأسرته، إذا هم نورالدين دخول مصر. وينفرد (ابن الأثير) بذكر ما دار في حوار سري بين أبناء الاسرة الأيوبية في مصر، حين ناقشوا فيه كيفية الرد على نورالدين محمود إذا حاول هذا القدوم إلى مصر، والغريب أن تفاصيل ما دار بين صلاح الدين وأبيه وأقاربه، في غرفة مغلقة تصل إلى ابن الأثير، ولا تصل إلى مسامع نورالدين، فلا عجب أن يطعن في سياسة وأهداف هذا السلطان بقلمه إذا كان قد هاجمه بسلاحه.

(١) الفتح القسي، ص ٥٨.

(٢) ناقشنا هذا الموضوع في مقال (ابن الأثير وأحداث عصره وموقفه من صلاح الدين) في كراس (موضوعان في التاريخ الكردي) منشورات جمعية الثقافة الكردية بغداد - مطبعة الحوادث، ١٩٧٦.

(٣) الكامل، ٥٥٦/١١.

ومما يؤخذ على ابن الأثير أيضاً أنه لا يذكر مصادره الأصلية التي أجرى قلمه على روايتها بالتعديل والتحريف الكثير حسب قول البروفسور جب والدكتور سعداوي - لدرجة بات البحث عنها من أشق الأمور وأعزها منالاً<sup>(١)</sup>. ولعل إحدى المرات القليلة التي أشار فيها ابن الأثير إلى نقله من مؤرخ آخر، وهو العماد الكاتب، حين قام بتفنيد رواية المؤرخ المذكور المتعلقة بعدد جند الموصل في موقعة تل السلطان<sup>(٢)</sup>.

إلا أن هذه المواقف لم تقلل من قيمة هذا المؤرخ، كمؤرخ معاصر، بل على العكس أنها أضفت على رواياته قيمة جديدة، نظراً لكونها تمثل وجهة نظر إسلامية معارضة لسياسة صلاح الدين ومضادة لوجهة نظر مؤرخي الركب الصلاحي، وهذا الاختلاف في إيراد الروايات التاريخية يدفع إلى المزيد من التحري عن الروايات الصادقة للوصول إلى الحقيقة عن طريق مقارنة بعضها مع البعض<sup>(٣)</sup>. وكان المؤرخ على اتصال شخصي بإدارة الموصل، وبالتالي في وضع يسمح، على الأقل، بمعرفة الوقائع الخارجية. وقد شاهد صلاح الدين دون ريب في كل من الموصل وبلاد الشام على السواء، إلا أنه لا يوجد أي دليل على أنه اتصل بصلاح الدين اتصالاً شخصياً البتة<sup>(٤)</sup>. وتحدث عن انطباعه عن حطين حين اجتاز موضع المعركة بعد حوالي سنة فرأى الأرض ملاءى من عظام الصليبيين، «تبين على البعد، منها المجتمع بعضه على بعض، ومنها المفترق، هذا سوى ما جرفته السيول، وأخذته السباع في تلك الآكام والوهاد»<sup>(٥)</sup>.

أما كتاب ابن الأثير الثاني في التاريخ وهو «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية»<sup>(٦)</sup> فلا يمتاز بأهمية خاصة لأن روايات المؤرخ الخاصة بصلاح الدين فيه، مطابقة لما ورد في الكامل، إلا أنه تجنب التوسع في أخبار الصراع بين الزنكيين وبين السلطان الأيوبي وخلفائه، لأنها تظهر ضعف الزنكيين أمام السلطان، ولم يشأ أن يجرح مشاعر ملوك الموصل أو يخذش كبرياء الملك القاهر الذي ألف له الكتاب<sup>(٧)</sup>.

٣- ابن شداد، بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م)، وكتاية (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) أو (سيرة صلاح الدين).

(١) جب، صلاح الدين، ص ٨٤. د. سعداوي، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين، ص ١٠.

(٢) الكامل، ٤٢٩/١١.

(٣) انظر السيد دريد عبدالقادر نوري، سياسة صلاح الدين، رسالة ماجستير، مطبعة الارشاد، بغداد ١٩٧٦، ص ٢٨.

(٤) جب، صلاح الدين، ص ٧٠.

(٥) الكامل، ٥٣٨/١١.

(٦) الكتاب قام بتحقيقه د. عبدالقادر احمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٣.

(٧) الباهر، ص ١٧. انظر د. طليمات في كتابه (ابن الاثير الجزري المؤرخ)، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٩، ص ٨٢.

ولد ونشأ في الموصل على غرار ابن الأثير، ثم انحدر إلى بغداد ونزل بالمدرسة النظامية، وأقام معيداً فيها مدة أربع سنين، عاد بعدها إلى الموصل سنة ٥٦٩هـ وعمره ثلاثون سنة، ليدرس في المدرسة الشهرزورية، وعلت مكانته لما اشتهر به من الحكمة والاتزان في التفكير، ولهذا عهد إليه الأتابك بمهمة السفارة إلى الخليفة العباسي وإلى صلاح الدين<sup>(١)</sup>. وأثناء عودته من الحج سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٨م زار بيت المقدس، فاستدعاه صلاح الدين وعرض عليه البقاء معه، فوافق ابن شداد على طلبه لأن الله قد أوقع في قلبي محبته منذ رأيت وجهه للجهاد، فأجبتته إلى ذلك، وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الأولى سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٨م<sup>(٢)</sup>. إلا أن هذا الإعجاب وهذه المحبة لم يمنعاه من أن يؤرخ لصلاح الدين بنزاهة تشير الدهشة، فكتب بحس سليم وصدق وعلى غاية الرزانة، حتى أنا لانستطيع العثور في كتابه على شيء مما يسميه لين بول «التحيز الشخصي والاغراق في الغلو الشرقي»<sup>(٣)</sup>.

إلا أن مصاحبة ابن شداد لصلاح الدين لم تتجاوز خمس سنوات بدأت من السنة المذكورة إلى وفاة صلاح الدين حيث كان حاضراً أثناءها، وعبر عن الفاجعة التي ألمت بالمسلمين، بكلمات مؤثرة<sup>(٤)</sup>، ولهذا فإن ابن شداد يعتبر مؤرخاً متفرداً في روايات لآحداث هذه الفترة، وهي فترة حافلة بالنضال ضد الصليبيين، وقيام الحملة الصليبية الجديدة التي عرفت بالثالثة والتي نظمها أوروبا إثر تحرير بيت المقدس، لأن ما كتبه خلال هذه الفترة هو- كما قاله «ما شاهدته أو أخبرني به من أثق به خبراً يقارب العيان»<sup>(٥)</sup>.

أما بالنسبة للتسعة عشر عاماً الممتدة بين عامي (٥٦٥ - ٥٨٤هـ / ١١٦٩ - ١١٨٨م) فإن ابن شداد يروي أحداثها اعتماداً على ما سمعه، ولهذا وقع في بعض الأخطاء بالنسبة للتفصيلات والتسلسل الزمني، على الرغم من اعتماده على مصادر موثوقة فيقول: إن جميع ما حكيتته قبل ٥٨٣هـ إنما هو روايتي عمّن أثق به ممن شاهدته<sup>(٦)</sup>. إضافة إلى أنه يميل بوضوح في رواياته لآحداث تلك الفترة إلى الاقتضاب، حتى أن فتح القدس لا يأخذ من كتابه إلا حوالي الصفحة والنصف، وهكذا بالنسبة لبقية الحوادث، في حين أنه أسهب في الحوادث التي رواها كشاهد عيان. ففي الوقت الذي يروي أحداث تسعة عشر عاماً - التي رواها نقلاً عن غيره - في خمسين صفحة، نجد أنه يتحدث عن

(١) انظر (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) تحقيق د. جمال الدين الشيال طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٤، ص ٦٥، ٧٠، ٨٥.

(٢) النوادر، ص ٨٧.

(٣) Lane- Poole, Stanley, Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem, London, 1914, p. (vi).

(٤) النوادر، ٢٤٦-٢٤٧. أنظر بحثنا (ابن شداد في نوادره، والأيام الأخيرة من حياة صلاح الدين) مجلة كاروان، العدد ١٤، سنة ١٩٨٣، ص ١٣٩-١٤٧.

(٥) النوادر، ٨٧.

(٦) النوادر، ٧٨.

أخبار الخمس السنوات الباقية في أكثر من مائة وستين صفحة.

يعتبر ابن شداد مؤرخاً واقعياً، دون ما وقع تحت سمعه وبصره بصدق وبأسلوب ممتع بعيد عن الزخرفة اللغوية، وصور فيه كفاح الجيش الأيوبي المير ضد رجال الحملة الصليبية الثالثة بصورة كاملة، دون أن يندفع خلف نزعة عبادة البطولة، كما فعل ابن الأثير في كتابه - التاريخ الباهر - في مديحه لأتابكة الموصل، لذا يندر العثور على مصدر تاريخي لأي سلطان أو أمير من قادة العصر الوسيط يضاها في قيمته التاريخية كتاب (سيرة صلاح الدين).

والكتاب يحوي على معلومات على جانب كبير من الأهمية يصل بعضها إلى مستوى الوثائق التاريخية، منها نصوص الخطابات المرسله من الكاغيكوس مقدم الأرمين<sup>(١)</sup>، أو مراسلة امبراطورية بيزنطة لصلاح الدين<sup>(٢)</sup>، وتفصيل صلح الرملة والبنود التي اتفق عليها الطرفان. وكذلك ذكره لآلات القتال والمصطلحات الحربية، كاليزك والكوسات والجاليش والمنجنيق والجرخ والنمجة والزنبورك، وأسماء مراكب الأسطول الأيوبي مثل الشيني والطريدة والبيضة والحماله والبركوس... الخ. كما قدم وصفاً نادراً ودقيقاً للدبابه<sup>(٣)</sup>، وكذلك وصف البرج ذا الخرطوم، وينفرد الكتاب بالكلام عما كان لدى الصليبيين من تقاليد عسكرية وادارية<sup>(٤)</sup>، وقد تحدثنا عن بعضها في سياق البحث.

٤- ابن أبي طي، يحيى بن حامد الحلبي (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م).

مؤرخ معاصر آخر لصلاح الدين، من مدينة حلب، مكث في نتاجه، فقد صنف في التاريخ وحده ما ينيف على العشرة كتب<sup>(٥)</sup>، منها كتابه «كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين»<sup>(٦)</sup>، الذي ذكره أبو شامة في حديثه عن تولي صلاح الدين الوزارة للخليفة العاضد الفاطمي. وقد فقدت كافة مصنفات هذا المؤرخ<sup>(٧)</sup>، ولولا النتف التي نقلها منه أبو شامة ثم ابن الفرات لما بقي له أي أثر يذكر، ومع نقوله الكثيرة منه فإن أبا شامة لا يذكر أياً من كتب ابن أبي طي ضمن مصادره التي يعددها في مقدمة كتابه، وإنما أشار في مناسبات الاقتباس إلى أنها منقولة عن هذا المؤرخ. وقد عدد محقق (كتاب الروضتين) عدد مرات اقتباس أبي شامة من ابن أبي طي فبلغ ستاً وثلاثين مرة<sup>(٨)</sup>.

(١) النوادر، ١٢٤-١٢٦.

(٢) النوادر، ١٣٢-١٣٣.

(٣) النوادر، ١٤٠.

(٤) النوادر، ١٢، ١٢٦.

(٥) عن مؤلفاته انظر: الروضتين، ج ١، ق ١، ص ٣٢، المقدمة

Claude Cahen, La Syrie du Nord, Al' Epoque des Croisades et la principaute Franque d' Antioche,

(٦) الروضتين، ج ١ ق ٢، ص ٤١٥. وانظر (كشف الظنون) ط. طهران الثالثة ١٩٤٧، ج ٢، ص ١٥٢.

(٧) يفسر البروفسور جب اختفاء كتب ابن أبي طي بكونه شيعياً، على الرغم من ان النصوص الباقية تظهره بأنه كان كاتباً اصيلاً، (صلاح الدين الايوبي، ص ٧١).

(٨) الروضتين، ص ٣٢.

وقد ضاعت كتب هذا المؤرخ في وقت متأخر، فالمعروف أنها - أو قسماً منها على الأقل - كانت باقية حتى زمن ابن الفرات، أي في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي).  
أرخ ابن أبي طي للسلطانين نورالدين محمود وصلاح الدين، وبهذا يعتبر كتابه همزة الوصل بين نهاية حكم الأول وبداية عصر الثاني، لكنه يبدو من كتاباته أنه كان متحاملاً على نورالدين لأنه نفى أباه من حلب سنة ٤٥٣هـ، وكان من أعيان هذه المدينة<sup>(١)</sup>. ومعروف عن أبيه أنه عمل في مجال التأليف وكتابة التاريخ، ونقل عنه ابنه يحيى الكثير من الأخبار<sup>(٢)</sup>، وقد نسب إلى نورالدين ما لا يليق به حسب تعبير أبي شامة، فإن هذا السلطان كان قد أذل الشيعة بحلب وأبطل شعارهم، وقوى أهل السنة<sup>(٣)</sup>.

وكان من المتوقع أن ينهج المؤرخ نهج والده، فيعارض صلاح الدين خليفة نورالدين، كما عارض والده نورالدين، غير أن سياسة صلاح الدين السمحاء جذبت إليه معارضي نورالدين، ويات واضحاً من النصوص التي أوردها أبو شامة وابن الفرات أن ابن أبي طي آزر صلاح الدين، وفسر -مثلاً- دواعي مصالحة السلطان لسنان راشدالدين زعيم الطائفة الاسماعيلية ورفع الحصار عن حصن مصيف (مصياث) بأنه «خاف أن تهيج الفرنج في الشام الأعلى، وهو بعيد عنه، فربما ظفروا من البلاد بطائل، فصالح سنناً وعاد إلى دمشق»<sup>(٤)</sup>، وهو تفسير نزيه، لم يحاول المؤرخ أن يظهر صلاح الدين بمظهر الضعيف أمام الطائفة الاسماعيلية، بل إنه أظهر حرص صلاح الدين على عدم ضياع أقسام البلاد الشمالية، واحتلالها من قبل الصليبيين.

وأسلوب هذا المؤرخ سهل، مجرد من الزخرف، مختصر في رواياته، ومباشر في معالجته للموضوع، كما يظهر من نقول أبي شامة، أما منهجه في تصنيف الأحداث، فقد سلك طريقة الحوليات، وسار بذلك على منوال أكثر مؤرخي العصر.

٥- أسامة بن منقذ، مؤلف كتاب (الاعتبار) ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م

أحد أمراء بني منقذ الاسرة العربية التي حكمت مدينة (شيزر) على نهر العاصي بجوار حماة، في فترة الحروب الصليبية.

وكانت إمارة بني منقذ مجاورة للصليبيين فكانت الاسرة على اتصال بهؤلاء، في عهود الحرب وعهود السلم، فعرفهم أسامة عن كثب، وزار ممتلكاتهم غير مرة، ودون مشاهداته ووقائعه في كتاب (الاعتبار)<sup>(٥)</sup> الذي يوليه الباحثون أهمية كبرى لأنه شهادة مؤرخ معاصر ثاقب النظر، نافذ البصيرة

(١) الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٤٤١.

(٢) ن. م. ص.

(٣) ن. م. ص، وانظر ايضا ج ١ ق ٢ ص ١٤٧.

(٤) الروضتين، ص ٦٦٩-٦٧٠.

(٥) الاعتبار، تحقيق ونشر فيليب حتي، طبع جامعة برنستون، امريكا، ١٩٣٠.

في ذكر مناقب الافرنج ومثالبهم على السواء<sup>(١)</sup>. وخاض مع الافرنج معارك عدة أظهر فيها بطولة نادرة وشجاعة فائقة.

قضى شطراً من حياته متنقلاً بين البلاط الفاطمي في القاهرة وبلاط نورالدين في دمشق، وعاش في مصر في وقت عصيب، وتحدث عن الحوادث المرعبة التي عايشها في فترة الصراع التي دارت بين الوزراء في أواخر العهد الفاطمي<sup>(٢)</sup>، وعاصر صلاح الدين فترة طويلة، إلا أنه لم يتحدث عن فعالياته العسكرية، على الرغم من أنه أشاد به وامتدحه، وقال إنه محيي سنة الخلفاء الراشدين، وصلاح الدنيا والدين<sup>(٣)</sup>. والواقع أن كتابه ليس كتاب تاريخ، بل هو مذكرات أمير فارس سجل انطباعاته في كتابه المذكور بأسلوب يمتاز بالبساطة والصدق.

وقد استفدنا منه في أكثر من مجال، فقد ذكر أسماء فرق السودان العسكرية في مصر، وقيام البدو في سيناء وجنوبي فلسطين بمهمة الأدلاء «للعساكر التي تنطلق من مصر<sup>(٤)</sup> متوجهة نحو الشام أو بالعكس. وتحدث عن قوة منجنيق افرنجي يرمي حجراً يزن خمسة وعشرين رطلاً (أي نحو عشر كيلوغرامات)، وقد أصاب هذا المنجنيق منزل أحد أصحاب أسامة «فهدم علوه وسفله بحجر واحد»<sup>(٥)</sup>، وامتدح أسامة السروج الغزية التي تصنع في مدينة غزة بفلسطين<sup>(٦)</sup>.

٦- الملك المنصور الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب (ت ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م) مؤلف كتاب (مضمار الحقائق وسر الخلائق)<sup>(٧)</sup>:

يمتاز هذا الكتاب بدقة المعلومات التي وردت فيه والتي دونها مؤلفه كشاهد عيان، إلا أن ما يؤخذ عليه هو نبرة الدعاية الواضحة فيه، حتى أن الكتاب يبدو - أحياناً - وكأنه كتاب اعلامي صنف للحديث عن مناقب عم والده «صلاح الدين» ومدح والده والعلاقة الحميمة التي كانت بينهما. فقد ذكر أن السلطان كان يشاور والده - والد المؤلف - قبل أن يقدم على عمل شيء، كما فعل لدى فتح بيت الأحران<sup>(٨)</sup>. ويلاحظ أن المؤرخين الذين صنفوا كتباً عن صلاح الدين، مثل أبي شامة وابن واصل والحنبلي وغيرهم، اعتمداً على كتب المؤرخين المعاصرين، لم يذكروا كتاب المؤرخ الأيوبي بين مصادريهم، ولم ينقلوا عنه، وربما كان سبب ذلك هو أن (مضمار الحقائق) لم يرق إلى مستوى كتب

(١) قدرى قلعي، صلاح الدين الايوبي، قصة الصراع بين الشرق والغرب، مطابع شركة الطباعة الحديثة، دار الكاتب العربي، بيروت ١٩٦٦، ص ٩٧، الهامش.

(٢) الاعتبار، ٧-٨، ١٨-١٩، ٢١-٢٧.

(٣) ن. م. ص ١٦٥.

(٤) ن. م، ص ١١.

(٥) ن. م، ص ١١٣.

(٦) ن. م، ص ٢٨.

(٧) مضمار الحقائق، تحقيق د. حسن حبشي، مطبعة عالم الكتب، القاهرة ١٩٦٨.

(٨) مضمار الحقائق، ص ٢٥-٢٦. وانظر ايضاً، ص ٢٧.

التاريخ المعتمدة في نظرهم.

٧- القاضي الفاضل، محمدالدين عبدالرحيم بن علي بن محمد اللخمي البيساني العسقلاني (ت ٥٩٦هـ/١١٩٩م).

شغل وظائف عديدة في أواخر العهد الفاطمي، واتخذ صلاح الدين وزيره ومستشاره الأول، ونائبه في حكم مصر أو دمشق. دون مشاهداته في تاريخه المعروف في مجموعة من (المتجددات) على حد قول المقرئزي<sup>(١)</sup>، وهي سجل للوقائع التي رآها ودونها، وكذلك في مجموعة من الرسائل والتعليقات دونها في مجلدات، بلغت زهاء مائة مجلد<sup>(٢)</sup>.

ولعل أكثر من نقل عن القاضي الفاضل هو أبو شامة والنويري والمقرئزي والقلقشندي. وقد اتخذ أبو شامة من رسائل القاضي مادة غزيرة اعتمد عليها في كثير من أحداث (كتاب الروضتين)، فألحقه بمجموعة من نثر هذا الكاتب البارع بأسلوبه المسجع البديع الذي «فاق المتقدمين» فيه<sup>(٣)</sup>.

ولولا كتاب أبي شامة لضاعت جهود القاضي الفاضل ورسائله في ميادين السياسة والحرب والأدب، فصار (كتاب الروضتين) أهم مصدر لدراسة مكانة ومواقف رجل دولة صلاح الدين الأول<sup>(٤)</sup>، بعد أن ضاع معظم كتاباته، ولم يبق منها سوى بعض المقتطفات<sup>(٥)</sup>.

ونقول القلقشندي والنويري من القاضي الفاضل شبيهة بما فعله أبو شامة إلى حد ما، فقد ضمنا كتابيهما بالكثير من رسائل هذا الكاتب، أما المقرئزي فقد اقتبس الكثير من النصوص منه، ولاسيما المعلومات الخاصة بحجم الجيش الأيوبي في مصر، والعناصر التي ضمها، والخطوات التي قام بها صلاح الدين لتحديث الجيش والبحرية، ويصدر المقرئزي اقتباساته - أحياناً - بلفظ «متجددات».

٨- ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي (ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م). يعتبر كتابه (ذيل تاريخ دمشق)<sup>(٦)</sup> مرجعاً أصلياً في تاريخ الشرق الأدنى، ولا سيما تاريخ بلاد الشام ومدينة دمشق التي اتخذها المؤلف محوراً للحوادث التي عايشها والتي انتهت من تدوينها سنة وفاته. وقد تحدث عن أحداث هذه المدينة حديث خبير، وأمد الباحث بمعلومات طيبة، فقد كان المؤرخ

(١) الخطط (ط. بولات) ٨٦/١. صبعة المعهد، ج ٢ ق ١، ص ١٧.

(٢) وفيات الاعيان، تحقيق د. احسان عباس، مطبعة الغريب، دار الثقافة، بيروت، ١٥٨/٣. النويري، نهاية الارب في فنون الادب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ٥١/٨. السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٧٠، ١٦٧/٧. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٥٦/٦.

(٣) وفيات الاعيان، ١٥٨/٣.

(٤) النجوم الزاهرة ١٥٧/٦. ابن العماد، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، مطبعة المقدسي، القاهرة ١٩٣١، ٣٢٤/٤.

(٥) وقد عثرت السلطات الإسرائيلية التي كانت تحتل شبه جزيرة سيناء منذ حرب ١٩٦٧ على رسائل ووثائق عديدة للقاضي الفاضل، وحين انسحاب إسرائيل من أرض مصر بموجب إتفاقية السلام المبرمة بينهما قامت بتسليم تلك الوثائق الى السلطات المصرية.

(٦) (ذيل تاريخ دمشق) تحقيق أمدروز، القاهرة ١٩٠٨.

من رجال دمشق الرسميين، إذ تولى ديوانها مرتين، فأتاح له هذه الفرصة المجال الواسع للاتصال المباشر بأحداثها والتقلبات الحربية والسياسية التي حدثت فيها، أو التي كانت دمشق طرفاً فيها، وعلى الرغم من أن هذا المصدر لم يتعرض للكلام عن الحوادث الهامة - المباشرة - في قيام الدولة الأيوبية، فإنه قد أفاد في تصوير الأرضية التي بدأ منها الأيوبيون ليضطلعوا بدورهم في أرض الشام قبل ذهابهم إلى مصر، فالفترة التي أرخها ابن القلانسي تعد جزءاً أساسياً في تاريخ الدولة النورية التي تمخضت عنها الدولة الأيوبية.

٩- أبو شامة، عبدالرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م).

في وقت تحولت فيه دولة صلاح الدين في الشام إلى امارات ضعيفة وفي جو مشيع بالانقسامات والقلاقل والمصادمات، ولد وشب وإكتهل أبو شامة المقدسي الأصل الدمشقي السكن، حيث لم يبرحها إلا في رحلات قصيرة إلى الحج أو لزيارة بيت المقدس، وآخر زيارة قام بها كانت إلى مصر، عاد منها ليموت في دمشق.

ألف في التاريخ كتابه المعروف (كتاب الروضتين في أخبار الدولتين)<sup>(١)</sup>، ثم الذيل عليه الذي سمي (تراجم رجال القرنين السادس والسابع)<sup>(٢)</sup> الهجريين.

وجاء في ديباجة كتابه أنه اعتمد في تأليفه على مجموعة من المؤرخين الثقات ذكرهم واحداً واحداً، وهم ابن عساكر وابن القلانسي وابن الأثير وابن شداد (الذي اجتمع إليه أبو شامة وأجاز له جميع ما يرويه)<sup>(٣)</sup>، وكذلك نقل من العماد الكاتب ومجموعة رسائل القاضي الفاضل، وأضاف لذلك قطعة كبيرة من عدة مصنفات وءدواوين ومراسلات<sup>(٤)</sup> في كتابيه الشهيرين (البرق الشامي) و(الفتح القسي).

وإذا دققنا في موضوعات الكتاب في نطاقه الزمني للفترة الصلاحية نجدتها تتحدث عن تنقلات الجيوش، وتفصيلات المعارك وأوصاف الأسلحة والحصون والسفن الحربية، وتطورات القتال وأوقات السلم وغير ذلك من الموضوعات الخاصة بالحروب التي خاضها جيش صلاح الدين. وفي هذا يستعين المؤرخ بالوثائق التي حصل عليها من مصادرها الرسمية، ونقلها بنصوصها، والاشعار التي أرخت

(١) طبع هذا الكتاب طبعة قديمة بجزأيه في مطبعة وادي النيل بمصر ١٢٨٧-١٢٨٨هـ ثم اعاد الدكتور محمد حلمي محمد احمد نشر وتحقيق الجزء الاول بقسميه:

القسم الاول تنتهي حوادثه عند نهاية سنة (٥٥٨هـ) في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، بالقاهرة سنة ١٩٥٦. والقسم الثاني تنتهي حوادثه عند نهاية سنة (٥٧٣هـ) طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٢.

(٢) طبع باعتناء محمد زاهد الكوثري (القاهرة ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م) وله كتاب مفقود هو (تاريخ دمشق) ذيله على كتاب المحافظ ابن عساكر المذكور، الذي يحمل نفس الاسم.

(٣) الذيل على الروضتين، ص ١٦٣.

(٤) الروضتين ج ١، ق ١، ص ٨-٩.

وخلدت معارك صلاح الدين، أو التي تهنىء السلطان وتبشره بالنصر، وبعودته المظفرة إلى دمشق في كل مرة.

ولعل أبرز مزايا هذا الكتاب القيم، إضافة إلى أنه جمع بين دفتيه مجمل تاريخ صلاح الدين، أنه اعتمد على كتب ورسائل مفقودة، ولعل أهمها أجزاء كتاب (البرق الشامي) وكتب ابن أبي طي ورسائل القاضي الفاضل، وكذلك نقل من كتاب (الذيل على المنتظم) لمؤلفه محمد بن أبي العباس القادسي (ت ٦٢٢هـ/١٢٢٥م)<sup>(١)</sup>.

١- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م):

مؤرخ شامي من حماه، أرخ للدولة الأيوبية من بدايتها إلى نهايتها في مصر والشام والجزيرة في كتاب أسماه (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب)<sup>(٢)</sup>، بلغ المطبوع منه إلى الجزء الخامس (لحدّ قيامنا بعملنا هذا). إلا أن ما يهمنا هو الجزء الأول الذي يضم أخبار دولة نورالدين، والجزء الثاني يحوي على أخبار صلاح الدين منذ استقلاله في مصر بوفاة نورالدين محمود إلى وفاته هو سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م.

لابن واصل منهج واضح يعتمد عليه، فهو يقارن بين النصوص التي تحت يده ويختار الأفضل والأوثق حسب تصوره، فهو لا ينقل أخبار الحادثة الواحدة من مصدر واحد، بل يبدأ النقل من مرجع ما، فيأخذ منه سطوراً ثم ينتقل إلى غيره فينقل سطوراً أخرى. وقد يعود إلى المرجع الأول فيأخذ منه، أو يتم النقل من مصدر ثالث أو رابع<sup>(٣)</sup>. وهو أثناء هذا كله يقارن بين النصوص ويشير إلى الفروق بين آراء المؤرخين، ويأخذ بالرأي الذي يراه مناسباً، مع تبرير هذا الاختيار<sup>(٤)</sup>.

وكتاب (مفرج الكروب) يتضمن عدداً كبيراً من الوثائق الرسمية ومعظمها بقلم القاضي الفاضل والعماد الكاتب، مثل الرسائل المتبادلة بين صلاح الدين والديوان العزيز (الخليفة العباسي) وبينه وبين اخوته في مصر أو اليمن، وبينه وبين أفراد البيت الأتابكي الزنكي أو امبراطور بيزنطة أو خليفة المغرب الموحد يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن. وفي الكتاب كذلك تفاصيل عن سور القاهرة<sup>(٥)</sup> وسور بيت الأحران<sup>(٦)</sup>.

إلا أن الأحداث التاريخية التي يذكرها لا تمتاز بأهمية خاصة، فنقله من مصادر معروفة في تناول

(١) الروضتين، ج٢ ص ١٥-١٦ وص ٢١١.

(٢) قام د. جمال الدين الشيبان بتحقيق الأجزاء الثلاثة الأولى في (١٩٥٣، ١٩٥٧، ١٩٦٠) ج١، مطبعة جامعة فؤاد الأول، ج٢، المطبعة الأميرية، ج٣، طبعة دار القلم، ج٤، ٥ تحقيق د. محمد حسنين ربيع، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٧٢، ١٩٧٧.

(٣) كما بين ذلك د. الشيبان، مقدمة ج٢ صفحة ك. وراجع ص ٨٢ هامش ٢.

(٤) انظر مثلاً ص ٤٠ - ٤١.

(٥) مفرج الكروب، ٥٢/٢ - ٥٤.

(٦) مفرج الكروب، ٨٤/٢ - ٨٥.

يدنا. ولعل هذا الكلام ينطبق على كتب كثيرة، ولاسيما تلك التي تناولت التاريخ الإسلامي العام، مثل كتاب ابن كثير (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) البداية والنهاية، والذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) في كتابيه (العبر في خبر من عبر) و(تاريخ الإسلام) وسبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م) في (مرآة الزمان) وابن الوردي (ذيل المختصر في أخبار البشر) وأبو الفداء (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م) في (المختصر في أخبار البشر) والدواداري (ت ٧٣٦هـ/١٣٣٥م) في كتابيه: (الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية) و(الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب) الذي انفرد فيه الدواداري بذكر نص كتاب استنجد العاضد المرسل إلى نورالدين محمود. وابن خلدون (٨٠٨هـ/١٤٠٥م) في (العبر وديوان المبتدأ والخبر) وابن الفرات (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م) في (تاريخ ابن الفرات) والغساني (ت ٨٠٣هـ/١٤٦٩م) في (العسجد المسبوك) وابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) في (النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة) والسيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) في (حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة) وغيرهم من المؤرخين المتأخرين.

١١- المقرئزي، أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) اعتمدنا على أربعة من مصنفاته هي:

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار<sup>(١)</sup>، الذي يسمى اختصاراً بـ(الخطط) يزودنا المؤلف فيه بمعلومات تاريخية هامة، فينفرد بالحديث عن الإصلاحات التي أدخلها صلاح الدين في الجيش المصري، وكذلك تحدث عن حجم هذا الجيش في مناسبة العرض العسكري الذي أقيم في مصر سنة ٥٦٧هـ. وأفادنا الكتاب أيضاً في موضوع البحرية، حيث زودنا بمعلومات جيدة عن مراكز صناعة السفن في مصر، والخطوات التي قام بها في تحديث الأسطول، وما آلت إليه البحرية بعد صلاح الدين من ضعف نتيجة إهمال الملوك، الذين تولوا حكم مصر، لشؤون الأسطول وإضافة إلى غزارة معلوماته فإن أهمية المقرئزي تكمن أيضاً في أنه نقل رواياته من بعض الكتب والرسائل المفقودة، مثل رسائل ومتجددات القاضي الفاضل وكتاب (حسن السريرة في اتخاذ الحصن بالجزيرة) لأبي عمرو عثمان النابلسي وغيرهما.

وأفرد المقرئزي قسماً من كتابه (السلوك لمعرفة دول الملوك)<sup>(٢)</sup> ليؤرخ الأحداث التي وقعت في مصر أيام صلاح الدين وبعده، وتأتي أهمية هذا الكتاب في أنه ينفرد بذكر بعض الأحداث، ولاسيما الخاصة منها بتفاصيل التغييرات التي أحدثها صلاح الدين في تنظيم شؤون دولته الفتية. ويلاحظ وجود تشابه كبير بين روايات المقرئزي في كتابيه المذكورين، يصل أحياناً إلى حد التطابق.

(١) طبع هذا الكتاب مرارا، أقدمها طبعة بولاق بالقاهرة سنة ١٢٩٤هـ/ ثم طبعة المعهد الفرنسي ١٩٠٧-١٩١٣م وطبعة مطبعة النيل سنة ١٣٢٤هـ وصادر دار التحرير الجديدة ١٩٦٧-١٩٦٨. وقد اعتمدنا على الطبعتين الأولى والثانية.

(٢) تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٤.

وذكر المؤرخ في كتابه (اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفاء)<sup>(١)</sup> الأوضاع الصعبة التي عاشتها مصر خلال بعض سني الحكم الفاطمي، ولاسيما الغلاء والمجاعات التي حدثت في عهد المستنصر، حتى أن الناس تناولوا جثث المشنوقين، وكيف أدى تفاقم الأوضاع إلى استدعاء بدر الجمالي قائد حامية عكا الأرمني، ليشغل منصب الوزارة عله يضع حداً للأوضاع المتردية، وقد نجح في مهمته فعلاً، وفي كتابه الرابع الذي اعتمدنا عليه (البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب)<sup>(٢)</sup> تحدث المقرئ عن مواضع القبائل العربية التي كانت تقطن ديار مصر يومئذ.

١٢- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)، تحدث عن مسائل ذات أهمية قصوى في كتابه الشهير (صبح الأعشى في صناعة الإنشا)<sup>(٣)</sup> كأبراج الحمام والبريد وملحقاته في الديار المصرية وخرانة السلاح وصناعة الأسلحة كالسيف والرمح والقوس والبيضة والترس وغيرها، وحديثه عن آلات الحصار كالمنجنيق وقوارير النفط، ويذكر أن أول استعمال للبارود كان في عهد المماليك.

وكذلك يتحدث عن ديوان الجيش والإقطاع والبحرية وأزياء الجند، وفي العهد الفاطمي والأيوبي والملوكي.

١٣- أحمد بن ابراهيم الحنبلي، أبو البركات عز الدين العسقلاني المصري (ت ٨٧٦هـ/١٤٧١م) وكتابه (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب)<sup>(٤)</sup>.

اقتبس المؤرخ رواياته، كما صرح بنفسه، من مجموعة كبيرة من المؤرخين<sup>(٥)</sup>، أمثال العماد الكاتب وابن شداد وسيط ابن الجوزي، ومن مؤرخي العصر التالي مثل أبي شامة وابن وابن خلكان وابن واصل والدواداري وأبي الفداء والذهبي واليونيني، ثم المقرئ والعيني.

وأهمية كتابه تكمن - على غرار كتاب أبي شامة والمقرئ - في أنه نقل من تصانيف ورسائل مفقودة من أمثال رسائل القاضي الفاضل وكتاب (الذيل على المنتظم) لمحمد بن أبي العباس القادسي، الذي نقل منه أبو شامة أيضاً. إلا أن اقتباساته من هذه المصادر المفقودة محدودة، ولم يقتبس من ابن أبي طي الحلبي، كما فعل أبو شامة.

وقد خص الحنبلي كتابه للحديث عن الاسرة الأيوبية، لكنه جعله على مثال كتب التراجم، وليس كتاب حوليات، كما ذكره هو في «قاعدة الكتاب» بقوله: نذكر التراجم في الطبقات، فالطبقة الاولى

(١) تحقيق د. محمد حلمي احمد، مطابع الاهرام التجارية، القاهرة، ١٩٧١.

(٢) تحقيق د. عبدالمجيد عابدين، ملتزم الطبع والنشر عالم الكتب القاهرة، ١٩٦١.

(٣) المطبعة الاميرية بالقاهرة، ١٥ جزء (١٩١٣-١٩١٧م).

(٤) شفاء القلوب، تحقيق أ.د. ناظم رشيد، مطبوعات وزارة الثقافة والفنون - دار الحرية للطباعة، الجمهورية العراقية، بغداد ١٩٧٨.

(٥) انظر مقدمة الكتاب للمحقق، ص ١٢-١٣.

أولاد شادي (جد صلاح الدين) والثانية أولاده، والثالثة أولاد أولاده، وكذا إلى آخر الكتاب»<sup>(١)</sup>.  
باستثناء سيرة صلاح الدين، فقد اتبع المؤلف فيها نظام الحوليات، وضمت أكثر من ثلث الكتاب  
ولا يمتاز الكتاب بأهمية في التاريخ العسكري لعهد صلاح الدين، إلا أنه ينفرد بذكر بعض الروايات  
الخاصة بالتاريخ السياسي<sup>(٢)</sup>.

والجدير بالملاحظة أن مصر خلت، طيلة عهد صلاح الدين، من مؤرخ يدون أحداث الفترة السياسية  
والعسكرية، ولعل هذه الملاحظة تسري - أيضاً - على العهد الفاطمي الأخير إذا لم يصل إلينا  
مصنف تاريخي من هذه الفترة. وبالمقابل ظهر في مصر كتاب اختصوا بمعالجة شؤون وإدارة قوانينها،  
ولم يتناولوا في كتاباتهم القضايا النظرية، بل أنهم دونوا ما كانت عليه مؤسسات الدولة المصرية  
يومئذ، أي أن هذه المصادر هي كتب وصفية. وتضم معلومات على جانب كبير من الأهمية، لأن  
مؤلفيها كانوا على دراية تامة بموضوع كتابتهم، فقد تسلموا وظائف حكومية في دواوين الدولة،  
ولعل أبرز هؤلاء هو:

١٤- ابن الصيرفي علي بن منجب بن سليمان المصري (ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م) مؤلف كتاب (الإشارة  
الى من نال الوزارة) ويبدو من إسم ومن ديباجة الكتاب طبيعته. حيث تناول فيه مؤلفه أسماء  
وزراء الدولة، وما حصل في مصر من أحداث تخص طبيعة الوزارة<sup>(٣)</sup>.

١٥- ابن مماتي، أبو المكارم الأسعد بن الخطير المهذب بن مينا (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م). مؤلف كتاب  
(قوانين الدواوين)<sup>(٤)</sup>، وقد تحدث فيه عن مرتب الجندي النظامي، وكيف كان المرتب يقطع منه  
لدى غيابه، وعن خزائن السلاح، وكذلك يعتبر ابن مماتي أول من تحدث عن أنواع المراكب في  
الأسطول الأيوبي. وكان المؤلف يشغل منصب ناظر ديوان الجيش في عهد صلاح الدين وابنه الملك  
العزیز عماد الدين عثمان. ومن هنا قيمة معلوماته.

١٦- أما فخرالدين عثمان بن ابراهيم النابلسي (ت بعد سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م) فكان من كبار  
موظفي الدواوين زمن السلطان الملك الكامل والملك الصالح نجم الدين أيوب، فقد خدم في الديوان  
قرباً ربع قرن، وضع خلال هذه الفترة كتابه (لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية)<sup>(٥)</sup>،  
وقدمه للملك الصالح، مبيناً آراءه في الخطوات التي ينبغي اتخاذها للقيام بإصلاح شؤون الدولة  
في المجالات المختلفة بعد أن أصابها الاضطراب - كما يبدو من كلامه - ولا سيما في المجال

(١) قاعدة الكتاب، ص ١٩.

(٢) شفاء القلوب، ص ١٢١، ١٥٢.

(٣) تحقيق وتعليق عبدالله مخلص، طبع المعهد العلمي العربي. القاهرة، ١٩٢٤.

(٤) قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوربال عطية، مطبعة مصر، سنة ١٩٤٣.

(٥) لمع القوانين، طبعة المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٦١.

الاقتصادي والعسكري، فتطرق في سياق كلامه إلى ما كانت عليه مصر قبل هذا العهد. وقد أفادنا الكتاب في موضوع الإصلاحات التي شرع صلاح الدين في تنفيذها في مجال البحرية، حين صارت المعادن والأخشاب وما شاكل ذلك، ملكاً للدولة، لا يجوز لأحد التصرف بها. ولعل عثمان النابلسي هذا هو صاحب كتاب (حسن السريرة في اتخاذ الحصن بالجزيرة) الذي نقل عنه المقرئزي<sup>(١)</sup>.

١٧- وكتب مصري ثالث هو أبو سالم محمد بن طلحة الوزير (٦٥٢هـ/١٢٥٤م) صاحب كتاب (العقد الفريد للملك السعيد)<sup>(٢)</sup> عاصر العهد الأيوبي الأخير، وأفادنا في موضوع «ترتيب المعاش والكلام عن الاقطاعات، ويبدو أنه عمل فترة غير قصيرة في ديوان الدولة، وقد تحدث عن الضمانات التي كان الطرفان المتعاقدان يتفقان عليها، ومتى يكون بوسع المقطع (بكسر الطاء) أن ينهي العقد المبرم مع الطرف الثاني». هذا وزودتنا كتب الرحلات والكتب الجغرافية بمعلومات هامة لا غنى عنها في مختلف المجالات، ويأتي ناصر خسرو في مقدمة هؤلاء.

١٨- قام هذا الرحالة برحلة واسعة بدأ بها من مرو في سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٥م، وانتهت بإقامته في مصر إلى سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م ثم عاد إلى بلخ عن طريق الحجاز والحسا والبصرة، ودون مشاهداته في كتابه (سفرنامه)<sup>(٣)</sup>.

وأثناء مكوثه في مصر، في عهد المستنصر بالله الفاطمي، وصف مدن هذه الديار الشهيرة كالقاهرة ومصر والاسكندرية وتيس، ولكن الشيء الأكثر أهمية الذي ذكره ناصر خسرو، والمتعلق بموضوع بحثنا، هو تلك المعلومات الدقيقة التي أوردها عم حجم الجيش الفاطمي، وأسماء الفرق، وعدد فرسان ومشاة كل فرقة، وقد ذكر ذلك في وصفه للاستعراض السنوي الذي كان يقام في مصر في احتفالات (فتح الخليج)، وكان «هذا اليوم أعظم الأعياد في مصر» الفاطمية<sup>(٤)</sup>.

١٩- ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) مؤلف كتاب (الرحلة)<sup>(٥)</sup>، أشهر رحلة أندلسي معاصر لصلاح الدين. زار المشرق الإسلامي أكثر من مرة، تعتبر المذكرات التي دونها خلال رحلاته من الحقائق الحية، فقد تحدث عن مسائل على جانب كبير من الأهمية. ومن مشاهداته الهامة ما سجله حين حل في الاسكندرية في ذي الحجة سنة ٥٧٨هـ وصول الأسرى

(١) المخطوط، طبعة المعهد الفرنسي، القاهرة، ج٢، ق١، ص١٥.

(٢) العقد الفريد للملك السعيد، مطبعة الوطن، القاهرة ١٣٠٦هـ.

(٣) (سفرنامه) أو (كتاب السفر) نقلها من الفارسية إلى العربية د. يحيى الخشاب دار الكتاب الجديد - بيروت ١٩٧٠.

(٤) سفرنامه، ٩٣.

(٥) رحلة ابن جبير، طبعة دار صادر، دار بيروت، ١٩٦٤.

الصليبيين الذين قاموا بالحملة على سواحل البحر الأحمر. وكذلك تحدث ابن جبير عن العلاقات الإيجابية بين الفريقين، رغم استمرار القتال، مثل التبادل التجاري وفرض الضرائب على بضائع الطرف الثاني حين مرورها عبر أراضي أحد الطرفين<sup>(١)</sup>.

ووصف مدن الشام التي كان الصليبيون يحتلونها وصفاً حياً، وشبه عكا بالقسطنطينية، وأنها مجتمع السفن وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق<sup>(٢)</sup>.

ووصف قلعة القاهرة التي شيّدت حول مدينتي مصر والقاهرة، وكيف سخر صلاح الدين الأسارى الصليبيين في تشييدها<sup>(٣)</sup>.

وكذلك وصف ابن جبير مدينة القدس وهيئة العسكر الإسلامي فيها بعد فتحها سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وتحدث عن سورها وحصانته، ووضعها الطبوغرافي<sup>(٤)</sup>، ودمشق وميدان الرمادية فيها<sup>(٥)</sup> وقد أبدى هذا الرحالة إعجابه الشديدة بصلاح الدين وكيف اكتسب محبة المسلمين في كافة الديار<sup>(٦)</sup> وهذا الإعجاب مرده تدين ابن جبير وإدراكه أن الله قد قيّض صلاح الدين ليحرر الأراضي الإسلامية من المحتلين. ويمتاز أسلوب هذا الرحالة بالرصانة ودقة التعبير، مع ميل إلى استعمال بعض تعابير أو الألفاظ التي اقتصر تداولها على بلاد المغرب والأندلس.

٢- ومن الرحالة المعاصرين عبداللطيف بن يوسف بن محمد البغدادي (ت ٦٢٩هـ/١٢٣٠م) صاحب كتاب (الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر)<sup>(٧)</sup>.

قام عبداللطيف بجولة إلى بعض مناطق الشام في أعقاب انتصار حطين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، ثم ذهب للقاء صلاح الدين في دمشق فأكرمه وأنعم عليه، وأثناء حصار عكا زار معسكر الجيش الأيوبي، ووصف (المدينة - المعسكر) التي أقامها المسلمون أثناء الحصار الطويل، ووصف الحمامات المعمولة من الطين والحصير، التي أقامها المغاربة، كما وصف بعض أنواع السفن في الأسطول الأيوبي<sup>(٨)</sup>.

وفي مجال تحديد مواقع بعض مدن الشام ومصر والجزيرة اعتمدنا على:

٢١- ياقوت الحموي شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) في

(١) رحلة ابن جبير، ص ٢٦٠.

(٢) رحلة ابن جبير، ص ٢٧٦.

(٣) ن. م. ص ٢٥.

(٤) ن. م. ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

(٥) ن. م. ص ٢٦١.

(٦) ن. م. ص ٢٧٠.

(٧) اعتمدنا على طبعة لندن ١٩٦٥. نشر كمال حافظ زاندرجون آ. وايغني. أي، فيدين. وكذلك طبعة (مجلة المصري)

بلا تاريخ. وكذلك على ما ذكره المقرئ في السلوك، ج ١، ق ١، ص ٩٤.

(٨) طبعة لندن، ص ١٨٦.

(معجم البلدان)<sup>(١)</sup> وهو بلداني قريب العهد من التاريخ الصلاحي. وكذلك أخذنا من:

٢٢- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) في كتابه (آثار البلاد وأخبار العباد)<sup>(٢)</sup>، فقد تحدث عن عكا وأهميتها وكذلك عن دمياط وصور وعسقلان. ومن:

٢٣- ابن شداد (عزالدين محمد بن علي الحلبي، (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) في كتابه (الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة)<sup>(٣)</sup> الذي تحدث عن غنى جبال لبنان بمعدن الحديد وبأخشاب أشجار الصنوبر.

أما الكتب الخاصة بالأسلحة والتنظيمات العسكرية، وأصول القتال فتمتاز بأهمية خاصة، ولاسيما ما ألف منها خصيصاً لصالح الدين، مثل كتاب:

٢٤- الطرسوسي، مرضي بن علي بن مرضي (ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م) الموسوم (تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء، ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعدنية على لقاء الأعداء)<sup>(٤)</sup> وهو كتاب نفيس، ولعله أهم ما صنف في مجال الأسلحة المعدنية والكيميائية في التاريخ الإسلامي الوسيط، ويبدو من كلام المؤلف أنه يتحدث عن صناعة المعدات الحربية عن تجربة ومران، وينقل أحياناً ما ذكره له استاذة الشيخ أبو الحسن الأبرقي الاسكندراني<sup>(٥)</sup>.

يبدأ الطرسوسي كلامه عن صناعة السيف، فيذكر المواد التي تدخل في تركيبها، ثم يتحدث عن أنواع القوس والرمح، وكذلك اللت والعمود والدبوس، والأسلحة الدفاعية المختلفة كالترس وأنواع الدروع والجواشن ويتكلم عن صناعة المنجنيقات العربية والتركية والفارسية والصليبية (الافرنجية) والدبابات والأبراج والستائر، وكذلك عن المثلثات، أو ما كان يسمى به (الحسك) ثم ينتقل للكلام عن النفط واستخراجه وطرق تصفيته، والمواد الحارقة التي كانت لاتنظفيء.

٢٥- الأوسي الأنصاري، عمر بن ابراهيم صاحب كتاب (تفريخ الكروب في تدبير الحروب)<sup>(٦)</sup>، عاش في أوائل القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وعاصر السلطان المملوكي فرج بن برفوق. وكتابه يتفق بمحتوياته، مع النظرة العامة للحرب في الشرق الإسلامي خلال الحروب الصليبية، والفترة التي تلتها، كما يقول محقق الكتاب.

(١) معجم البلدان، دار صادر - دار بيروت، ٥ أجزاء ١٩٥٥ - ١٩٥٧.

(٢) آثار البلاد، دار صادر - بيروت - ١٩٦٠.

(٣) الاعلاق الخطيرة. تحقيق سامي الدهان. ط المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ١٩٦٢، ج ٢، ق ٢.

(٤) مخطوط يقع في (١٩٢) ورقة، موجود في مكتبة اياصوفيا بإستنبول رقم ٢٨٤٨، وفي مكتبة بودليان بجامعة أكسفورد تحت رقم ٢٦٤ ولدينا نسخة مصورة بالميكروفيلم عن نسخة بودليان. وقد قام الاستاذ كلود كاهين بنشر الصفحات الهامة منه في سنة ١٩٤٨.

(٥) انظر ورقة ١٧٨، ٨٨ب.

(٦) تحقيق د. جورج سكانلون. منشورات الجامعة الامريكية بالقاهرة، ١٩٦١.

وهو كتاب توجيه وإرشاد يوجه أنظار أصحاب الشأن من القادة إلى ما ينبغي معرفته وفعله. فقد تحدث عن اتخاذ الأسوار والخنادق حول المدن والحصون<sup>(١)</sup>، واستعمال الحمام الزاجل والبعال في إرسال البريد، وبت العيون والجواسيس، والصفات الواجب توفرها في العين<sup>(٢)</sup>، وكذلك صفات مقدم الجيش<sup>(٣)</sup>، وكيفية تحديد زمان ومكان ملاقات العدو، وطرق وضع الكمين ونظام التعبئة العسكرية، وغيرها.

٢٦- الهروي، علي بن أبي بكر بن علي (ت ٦١١هـ/١٢١٥م) مؤلف كتاب (التذكرة الهروية في الحيل الحربية)<sup>(٤)</sup>، هراتي الأصل موصلبي المولد، حلي النشأة والوفاة، عاصر صلاح الدين وابنه الملك الظاهر. ألف كتابه ليكون بمثابة الهادي والمرشد لولاة الامور في أسلوب الحكم، فأوضح لهم الصفات التي يجب أن يتحلوا بها، وأسلوب معاملة الرعية، ومزايا الرجال الذين يتسلمون وظائف هامة في الدولة كالوزراء وأمراء الجيش والقضاة. وخصص الهروي ثلاثة عشر فصلاً من فصول الكتاب الأربعة والعشرين للتحدث عن أمور القتال والسلاح والاستخبارات وكيفية لقاء العدو وإنفاذ السرية.

ويبدو من كلام المؤلف أنه كان ضمن الجيش الأيوبي في أواخر عهد صلاح الدين وتوجه من مصر إلى الشام مع السرية المصرية<sup>(٥)</sup>. ومن الامور الطريفة التي انفرد الهروي بذكرها قوله أن الصليبيين المدافعين عن حصن كوكب قد سلموا هذا الحصن بسبب نفاذ الملح لديهم<sup>(٦)</sup>.

٢٧- وللحسن بن عبدالله العباسي كتاب (آثار الأول في ترتيب الدول)<sup>(٧)</sup> الذي ألفه في مصر سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م. وقد خصصه للتحدث عن مزايا الأقسام التي انضوت تحت راية الإسلام، كالعرب والترك والكرد والفرس والديلم، ويبحث عن بعض أنواع الأسلحة كالقسي والحسك والترس وآلات الحصار كالديبابة والمنجنيق. وكيفية تعبئة العساكر والحيل التي كانت تستعمل في القتال لإرباك العدو وإحراق الأضرار به، مثل إفساد الماء الذي يستقي منه العدو، بالقاء الزرنيخ فيه، وتلويث جوده. وتحدث عن حروب البحر ومواطنها، والاعتدة التي كانت توضع في المراكب لاستعمالها أثناء القتال.

٢٨- وانتفعنا من كتاب ابن منكلي، محمد الناصري بن محمود المصري (ت ٧٧٨هـ/١٣٧٦م)

(١) تفريغ الكروب، ص ١٢.

(٢) تفريغ الكروب، ص ١٧-١٨.

(٣) ن. م، ص ٤١.

(٤) التذكرة الهروية، تحقيق مطيع المرابط، منشورات وزارة الثقافة، دمشق: ١٩٧٢.

(٥) التذكرة، ص ٩٠-٩١.

(٦) ن. م، ص ٨٦.

(٧) آثار الاول، مطبعة بولاق، القاهرة، ١٢٩٥هـ.

صاحب كتاب (التدابير السلطانية في سياسة الصناعة الحربية)<sup>(١)</sup> وكان ابن منكلي نقيب الجيش في سلطنة الملك الأشرف شعبان أحد سلاطين دولة المماليك في مصر. وقد استفدنا منه لدى كلامه عن نوع من القسي يسميه (البنجكان) الذي يعني بالكردية والفارسية (الرمي بخمسة نشابات) وكذلك تحدث عن التجفاف الذي كانوا يغطون به جسم الفرس ليقويه من الإصابة بالنار. هذا ولاداعي لسرد المصادر الأخرى، ناهيك عن المراجع، فقد تمت الإشارة إليها في القائمة المخصصة لذلك في نهاية الكتاب.

(١) نسخة مصورة بالفوتوستات في المجمع العلمي العراقي (رقم ٦٤٦ سلاح) من نسخة خطية في دار الكتب المصرية بالقاهرة برقم ١١٤٧ ب.

## القِسْمُ الأوَّلُ في المؤسَّسات العسْكرِيَّة الفَصْلُ الأوَّلُ

نِهايَّةُ الدَّولَةِ الفاطميَّةِ وقيامُ الجَيْشِ الأيوبي

١- الحملة النورية الأولى على مصر: أسبابها ونتائجها.

٢- الحملة النورية الثانية.

٣- الحملة الأخيرة واستقرار شيركوه وصلاح الدين في مصر.

٤- مقومات الفرقة النورية المرسلَة إلى مصر.

٥- عناصر الجيش الفاطمي:

أ- المغاربة (البربر).

ب- السودان (الزنج)

ج- العرب.

د- الأتراك.

هـ- عناصر أخرى:

(١) الأرمن (٢) الأكراد (٣) غيرهما.

٦- حجم الجيش الفاطمي.

٧- تصفية الجيش الفاطمي.

٨- نواة الجيش الأيوبي.

٩- حجم الجيش الأيوبي وتطوره.



## الحملة النورية الأولى على مصر سنة ٥٥٩هـ/١١٤م: أسبابها ونتائجها:

تردت أوضاع مصر الفاطمية<sup>(١)</sup> في الثلث الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، إلى حد مزر، وعمتها الفوضى وشاع فيها الخراب. ولسنا هنا بصدد التحدث عن التاريخ السياسي لمصر يومئذ، ولكن علينا أن نشير باقتضاب شديد إلى ما حدث من تطورات سياسية بحيث استدعى إلى الاستنجد بقوة خارجية لحسم الامور. وأول وأهم هذه التطورات هو ظاهرة تحكم الوزراء في إدارة الحكم، فقد أصبح الوزراء الفاطميون يسيطرون على شؤون البلاد المصرية منذ عشرات السنين، أي منذ أن ضعف مركز الخليفة، ولا نغالي إذا قلنا أن الحكم بدأ يسير نحو التدهور قبل سقوطه بقرن من الزمان، ولاسيما من سني حكم الخليفة الفاطمي المستنصر الطويلة (٤٢٧-٤٨٧هـ/ ١٠٣٥-١٠٩٤م).

ويمكن اعتبار سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م بمثابة قاصمة الظهر أو بمثابة نقطة تحول في تاريخ الخلافة الفاطمية، ففي هذه السنة استدعى الخليفة الفاطمي بدر الجمالي حاكم عكا الأرمني الأصل<sup>(٢)</sup>، إلى مصر لاعادة الاستقرار إليها بعد الاضطرابات التي نشبت فيها، وتلبية لهذة الدعوة وصل بدر الجمالي إلى مصر على رأس جيش من الأرمن، وقد نجح في مهمته، فرفعه الخليفة إلى دست الحكم، ومنحه صلاحيات واسعة<sup>(٣)</sup>. واعقب ذلك أنقسام الطبقة الحاكمة إلى طائفتين، طائفة مع ابن الخليفة الأكبر (نزار) وأخرى مع ابنه الثاني (المستعلي) الذي ساندته الوزير الأفضل ابن بدر الجمالي الذي خلف أباه في الوزارة.

واستمرت ظاهرة تسلط الوزارة على مصير البلاد إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية. وبهذا الصدد ذكر علي بيومي الذي كتب عن قيام الدولة الأيوبية: أن سبب هذا الوضع يعود «إلى أن كثيراً من اولئك الوزراء العظام كانوا على غير مذهب الدولة، فأساءوا إلى الفاطميين بدلاً من أن

(١) بدأ الحكم الفاطمي في مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م في عهد الخليفة المعز الفاطمي وانتهى بحكم آخر خليفة وهو العاضد سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م، أي أن الفاطميين حكموا مصر مدة (٢٠٩) سنة هجرية. انظر: المقرئ، اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: د. جمال الدين الشيبان، ط دار الفكر العربي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، سنة ١٩٤٨، ج١، ص ٣٠٩.

(٢) ابن خلكان، وفيات الاعيان، طبعة بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٨، ج٢، ص ٤٤٩. الدواداري، أبو بكر بن عبدالله بن ابيك، الدرر المضية في اخبار الدولة الفاطمية، طبعة المعهد الالماني للآثار بالقاهرة، ١٩٦١، ص ٣٩٩. المقرئ الخطة (طبعة المعهد الفرنسي) ج١، ق١، ص ١٣.

(٣) السجلات المستنصرية، تحقيق ونشر: د. عبدالمنعم ماجد، ص ١٠٨. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، المطبعة الحيدرية، النجف ١٩٦٩، ج١، ص ٥٢٤-٥٢٥. د. حسن ابراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٣، سنة ١٩٦٤، ص ١٧١، ١٨٠.

يخدموهم»<sup>(١)</sup>، وصار من الأمور المألوفة أن يرتقي منصب الوزارة كل من يطمح فيه ويرى أن لديه قوة كافية تؤهله أن يقتل الوزير ليحل محله ويصبح وزيراً، ولاسيما من ولاية الأقاليم «فالوزارات صارت لمن غلب» على حد قول ابن الأثير<sup>(٢)</sup>. فقتل الأفضل على يد المأمون البطائحي سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م<sup>(٣)</sup>، وقتل البطائحي على يد أحمد بن الأفضل، وهكذا إلى نهاية حكم الفاطميين «وقد انعكس هذا الحال على مجمل الأوضاع ولاسيما الوضع الاقتصادي، حيث تضاعفت أثمان المواد الغذائية الضرورية كالخبز والزيت والأرز، وصار لايباع القمح إلا للطحانين»<sup>(٤)</sup>، ولاسيما عندما تضطرب الأوضاع في السنوات التي تهبط فيها مناسيب النيل.

وفي سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م<sup>(٥)</sup> ثارت فتنة بالقاهرة بين طوائف العسكر قتل خلالها الخليفة (الحافظ) وعين مكانه ابنه الطفل (الفائز) خليفة، بتأثير الوزير عباس، وبذلك أصبحت مصر وكأنها لا خليفة يحكمها، فكان عهد الفائز - كما يقول المقرئ - محكوماً عليه من الوزارة<sup>(٦)</sup>. فدفع هذا الوضع الملك الصالح طلائع بن رزيق والي الأشمونيين<sup>(٧)</sup>، الأرمني الأصل، فتوجه بجموعه إلى القاهرة، ففر الوزير عباس، ثم قتل، واستولى طلائع على الوزارة. ثم مات الخليفة المحدث عن إحدى عشرة سنة في ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، بعد أن اختل عقله للمشاهد المرعبة التي عاشها حين رأى أعمامه

- (١) علي بيومي، قيام الدولة الأيوبية في مصر، دار الفكر الحديث، القاهرة ١٩٥٢، ص ٣٧.
- (٢) الكامل في التاريخ، ط دار صادر، دار بيروت، لبنان ١٩٥٦، ج ١١، ص ١٨٥. ويضيف ابن الأثير: والخلفاء من وراء الحجاب، والوزراء كالمتملكين، وقل إن وليها احد بعد الافضل إلا بحرب وقتل وما شاكل ذلك. ويقول ابن شداد «ان قوة المصريين إنما كانت بعسكر وزيرهم، وهو ملقب عندهم بالسلطان». النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) تحقيق: د. جمال الدين الشيال، طبعة الدار المصرية، القاهرة ١٩٦٤، ص ٣٦. وانظر: وفيات الاعيان، ١٤٥٧/٧. والروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٣٣١.
- (٣) الكتبي، محمد بن شاكر، عيون التواريخ، تحقيق: د. فيصل السامر ونبيلة عبدالمعتم داود، ط وزارة الاعلام، بغداد، دار الحرية ١٩٧٧، ج ١٢، ص ٢٢٠.
- (٤) الخطط، ط اوفسيت، ٢١٧/٢. وانظر: علي بيومي، قيام الدولة الأيوبية، ص ٥٤. د. حسن ابراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ١٧١. عن المجاعات الشنيعة التي اجتاحت مصر الفاطمية، انظر: ابن الصيرفي المصري، الاشارة إلى من نال الوزارة، طبعة المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة ١٩٢٤، ص ٤٣. المقرئ، اغاثة الامة، دار ابن الوليد، القاهرة ١٩٥٦، ص ١٥-١٨، ٢٣. المقرئ، اتعاظ الخنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: د. محمد حلمي محمد احمد، مطابع الاهرام التجارية، القاهرة ١٩٧١، ج ٢، ص ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٧٠، ١٧١، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٩٨ (وتكررت أهوال المجاعات فصار من الامور المألوفة أن يأكل الناس الجيف والميتات وخطف المارة وأكل البغال والافراد المشنوقين، ص ٢٩٨، اغاثة الامة، ص ٢٣-٢٤).
- (٥) ثمة حوادث كثيرة عديدة عن الصراع على كرسي الوزارة بين الوزراء ونذكر على سبيل المثال ما حصل في سنة ٥٢٨هـ بين الوزير ابن سلاز الكردي الذي قتل الوزير ابن مصال ليصبح وزيراً مكانه. انظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨، ص ٢٤٢، ٣١١. اسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، طبعة جامعة برنستون، امريكا ١٩٣٠، ص ٧-٩ الذي يتحدث كشاهد عيان. ابن الأثير، الكامل، ١١٨٤/١١ - ١٨٥. الكتبي، عيون التواريخ، ٤٣٨/١٢، ٤٨٥.
- (٦) الخطط، ط اوفسيت، ٣٥٧/١.
- (٧) الاشمونين: بلدة بصعيد مصر.

قتلى يوم تولى الحكم، وصار يصرخ حتى مات<sup>(١)</sup>.  
تولى العاضد - الخليفة الفاطمي الأخير - أخو الفائز، الخلافة، في هذا الوضع، وعمره لا يتجاوز،  
هو الآخر، إحدى عشرة سنة، وقام طلائع بتدبير الأمور وزوج ابنته من الخليفة، لكي يضمن استمرار  
تحكمه في أمور الخلافة. ثم قتل طلائع سنة ٥٥٦هـ/١١٦١م، فقام من بعده ابنه رزيق الملقب بـ(الملك  
العادل) بمهمة الوزارة، وكان طلائع قد أوصى ابنه أن يحذر جانب شاور بن مجير السعدي، والي قوص  
بصعيد مصر، والا يعزله عن ولايته<sup>(٢)</sup>.

إلا أنه سرعان ما عزله، فجمع شاور جموعاً كثيرة، وسار نحو القاهرة، فهرب العادل ثم قتل، وبه  
انتهى حكم آخر وزير مصري مقتدر، يقول عمارة اليميني «بزوال دولة بني رزيق زالت دولة مصر»<sup>(٣)</sup>  
وحل شاور محله في وزارة مصر، وتلقب بأمر الجيوش.

بعد فترة سار الملك المنصور ضرغام بن سوار اللخمي قائد الجيش المصري نحو القاهرة، فهرب شاور  
إلى الشام وصار ضرغام وزيراً. وهذا يعني أنه خلال سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م حكم مصر ثلاثة وزراء هم:  
العادل بن رزيق وشاور وضرغام. يقول ابن الأثير: «لما تمكن ضرغام من الوزارة قتل كثيراً من الأمراء  
المصريين، لتخلو له البلاد من منازع، فضعفت الدولة، حتى خرجت البلاد عن أيديهم»<sup>(٤)</sup>.

لجأ شاور إلى الشام مستنجداً بصاحبها نورالدين محمود بن عمادالدين زنكي وعرض عليه ثلث  
دخل مصر واقطاعات العسكر، ويكون قائد عسكره مقيماً بعساكره في مصر ويتصرف هو، أي  
شاور، بأمر نورالدين واختياره<sup>(٥)</sup>. ولم يشأ صاحب الشام أن يخذل شاور، رغم خشيتته من فشل  
العملية وحاجته إلى الجند في بلاده ولاسيما وأن شاور لا يتمتع بسمعة طيبة منذ أن قتل رزيق، فإن  
هذا الحادث «سود ما أبيض من عالي قدره»<sup>(٦)</sup> إضافة إلى خطر الطريق وسيطرة الصليبيين عليه<sup>(٧)</sup>.

(١) المخطط، ن. م، للمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث، انظر: د. محمد عمارة، عندما أصبحت مصر عربية، طبعة  
المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٤٧، ص ١٦٣ - ١٧٢.

(٢) الكامل، ١١/٢٩٠.

(٣) عمارة اليميني، النكت العصرية في اخبار الوزارة المصرية، مطبعة مرسو - مدينة شالون - فرنسا ١٨٩٧، ص ٦٨.  
النجوم الزاهرة، ٥/٣٤٦.

(٤) الكامل، ١١/٢٩١. المخطط، ط اوفسيت، ١/٣٥٨.

(٥) الكامل، ١١/٢٩٨. ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: د. سامي الدهان، المطبعة الكاثوليكية ١٩٥٤،  
٢/٣١٦. ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية في السيرة النبوية، تحقيق د. محمود زايد، بيروت ١٩٧١ ص ١٦٣ -  
١٦٤.

(٦) النكت العصرية، ص ٦٨. وانظر: النجوم الزاهرة، ٥/٣٤٥.

(٧) ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل وحلب)، تحقيق: د. عبدالقادر احمد طليمات، ط دار  
الكتب الحديثة بالقاهرة، ١٩٦٣، ص ١٢١. الكامل، ١١/٢٩٨. احمد بن ابراهيم الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب  
بني أيوب، ص ٢٦. الكواكب الدرية، ١٦٤. الروضتين ج ١، ق ٢، ص ٣٣٢. ابن واصل، مفرج الكروب في اخبار بني  
أيوب، تحقيق: د. جمال الدين الشيبان، مطبعة جامعة فؤاد الاول، القاهرة ١٩٥٣، ج ١، ص ١٣٨.

ولكن نورالدين محمود كان على علم بثقل مصر الاقتصادي ومكانتها وأهمية موقعها الاستراتيجي والدور الذي يمكن أن تقوم به في الحروب القادمة ضد الصليبيين<sup>(١)</sup> وكذلك أدرك دقة المرحلة التي تمر بها مصر، وخاف أن يستغل الصليبيون الفرصة، وينقضوا عليها، كما حاولوا ذلك إثر مقتل الخليفة الفائز (٥٥٥هـ/١١٦٠م)، لكنهم تراجعوا يومئذ عن نيتهم مقابل تعهد الوزير الفاطمي طلائع بن رزيق بدفع جزية سنوية قدرها مائة وستون ألف دينار<sup>(٢)</sup>.

إلا أن الصليبيين دخلوا مصر فعلاً بعد ثلاث سنوات بحجة عدم إيفاء المصريين بوعدهم، وكان ذلك في عهد وزارة ضرغام الذي أمر بفتح سدود نهر النيل، وتسليط المياه عليهم<sup>(٣)</sup>. فاضطر الملك الصليبي (اموري الأول)<sup>(٤)</sup> إلى العودة من حيث أتى، بعد ان اطلع على مدى ضعف أحوال مصر، وعظم ثروتها، وسهولة الاستيلاء عليها، فاستعد لغزوة كبرى مرتقبة.

ولهذا كله قرر نورالدين محمود تقديم مساعدة عسكرية لشاور، فأمر مقدم عسكره أسدالدين شيركوه بن شادي<sup>(٥)</sup> أن يقود الحملة الموجهة إلى مصر. ولاشك أن اختيار شخصية مثل شيركوه يدل على خطورة الموقف ومدى إهتمام نورالدين محمود بالمسألة المصرية. يقول ابن الأثير إن نورالدين رأى من شيركوه «في حروبه ومشاهده آثاراً يعجز عنها غيره لشجاعته وجرأته... فجعله مقدم عسكره»<sup>(٦)</sup> فقد كان له شأن كبير في قيادة الدولة النورية لم ينازعه عليه أحد «حتى صار كأنه شريك نورالدين في الملك»<sup>(٧)</sup>.

رحب شيركوه بالفكرة وسار ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وكان يومئذ شاباً لا يتجاوز السابعة والعشرين من عمره، ومعهما امرأه آخرون وبرفتهم الوزير المخلوع شاور، متوجهين نحو مصر في جمادى الأولى سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م. أما نورالدين فسار إلى أطراف البلاد الصليبية، ليمنعهم من التعرض لحملة شيركوه<sup>(٨)</sup>.

(١) كما يقول ستيفن رنسيومان فقد «كانت لا حدّ لمواردها» تاريخ الحروب الصليبية ترجمة: د. السيد الباز العريني، مطبعة دارالثقافة، بيروت ١٩٦٨، ج٢، ص٦٧٣.

(٢) د. عبدالفتاح سعيد عاشور، الحركة الصليبية، مكتبة الانجلو المصرية، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة ١٩٦٣، ج٢، ص٦٨١ نقلاً عن ميخائيل السرياني، ووليم الصوري.

(٣) د. حسن ابراهيم حسن، الفاطميون في مصر وأعمالهم، المطبعة الاميرية، القاهرة ١٢٣٢، ص٣٠٢. علي بيومي، قيام الدولة الأيوبية، ص١٠٣. د. عبدالقادر احمد اليوسف، علاقات بين الشرق والغرب، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، ص١٢٥. د. الباز العريني، الشرق الادنى في العصور الوسطى (الايوبيون)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦٧، ص٣١. د. عاشور، الحركة الصليبية، ٦٨١/٢ معتمداً على كتاب:

Lane - Pool, Saladin and the fall of Kingdom of Jerusalem, London, 1914, P. 81 Schlumberger: Compagnes, pp. 38 - 48

(٤) يرد اسم هذا الملك بصيغ عديدة: عموري، اموري، امري، مري (امالريك باللغة الانكليزية Amalric).

(٥) ذيل تاريخ دمشق، ٣٤٩.

(٦) التاريخ الباهر، ١٢٠.

(٧) التاريخ الباهر، ص١٦٨.

(٨) الكامل، ٢٩٩/١١. الحموي، التاريخ المنصوري، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، نشر بطرس غرياز=

وصل شيركوه الأراضي المصرية على رأس ألف فارس<sup>(١)</sup>، ونزل على بلبيس<sup>(٢)</sup>، واصطدم بعسكر الوزير ضرغام الذي كان يقوده ناصر الدين أخو الوزير وهزمه<sup>(٣)</sup> أثناء محاولته الفرار<sup>(٤)</sup>. وأعاد شيركوه شاوراً إلى دست الحكم. على أن شاور سرعان ما أدار ظهر المجن إلى مغيبته، ونكث العهد الذي قطعه لنورالدين، فالتجأ إلى الصليبيين، وطلب معونتهم وأغراهم بالمال، وخوفهم من مغبة سيطرة شيركوه - وبالتالي نورالدين محمود - على مقدرات مصر. فأنجده الصليبيون بقوة عسكرية قادها الملك أموري بنفسه<sup>(٥)</sup>، ووصلوا إلى مصر، وحاصروا بلبيس التي تحصن فيها شيركوه، إلا أنهم لم يستطيعوا التغلب عليه، ثم أتاهم من الشام خير هزيمتهم في (حارم)<sup>(٦)</sup> وملك نورالدين حصنها، وسيره نحو بانياس، فسقط في أيديهم، كما يقول المثل، فاضطروا إلى مراسلة شيركوه في أمر الصلح وعودة الطرفين إلى الشام، وكانت هذه نهاية الحملة النورية -الشامية - الأولى على مصر.

## ٢- الحملة النورية الثانية على مصر سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م

لم يحقق أي من الأطراف المتنازعة غايتها، سوى شاور، الذي تخلص من غريمه ضرغام. وعاد شيركوه إلى الشام، وهو في غاية القهر<sup>(٧)</sup>. ولكن الحملة جعلت نورالدين يدرك أن مصر «بلاد بغير رجال، تمشي الامور فيها بمجرد الايهام والمحال»<sup>(٨)</sup> وهذا ما حدا بنورالدين محمود بتوجيه حملة ثانية إلى مصر بقيادة أسدالدين شيركوه. وكان ذلك بعد حوالي ثلاث سنوات، أي في عام ٥٦٢هـ/١١٦٦م، وأرسل نورالدين معه صلاح الدين للمرة الثانية، وطائفة من الامراء على رأس قوة مؤلفة من ألفي فارس<sup>(٩)</sup> عندما استدعى الوزير

=نيويج، طبع دار النشر للآداب الشرقية، موسكو ١٩٦٠، ص ١٧٥. زبدة الحلب، ٣١٦/٢. الروضتين، ٣٣٢/١. مفرج الكروب، ١٣٨/١. الكواكب الدرية، ص ١٦٤.

(١) الخطط، طبع المعهد الفرنسي، نشر M. Gaston Wiet ط ١٩١٣، ج٢، ق ١ ص ١٥.

(٢) بلبيس: مدينة بينها وبين الفسطاط عشرة فراسخ على طريق الشام. ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، دار بيروت، ج١، ص ٤٧٩.

(٣) الكامل، ٢٩٩/١١ الخطط، ط أوفستيت، ٣٥٨/١. مفرج الكروب، ١٣٩/١.

(٤) الكامل، ن. م. الخطط، ن. م. وفيات الأعيان، ٤٤٢/٢. الروضتين، ٣٣٣/١. زبدة الحلب، ٣١٧/٢. شفاء القلوب Lane - Pool, Saladin, p. 82. Saladin, p. 82. ٢٦

(٥) هذه هي الحملة الثانية التي يقودها اموري إلى مصر، والأولى كانت - كما ذكرنا - في عهد وزارة ضرغام، أي أن اموري قاد أربع حملات صليبية على مصر، كما سنرى.

(٦) حارم: حصن حصين وكورة جلييلة تجاه انطاكية، من اعمال حلب. معجم البلدان، ٢٠٥/٢.

(٧) النجوم الزاهرة، ٣٤٨/٥. ويقول ابن شداد: عاد شيركوه إلى الشام على مضض وقلبه مقلقل. النوادر، ٣٨.

(٨) النوادر، ص ٣٦. وفيات الاعيان، ١٤٧/٧. الروضتين، ج١، ق، ص ٣٣٧.

(٩) الكامل، ٣٢٤/١١. الباسر، ١٣٣. زبدة الحلب، ٣٢٢/٢. مفرج الكروب، ١٤٨/١. الروضتين، ج١، ق ٢، ص ٣٦٤. تاريخ ابن الوردي، ١٠٢/٢. وفيات الاعيان، ١٤٧/٧. ابن العماد، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، مطبعة القدس، ١٣٥٠هـ، ج٤، ص ٢٠٣ =.

شاور الملك أموري، فحضر حالاً، واصطدم بقوات شيركوه في معركة (البابين)<sup>(١)</sup> بصعيد مصر على بعد عشرة أميال جنوبي المنيا الحالية<sup>(٢)</sup>. واستطاع شيركوه من احراز النصر على الصليبيين رغم ضخامة جيش أموري «وكان هذا من أعجب ما يؤرخ: أن ألفي فارس (شامي) تهزم عساكر مصر (الفاطمي) وعسكر فرنج الساحل»<sup>(٣)</sup>.

وعلى إثر ذلك توجه شيركوه إلى الإسكندرية، فتسلمها بسهولة واستناب بها صلاح الدين، وعاد هو إلى الصعيد، إلا أن الصليبيين ومعهم المصريون، لم يتركوا الإسكندرية تقع لقمة سائغة بيد شيركوه، فذهبوا لحصار الإسكندرية، عندها عاد شيركوه من الصعيد لمساعدة صلاح الدين، فرفع الصليبيون حصارهم لقاء مغادرة الطرفين أرض مصر. فتم الصلح، وقد قبله شيركوه على مضض، لسوء وضع جيشه، وليخرج الصليبيين من مصر بأي ثمن، ويخرج هو معهم لقاء مبلغ من المال. إلا أن أموري عقد اتفاقاً مع شاور ينص على أن يكون لهم شحنة<sup>(٤)</sup> بالقاهرة، وكان بمثابة مفوض سام<sup>(٥)</sup>، وتكون أبواب المدينة بيد فرسانهم لمنع نورالدين من انفاذ عسكره إليهم، ويكون للفرننج من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار<sup>(٦)</sup>.

كل هذا يجري والخليفة الفاطمي (العاضد) لا حول له ولا قوة، وليس له من الأمر شيء، ولا يعلم بشيء من ذلك، فقد حكم شاور عليه وحجبه<sup>(٧)</sup>.

Stevenson, W.B, The Crusades in the East, Cambridge 1907, p. 191=

ويقول الذهبي إنه سار إلى مصر بمعظم جيش نورالدين، العبير، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٦٣، ج٤، ص١٧٦.

(١) عن تفاصيل هذه المعركة انظر: الكامل، ٣٢٥/١١ - ٣٢٦. الباهر، ١٣٣. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الاعيان، مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية، حيدر اباد، الهند ١٩٥٢، ج٨، ص ٢٦٨ - ٢٦٩. مفرج الكروب، ١٥٠/١ - ١٥١. الكواكب الدرية، ١٦٩ - ١٧٠. د. حسن حبشي، نورالدين والصليبيون، ص ١١٤.

(٢) د. حسن ابراهيم، الفاطميون في مصر، ٣٠٤.

(٣) الكامل، ٣٢٦/١١. الباهر، ١٣٤. الروضتين، ج١، ق٢، ص٤٢٨. العبير، ١٧٦/٤.

(٤) شحنة: من فيهم الكفاية لضبط شؤون البلاد من اولياء السلطان. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، دار بيروت (١٩٥٥ - ١٩٥٦) ٢٣٤/١٣.

(٥) انظر: كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٤، ط٤، ص٣٥١.

(٦) الكامل، ٣٢٧/١١. مرآة الزمان، ٢٦٩/٨. مفرج الكروب، ١٥٢/١. الروضتين، ج١، ق٢، ص٣٦٦. الخطط، ط المعهد الفرنسي، ج٣، ق٢، ص ١٨٩ - ١٩٠. الكواكب الدرية، ١٧٢. ابن خلدون كتاب العبير وديوان المبتدأ والخبر، طبعة دار الكتاب اللبناني، مجلد ٥، ق٢، ص٤٤٨، ق٣، ص٦١٨.

(٧) الباهر، ١٣٤. النجوم الزاهرة، ٣٥٠/٥. الكواكب الدرية، ١٧٢.

### ٣- الحملة الثالثة (الأخيرة) واستقرار شيركوه وصلاح الدين في مصر (صفر ٥٦٤هـ/ تشرين الثاني ١١٦٨م)

إن هذه الحملات الشامية والصليبية على مصر جعلت الطرفين يطلعان على أحوالها ونقاط ضعفها<sup>(١)</sup> وثرواتها الطائلة وأهمية موقعها الاستراتيجي، ولم يعد في وسع أي من الطرفين أن يتخلى عن فكرة السيطرة عليها. ويبدو أن الصليبيين كانوا أكثر رغبة في امتلاكها، ولاسيما بعد أن كشفوا ضعف أمرها<sup>(٢)</sup>.

وقد تحجج الملك أموري عند تنفيذ حملته الجديدة بنفس حجته التي أعلنها غداة حملته الأولى، وهي تباطؤ المصريين (أي وزارة شاور) في دفع الضريبة السنوية التي فرضها عليهم. والواقع أن شاور أحس بأن الضريبة أثقلت كاهل مصر. وأن المعونة التي طلبها من الصليبيين قد تحولت إلى نوع من الحماية مثلة بوجود مندوبهم (الشحنة) في القاهرة، ووجود حامية صليبية تحرس أبواب القاهرة<sup>(٣)</sup>.

هذا إلا أن قادة الحامية الصليبية الموجودة في القاهرة قد أرسلوا في إثر أموري وألحوا عليه ضرورة التوجه إلى مصر<sup>(٤)</sup>، فتوجه الملك الصليبي هذا إلى مصر للمرة الرابعة.

وحاول شاور إيقاف زحفه دون جدوى، فوصل إلى بلبس ثم إلى القاهرة، فأمر شاور باحراق مدينة مصر (الفسطاط) قبل نزول الصليبيين عليها بيوم واحد خوفاً من أن يملكوها، بعد أن عجز عن الدفاع عنها، وبقيت النار مشتعلة فيها أكثر من خمسين يوماً<sup>(٥)</sup>.

عندها أدرك الخليفة العاضد ما يجري في بلاده من حرائق واحتلال وخراب. فبعث يستنجد بنورالدين ويحثه على نجاته وذلك في كتاب مؤثر أرسله إليه ينفرد الدواداري بذكر نصه الذي رأى نسخته - حسب قوله - ومما جاء فيه: «وا غوثاه! وا غوثاه. الحق دين الإسلام! ادرك أمة محمد عليه

(١) زبدة الحلب، ٣٢٢/٢. النجوم الزاهرة، ٣٤٩/٥.

(٢) الروضتين، ١، ص ٤٣٥. وفيات الاعيان، ١٤٨/٧. شفاء القلوب، ٣٢.

(٣) الكامل، ٣٣٥/١١. الباهر، ١٣٧. الكواكب الدرية، ١٧٢.

(٤) الكامل، ٣٣٥/١١. الباهر، ١٣٨. مفرج الكروب، ١٥٦/١.

(٥) الكامل، ٣٣٦/١١. الروضتين، ١، ص ٤٣٢. مفرج الكروب، ١٥٧/١. تاريخ ابن الوردي، ١٠٦/٢. ابن خلدون، مجلده ٥، ق ٢، ص ٤٥١، ق ٣، ص ٦١٩. النجوم الزاهرة ٣٥٠/٥. الخطط، ط اوفسيت ٣٥٨/١. شفاء القلوب، ٣٣. الكواكب الدرية، ١٧٦. ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، تحقيق: د. حسن محمد الشماع، مطبعة حداد، البصرة، ١٩٦، ١، مجلد ٤، ص ٢٤. العليمي، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، قدمه محمد بحر العلوم، منشورات المطبعة الحيدرية في النجف الاشرف، العراق ١٣٨٨/١٩٦٨، ١، ص ٣١١. ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور (تاريخ مصر) المطبعة الكبرى الاميرية، بولاق - مصر ١٣١١هـ، ١، ص ٦٨. العصامي المكي، سمط النجوم العوالي، المطبعة السلفية، القاهرة، ج ٤، ص ٥. يقول د. سعداوي: يعتبر حريق الفسطاط من الحوادث البارزة المروعة في التاريخ الحربي المصري والذي لاتزال آثاره باقية إلى اليوم في الأراضي الرملية بمصر القديمة. انظر كتابه: التاريخ الحربي المصري، مكتبة النهضة المصرية، مطبعة لجان البيان، القاهرة ١٩٥٧، ص ١٤.

السلام! يا نورالدين! يا نورالدين!»<sup>(١)</sup>.

ويعث طي الكتاب خصلات من شعور سيدات البلاط الفاطمي<sup>(٢)</sup>، في محاولة لإذكاء مشاعر نورالدين وحميته.

لدى استلامه الكتاب أدرك نورالدين خطورة الأمر، ورأى أن يتوجه بنفسه إلى مصر، لولا وفاة قائد جيش الموصل «الأمير زين الدين علي كجك»<sup>(٣)</sup> وإرسال العساكر إلى الشرق طمعاً في الاستيلاء على ما كان بيده»، ولولا خشيتته من خلو الشام، واحتمال هجوم الصليبيين عليها مستغلين فرصة غيابه<sup>(٤)</sup>.

جمع نورالدين مجلس حربه وشاورهم فيما ينبغي فعله، فاستقر رأيهم على إرسال أسدالدين شيركوه على رأس حملة كبيرة، لأنه كان مطلعاً على أمور مصر أكثر من غيره، وكان متعباً للأمر تمام التهيؤ، وكانت عودته إلى مصر «مناه وغايته وهواه»<sup>(٥)</sup>. ويقول ابن الأثير إن نورالدين عجب من حضوره بتلك السرعة<sup>(٦)</sup>.

ولم يجزِ صدام بين شيركوه وأموري هذه المرة، إذ استطاع شاور من اقناع الملك الصليبي بالعودة إلى بيت المقدس. إلا أنه - أي شاور - عاد إلى أسلوب المراوغة مع شيركوه في تنفيذ الوعود التي قطعها لنورالدين، لهذا قرر صلاح الدين ومعه الأمير عزالدين جورديك اغتيال شاور<sup>(٧)</sup>، ثم أمر العاضد بقطع رأسه وإرساله إليه، وفي الحال اسند منصب الوزارة إلى شيركوه وعيّنهُ قائداً عاماً للجيش الفاطمي، وأنعم عليه بلقب الملك المنصور، ولم يتمتع شيركوه بمنصبه طويلاً حيث توفي بعد حوالي الشهرين<sup>(٨)</sup>، في جمادى الآخرة ٥٦٤هـ/١١٦٩م، فأسند العاضد المنصب إلى ابن

(١) الدر المطلوب في اخبار ملوك بني أيوب، تحقيق: د. سعيد عبدالفتاح عاشور، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧٢، ص ٣٠.

(٢) الكامل، ٣٣٧/١١. الباهر، ١٣٨. الروضتين، ج١، ق٢، ص٣٩١. زبدة الحلب، ٣٢٦/٢. مفرج الكروب، ١٥٨/١. الذهبي، العبر، ١٨٤/٤. أبو الفداء، المختصر في اخبار البشر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ٦٢/٢. ابن خلدون، مجلد ٥، ص٤٥١. ابن الفرات، ج١، مجلد ٤، ص٢٢. ابن الوردي، ١٠٦/٢. الكواكب الدرية، ١٧٦. العليمي، الانس الجليل، ٣١١/١. السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، ط١، دار احياء الكتب العربية، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧-١٩٦٨، ج٢، ص ١٨. شفاء القلوب، ٣٤. شذرات الذهب، ٢١١/٤.

(٣) والد مظفرالدين كوكبري، صاحب أربيل المعروف.

(٤) النوادر، ٣٨-٣٩. وفيات الاعيان، ١٤٨/٧. ابن الفرات، ج١، مجلد ٤ ص ٢٢.

(٥) ابن الفرات، ج١، مجلد ٤، ص ٢٢.

(٦) الكامل، ٣٣٨/١١. الروضتين، ج١، ق٢، ص ٣٩٢. الكواكب الدرية، ١٧٦.

(٧) ينفرد ابن أياس بقوله أن شيركوه صلب الوزير شاور على باب القاهرة لكونه أشار بحرق مدينة الفسطاط، بدائع الزهور، ٦٨/١.

(٨) النوادر، ٤٠. التاريخ المنصوري، ١٧٦. مرآة الزمان، ٢٧٨/٨. وفيات الاعيان، ٤٨٠/٢. الروضتين، ج١ ق٢، ص ٤٠٥، ٤٣٦. مفرج الكروب، ١٦٨/١. العيسر، ١٨٥/٤. النجوم الزاهرة، ٣٥٣/٥. الخطط، ط اوفسيت. ٣٥٨/١ الكواكب الدرية ١٧٩، شفاء القلوب، ٤٤، الأُنس الجليل، ٣١٢/١. ١٨٦/١ العبر ١٨٥/٤، النجوم=

أخيه صلاح الدين رغم معارضة بعض الامراء النوريين - ولاسيما عين الدولة الياروقي وعزالدين جورديك - وغيرهما - فلم يعترفوا به، وقفلوا راجعين إلى الشام<sup>(١)</sup>. وأبوا أن يعملوا تحت إمرة صلاح الدين الذي كان أصغر الامراء سنًا.

ومع بداية سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م، ألغى صلاح الدين الخلافة الفاطمية، تحت إلهام نورالدين محمود الشديد<sup>(٢)</sup>، وعلى إثر ذلك توفي العاضد بعد مرض لم يمهله طويلاً، تاركاً صلاح الدين ليستقل بأمر مصر.

#### ٤- مقومات الفرقة النورية المرسلّة إلى مصر:

اختار شيركوه فرسانه من عسكر نورالدين النظامي، وزوده نورالدين بكل ما يحتاج إليه من أسلحة ودواب وثياب، وكان عدد فرسانه في الحملة الأولى ألف فارس، مما جعل شيركوه يخشى على مصير الحملة. يقول المقرئزي: جهز نورالدين ألف فارس، وقدم عليهم أسدالدين شيركوه، وأمره بالتوجه إلى مصر، فأبى شيركوه، وقال: لا أمضي أبداً فإن فيه هلاكي ومن معي<sup>(٣)</sup>.

أما في الحملة الثانية فكان عدد فرسانه ألفي فارس، كما أسلفنا. في حين تضاعف حجم الحملة الثالثة. فتذكر المصادر أن نورالدين محمود أعطى أسدالدين شيركوه الفين من خيرة فرسانه، إضافة إلى مائتي ألف دينار، سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، ولم يكتف شيركوه بهؤلاء الفرسان، بل قام بجمع ستة آلاف من الفرسان<sup>(٤)</sup>.

وأعطى نورالدين لكل فارس عشرين ديناراً.

وكان من بين هؤلاء الفرسان الفرقة الأسيديّة - نسبة إلى أسدالدين شيركوه الذي نظمها. وآلت لصلاح الدين بوفاته، تلك الفرقة التي ستضطلع بدور بارز في الأحداث القادمة، سواء في مصر أو في بلاد الشام، وكان عدد أعضائها خمسمائة محارباً<sup>(٥)</sup>. وهذا يعني أن الفرسان الذين صاحبوا

=الزاهرة، ٣٥٣/٥. الخطط، أوفسيت.

(١) يقول ابن كثير: أن نورالدين محمود لام عين الدولة الياروقي على معارضته لتولي صلاح الدين منصب وزارة مصر بعد عمه، انظر: البداية والنهاية. مطبعة السعادة، مصر ١٩٣٢، ٢٥٧/١٢. وانظر: الروضتين، ١، ٢، ص ٤٠٧. النجوم الزاهرة، ١٨/٦.

(٢) النوادر، ٤٥. ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والامم، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد - الدكن، الهند ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م، ج ١٠/٢٣٧. الروضتين، ١، ٢، ص ٤٦٥-٤٦٦. الكواكب الدرية، ١٩٦.

(٣) الخطط (طبعة المعهد) ج ٢، ق ١، ص ١٥.

(٤) الكامل، ١١/٣٣٨. الباهر، ١٣٩. وفيات الاعسيان، ٤٤٧/٢. زبدة الحلب، ٣٢٦/٢. الروضتين، ١، ٢، ص ٣٩٢. مفرج الكروب، ١/١٥٨. البداية والنهاية، ١٢/٢٥٦. ابن الفرات، ١، مجلد ٤، ص ٢٦. السيوطي، حسن المحاضرة، ١٨/٢. العصامي المكي، سمط النجوم، ج ٤، ص ٥. وينفرد العماد الكاتب الاصفهاني بجعل عدد الفرسان «خمسة آلاف من الرجال الابطال» عدا الالفين المذكورين، انظر: تلخيص البنداري لكتابه (البرق الشامي) تحت اسم (سنا البرق الشامي) تحقيق: رمضان ششن، طبعة دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٧١، ١، ص ٧٦.

(٥) الروضتين، ١، ٢، ص ٤٣٨. ويقول جب: ان أفراد هذه الفرقة كانوا من الاكراد. كتابه: صلاح الدين الايوبي، =

شيركوه في الحملة الأخيرة بلغ عددهم ثمانية آلاف فارس<sup>(١)</sup>. ولم تذكر المصادر عدد الجنود المشاة الذين صاحبوا الحملة، أولئك الذين سمتهم المصادر بالحشود<sup>(٢)</sup>. ولكن يحتمل ألا يقل عددهم عن ضعف عدد الفرسان كما هو متبع في حروب تلك العصور. ويذكر بعض المؤرخين أن جيش شيركوه كان في «سبعين ألف ما بين فارس وراجل»<sup>(٣)</sup> وإن صح هذا القول فإن عدد المشاة يكون ضخماً للغاية. وعى الرغم من أن المصادر تذكر أن هذه الحملة الذاهبة إلى مصر كان قوامها التركمان، أو من كانوا يسمون بالغز<sup>(٤)</sup> في بعض المصادر<sup>(٥)</sup>، لكن يلاحظ إن أبرز القادة الذين صاحبوا شيركوه كانوا من الأكراد ثم التركمان، كما يظهر من الحوار الذي أجراه معهم القاضي ضياء الدين عيسى الهكاري الكردي في محاولته اقناعهم بقبول تولي صلاح الدين وزارة مصر خلفاً لعمه. فقد ذكر ابن الأثير وغيره من المؤرخين أن الخليفة العاضد لما عين صلاح الدين وزيراً لم يطعه قادة الجيش النوري الذين كانوا معه، لأنهم كانوا يريدون الأمر لأنفسهم وكان الفقيه الهكاري معه، فسعى مع سيف الدين علي المشطوب الهكاري حتى أماله إليه، وقال له: إن هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة الباروقي وابن تليل الهذباني وشهاب الدين الحارمي (خال صلاح الدين) ثم قصد الحارمي وقال له: إن صلاح الدين ابن أختك، وعزه وملكه لك، وقد استقام له الأمر، فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه، ولا يصل الأمر إليك، فمال إليه أيضاً. ثم عدل إلى قطب الدين خسرو بن تليل، وقال له: إن صلاح الدين قد أطاعه الناس، ولم يبق غيرك وغير الباروقي، وعلى كل حال فما يجمع بينك وبين صلاح الدين هو أنه من الأكراد، فلا تخرج الأمر عنه إلى الأتراك، ثم عدل إلى عين الدولة الباروقي، وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعاً، فلم تنفعه رقاها ولا نفذ فيه سحره، وقال: أنا لا أخدم يوسف (صلاح الدين) أبداً، وعاد إلى نورالدين ومعه غيره<sup>(٦)</sup>.

=دراسات في التاريخ الاسلامي، ترجمة: يوسف ابيش، ط المؤسسات العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٣، ص ١٥٤.

(١) يقول الدواداري: صارت «عدة جيشه عشرة آلاف فارس شجعان» الدر المطلوب ٣١. الذهبي، دول الاسلام، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الهند، ط ٢، ١٣٦٥هـ، ج ٢، ص ٥٦.

(٢) شفاء القلوب، ٢٩.

(٣) الكواكب الدرية، ١٧٧. شذرات الذهب، ٤/٢١١.

(٤) الغز: تركمان ما وراء النهر المسلمين. الروضتين، ج ١، ق ١، ص ٢٨٥ هامش ٣. ومنهم ملوك السلاجقة الأتراك. القلقشندي، قلائد الجمال في التعريف بقبائل عرب الزمان، طبع دار الكتب الحديثة، مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٦٣، ص ٢٨. صبح الاعشى، ٤/٤٤٧. الكتبي، عيون التواريخ ١٢/٤٦٥.

(٥) الكامل، ٣٥١/١١. الباهر، ١٤٣. النكت العصرية، ٨٧-٨١. ابن الفرات، ج ١، مجلد ٤، ص ٢٦. المقرئ، اتعاظ الحنفا، ط ١٩٤٨، ج ١، ص ٢٩٠. الخطط، ط اوفسيت، ج ١، ص ٣٥٨.

(٦) الباهر، ١٤٢. الكامل، ٣٤٤/١١. الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٤٠٧. وفيات الاعيان، ٧/١٥٥.

لكن علينا أن نبين أن بعض المؤرخين قد اطلقوا اسم الغز (الأترك) على كافة منتسبي الجيش النوري المرسل إلى مصر، سواء أكانوا من الترك أو الكرد أو غيرهم، فقد ذكر المقرئزي لدى كلامه عن القصور الفاطمية التي صارت تحت تصرف صلاح الدين بعد سقوط الخلافة، قائلاً: «إن القصر الغربي سكنه الأمير موسك والأمير أبو الهيجاء السمين وغيره من الغز»<sup>(١)</sup> ومعروف أن هذين الأميرين كانا من الامراء الأكراد الهذليين.

هذا ويبدو أن الياوقية كانت أبرز الجماعات التركمانية التي اشتركت في الحملة، فيذكر أبو شامة وغيره أن جماعة عين الدولة الياوقية كانت أكبر الجماعة وأكثرهم جمعاً<sup>(٢)</sup>. إلا أننا لا نعرف شيئاً عن عدد الياوقين ولا عن عدد بقية الجماعات.

أما الجماعات الكردية التي صاحبت أسدالدين شيركوه، والتي ظلت أبرز جماعات الجيش الأيوبي فيما بعد، فكانت من الهذليين الذين حكموا بعض المناطق الكردية فترة من الزمن، ومنها أربيل قبيل العهد الأتابكي<sup>(٣)</sup>.

ويتنسب إلى الهذلية أسرة بني أيوب نفسها، عن طريق انتمائها إلى الأكراد الروادية التي هي بطن الهذلية<sup>(٤)</sup>. هذا إضافة إلى الأميرين الهذليين المذكورين (موسك وأبي الهيجاء) وكذلك الأمير قطب الدين خسرو بن تليل ابن أخي أبي الهيجاء<sup>(٥)</sup>.

ومن الجماعات الكردية الأخرى التي اشتركت في الحملة الهكاريون<sup>(٦)</sup>، وكان على رأسهم سيف الدين علي بن أحمد الهكاري الذي سيغدو من أكبر أمراء صلاح الدين، وعرف بلقب المشطوب فيما بعد، لشرخ في وجهه أصابه في إحدى المعارك، ويعرفه ابن شداد وغيره بـ(كبير ملوك الأكراد)<sup>(٧)</sup>. ومن الهكاريين الذين ضمتهم الحملة الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري الذي اضطلع بدور كبير - كما رأينا - في كسب تأييد القادة النوريين في جيش شيركوه للوقوف بجانب الوزير الشاب صلاح

(١) الخطط، ط اوفسيت، ٤٩٦/١.

(٢) الروضتين، ج١، ق٢، ص٤٠٧. الكواكب الدرية، ١٨٠. وتنسب هذه الطائفة إلى زعيمهم (ياروق بن ارسلان التركماني) انظر: ابن الفرات، ج١، مجلد ٤، ص ٧٨ - ٧٩.

(٣) الكامل، ٦٣٨/١٠. الباهر، ٣٠. وانظر كتابنا (أربيل في العهد الأتابكي) مطبعة اسعد، بغداد ١٩٧٦، ٣٧، ٣٢١.

(٤) الكامل، ٣٤١/١١. وفيات الاعيان، ١٣٩/٧. الروضتين، ج١، ق٢، ص٣٢٩.

(٥) الروضتين، ج١، ق٢، ص٤٠٦.

(٦) الهكاريون: نسبة إلى قبيلة هكاري الكردية التي تمتلك عدداً من المعقل والحصون والقرى في بلاد الموصل من جهتها الشرقية. وفيات الاعيان ٣/٣٤٥. أو نسبة إلى منطقة هكاري الواقعة في القسم الشرقي من بلاد الاناضول - شمال كردستان فيتركيا الحالية - انظر: ف. ف. مينورسكي، الاكراد، ترجمة وتعليق: د. معروف خزندار، مطبعة النجوم، بغداد ١٩٦٨، ص١٧.

(٧) النوادر، ١١٠. انظر: مرآة الزمان ٨/٢٧٨، ٤٢٠. وفيات الاعيان، ١٨٣/١. النجوم الزاهرة، ٣٥٤/٥. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، طبعة حيدر آباد، الدكن - الهند، ٢٢٤/٢.

الدين، بعد وفاة عمه.

والواقع أن استخدام الأكراد في الجيوش الإسلامية يعود إلى فترات سابقة، أي قبل العهد النوري والأتابكي وكذلك السلجوقي، نظراً للمزايا القتالية المتوفرة فيهم وتحملهم قسوة العيش، ولأنهم كانوا رماة بارعين بالنشاب<sup>(١)</sup>. وقد وصفهم الحسن بن عبدالله العباسي بأن «فيهم الشجاعة والنجدة والحمية فرسانهم ورجالتهم»<sup>(٢)</sup>.

لم ينضم جميع التركمان إلى عين الدولة البيروني الذي عاد إلى الشام، بل بقي قسم منهم في مصر. ويبدو أن هؤلاء صاروا مصدر إزعاج للخليفة الفاطمي، وربما لصالح الدين أيضاً. ومما يدل على ذلك أن الخليفة الفاطمي كتب إلى نورالدين محمود يطلب منه أن يسحبهم من مصر، إثر انتصار وزيره على الصليبيين الذين نزلوا على دمياط، وطلب الاقتتصار على صلاح الدين وخواصه، إلا أن نورالدين رفض طلب العاضد، وكتب إليه «يمدح الأتراك ويعلمه أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم، إلا لعلمه بأن قنطاريات<sup>(٣)</sup> الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك، فإن الفرنج لا يرعبون إلا منهم، ولولا هم لزداد طمعهم في الديار المصرية، وتحصلوا منها على الامنية، فلعل الله يبسر فتح المسجد الأقصى، مضافاً إليه نعمه التي لا تحصى»<sup>(٤)</sup> وهذا يدل على مدى اعتماد نورالدين محمود على الأتراك، لما يمتازون به من مستوى قتالي جيد، سواء في عهده أو العهود السابقة<sup>(٥)</sup>.

فالمعروف أن الأتراك دخلوا كعنصر بارز في تكوين الجيش الإسلامي في العهد العباسي منذ أيام الخليفة المعتصم، وقد لاقى الصليبيون عنتاً شديداً من الأتراك في المصادمات التي وقعت بين الطرفين في أيام المعارك الصليبية الأولى<sup>(٦)</sup>. فيعلن صاحب كتاب «أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس» عن أسفه لأن الأتراك الموصوفين باللباقة والمواهب الحربية والبسالة، ليسوا من أتباع المسيح<sup>(٧)</sup>. ويضيف المؤلف قوله: لقد كان حقاً ما قيل من أنه لا يجوز لأحد ما أن يسمى بالفارس، إن كان من

(١) الدواداري، الدرر المضية في اخبار الدولة الفاطمية، ص ١٦٦.

(٢) الحسن بن عبدالله العباسي، آثار الاول في ترتيب الدول، مطبعة بولاق، مصر ١٢٩٥هـ، ص ١٤٧. (يذكر هارولد لامب أن الكرد كانوا يعرفون قانون السيف... ومن صفاتهم أنهم نجيفي القوام... وكانوا يميلون للحرب... ويتعصبون للاسلام «شعلة الاسلام» ترجمة محمود عبدالله يعقوب، مطبعة الارشاد، مؤسسة فرانكلين ودار المتنبى، بغداد ١٩٦٧، ص ٥٦).

(٣) قنطاريات: جمع قنطارية، لفظ يوناني، نوع من الرماح يصنع من خشب يعرف بذا الاسم. مفرج الكروب، ١٨٣/١ هامش ٣.

(٤) الروضتين، ج١، ق٢، ص ٤٦٠. مفرج الكروب، ١٨٣/١. ابن الفرات ج١، مجلد ٤، ص ٨٧.

(٥) وصف الحسن بن عبدالله العباسي التركمان بأنهم «ذوو شجاعة وحمية وغلظة وقساوة... ولهم في الفروسية ورمي النشاب والضرب بالديوس والسيف...» آثار الاول، ص ١٤٦.

(٦) انظر كتاب (أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس) لمؤلف صليبي مجهول، ترجمة: د. حسن حبشي، طبع دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٥٨، ص ٤٠، ٥٠، ٥١، ٥٧ وغيرها.

(٧) ص ٤١.

غير الفرنجية أو الترك. وليس ثمة ما يمكن أن يساويهم في القوة والشجاعة وفن القتال<sup>(١)</sup>. رغم أن في هذا الكلام قسط من المبالغة.

#### ٥- عناصر الجيش الفاطمي:

من الضروري معرفة العناصر التي تكون منها الجيش الفاطمي، لأن هذا يساعدنا في معرفة التغييرات التي أحدثها صلاح الدين في جيش مصر. ومما يذكر أن هذه الجماعات، كانت على العموم، عناصر أجنبية، أي غير مصرية، سواء أكانت عناصر إسلامية أو غير إسلامية، على الرغم من أن بعض هذه العناصر سبق وأن استعملت في مصر قبل العهد الفاطمي. ولكن لا تتوفر لدينا نصوص تشير إلى إشراك صلاح الدين للمصريين في الجيش، بل إنه المؤرخ المصري المقريري يذهب إلى أن صلاح الدين أبعد المصريين عن الجيش، فيذكر أن صلاح الدين «أبعد أهل مصر واضعفهم»<sup>(٢)</sup>. أما أبرز عناصر الجيش الفاطمي فكانت:

#### أ- المغاربة (البربر):

كان أبناء القبائل من المغاربة العنصر الأساس أو الوحيد الذي شكل الجيش الفاطمي، حين فتح الفاطميون مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م واتخذوها مقراً لخلافتهم إعتباراً من سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م عندما دخل الخليفة المعز لدين الله القاهرة على رأس جيش من المغاربة. فكان للفاطميين الأثر الأكبر في هجرة جموع كبيرة من قبائل البربر إلى مصر، فمن المعلوم أن الفاطميين اعتمدوا في تأسيس دولتهم في المغرب على هذه القبائل، وفي جيشهم فرق منهم. وكان من الطبيعي أن تنتقل جموع منهم إلى مصر بانتقال الخليفة إليها<sup>(٣)</sup>.

وينضوي تحت اسم المغاربة أبناء قبائل مغربية (بربرية) متعددة مثل (كتامة) وهم من القيروان<sup>(٤)</sup>

(١) ص ٤٠. وانظر: R. C. Smail, Crusading warfare, Cambridge, 1956, p. 758.

Claude Cahen, Les Changements techniques militaires ansle proche orient medieval et leur importance historique.

مقال في كتاب:

War Technology and Society in the Middle East, edited v.j. Parry and M. E. Yapp, London, 1975, p. 121.

(٢) المقريري، اتعاظ الحنفا، ط ١٩٤٨، ص ٢٩٠. ويذكر د. سعداوي، أن صلاح الدين لم يستخدم المصريين لا في الاسطول ولا في الجيش، بل اكتفى بما يؤدونه من العمل في الخطوط الخلفية والمصانع ودور الصناعة البحرية. التاريخ الحربي، صفحة (ح/ط) من مقدمة الكتاب.

(٣) المقريري، البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب، تحقيق: د. عبدالمجيد عابدين، ملتزم الطبع والنشر عالم الكتب، القاهرة ١٩٦١، ص ١٣٢.

(٤) ناصر خسرو، سفرنامه، ترجمة د. يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٧٠، ص ٩٤. وأنظر: الكامل، ٨١/١٠-٨٢. البيان والإعراب، ص ٥.

وكانوا يدينون بعقائد الفاطميين (الشيعة الإسماعيلية)، وشكلوا عصب دولتهم في مصر<sup>(١)</sup>، وقيل إن عددهم حين أتوا مع الخليفة المعز كان عشرين ألف فارس<sup>(٢)</sup>. ثم قبيلة (زويلة) وكذلك (الباتليين) الذين دخلوا مصر قبل دخول الخليفة إليها<sup>(٣)</sup>. وجماعة (المصامدة) الذين بلغ عددهم عشرين ألف رجل<sup>(٤)</sup> أيضاً. وقبيلة (لواتة)<sup>(٥)</sup> و(الباطلة) و(المجودية)<sup>(٦)</sup>، والبرقية (نسبة إلى مقاطعة بركة)<sup>(٧)</sup> في ليبيا وفئات عديدة كثيرة مثل (هواره) و(صنهاجة) و(دنهاج) وغيرها<sup>(٨)</sup>. هذا وقد علا شأن المغاربة بحيث أن البعض من قادتهم قد تباؤوا مراكز موموقة في مؤسسات الدولة كالوزارة وديوان الجيش<sup>(٩)</sup>.

إلا أن ما أضعف جانبهم قيامهم بالفتن والقلاقل، ولعل هذا حصل حين تغير موقع المغاربة، فلم يعودوا يتمتعون بمنزلتهم السابقة في مؤسسات الدولة، ولاسيما في المؤسسات العسكرية، فبدأوا باستعمال العنف والشدة ضد الأهليين، مما جلبوا على أنفسهم مقت سكان مصر، ولاسيما وأنهم كانوا يختلفون عنهم في المذهب، ويتمتعون بحقوق سياسية واسعة<sup>(١٠)</sup>، ومما أضعف نفوذ المغاربة أيضاً، دخولهم في صراعات ضد الأتراك<sup>(١١)</sup>. حيث اضطروا، بعد إلحاق الهزيمة بهم، إلى التوجه إلى الوجه البحري، وتركز وجودهم فيه، ثم وجهت إليهم ضربة ماحقة حين قدمت قوات أرمنية يقودها أمير الجيوش بدر الجمالي الأرمني الأصل، قائد حامية عكا الذي استدعاه الخليفة المستنصر سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م ليأتي ويضع حداً للوضع المتردي الذي عاشته مصر منذ سنين طويلة<sup>(١٢)</sup>. وجاء أمير الجيوش وسلط قواته على الفئات العسكرية المختلفة، ولاسيما المغاربة منها «فأوقع بلواته وقتل مقدمهم سليم اللواتي وابنه، واستصفي جميع ما كان ولقومه من أنواع الأموال، وأسرف

- (١) د. حسن ابراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ١٢١. د. محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦٦، ص ١٠.
- (٢) سفرنامه، ص ٩٤. د. عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، طبعة دار المعارف، الاسكندرية ١٩٦٨، ص ٣٧.
- (٣) سفرنامه، ن، ص. المقرزي، البيان والاعراب، ص ٥٠.
- (٤) ن. م. ص. وانظر: الكامل، ١٠/٨١-٨٢. البيان والاعراب، ص ٤٩. القلقشندي، قلائد الجمان، ١٦٩.
- (٥) اتعاظ الحنفا، ٢/٢٩٩. اسامة، الاعتبار، ص ٨. يقول القلقشندي إن لواته كانت من أكبر القبائل البربرية وأكثرها بطوناً. قلائد الجمان، ١٧٢.
- (٦) د. سرور، الدولة الفاطمية، ص ١٤٧.
- (٧) عمارة اليمن، النكت العصرية، ٧٤. الاعتبار، ٢٣.
- (٨) المقرزي، البيان والإعراب، ص ٥٠-٥٨.
- (٩) ابن الصيرفي، الإشارة، ٤٧.
- (١٠) د. حسن ابراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، ٦٢١.
- (١١) اتعاظ الحنفا، ١٧٧/٢.
- (١٢) ابن الصيرفي، الإشارة، ٥٥. الدواداري، الدرر المضية، ٣٩٩.

في قتلهم حتى يقال إنه قتل منهم عشرين ألفاً<sup>(١)</sup> ولهذا لا نرى لهم أثراً يذكر في أواخر الدولة الفاطمية، رغم أن ابن إياس يذكرهم ضمن العناصر التي قضى عليها صلاح الدين<sup>(٢)</sup>، ولعل هذا المؤرخ كان يقصد بهم بقايا (البرقيين) الذين أضعف الوزير شاور نفوذهم إلى حد بعيد بعد أن قتل أمراءهم «بسيفه صبراً»<sup>(٣)</sup>.

#### ب- السودان (الزنج- العبيد):

لسودان (أو الزنج) وجود قديم في جيش مصر الإسلامية، لعل تاريخه يعود إلى استخدامهم في عهد الاخشيديين<sup>(٤)</sup>، كجنود مرتزقة. أما في الجيش الفاطمي فيعود وجودهم فيه إلى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١ هـ / ٩٩٦-١٠٢٠ م) فكان بذلك أول خليفة فاطمي استعان بالسودانيين<sup>(٥)</sup>، وزاد عددهم حتى أحدثوا القلاقل في البلاد، مما حدا بالوزير الجرجاني إلى القبض على المسؤولين منهم<sup>(٦)</sup>.

واستمر الخليفة التالي الظاهر (٤١١-٤٢٧ هـ / ١٠٢٠-١٠٣٥ م) على سياسة سلفه في الاعتماد على المرتزقة السودانيين، بل إنه ضاعف في اعتماده عليهم، وتزوج من أمة سودانية أنجبت له ولداً أصبح فيما بعد الخليفة المستنصر (٤٢٧-٤٨٧ هـ / ١٠٣٥-١٠٩٤ م) الذي زاد عدد السودانيين في عهده إلى درجة لم يسبق لها مثيل، حتى بلغوا خمسين ألفاً<sup>(٧)</sup>. في حين ذكر الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي وصل إلى مصر في عهد هذا الخليفة، إن عدد العبيد المشتريين يبلغ ثلاثين ألف رجل<sup>(٨)</sup>.

ولعل سبب هذا التفاوت بين الرقمين يعود إلى أن هذا الرحالة وصل إلى مصر قبل أن يكثُر المستنصر عدد العبيد في جيشه، فالمعروف أن هذا الخليفة عاش بعد زيارة ناصر خسرو إلى مصر مدة تقارب نصف قرن.

وقد جرى استخدام السودان بعد أن تم الحصول عليهم عن طريق الشراء، أو عن طريق الغزو<sup>(٩)</sup>.

(١) الإشارة، ٥٦.

(٢) بدائع الزهور (تاريخ مصر)، ٧٠/١.

(٣) النكت العصرية، ٧٤.

(٤) الخطط (طبعة المعهد) ج٢، ق١، ص٤٤. د. حسن ابراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص٦٢٤. د. سرور، الدولة الفاطمية، ٢٠٢.

(٥) النجوم الزاهرة، ١٨١/٤.

(٦) الخطط، ط اوفسيت، ١٨١/١.

(٧) الكامل، ٨١/١٠. الخطط (طبعة المعهد) ج٢، ق١، ص٤٥، شفاء القلوب، ٧٢. اتعاظ الحنفا، ٢٧٣. د. سرور، الدولة الفاطمية، ١٠١.

(٨) سفرنامه، ٩٤.

(٩) يضيف د. ماجد طريقاً آخر في الحصول على الزنج هو طريق المعاهدة التي عقدت بين الخليفة عثمان وبين ملك =

وقد اعتمد الخليفة المستنصر عليهم في محاولة منه للوقوف بوجه الأتراك، إلا أن الأتراك لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام طغيان نفوذ هذا العنصر، فطاردهم إلى الصعيد، فاستقر خمسة عشر ألفاً منهم في هذه المنطقة في سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م حيث تركز فيها نفوذهم<sup>(١)</sup>. وكانت النتيجة أن أصاب الإنتاج الزراعي الكساد، لأنهم حالوا دون زراعة الأراضي. إلا أن انتصار الجند الأتراك على السودان لم يؤد إلى فصل شوكة العنصر السوداني<sup>(٢)</sup>. بل بوسعنا أن نقول إن المستنصر حاول جهده أن يجعل الحكم بيد السود، فعرف باسم «صاحب السودان»<sup>(٣)</sup>.

ويعلق المقرئ على ذلك بقوله «صار العبد بمصر يحكم حكم الولاة، وشرعت (أم المستنصر) تغض من الأتراك وتظهر كراحتهم وانتقاصهم»<sup>(٤)</sup>. فكان للسودانيين قوة وشوكة حتى نهاية الدولة الفاطمية. ويقول هذا المؤرخ في مكان آخر. إنهم سيطروا على الجيش والدولة والقصر. وإذا ثاروا على وزير قتلوه<sup>(٥)</sup>. حتى أنه لم يكن بديار مصر مدينة ولا محلة ولا ضيعة إلا وفيها محلة مفردة للسودان، محمية لا يدخلها شحنة ولا وال، وكان منهم ضرر عظيم على أموال الناس وأهاليهم<sup>(٦)</sup>. وكان عددهم في تزايد مستمر، فقد قدر بعض المؤرخين عدد السودان في الجيش الفاطمي حين قضى صلاح الدين عليهم بمائة ألف شخص<sup>(٧)</sup>.

وأبرز الجماعات أو القبائل السودانية التي انضمت إلى الجيش الفاطمي هي الریحانية والجيشية والفرحية<sup>(٨)</sup>.

### ج- العرب:

ذكرنا أن الخلفاء الفاطميين لم يدخلوا المصريين ضمن تشكيلاتهم العسكرية، بل اعتمدوا على عناصر أجنبية غير مصرية، ولكن - وكما هو متوقع - اشتركت فيها جماعات من أبناء القبائل العربية في مصر، أو من أبناء المدن، أو العرب القادمين من خارج مصر، ولاسيما من المتعاطفين مع الفاطميين، وكذلك الذين ينضمون إلى الجيش طمعاً في المغانم. فيشير ناصر خسرو إلى (البدو) وهم

=النوبة، ويمقتضاها كان الملك يسلم إلى ولاية مصر المسلمين عدداً من السود مما جعلهم يكثرن في مصر. ظهور خلافة الفاطميين، ٣٧٢-٣٧٣.

(١) ابن الصيرفي، الإشارة، ص ٥٥. اتعاظ الحنفا، ٢/٢٩٩.

(٢) اتعاظ الحنفا، ٢/٢٧٣. د. حسن ابراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٦٢٦.

(٣) د. ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٣٧٢.

(٤) اتعاظ الحنفا، ٢/٢٦٧.

(٥) الخطط (طبعة اوفسيت) ٢/٢٩. شفاء القلوب، ٧٢.

(٦) ابن الفرات، ج ١، مجلد ٤، ص ٧٢.

(٧) مفرج الكروب، ٢/٢٦. النجوم الزاهرة، ٦/٧٨.

(٨) ابن الفرات، ج ١، مجلد ٤، ص ٧٠.

من أهل الحجاز، يقال لهم الرماة، ويعلن أن عددهم في الجيش المصري كان كبيراً، وصل إلى خمسين ألف فارس<sup>(١)</sup>. ويذكر أحد المؤرخين المصريين أن كتامة (من البربر) والأتراك طلبوا من الخليفة الحاكم بأمر الله - الذي عرف بمزاجه ومواقفه المتقلبة - أن يكف عن سياسة الانحياز إلى السود سراً، ضدّهم، وهددوه باستنفار العرب «ولئن لم تكفهم لنحرقن القاهرة، ونستنفرن العرب»<sup>(٢)</sup>. وهذا دليل واضح على مدى قوة هؤلاء العرب في مصر، ولاسيما في تلك الفترة.

وذكر المقرئبي ضمن أحداث سنة ٤٦٩هـ/١٠٧٦م أنه اجتمع بمدينة طوخ من صعيد مصر عدد كبير من عرب جهينة والثعالبة والجعافرة لمحاربة أمير الجيوش بدر، إلا أن هذا القائد أفنى أكثرهم قتلاً، وفر منهم طوائف فغرقوا، ولم ينج منهم إلا القليل، وصادر أموالهم، وسيرها إلى الخليفة المستنصر<sup>(٣)</sup>. ثم وجه بدر قسماً من جنده إلى الوجه البحري وقضى على العرب من قيس وبنو سنيس، فقتل منهم ما لا يحصى، بلغ نحو العشرين ألف إنسان<sup>(٤)</sup>.

وأعلن ابن أياس قائلاً إن من ضمن العناصر التي قضى عليها صلاح الدين، فئة من العرب عرفت بـ«شنترة العرب»<sup>(٥)</sup>، والشنترة تعني «ذوو القرطة»<sup>(٦)</sup> ويصف المقرئبي الشنترة بأنهم قوم عرفوا بالشجاعة والبأس، ولهم خلق تام وعظمة أجسام<sup>(٧)</sup>.

هذا وقد صور أحد الشعراء جند أسدالدين شيركوه بأنهم من الأتراك جاءوا لمحاربة أعراب مصر:

أقول والأتراك قد أزمعت مصر إلى حرب الأعراب<sup>(٨)</sup>

وكذلك نجد أن بني الكنز - الذين قضى عليهم صلاح الدين بسبب ثوراتهم عام ٥٦٩هـ/١١٧٤م كانوا في الأصل بطناً من قبيلة (ربيعة).

وبالمقابل نرى أن بعض الجماعات العربية كانت سندا لأسدالدين شيركوه والحملة النورية. فالذين انضموا إلى جانب أسدالدين شيركوه في بلاد الصعيد حين التجأ إليها عقب موقعة (الباين) كانوا من العرب القاطنين في تلك المناطق النائية من ديار مصر<sup>(٩)</sup>.

(١) سفرنامه، ٩٤.

(٢) النجوم الزاهرة، ٤/١٨٢.

(٣) اتعاظ الحنفا، ٢/٣٢٠.

(٤) د. ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٣٩٤.

(٥) ابن اياس، بدائع الزهور، ١/٧٠.

(٦) لسان العرب، ٤/٤٣١.

(٧) الخطط (طبعة المعهد الفرنسي) ٧/١٦٠.

(٨) الكامل، ١١/٤١٤. مفرج الكروب، تحقيق: د. جمال الدين الشيال، المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٩٥٧، ٢،

ص ١٦. المقرئبي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: د. محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤،

ج١، ص ٥٧. الخطط (طبعة المعهد) ج٣، ق ٢، ص ٢٨٤. البيان والاعراب، ٤٤ - ٤٦.

(٩) الروضتين، ج١، ق ٢، ص ٤٢٧. الخطط (طبعة المعهد) ج٣، ق ٢، ص ١٨٩. النجوم الزاهرة، ٥/٣٤٩. شفاء

القلوب، ٣٠.

وأبرز الجماعات العربية التي ساندت شيركوه كانت من (المجعفرين والقرشيين والطلحيين)<sup>(١)</sup>.

#### د- الأتراك:

كان الأتراك عنصراً فعالاً في الجيش الفاطمي، نظراً للمواصفات القتالية التي كانوا يتمتعون بها، وقد برز دورهم في تكوين هذا الجيش في فترة مبكرة<sup>(٢)</sup>، وبالذات في عهد الخليفة العزيز (٣٦٥-٣٨٦هـ/ ٩٧٥-٩٩٦م) الذي استكثر منهم، وقربهم إليه وأصبحوا منذ ذلك الوقت عنصراً هاماً في الجيش الفاطمي، حتى أنهم قاموا بثورة ضد الخليفة التالي «الحاكم بأمر الله» لأنه أبطل اعطياتهم، وقرب المغاربة<sup>(٣)</sup>.

ويبدو أن هذه السياسة لم تؤثر في أبعاد العنصر التركي من موقع التأثير في الحياة العسكرية. فقد اختل الحكم إلى حد أن تعاقبت أربعون وزارة مختلفة خلال تسع سنوات في بداية النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، فكانت السلطة في هذه الآونة بيد الجند الأتراك، الذين ركزوا إلى القوة في سبيل الحصول على مطالبهم، وأتلفوا قصور الخلفاء، وسببوا الكساد الاقتصادي وهبوط المنتج الزراعي<sup>(٤)</sup>.

وكان بعض وزراء الدولة الفاطمية قد اصطنعوا «استعملوا» الأتراك في حرسهم الخاص، ولعبوا دوراً كبيراً في النزاعات التي جرت في البلاط، والتي أودت بحياة الوزير ابن سلار في عام ٥٤٨هـ/١١٥٣م الذي كان قد عين جماعة من الأتراك في حرسه الخاص بلغ عددهم «٣٠٠» فارس<sup>(٥)</sup>. وكثيراً ما كانت تحدث الفتن والاضطرابات يكون الأتراك طرفاً فيها. كما حصلت في سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م في عهد الخليفة الظاهر، بين الأتراك والمغاربة، قتل فيها عدد كبير من الأتراك على قول المقرئ، ولم تهدأ الفتنة إلا بتدخل الخليفة فتصالح الطرفان<sup>(٦)</sup>.

وما لبث أن دخل الأتراك في صراع مع الزوج «السودان» الذين استقدمهم الخليفة المستنصر بتشجيع من أمه التي تنتمي إلى نفس عنصرهم. ففي الاضطرابات التي حصلت في سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٦م بين الطرفين استطاع الأتراك إلحاق الهزيمة بالزوج ودفعهم إلى أطراف الصعيد، على

(١) الروستين، ج١، ١، ق٢، ص٤٢٥. عن هذه القبائل انظر: المقرئ، البيان والاعراب، ص٢٢، ٣٣، ٤٠.

(٢) المعروف أن الأتراك كثر عددهم في مصر منذ أيام الدولة الطولونية، فقد استعان أحمد بن طولون مؤسس هذه الدولة - وكان تركيا من بلاد ما وراء النهر - بعدد كبير من هؤلاء الترك. انظر: الخطط (طبعة المعهد) ج٢، ق٢، ص٤٣-

٤٤. د. سيده اسماعيل كاشف، أحمد بن طولون، طبعة الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٥، ص١٩. د.

حسن ابراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص٦٤.

(٣) د. سرور، الدولة الفاطمية في مصر، ١٠٢-١٠٣.

(٤) اتعاظ الحنفا، ص٢٠. د. حسن ابراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ٥٨٠-٥٨١.

(٥) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٣٢٠.

(٦) اتعاظ الحنفا، ج٢، ص١٧٧.

الرغم من أن الخليفة وأمه كانا يعضدان الزنوج ويحثانهم على «الابقاع بالأتراك ومحاربتهم وإخراجهم من مصر»<sup>(١)</sup>.

وفي السنة التالية، ونظراً للانتصار الذي أحرزه على غريمهم، فقد طالبوا الخليفة المستنصر بزيادة مقرراتهم، فكانت تبلغ في كل شهر ثمانية. وعشرين ألف دينار في السابق، فبلغت عام ١٠٦٧/هـ ١٠٤٦ م أربعمئة ألف دينار في كل شهر<sup>(٢)</sup>.

وحيث رأوا أن الخليفة لا يلبى مطلبهم، لم يتورعوا عن اللجوء إلى القوة «وحصروا المستنصر وأخذوا جميع الأموال»<sup>(٣)</sup> بل إن استفحال أمر الأتراك هو الذي حدا بالخليفة إلى الاستنجاد إلى أمير الجيوش بدر الجمالي الأرمني، قائد حامية عكا التابعة للفاطميين، وطلب منه أن يأتي إلى مصر بعسكره سنة ١٠٧٣/هـ ١٠٤٦ م، وبمقدم بدر الجمالي دخل عنصر جديد في تركيب الجيش الفاطمي، هو العنصر الأرمني، الذي استطاع بتوجيهات الجمالي من تتبع أثر الأتراك ومطاردتهم أينما كانوا من أرض مصر ولاسيما في مدينتي القاهرة ومصر حيث تركز فيهما النفوذ التركي<sup>(٤)</sup>.

ونجد أن ناصر خسرو الذي زار مصر سنة ١٠٤٦/هـ ١٠٤٦ م ووصف احتفال فتح الخليج، يدخل الأتراك ضمن فرقة «المشاركة» التي تضم «الترك والعجم»، إلا أنه جعل عدد الفئتين معاً عشرة آلاف رجل<sup>(٥)</sup>.

هذا ونجد أن النفوذ التركي قد تقلص إلى حد بعيد في الفترة الأخيرة من تاريخ الدولة الفاطمية، بحيث لم نلمس أي أثر لوجودهم، حين قدمت قوات الشام إلى مصر بقيادة شيركوه.

#### هـ- عناصر اخرى في الجيش الفاطمي:

إضافة إلى العناصر المذكورة، ضم الجيش الفاطمي الأرمن والأكراد، إلا أن معلوماتنا عن هذه الجماعات قليلة.

الأرمن: وجود الأرمن الفعلي في مصر يبدأ في منتصف الحكم الفاطمي، بقدومهم مع القائد الأرمني - الفاطمي أمير الجيوش بدر الجمالي من عكا. وكان هذا القائد قد اشترط على الخليفة المستنصر حين استدعاه، أن يحضر معه من يختاره من عساكر بلاد الشام، ليستعيبهم بهم عن جند مصر من السودان والأتراك والمغاربة، فوافق الخليفة على طلبه<sup>(٦)</sup>. ومما يؤكد أن الأرمن لم يدخلوا

(١) ن. م. ص، ٢٧٣.

(٢) الكامل، ٨٣/١٠.

(٣) اتعاظ الحنفا، ٢٧٥/٢.

(٤) اتعاظ الحنفا، ٣٠٠/٢.

(٥) سفرنامه، ٩٤.

(٦) الخطط (طبعة اوفسيت) ١٣٨/١. د. سرور، الدولة الفاطمية، ص ١٠٧. انظر: د. ماجد، ظهور خلافة الفاطميين،

ص ٣٩٣، ٤٠٢.

الجيش الفاطمي قبل قدوم بدر الجمالي أن ناصر خسرو لا يذكرهم ضمن تشكيلات هذا الجيش حين زار مصر سنة « ٤٤١هـ / ١٠٤٦م » أي قبل مجيء بدر بربع قرن<sup>(١)</sup>. وظل الأرمن في الجيش الفاطمي، حتى قضى صلاح الدين على نفوذهم<sup>(٢)</sup>.

الأكراد: لا تتوفر لدينا إشارات تثبت مشاركة الأكراد في فعاليات الجيش الفاطمي رغم أن القلقشندي يذكرهم ضمن الأجناس التي دخلت في تكوين هذا الجيش<sup>(٣)</sup>. وقد تسنم بعض الأكراد وظائف عالية في أجهزة الدولة الفاطمية، فمما يذكر بهذا الصدد أن أحد وزراء العهد الفاطمي الأخير، وهو العادل ابن السلار سيف الدين أبو الحسن علي، كان كردياً من قبيلة زرزاري، وقد تولى الوزارة في سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م في عهد الخليفة الظافر<sup>(٤)</sup>.

ويذكر القلقشندي أيضاً الديلم والروم والفرنج وكذلك الصقالبة كعناصر انضمت بين وقت وآخر إلى الجيش الفاطمي<sup>(٥)</sup>. فالديلم قد استخدمهم الخليفة العزيز بالله « ٣٨٦هـ / ٩٩٦م » إلى جانب استخدامه للأتراك، واقتصر طيلة خلافته على استخدام هذين العنصرين حسب قول المقرئ<sup>(٦)</sup>. وكذلك لا تتوفر لدينا معلومات عن العجم<sup>(٧)</sup> الذين كانوا في الجيش المصري ضمن فرقة « المشاركة » وبلغ عدد أفرادها عشرة آلاف رجل، وقد ضمت الأتراك والعجم. ويصفهم الرحالة ناصر خسرو بأنهم ضخام الجثة، وأن أكثرهم ولدوا في أرض مصر<sup>(٨)</sup>.

ومما يذكر أن الجيش الفاطمي كان يضم طوائف متعددة تنسب كل منها إلى أحد الخلفاء كطائفة الأمرية نسبة إلى الخليفة الأمر، والحافظية نسبة إلى الخليفة الحافظ أو كانت تُنسب إلى وزير من الوزراء الفاطميين، والجيشية، نسبة إلى الوزير أمير الجيوش بدر الجمالي، والأفضلية نسبة إلى الوزير الأفضل<sup>(٩)</sup>.

كما حصل تماماً في الجيش الأيوبي، حين ضم فرقا متعددة نسبت كل واحدة منها إلى أحد الملوك أو القادة الكبار، كالنورية والباروقية نسبة إلى مقدم الأتراك ياروق بن أرسلان، والأسدية والصلاحية والعدالية « نسبة إلى الملك العادل سيف أبي بكر، أخي صلاح الدين ».

(١) سفرنامه، ص ٩٤.

(٢) مفرج الكروب، ٢/٢٦.

(٣) صبح الاعشى، ٣/٤٧٨.

(٤) وفيات الاعيان، ٣/٤١٦. الكتبي، عيون التواريخ، ١٢/٤٧٥. د. حسن ابراهيم حسن، الفاطميون في مصر، ص ٢٩٦.

(٥) صبح الاعشى، ٣/٤٧٨. انظر: الخطط (طبعة المعهد) ج ٢، ١، ص ٤٤.

(٦) الخطط، ن. م.

(٧) لا يذكر المؤرخ ماذا يعني بـ(العجم) ولعله يقصد (الخراسانيين)، أو (الفرس).

(٨) سفرنامه، ٩٤.

(٩) صبح الاعشى، ٣/٤٧٨.

ولعل هذه الظاهرة كانت من جملة مظاهر ضعف سلطة الخليفة الفاطمي واضطراب حبل الأمن، فصار الوزراء يتخذون قوات خاصة تابعة لهم تتصرف حسب مشيئتهم، وتأخذ الأوامر منهم، على غرار القوات الخاصة التابعة للخلفاء.

وأخيراً يبدو لنا أن المصريين - ولاسيما من سكان المدن ومن الفلاحين - بدأوا يتجنّدون في الجيش الفاطمي في السنوات الأخيرة كجنود نظاميين. فقد أعلن الوزير شاور، في معرض رده على تساؤلات مغيثه الأمير أسدالدين شيركوه الذي تخوف من ضخامة الجيش الفاطمي، قائلاً: إن الجيش الفاطمي لا يستدعي الخوف، لأن أكثر أفراده من الحاكة والفلاحين، ومن السهولة تفريقهم<sup>(١)</sup>.

#### ٦- حجم الجيش الفاطمي:

يعد الجيش الفاطمي أحد أعظم الجيوش في العهود الإسلامية. وقد وصف المقرئزي جيش المعز لدين الله بقوله: إنه لم يظأ الأرض بعد جيش الإسكندر المكدوني أكثر عدداً من جيوش المعز<sup>(٢)</sup> وقد قدر ناصر خسرو عدد أفراد هذا الجيش بمائتين وخمسة عشر ألفاً، منهم مائة وخمسة عشر ألفاً من الفرسان ومائة ألف من المشاة<sup>(٣)</sup>.

ويبدو أن عدد أفراد هذا الجيش بدأ بالتناقص - إذا صححت رواية خسرو وابن مماتي - بعد قدوم بدر الجمالي، حيث بدأ بتصفية بعض عناصر الجيش كالبربر والأترك، معتمداً على عنصر الأرمن بالدرجة الأولى، كما رأينا إضافة إلى العنصر السوداني. فقد رأى المقرئزي بخط الأسعد ابن مماتي - الذي تولى والده واسمه «المهذب الخطير» ديوان الجيش في مصر الفاطمية والأيوبية ثم أعقبه الأسعد في منصبه<sup>(٤)</sup>.

- إن الأسعد سأل القاضي الفاضل عن عدد جنود الجيش الفاطمي أيام الوزير رزيك بن طلائع، أي قبل سقوط الدولة الفاطمية بعشر سنين. فأجاب القاضي الفاضل أنه كان أربعين ألف فارس ونيفاً، وثلاثين ألف راجل من السودان<sup>(٥)</sup>، لكنه لم يذكر أعداد العناصر الأخرى. في حين أن القاضي الفاضل ذكر في رسالة كتبها وبعث بها صلاح الدين إلى الخليفة المستضيء العباسي، أن عدد الرجالة من السودانيين لوحدهم في الجيش الفاطمي، والذين قضى عليهم جيش صلاح الدين بقيادة أخيه الملك العادل وأبي الهيجاء وعزالدين موسك، بلغ مائة ألف رجل<sup>(٦)</sup>.

(١) الروضتين، ج١، ق٢، ص٤١٩.

(٢) الخطط (طبعة المعهد)، ج٢، ق١، ص٤٤.

(٣) سفرنامه، ص٩٤-٩٥.

(٤) ياقوت الحموي، معجم الادباء، مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، طبعة أحمد فريد رفاعي، القاهرة،

ج١٠٩/٦-١١٣. وفيات الاعيان، ١/٢١٠.

(٥) الخطط (طبعة المعهد) ج٢، ق١، ص١٥.

(٦) مفرج الكروب، ٢/٢٦. انظر: النجوم الزاهرة، ٦/٧٦.

ولعل تفسير هذه الزيادة هو انضمام أعداد جديدة من السودان إلى الجيش الفاطمي لتقوية مركز هذا العنصر أمام قوات صلاح الدين. بينما نرى أن أبا عمر وعثمان النابلسي يقول في كتابه المفقود «حسن السريرة في اتخاذ الحصن بالجزيرة» ونقل عنه المقرئ: أن نورالدين محمود حين جهز شيركوه للتوجه إلى مصر، أبقى شيركوه وقال: كيف أمضي إلى إقليم فيه عشرة آلاف فارس وأربعون ألف عبد<sup>(١)</sup> أي من السودان.

ومهما يكن من أمر فإن هذه التناقضات في روايات المؤرخين، بل وفي روايات مؤرخ واحد هو المقرئ، تجعلنا نتردد في أخذها على أنها حقائق ثابتة لاتدحض، أو لاتقبل الجدل، ولاسيما وهي روايات تخص فترة واحدة هي الأيام الأخيرة للدولة الفاطمية. ولعلها - من جانب آخر - تعكس الوضع المضطرب الذي عاشت فيه مصر حينئذ. ويحتمل أن يكون سبب هذا الاضطراب في ذكر الأرقام راجع إلى اختلاف حجم الجيش حين يكون في حالة السلم، بينما يتسع حجمه في حالة النفير أو الاستعداد لخوض المعارك.

#### ٧- اضطراب أوضاع مصر وتصفية الجيش الفاطمي:

رأينا كيف أن عناصر الجيش المختلفة كانت تتقاتل فيما بينها في أكثر فترات التاريخ الفاطمي مع أن هذا الصراع لم يمس قمة النظام، إذ لم يكن هدف هذه العناصر القضاء على الحكم الفاطمي، بل كان اقتتالها يجري بحجة الدفاع عن هذا الحكم، وإعلان الولاء له، على الرغم من أنه - أي الاقتتال - كان من أسباب - ونتائج ضعف هذا الحكم، ومن ثم سقوطه.

ونرى أن لا داعي للكلام مرة أخرى عن هذا الضعف الذي انتاب الحكم الفاطمي والذي أثر في تقليص بقعة دولة مصر الفاطمية جغرافياً إلى حد بعيد، حتى عادت مصر إلى حدودها الإقليمية المعروفة، بعد أن انفصلت عنها شمال أفريقيا وفلسطين وأجزاء أخرى<sup>(٢)</sup>.

بعد قدوم الحملة الشامية بقيادة أسدالدين شيركوه، ووقوع الأحداث المريرة التي تحدثنا عنها، كان لا بد من تشكيل جيش جديد يحل محل الجيش الفاطمي، ولاسيما إذا تصورنا أن جهود صاحب الحملة نورالدين محمود كان يتجه منذ الحملة الأولى نحو القضاء على النفوذ الفاطمي في هذه الديار، وإعادة مصر إلى حظيرة الدولة العباسية<sup>(٣)</sup> على الرغم من أن ظروف مصر الداخلية هي التي قررت مصيرها بالدرجة الأولى. أما صلاح الدين فكان يخطط لاقامة دعائم حكم جديد مستقر، فلا بد من قوة عسكرية منظمة تعضده بتفان في الملمات المرتقبة والانفاق عليها بسخاء، فكان عليه أن يتحرك

(١) الخطط، ن. ص.

(٢) بهذا الصدد انظر: د. حسن ابراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية. وكتابه (الفاطميون في مصر). د. ماجد، ظهور خلافة الفاطميين. د. سرور، الدولة الفاطمية في مصر.

(٣) علي بيومي، قيام الدولة الايوبية في مصر، ص ١٠١.

بسرعة وبحكمة للقضاء على الجيش الفاطمي.

والواقع أن أحداث مصر المتعاقبة، مضافة إلى بعد نظر صلاح الدين وقدراته العسكرية التي حصل عليها في دمشق حين تولى شحنة هذه المدينة قبل قدومه مع عمه إلى مصر<sup>(١)</sup>، وكذلك من تجاربه الغنية التي اكتسبها في مصر، سواء حين كان مع عمه أو بعد وفاته، إلى جانب وجود جماعة من أقاربه وأعوانه المخلصين، كل هذه العوامل خلقت من صلاح الدين قائداً عسكرياً محنكاً، وجعلت منه تلك الشخصية المقاتلة الفذة المعتدة بنفسها، قبل أن ينفرد بحكم مصر، وقبل أن يقدم على تأسيس جيش منظم تابع له.

ولعل معركة (الباين) كانت أول معركة اشترك فيها صلاح الدين بصورة فعالة، كمساعد لشيركوه. وكانت هذه المعركة في الواقع تجربة فذة لمهارة القائدين الأيوبيين، وأثبتت مرة أخرى على أن شيركوه موجه عسكري بارع، وتكتيكي من الطراز الأول، إذ تمكن بقوات محددة من إلحاق الهزيمة بالجيش الصليبي والمصري (الفاطمي) معاً، «وكان هذا من أعجب ما يورخ: إن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل»<sup>(٢)</sup>.

وأظهرت هذه الواقعة ضرورة تصفية قيادة وعناصر الجيش المصري المتواطئة مع العدو الصليبي. والفضل في الانتصار يعود إلى القائد شيركوه الذي وضع خطة تم تنفيذها بنجاح كبير، فقسم جيشه إلى قلب وجناحين، ميمنة ومسيرة، وجعل صلاح الدين في القلب، لعلمه أنهم سيبدأون بالهجوم على القلب، لأن القائد العام يكون عادة فيه، وأمر شيركوه إلى صلاح الدين أن يرتد بانتظام عند نشوب القتال، بينما قاد هو جناح الميمنة، أي أن شيركوه وضع هذه الخطة ليخدع بها العدو. فلما التحم الجيشان تراجع صلاح الدين حسب الخطة، فاندفع الصليبيون خلفه حتى صارت مؤخرتهم أمام شيركوه. عندها هاجمهم شيركوه في حركة التفاف سريعة، فبدد شملهم واضطربهم إلى الفرار مذعورين، ثم ارتد صلاح الدين مطبقاً عليهم من الأمام، وعمه من الخلف، فانحصروا واستسلموا لسيوفهم ورماحهم<sup>(٣)</sup>. ولاشك أن هذه المعركة اضافت إلى خبرات صلاح الدين تجربة جديدة، فعلمته أن الخطة البارعة قد يكون تأثيرها فعالاً أكثر من تأثير كثرة الجند، وخرج من المعركة وقد وثق من قدراته وكفاءته.

والتجربة الأخرى، كانت حصار الاسكندرية الذي ضربه الصليبيون وأعانهم من جند الوزير شاور سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧م، حين توجه صلاح الدين إلى هذه المدينة مع عمه، ثم غادرها شيركوه إلى جهات الصعيد<sup>(٤)</sup>، تاركاً ابن أخيه الشاب يواجه مصيره لوحده أمام القوات الصليبية - المصرية المشتركة،

(١) الروضتين، ج١، ق٢، ص٢٥٠.

(٢) الكامل، ٣٢٦/١١، الباهر، ١٣٤. الروضتين، ج١، ق٢، ص٤٣٨. الذهبي، العبير، ١٧٦/٤. مفرج الكروب، ١٥٠/١. الكواكب الدرية، ١٧١. شذرات الذهب، ٢٠٣/٤.

(٣) شفاء القلوب ٣٠. الكواكب الدرية، ١٧١. Lane - Poole, Saladin, p. 89.

(٤) سنا البرق الشامي، ٦٤. مرآة الزمان، ٢٦٩/٨. الروضتين، ج١، ق٢، ص٣٦٦. الكواكب الدرية، ١٧١.

التي قدمت من القاهرة وحاصرت الاسكندرية، وقد عانت القوات المحاصرة العنت بسبب شدة الحصار وقلة الطعام، ولطول مدة الحصار التي استغرقت أربعة أشهر<sup>(١)</sup> تعلم خلالها صلاح الدين أفسى دروس الحصار، على الرغم من أن أهل الاسكندرية كانوا يساندونه بكل السبل «وصدقوا القتال مع صلاح الدين»<sup>(٢)</sup> وصارت المعاناة التي تحملها من هذه الحصار لاتفارق مخيلته. ففي الحملة التالية (الثالثة والأخيرة)، حين طلب منه عمه أن يتجهز للذهاب إلى مصر، أجابه: «والله يا عمي لو اعطيت ملك مصر ما سرت إليها، فلقد قاسيت بالاسكندرية... ما لا أنساه أبداً»<sup>(٣)</sup>.

وصل خبر حصار الاسكندرية إلى شيركوه، وكان نازلاً بقوص، بصعيد مصر، فأسرع لنجدة صلاح الدين، عندها فك الصليبيون وأعوانهم الحصار، ورحلوا عن الاسكندرية عائدين إلى القاهرة.

ثم توفي شيركوه في جمادى الآخرة ٥٦٤هـ/١١٦٩م، وهذا ما جعل نجم ابن أخيه يسطع بسرعة أكثر، لكنه - أي صلاح الدين - خسر أعظم سند له، رغم أن حياته المقبلة لم تخل من رجال أفذاذ قدموا له المشورة والمساعدة في فترات الحرج والشدة. وتحول صلاح الدين بموت عمه من موقع التابع لعمه إلى مركز القيادة الذي يصدر الأوامر والتوجيهات، بالاتفاق مع مجلس حربه الاستشاري الذي ستزداد أهميته في اتخاذ القرارات في بلاد الشام حين بدأت الاشتباكات مع القوى الصليبية.

إن أهم ما تعلمه صلاح الدين من الأحداث العسكرية السابقة - ولاسيما من موقعه البابين وحصار الاسكندرية - أنه لا يمكن الركون إلى الجيش المصري الفاطمي اطلاقاً في عملياته العسكرية، بل أن الأحداث المرتقبة دفعته إلى اتخاذ قرار تصفية هذا الجيش بالسرعة الممكنة، في وقت كان ما يزال وزيراً للخليفة العاضد. وقد رأينا أن تشكيل قوة عسكرية تابعة للوزير، وليس للخليفة، صار أمراً مألوفاً في مصر الفاطمية ولم يكن الوزير صلاح الدين - بهذا - استثناءً.

وجاء أول حدث حين ثار السودان في صيف عام ٥٦٤هـ/١١٦٩م، لأنهم كانوا يضمرون الحقد على الوزير الشاب الذي أتى بقوات الشام، لتحل محل جند مصر، ولاسيما السودان منهم، فأخذ كبير الخصيان السود، مؤتمن الخلافة (جوهر) يكدد المكائد واتصل بجماعة من المصريين واتفق معهم على مكاتبة الصليبيين واستدعائهم إلى مصر لغزوها، فإذا ما خرج صلاح الدين، هاجمه المتآمرون من مؤخرته<sup>(٤)</sup>. وبذلك تقع قوات صلاح الدين بين نارين فيتم القضاء عليها. إلا أن أحد العاملين لحساب صلاح الدين كشف أمر الرسول الذاهب إلى الصليبيين، فأوعز إلى مراقبة مؤتمن الخلافة، ولما تحقق من

(١) الروضتين، ج١، ق٢، ص٣٧٠. الكواكب الدرية، ١٧١. وفي سنا البرق «شهوراً» ص٦٤.

(٢) الروضتين، ج١، ق٢، ص٣٧٠.

(٣) الكامل، ٣٤٣/١١. الباهر، ١٤١. الروضتين، ج١، ق٢، ص٣٩٤. الكواكب الدرية، ١٧٧. ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، طبعة دار صادر، بيروت ١٩٦٦.

(٤) الكامل، ٣٤٥/١١ - ٣٤٦. مفرج الكروب، ١٧٤/١ - ١٧٥. البداية والنهاية ١٢/٢٥٧ - ٢٥٨. ابن خلدون، مجلد ٥، ق٣، ص٦٢٣.

نوابه قبض عليه وأعدمه في الحال مع كثير من بني جلدته. فأثار بذلك غضب الجند السودانيين «فحشدوا وجمعوا، فزادت عدتهم على خمسين ألف»<sup>(١)</sup> وثاروا مطالبين بأخذ ثأر زعيمهم، واشتبكوا مع قوات صلاح الدين بقيادة المقدم أبي الهيجاء السمين في معركة قرب المكان المعروف لحد الآن «بين القصرين» بالقاهرة، وانتصر فيها جند صلاح الدين وأضرموا النار في منازل السودان، وأحرقوا حي المنصورة الخاص بهم<sup>(٢)</sup>.

وطاردهم شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين إلى الجيزة، ومنها إلى الصعيد حيث وصلوا في هذه الديار تتردهم على صلاح الدين مراراً، وتمكن هذا من قمع حركاتهم وإبادتهم حتى أصبح أمر السودان كأن لم يكن<sup>(٣)</sup>.

ولعل أخطر هذه التمردات كان تمرد الكنز الذي جمع تحت لوائه سنة ٥٧٠هـ/١١٧٥م السودان الذين لجأوا إلى الصعيد، وثاروا ضد صلاح الدين وفتكوا بأخ لأبي الهيجاء السمين، وغيره من الأمراء، وأدرك صلاح الدين خطورة ما يجري، فأرسل في الحال قوة بقيادة أخيه الملك العادل وابن خاله عزالدين موسك بن جكو، وتمكنوا من القضاء على التمرد، وقتلوا الكنز «ولم يبق للدولة بعد كنزها كنز» حسب تعبير العماد الكاتب<sup>(٤)</sup>.

ومن الرسالة التي بعث بها صلاح الدين إلى الخليفة العباسي المستضيء، نجد أنه يقدر عدد السودان الذين قضى عليهم بما يزيد عن مائة ألف رجل<sup>(٥)</sup>.

ثم وجه صلاح الدين جهوده للقضاء على الجند الأرمن الذين وصفتهم الرسالة الموجهة إلى بغداد بأن «لهم شوكة وشكة وحمية وحمية»<sup>(٦)</sup> وامتازوا بأنهم رماة بارعون، وقد قرر صلاح الدين عدم استخدام أهل الذمة<sup>(٧)</sup> أو أهل الكتاب من النصارى واليهود في صفوف قواته.

وكان الأرمن قد اعتصموا في معسكراتهم القريبة من منازل السودان، لعلهم يستطيعون الانقضاض على صلاح الدين عندما تسنح لهم الفرصة بانتصار السودان عليه. فما كان منه - صلاح الدين - إلا وأشعل النار في مقراتهم التي كانت قائمة في منطقة بين القصرين المذكورة، وكانوا في جمع عظيم،

(١) سنا البرق ٨٣/١. الكامل، ٣٦٥/١١. الروضتين، ٤٥٣/١. مفرج الكروب، ١٧٦/١. ابن الفرات. ج١، مجلد ٤، ص ٦٩. الكواكب الدرية، ١٨٤.

(٢) الروضتين، ٤٥١/١ - ٤٥٢. ابن خلدون، مجلد ٥، ق ٣، ص ٦٢٤. ابن الفرات، ج١، مجلد ٤، ص ٧١. شفاء القلوب، ٧٢. الكواكب الدرية، ١٨٥.

(٣) النجوم الزاهرة، ٣٥٤/٥، ٧٦/٦. ابن الفرات، ن. م. ص. Lane Poole, Saladin, P. 101.

(٤) سنا البرق، ١٧٥/١ - ١٧٦. انظر: النوادر، ٤٧ - ٤٨. الكامل، ٤١٤/١١. مفرج الكروب، ١٦/٢ - ١٧. السلوك، ٥٧/١ - ٥٨. البيان والاعراب، ٤٦.

(٥) مفرج الكروب، ٢٦/٢. النجوم الزاهرة، ٧٨/٦. وقيل انه قتل منهم في هذه الموقعة ثمانون ألف رجل، شذرات الذهب، ٢٣٦/٤.

(٦) مفرج الكروب، ٢٦/٢.

(٧) السلوك، ٤٧/١. معجم الادبا، ١٠٩/٦.

فلم يفلت منهم أحد<sup>(١)</sup>.

وبهذا استطاع صلاح الدين القضاء على عصب الجيش المصري، فخلت له الساحة من المنازعين الأقوياء في الداخل، وقضى على القوة التي تستند عليها الخلافة. والقضاء على هذه الحركة يدل على أن صلاح الدين صارت لديه قوة ضاربة يستطيع بها تصفية جيش مجرب ضخيم كالجيش الفاطمي. وكذلك استطاع في السنة التالية (٥٦٥هـ / ١١٧٠م) دحر قوات الصليبيين التي نزلت على مدينة دمياط بمساعدة قوات بيزنطية من صقلية<sup>(٢)</sup>.

هرع صلاح الدين إلى دمياط قبل أن يبدأ الغزاة بإنزال قواتهم عليها، فشحنها بالرجال والسلاح والميرة مستفيداً من تجربته السابقة في الاسكندرية، فهاجمهم بقواته من داخل المدينة ومن خارجها، ولم يمكنهم من استكمال استعدادهم للزحف. واستطاع من دفع الغزاة بمعونة نورالدين محمود، حيث أرسل إليه صلاح الدين يشكو ما كانت قواته فيه من المخافة، ويقول «إني إن تأخرت عن دمياط ملكها الفرنج وإن سرت خلفني المصريون (الفاطميون) في أهلها وأموالها بالشر، وخرجوا عن طاعتي، وساروا في إثري، والفرنج من أمامي فلا تبقى لنا بقية» فسير نورالدين العساكر إليه إرسالاً يتلو بعضها بعضاً<sup>(٣)</sup>، ولعل أبرزها كان بقيادة قطب الدين خسرو الهذباني<sup>(٤)</sup>، ثم سار نورالدين بنفسه إلى بلاد الفرنج فنهبها، وأغار عليها واستباحها. كانت هذه الإغارة على الأراضي التي يحتلها الصليبيون، خطة بارعة من نورالدين محمود، على الرغم من أنها ليست المرة الأولى التي سلك فيها هذه الطريقة في مساعدة نائبه في مصر، وأشعرت الصليبيين بأنهم إن استمروا في هجومهم على مصر لاكتساب مواقع جديدة لهم، فهو - أي نورالدين - قادر على ضرب مواقعهم الأصلية في بلاد الشام، وبطبيعة الحال فإن الصليبيين كانوا يفضلون المحافظة على ما كان بأيديهم في أرض الشام، على الاستمرار في مغامرة غير مأمونة النتائج، مما جعل المؤرخ إبن الأثير يعلق على هذا الحصار بقوله: «خرجت النعام تطلب قرنين، رجعت بلا أذنين»<sup>(٥)</sup>.

استمر حصار دمياط أكثر من خمسين يوماً<sup>(٦)</sup>، استعمل الصليبيون خلال هذه المدة مختلف صنوف آلات ومعدات الحصار من منجنيقات ودبابات وجروح<sup>(٧)</sup>، وأنزلوا في الميناء ألفاً ومائة مركب<sup>(٨)</sup>،

(١) ابن الفرات، ج١، مجلد ٤، ص ٧٠.

(٢) الكامل، ٣٥١/١١، الباهر، ١٤٣. الروضتين، ج ١، ٢، ص ٤٥٦، مفرج الكروب، ١٨٠/١. المخطوط (طبعة المعهد) ٤٢/٥. شفاء القلوب، ٧٣.

(٣) الكامل، ٣٥٢/١٠، الباهر، ١٤٤. ابن الفرات، ج ١، ق ٤، ص ٨٤. ابن خلدون، مجلد ٥، ق ٣، ص ٦٢٥.

(٤) سنا البرق، ٨٧/١. الروضتين، ٤٥٩/١.

(٥) الباهر، ١٤٤.

(٦) سنا البرق، ٨٧/١. الكامل، ٣٥٢/١١. الروضتين، ٤٥٧/١. الكواكب الدرية، ١٨٦. بدائع الزهور، ٧١/١. ابن

الفرات، ج ١، ق ٤، ص ٨٤. Stevenson, The crusaders in the East, p. 196.

(٧) الروضتين، ٤٥٧/١. ابن الفرات، ج ١، ق ٤، ص ٨٢.

(٨) ابن الفرات، ن. ص. ويذكر ابن اياس أن عدد المراكب كان (٢٠٠) مركب، تاريخ مصر، ٧٢/١. ويقول لين پول إنه=

فكان الحادث «نوبة صعبة شديدة» على قول المقريري<sup>(١)</sup>.

وتكمن أهمية الحصار في أن فشله كان نقطة تحول هامة في سياسة الصليبيين تجاه مصر، فأدركوا مدى قوة مصر في عهد الوزير الجديد، وعدم جدوى محاولاتهم المتكررة. فتحولوا عن التدخل في شؤون مصر. إلى أن استجرت أوضاع جديدة بعد وفاة نورالدين ثم صلاح الدين بربع قرن وإثر وفاة الملك العادل سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م، فأعادوا الكرة مع دمياط، رغم أنهم فشلوا في هذه المحاولة أيضاً، نظراً للتحصينات التي أقامها صلاح الدين مراراً. فالمعروف أنه أمر بترتيب المقاتلة على البرجين المتقابلين اللذين يقعان على جانبي الميناء، وقد أقيم هذان البرجان في الأصل للحيولة دون دخول سفن المهاجمين إلى المدينة بايصال أحدهما بالآخر بواسطة سلاسل حديد<sup>(٢)</sup>.

ويلاحظ أن الخليفة الفاطمي قد ساند صلاح الدين في هذه الواقعة مساندة فعالة بكل ما عنده، فلم ين يرسل الأموال والثياب إلى وزيره تبعاً، وأعلن ذلك صلاح الدين بنفسه حين قال: ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إلى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف دينار مصرية، سوى الثياب وغيرها<sup>(٣)</sup>.

لكن لم يشر المؤرخون إلى مشاركة رجال العاضد في هذه المعركة، وهذا يعني أن جيش صلاح الدين صار هو القوة المؤهلة الوحيدة للدفاع عن مصر، حتى في أثناء حكم الخليفة الفاطمي. وقد تبوأ هذا الجيش تلك المكانة بجدارته بعد أن خاض بنجاح تلك المعارك التي إنتهت بتصفية الجيش الفاطمي، سواء بإبادة عناصره - ولاسيما السودان - أو بقطع أرزاق العاملين فيه، وتصفية أمرائه جسدياً حين «عين كل واحد من أمراء الشام، لأمير من أمراء مصر»<sup>(٤)</sup> تحت جنح الظلام وهم مسلحون. فأحاطوا بيوتهم، وحين هموا بالخروج اعتقلوهم ووضعوا اليد «على دورهم واصطبلاتهم وخزائنهم وذخائرهم وسائر موجودهم وجميع أموالهم ومتعلقاتهم»<sup>(٥)</sup>.

كان ذلك قبيل وفاة العاضد بمدة يسيرة، ولما سمع ذلك تأثر كثيراً. وحين سأل العاضد صلاح الدين عن سبب هذا التصرف قال له صلاح الدين «هؤلاء الامراء العاصين لأمرك نقتلهم، ونقيم لك غيرهم ممن يمثّل أمرك، فرضي بهذا القول، وأعجب به»<sup>(٦)</sup>.

=كان (٢٢٠) مركباً. Saladin, p. 103.

(١) الخطط (طبعة المعهد) ٤٢/٥.

(٢) القزويني، آثار البلاد، طبعة دار صادر، دار بيروت، لبنان ١٩٦٠، ص ١٩٣. الظاهري، زبدة كشف المالبيك وبيان الطرق والمسالك، اعتناء وتصحيح بولس راويس، مطبعة الجمهورية، باريس ١٨٩٤، ص ٣٥. الخطط (الطبعة المعهد) ٤٣/٥. ميخائيل عواد، المآصر في بلاد الروم، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٤٨، ص ٣٩.

(٣) الكامل، ٣٥٢/١١. مفرج الكروب، ١٨٣/١. الروضتين، ٤٥٧/١. الذهبي العبير، ١٨٩/٤. النجوم الزاهرة، ٧/٦. شفاء القلوب، ٧٣. الخطط (طبعة المعهد) ٤٣/٥.

(٤) ابن الفرات، ج ١، مجلد ٤، ص ١٣٠.

(٥) ن. م. ص.

(٦) ن. م. ص. وانظر: الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٤٩٨.

ولأيعقل أن يكون العاضد قد صدق مزاعم صلاح الدين، ولكن لم يكن بمقدوره أن يفعل شيئاً، فقد أقلت الحبل من يده منذ مدة طويلة. وعلى أية حال فقد تم لصلاح الدين إتمام ما رتبته، وقويت شوكته، وقطع أخبار أجناد مصر<sup>(١)</sup>.

والواقع أن الجيش الفاطمي كان يمر في الأساس بمرحلة الضعف والانهييار، ولا أدل من طلب النجدة من نورالدين محمود بذلك إلا الإلحاح والاصرار، ثم القضاء على هذا الجيش بتلك السهولة النسبية، رغم ما كان بين جيش صلاح الدين وبين الجيش الفاطمي من تفاوت في حجمهما. وقد أورد ابن أبي طي الحلبي، المعاصر لصلاح الدين، رواية تشير بوضوح إلى الوهن الذي أصاب الجيش الفاطمي في سنيه الأخيرة ويقول: «إن أسدالدين شيركوه أثناء حملته الأولى على مصر، لما عاين كثرة العساكر الفاطمية، بحيث أنهم سيطروا على كافة الجهات، وسدوا منافذ الطرقات، التفت إلى الوزير شاور قائلاً: لقد أرهقتنا يا هذا وغررتنا، وقلت إنه ليس بمصر عساكر، فجننا في هذه الشردمة. أجابه شاور: «لا يهولنك ما تشاهده من كثرة الجموع فأكثرها الحاكمة والفلاحون الذين يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا، فما ظنك بهم إذا حمي الوطيس وكلبت الحرب»<sup>(٢)</sup>.

مما تقدم نرى أن صلاح الدين بدأت تتبلور أهدافه يوماً بعد آخر في السيطرة على مصر، وذلك بالقضاء على الجيش الفاطمي باستخدام كافة السبل والإسراع في تنمية القوة العسكرية التابعة له.

#### ٨- نواة الجيش الأيوبي:

خلف شيركوه بعد وفاته فرقة الخاصة التي سميت باسمه (الفرقة الأسدية) واضطلعت بدور واضح في تنصيب صلاح الدين وزيراً. وكان عدد أفرادها لا يقل عن خمسمائة فارس<sup>(٣)</sup>، وشكلت هذه الفرقة نواة الجيش الأيوبي في مصر، وأنجبت أمراء وقادة كبار من أمثال جاولي الأسدي وابنه حسام الدين قمرتاش، وسيف الدين بازكوج وأرسلان بغا وعزالدين أرسل وسنقر الوشاقفي الأسدي، وغيرهم.

ثم ظهرت فرقة ثانية على مسرح الأحداث عرفت باسم الصلاحية، وهم خواص صلاح الدين، يقودها الأمير أبو الهيجا السمين الهذباني. ومن صفوف هذه الفرقة ظهرت نخبة من الأمراء المعروفين من أمثال فخرالدين جهاركس الناصري، وسيف الدين علي بن أحمد المشطوب وغيرهم.

وكما هو متوقع، فقد قام صلاح الدين بعد أن قضى على الجيش الفاطمي بإحلال عناصر الجيش المذكور. فأحل الأكراد والأتراك، خاصة، محل السودان والأرمن والبربر. فذكر المقرئزي (أنه لما زالت الدولة الفاطمية على يد السلطان أزال جند مصر من العبيد السود والأمراء المصريين والعربان والأرمن

(١) ن. م. ص.

(٢) الروضتين، ج١، ق٢، ص٤١٩.

(٣) الروضتين، ج١، ق٢، ص٤٣٨، ابن الفرات، ج١، ق٤، ص٥٦.

وغيرهم، واستجد عسكرياً من الأكراد والأتراك خاصة<sup>(١)</sup>. وكان هؤلاء قد اعتادوا عيشة التقشف والحشونة وقدرة احتمال الأسفار والقتال<sup>(٢)</sup>.

وذكر ابن إياس أن صلاح الدين أزال ما كان بمصر من العساكر الملققة، وكانوا ما بين صفالبة وكدانة ومصامدة وأرمن وشناترة العرب والعبيد السود، فمحا تلك الطوائف جميعاً، واتخذ عساكر من الأكراد خاصة<sup>(٣)</sup>، وتُظهر هذه الرواية أن عدد الأتراك في جيش صلاح الدين أصبح أقل مما كان في عهد عمه، نظراً لانسحاب عين الدولة الياروقي قائد الفرقة الياروقية الضخمة في جيش شيركوه، وكذلك انسحاب عزالدين جورديك النوري، وغيرهما من قادة نورالدين من الأتراك، لامتناعهم - كما أسفنا - عن موافقه على تولي صلاح الدين وزارة مصر في أعقاب وفاة عمه، وكانوا يريدونها لأنفسهم. ولكن هذا لا يعني تخلي الياروقيين عن المشاركة في الجيش الأيوبي، فما يذكر أنهم لعبوا دوراً بارزاً في الحرب الصليبية المقبلة، فكانوا ضمن من أرسلهم صلاح الدين للوقوف بوجه الحملة الألمانية المتوجهة صوب أرض الشام وساحل فلسطين<sup>(٤)</sup>.

كان وصولهم الى ميدان القتال في لحظة حرجة، وقيادتهم لميمنة الجيش الصلاحي، وهجماتهم على خطوط تموين الصليبيين خلف القدس، قد أسهم إلى حد كبير في انسحابهم وتوقفهم عن الزحف، وذلك حين قدم «بدرالدين دلدرم الياروقي على رأس خلق كبير من التركمان ولقييه السلطان واحترمه»<sup>(٥)</sup>.

والواقع أن صلاح الدين لم يكتف بالأكراد ثم التركمان في تكوين جيشه، فحسب الروايات نجد أن عمه اعتمد على قبائل عربية كانت تقطن مصر والشام، ومعروف أن لفظ العرب كان يطلق على الجماعات البدوية أو أبناء القبائل، وما يذكر أن أسدالدين شيركوه حين التجأ إلى الجيزة استمال القبائل العربية فيها ولاسيما «الأشراف الجعفريون والطلحيون والقرشيون وغيرهم»<sup>(٦)</sup> ثم نزل إلى جهة الصعيد، ولدى وصوله مدينة قوص «تبعته جماعة كثيرة من العربان وأهل تلك البلاد»<sup>(٧)</sup>.

(١) الخنط (طبعة اوفسيت) ٩٤/١.

(٢) مقدمة ابن خلدون، المطبعة البهية المصرية، ميدان الازهر (تاريخ بلا) ص ١٩٠. ابن الازرق، بدائع السلك في طبائع الملك، منشورات وزارة الاعلام، بغداد ١٩٧٧، ج١، ص ١٥٥. د. سعداوي، جيش مصر، طبعة لجنة البيان العربي، القاهرة ١٩٥٦، ص ٩.

(٣) بدائع الزهور، ٧٠/١. امين الخولي، الجندي والسلم، مطبعة الرسالة، القاهرة ١٩٦٠، ص ٥.

(٤) العماد الكاتب، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق: محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٥، ص ٣٩٤. النوادر، ص ١٢٦.

(٥) النوادر، ٢١١.

(٦) الروضتين، ج١، ق٢، ص ٤٢٥. المقرئ، البيان والاعراب، ص ٢٢.

(٧) الروضتين، ص ٤٢٧. الخنط (طبعة المعهد) ج٣، ق٢، ص ١٨٩. شفاء القلوب، ص ٣٠.

وقد سار صلاح الدين على خطى عمه في إدخال العرب المصريين إلى جيشه، ويبدو أن قسماً منهم انضم إلى الجيش بصفة جنود نظاميين. ففي العرض العسكري الذي أقامه صلاح الدين يوم ٨ محرم ٥٦٧هـ/١١ أيلول ١١٧١م، أي إثر قطع الخطبة الفاطمية وقبيل وفاة العاضد بيومين، اشترك فيه ضمن من اشترك، العرب الجذاميون<sup>(١)</sup>، وكانت عدتهم سبعة آلاف فارس، ثم خفض عددهم إلى ألف وثلاثمائة فارس، وكذلك خُفِّض مقدار ما كانوا يأخذونه من المال إلى العشر، أي إلى مائة ألف دينار، وهذا ما فعله مع العرب الثعالبة أيضاً، مما جعلهم هم والجذاميين «يمتعضون ويلوحون بالتحيز إلى الفرنج»<sup>(٢)</sup>.

وكان مواطن الثعالبة مما يلي أرض مصر من جهة الشام، بين العريش ورفح<sup>(٣)</sup> أما قبيلة جذام فكان موطنها بين القاهرة وعقبة ايله<sup>(٤)</sup>. وهم من قدماء عرب مصر الذين قدموا إليها مع الفتح الإسلامي<sup>(٥)</sup>.

وإضافة إلى هؤلاء فإن جماعات من العرب تعاونوا مع صلاح الدين رغبة في الجهاد، أو للحصول على المغنم، بصفة جنود غير نظاميين، كما حصل مع نورالدين الذي تعاون مع عرب الشام من أمثال بني يحتر القحطاني الذين أقرهم نورالدين على ما بأيديهم<sup>(٦)</sup>.

واعتمد نورالدين أيضاً على العرب القاطنين في الأقسام الجنوبية من بلاد الشام للعمل معه كأدلاء لجيشه، ولاسيما بين مصر والشام<sup>(٧)</sup>. وأظهرت الأحداث اللاحقة أنهم يقومون بدور الأدلاء في جيش صلاح الدين، على الرغم من أن قسماً منهم صاروا يعملون لحساب العدو الصليبي<sup>(٨)</sup>. ولاسيما مع ريتشارد قلب الأسد<sup>(٩)</sup>.

ولاشك أن الذين خدموا الصليبيين من البدو صاروا مصدر متاعب للجيش الصلاحي وخاصة قبيلة بني عباد التي امتاز أفرادها بالإقدام، كما يذكر العماد الكاتب. وكانت تقطن منطقة صرخد الملاصقة

(١) السلوك، ٤٧/١. الخطط (طبعة المعهد) ج٢، ق١، ص١٦.

(٢) السلوك والخطط، ن. ص.

(٣) البيان والاعراب، ص٣. صبح الاعشى، ٢١٢/٤.

(٤) البيان والاعراب، ص١٩.

(٥) ن. م. ص٢٣.

(٦) صالح بن يحيى، كتاب تاريخ بيروت، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٩، ص٩٠. د. ابراهيم علي طرخان، النظم الاقطاعية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٨، ص٣٢.

(٧) اسامة بن منقذ، الاعتبار، ص١١.

(٨) الروضتين، ج١، ق٢، ص٥٢٦، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٢٩٣.

(٩) النوادر، ٢١٣. مفرج الكروب، ٢٨٣/٢. أبو شامة، الروضتين في اخبار الدولتين. مجلد يضم الجزء الاول والثاني، مطبعة وادي النيل، القاهرة، ١٢٨٧هـ، ١٩٢٢/٢.

لمنطقة حوران من أعمال دمشق<sup>(١)</sup>.

وكان صلاح الدين قد أبعده «ماتتي فاري أبطال الحرب» سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م إلى دمشق، وطلب من نورالدين محمود أن يعطيهم «أقليماً ويقطعهم اقطاعاً ليقطعهم عن الكفر وبلاده»<sup>(٢)</sup>. ويقصد بذلك تعاون هؤلاء مع الصليبيين، لأنهم يشكلون خطراً على المنطقة الواقعة بين مصر والشام، لأنهم يعرفون «خبر طرقها ومناهجها»<sup>(٣)</sup>.

ولا يستبعد أن يكون للصراع القبلي الدائر بين بدو المنطقة أنفسهم، هو الذي حدا بالبعض منهم إلى الانضمام إلى الأعداء، ولأن النزعة البدوية كان يعوزها الوعي الديني والتوجيه والتنظيم لكي تسير حركة الجهاد الإسلامي والتطوع في صفوف الجيش الإسلامي. هذا إضافة إلى المغريات التي كان الصليبيون يلحون بها لكسب هؤلاء البدو ليتخلوا عن جماعتهم ويعملوا لحسابهم، وقيامهم بتهريب الحبوب إلى الفرنجة<sup>(٤)</sup>، مما دفع العماد الكاتب أن يطلق ملاحظات مريرة بحقهم<sup>(٥)</sup>.

وكذلك انضمت جماعات من المغاربة إلى الجيش الأيوبي، ويحتمل أنهم انضموا إليه بصفتهم جنود غير نظاميين، تطوعوا بدافع الحماس الديني للجهاد ضد الغزاة. ولا تتوفر لدينا معلومات عنهم سوى ما ذكره الرحالة المغربي ابن جبير الذي زار مصر والشام في عهد صلاح الدين بقوله: إن أهل البر والإحسان من الأثرياء والخواتين من النساء، كانوا يخصصون جزءاً من ثروتهم لافتكاك المغاربة الذين وقعوا أسرى بيد الصليبيين<sup>(٦)</sup>، والواقع أن المغاربة اشتركوا في جيش نورالدين محمود أيضاً - إضافة إلى جيش مصر الفاطمي، كما ذكرنا - فيقول ابن جبير إن نورالدين نذر في مرضه أصابته تفريق اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى من المغاربة<sup>(٧)</sup>.

وتذكر المصادر أن الذين كانوا يديرون شؤون الحمامات الخاصة بالجيش الإسلامي الأيوبي أثناء حصار عكا الطويل الذي دام حوالي السنتين، كان أكثرهم من المغاربة<sup>(٨)</sup>.

(١) سنا البرق، ١/١٢٥. القلقشندي، نهاية الارب في معرفة أنساب العرب، مطبعة النجاش، بغداد ١٩٥٨، ص ١٣٤.

(٢) سنا البرق، ١/١٢٥.

(٣) للتفصيل انظر كتاب: دريد عبدالقادر نوري، سياسة صلاح الدين، مطبعة الارشاد، بغداد ١٩٧٦، ص ١٠٢-١٠٣.

(٤) السلوك، ١/٧١.

(٥) سنا البرق الشامي، ١/٢٩٩. وجب (صلاح الدين) ص ١٧٣ هامش ٧١ نقلا عن مخطوط (البرق الشامي) ج ٣، ورقة ١٧٠.

(٦) رحلة ابن جبير، طبعة دار صادر، دار بيروت، بيروت ١٩٦٤، ص ٢٨٠.

(٧) ن. م. ص.

(٨) السلوك، ١/٩٤ نقلا عن عبد اللطيف البغدادي، معاصر صلاح الدين، في كتاب «الاعتبار».

## ٩- حجم الجيش الأيوبي وتطوره:

ذكرنا أن الأحداث الخطيرة التي عاشتها مصر منذ الحملة الشامسية - النورية أسهمت في نشوء الجيش الأيوبي الذي أخذ على عاتقه مهمة الدفاع عن مصر، سواء في عهد وزارة شيركوه وصلاح الدين، أو بعد القضاء على الخلافة الفاطمية، وقد تطورت وتوسعت قدرات هذا الجيش إلى حد كبير بحيث استطاع الصمود أمام الهجمات الصليبية والصقلية والبيزنطية ودرحها، وقمع الحركات المناوئة للحكم الأيوبي. الناشيء في الداخل.

بعد أن تعرفنا على العناصر التي كونت هذا الجيش، بات من الضروري أن نعرف حجمه، لنعرف بالتالي مستواه القتالي على العموم. فقد كتب المقرئ نقلالاً عن القاضي الفاضل كبير مستشاري صلاح الدين، قوله: في مستهل عام ٥٦٧هـ/١١٧١م ومع القضاء على الخلافة الفاطمية، جرى عرض عسكري اشترك فيه مختلف صنوف الجيش الصلاحي قديمها وحديثها، بأسلحتها وخيولها وعدتها الحربية، وتوافقت في الوصول إلى القاهرة، وقد دعي إلى مشاهدة العرض رسل البيزنطيين والصليبيين «رسل الروم والفرنج» وكان عرضاً عسكرياً ضخماً سارت المواكب فيه موكب إثر موكب، وطلباً بعد طلب<sup>(١)</sup>.

والطلب بلغة الغز - كما يقول المقرئ - هو الأمير المقدم الذي له علم معقود ويوق مضروب، وعدة من مائتي فارس إلى مائة إلى سبعين فارس. واستمر العرض إلى أن انقضى النهار ودخل الليل دون أن يكمل عرضهم. وكان عدد الأطلاب المشتركة مائة وسبعة وأربعين (١٤٧) طلباً، إضافة إلى عدم اشترك عشرين طلباً كانت غائبة، ويضيف القاضي الفاضل: «وتقدير العدة يناهز أربعة عشر ألف فارس أكثرها طواشية<sup>(٢)</sup> والطواشي من كان رزقه سبعمائة إلى ألف إلى مائة وعشرين دينار، وله برك (دواب) من عشرة رؤوس إلى ما دونها ما بين فرس وبرذون ويغل وجمل وله غلام يحمل سلاحه والباقي (يقصد الباقي من الجند) قراغلامية»<sup>(٣)</sup>.

(١) الطلب وجمعه أطلاب، كلمة كردية (أو تركية) كما ذكر المقرئ. انظر: المتن، معناها الأمير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال، وتطلق أيضاً على قائد المائة وكذلك السبعين. وكان أول استعمال هذا اللفظ بمصر والشام أيام صلاح الدين. انظر: السلوك، ج١، ق١، ص٢٤٨ الهامش. ومفرج الكروب، ٥٩/٢ هامش ٣.

(٢) يشرح المقرئ معنى لفظة الطواشي في المتن. وكان يعني خدام الخليفة المقرئين أو ما يسمونه «الاستاذون». صبح الاعشى، ٤٧٧/٣. وفي معنى آخر لا ينطبق على ما ورد هنا يعني «الخدام الخصيان». صبح الاعشى، ٤٥٦/٥. انظر: د. حسن الباشا، الانقلاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة ١٩٥٧، ص٣٨٢. وهذا يعني أن الطواشي - في ذلك الحين - كان يعني مرتبة اعلى، لأنه كان في خدمته غلام يحمل سلاحه. الكامل، ٣٧٩/١٢. مفرج الكروب، ٤٩/٤ ترد كلمة الطواشي بمعنى فارس. ويرى لين بول Saladin, p.154 ان طواشية اصلها طواويس Toassin على قول ولیم الصوري. والطاويس يعبر عن الرجل الوسيم، فالطواشية مختارون من فئات راقية، وصار بعضهم قوادا في جيش صلاح الدين. د. سعداوي، التاريخ الحربي، ص ١١٠ رغم أنني لا أصوب رأي لين بول.

(٣) الخطط (طبعة المعهد) ج٢، ق١، ص١٦. والقراغلامية تعني بالتركية (ولد أسود)، ولعلها كانت تطلق على السودان، ثم تطورت وصارت تطلق على باقي الفرسان الذين مستواهم دون مستوى الطواشي، كما يبدو من الشرح الآنف الذكر.

ويبدو من هذا الشرح - الذي يشبه عملية إحصائية - أن صلاح الدين صار له جيش، تعداد الخيالة فيه حوالي ستة عشر ألف فارس، إلا أن المقرئزي - أو القاضي الفاضل - لم يبين عدد الطواشبية وعدد القراغلامية الذين كانوا في الجيش، واكتفى بالقول إن أكثر ما في الأطلاب كانوا من الطواشبية.

وبعد عشر سنوات من التاريخ المذكور، أي في سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م، قام السلطان بعملية حسابية جديدة لمعرفة قوة جيشه. وخلال هذه السنوات حصلت تطورات بارزة في تاريخ المنطقة، وتاريخ الجيش الأيوبي، وأثرت على مكونات وقدرات وحجم هذا الجيش وخبراته، منها: إرسال حملة إلى بلاد اليمن بقيادة شمس الدولة توران شاه بن أيوب، أخي صلاح الدين في رجب ٥٦٩هـ/١١٧٤م<sup>(١)</sup>، ثم الانزال الصقلي الواسع على الاسكندرية في نهاية سنة ٥٦٩هـ وبداية سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م<sup>(٢)</sup> وثورة الكنز في سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م<sup>(٣)</sup>، ثم قيام صلاح الدين بحملته الأولى إلى بلاد الشام وفتح بعض مدنها الداخلية، ثم عودته إلى مصر، وتجريده حملة عسكرية على جنوبي فلسطين، وهزيمته المعروفة عند الرملة<sup>(٤)</sup>.

كل هذه الاحداث وغيرها، إضافة إلى إيعاز صلاح الدين «بقطع أخباز»<sup>(٥)</sup> جماعة الأكراد، لأنهم كانوا السبب في هذه الكسرة<sup>(٦)</sup>، قد سببت في انخفاض عدد جند صلاح الدين، إلا أنه سرعان ما عوض هذا النقص. ويظهر ذلك من الأرقام الجديدة التي ذكرها المقرئزي ضمن متجددات السنة المذكورة (٥٧٧هـ/١١٨١م) وقال: إن صلاح الدين قام للنظر في أمور جيشه، لمعرفة الزيادة والنقصان الحاصلين في عدد جنده، واستقرت العدة على ثمانية آلاف وستمئة وأربعين (٨,٦٤٠) فارساً، بينهم أمراء مائة وأحد عشر أميراً، وستة آلاف وتسعمائة وستة سبعين (٦,٩٧٦) طواشبية<sup>(٧)</sup>. أما القراغلامية فكان تعدادهم ألفاً وخمسمائة وثلاثة وخمسين (١٥٥٣)<sup>(٨)</sup>.

(١) النوادر، ٤٦. الكامل، ٣٩٦/١١. وفيات الاعيان، ٣٠٦/١. الروضتين، ١، ج١، ق٢، ص ٥٥١. البداية والنهاية،

٢٧٣/١٢. أبو مخرمة، تاريخ عدن، ١، ج١، ق٢، ص ٣٧. الكواكب الدرية، ٢٢١-٢٢٢.

(٢) الكامل، ٤١٢/١١. مفرج الكروب، ١١/٢. النويري، كتاب الامام بالاعلام فيما جرت به الاحكام، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد - الدكن - الهند ١٩٦٨، ج١، ص ١٦٣-١٦٥.

(٣) الكامل، ٤١٤/١١. النوادر، ٤٧-٤٨. وفيات الاعيان، ١٦٥/٧. مفرج الكروب، ١٦/٢-١٧. الخطط (طبعة المعهد) ج٣، ق٢، ص ٢٨٤.

(٤) سنا البرق، ٢٥٧/١-٢٦٠. الكامل، ٤٤٢/١١-٤٤٣. مفرج الكروب، ٦٠. الروضتين، ١، ج١، ق٢، ص ٦٩٩-٧٠٣. الذهبي، العبر، ٢١٦/٤.

(٥) اخباز: أي اقطاع. انظر: السلوك، ٨٥/١. النوادر، ٢٤٥. بولياك، الاقطاعية في مصر وسورية، منشورات دار المكشوف، بيروت، طبعة ثانية ١٩٤٨، ص ٥٩.

(٦) السلوك، ٦٥/١.

(٧) هنا نجد التمييز بين الفارس والطواشي.

(٨) الخطط (طبعة المعهد) ج٢، ق١، ص ١٦.

ويصبح المجموع أكثر من سبعة عشر ألف مقاتل، أي أكثر مما كانوا عليه في العرض الإحصائي السابق الذي جرى سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م وبلغت نفقات الجيش السنوي (٣,٦٧٠,٠٠٠) دينار، وهذا مبلغ كبير بالنسبة لذلك العصر.

هذا بينما لم يدخل المقريري ضمن هذا الحساب فئات كثيرة منها «المحللون من الأجناد (العاطلون عن العمل العسكري - وربما كانوا من المرتزقة) والعربان المتطوعون بالشرقية والبحيرة والكنانيون والمصريون والفقهاء والقضاة والصوفية، وعمما يجري في الدواوين، ولم يقصر "أي لم يقل" ما معهم (ما رصد لهم من النفقات) عن ألف ألف - أي مليون - دينار»<sup>(١)</sup>.

ولاشك في أن صلاح الدين لم يكن يوسع أن يشرك كافة قواته المصرية في حملاته المقبلة إلى بلاد الشام، فالضرورة كانت تقضي ترك قسم منها في مصر للدفاع عنها، إذا تعرضت لعدوان خارجي مباغت، أو حركات داخلية معارضة، كالتي حصلت في أعوام ٥٦٩هـ/١١٧١م، ٥٧٠هـ/١١٧٣م، ٥٧٢هـ/١١٧٦م. «فيذكر أبو شامة أن صلاح الدين حين عاد إلى الشام وغادر مصر للمرة الأخيرة في محرم ٥٧٨هـ/مايس ١١٨٢م استصحب نصف العسكر، وأبقى النصف الآخر يحفظ ثغور مصر»<sup>(٢)</sup>.

وفي حملته الأولى لم يأخذ معه من جند مصر سوى كتيبة<sup>(٣)</sup> في سبعمائة فارس<sup>(٤)</sup>. وكان صلاح الدين على علم بأن هذا العدد غير كاف لفتح بلاد الشام، لكن العملية بالنسبة له لاتعدو كونها عودة إلى البلاد التي خرج منها قبل ست سنوات، والتي نشأ وترعرع فيها هو وعمه والدة وأبناء أسرته، حتى أنه ما أن حل بدمشق إلا ونزل في دار والده المعروفة بدار العقيقي<sup>(٥)</sup>، وعم الفرع دمشق.

وهذا يعني أن صلاح الدين ترك جيشه بكامله في مصر، سوى هذا الجزء اليسير منه، ولاسيما وأن مصر خرجت لتوها من محن قاسية متتالية حصلت خلال أقل من سنة (النصف الثاني من ٥٦٩هـ وبداية ٥٧٠هـ/١١٧٤م) كادت أن تعصف بالحكم الأيوبي فيها، وهي على التوالي: مؤامرة عمارة

(١) المصدر نفسه والصفحتين.

(٢) الروضتين، ٢٧/٢.

(٣) تذكر المصادر أن صلاح الدين أخذ معه جريدة والتي تعني «أقل العسكر» أنظر: الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، مطبعة الإستقامة، القاهرة ١٩٥٩ ص ٣٢٩. والكتيبة تعني جماعة من الجند يتراوح عددهم بين ١٠٠-١٠٠٠ أنظر: النويري، نهاية الإرب، ط القاهرة ١٩٥٤. ١٨٩/٦.

(٤) الكامل، ٤١٦/١١. زبدة الحلب، ١٩/٣. مفرج الكروب، ١٩/٢. أبو الفداء، المختصر، ٧٦/٥. السلوك، ٥٨/١-٥٩. شفاء القلوب ٨٤.

(٥) انظر: المصادر السابقة، وكذلك: النوادر، ٥٠. سنا البرق، ١٧٦-١٧٧. الروضتين، ج١، ق٢، ص ٦٠٢-٦٠٥. ابن العبري، تاريخ مختصر الدولة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٥٨، ط ثانية، ص ٢١٦. البداية والنهاية، ٢٨٨/١٢. شذرات الذهب، ٢٣٦/٤.

اليمني وأصحابه<sup>(١)</sup>، الإنزال الصليبي على الاسكندرية<sup>(٢)</sup>، وثورة الكنز بالصعيد<sup>(٣)</sup>. في وقت كان بعث جزءاً من قواته إلى بلاد اليمن قبل وقوع هذه الأحداث (رجب ٥٦٩هـ) إضافة إلى محنة وفاة نورالدين محمود في شوال سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م، وانقطاع مساعداته العسكرية إلى مصر، رغم الشكوك التي ساورت العلاقات بين الطرفين في السنوات الثلاث الأخيرة من عمره<sup>(٤)</sup>.

ولعل المناسبة الوحيدة التي استدعى فيها صلاح الدين الجيش المصري برمته كانت بعد الانتصارات التي أعقبت حطين ٥٨٣هـ/١١٨٧م حين أرسل في إثر «من بقي من العسكر» في مصر عند أخيه الملك العادل وأمره بالمسير إلى بلاد الفرنج ومحاصرة ما يليها منها<sup>(٥)</sup> بعد أن إطمأن على وضع مصر الداخلي والخارجي.

ونجد أن صلاح الدين بدأ بعد وصوله إلى بلاد الشام بكسب تأييد بقايا الجيش النوري في دمشق وحلب وحماه وغيرها من المدن الشامية التي فتحها تباعاً، وخلق منها جيشاً شامياً تابعاً له يلزمه في تحركاته. أما الكتيبة المصرية التي قدمت معه فإنه أعادها إلى مصر لترتاح، لأنه لم يعد بحاجة إليها يومئذ<sup>(٦)</sup>.

وصار من الأمور المألوفة لدى صلاح الدين أن يرسل في إثر بعض قوات جيشه في مصر حين تستدعى الحالة ذلك، ثم يأمرها بالعودة إلى مصر حين تنتفي الحاجة إليها، وهذا ما حصل مراراً<sup>(٧)</sup>.

ويفهم من هذا أن صلاح الدين صارت لديه قوتان، قوة مصرية كاحتياطي لجيش الشام يستخدمه لدى الحاجة الشديدة إليه، وللدفاع عن مصر ضد عدوان خارجي محتمل، وهذه القوة هي امتداد للجيش النوري القادم من الشام تحت قيادة شيركوه، والذي كان قوامه ثمانية آلاف فارس وآلاف أخرى من المشاة ثم انضمت إليها جماعات حتى تضاعف حجمها كما رأينا.

ثم قوة أخرى شامية تحت تصرفه المباشر، وهي التي ترافقه في تحركاته العسكرية، وكان مركزها دمشق، وضمت هذه القوة بالدرجة الأولى قوات جيش نورالدين محمود، باستثناء حلب التي لم يتم ضمها إلى دولة صلاح الدين إلا بعد وفاة صاحبها الملك الصالح اسماعيل بن نورالدين محمود، بنحو سنتين، أي في محرم سنة ٥٧٩هـ/مايس ١١٨٣م، وكان الصالح هذا قد انتقل من دمشق إلى حلب

(١) سنا البرق، ١٤٧/١ - ١٤٩. الكامل، ٣٩٨/١١ - ٤٠٠. مفرج الكروب، ٢٤٣/١ - ٢٤٥. السلوك، ٥٣/١ - ٥٤.

(٢) سنا البرق، ١٦٩/١ - ١٧٥. الكامل، ٤١٢/١١ - ٤٤٤. النوادر، ٤٨ - ٤٩. مفرج الكروب، ١١/٢ - ١٦. الامام، ١٦٣/١ - ١٦٩. السلوك، ٥٥/١ - ٥٧.

(٣) الكامل، ٤١٤/١١. النوادر، ٤٧ - ٤٨. وفيات الاعيان، ١٦٥/٧.

(٤) الكامل، ٣٧١/١١، ٣٩٢. الباهر، ١٥٨. مفرج الكروب، ٢٢١/١. الروضتين، ١٦، ٢، ص ٥١٨.

(٥) الكامل، ١١/١١، ٥٤٠.

(٦) ن. م، ٤٣٥/١١.

(٧) ن. م، ١١/١١، ٥٤٠، ٤٣٥. مرآة الزمان، ٣٣٣/٨، ٤١٥. الروضتين، ٨/٢، ٢٧. زبدة الحلب، ٢٦/٣. السلوك، ٦١/١.

إثر وفاة والده، بعد إلحاح كمشتكين أحد أمراء والده. وكان هذا الأمير قد استحوذ على حلب وعلى ابن مخدومه الحدث<sup>(١)</sup>.

صار صلاح الدين كلما ضم مدينة إلى دولته، يصبح جيشها تابعاً له واقطعها لأحد أقاربه أو أحد أمرائه، باستثناء ما حصل مع بعض أمراء خارج بلاد الشام، ولاسيما في بلاد الجزيرة، مثل آمد وأربيل وسنجار وجزيرة ابن عمر والموصل، فتركها بيد أصحابها، ربما لأنه كان يطمئن إلى حكام هذه المدن كونهم من حلفائه ومن بني جلدته، إضافة إلى إطمئنانه إلى سكانها الكردي، عدا حكام المدينة الأخيرة (الموصل) الذين ناصبوه العداوة فترة من الزمن. لكن صلاح الدين إشتراط على هذه المدن أن تشارك في عملية الجهاد عندما تستدعي الحاجة أما انضمام حلب ومن ثم الموصل فإنه لم يتم إلا عبر محاولات عديدة، وبعد جهد جهيد، وفرض الحصار عليهما، فتم تسليم حلب بعد أن اقتنع صاحبها عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود بأخذ سنجار واطرافها بدلاً من حلب<sup>(٢)</sup>. في حين استطاعت الموصل الصمود بوجه صلاح الدين في المرات الثلاث التي فرض فيها الحصار عليها، رغم هزائم جيشها في المعارك المفتوحة<sup>(٣)</sup>.

ولم يأل صاحبها جهداً في طلب المعونة من الصليبيين، أو من الطائفة الإسماعيلية التي ناصبت صلاح الدين العداة هي الأخرى. وأخيراً وافقت الموصل أن تدخل في تبعية صلاح الدين بموجب اتفاقية عقدت بين الطرفين في سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م<sup>(٤)</sup>، وصار جيش الموصل اعتباراً من هذا التاريخ، يحارب تحت إمرة صلاح الدين، ويزود صاحب الموصل الجيش الأيوبي بالسلح والتروس والنفط الأبيض<sup>(٥)</sup>.

ولعل الموصل كانت تمتلك قوة أكبر من أية قوة محلية أخرى، وهذا ما جعلها تصمد أمام ضربات صلاح الدين، إضافة إلى متانة أسوارها.

وتعتبر الموصل الإمارة الوحيدة التي تزودنا المصادر بمعلومات وثيقة عن حجم جيشها، وحصل ذلك في مناسبة طريفة حين أضطر مؤرخ الموصل الشهير ابن الأثير القيام بعملية إحصائية دقيقة في محاولة منه لدحض ادعاءات العماد الكاتب مؤرخ الركب الصلاحي الذي تحدث عن انتصار صلاح الدين على جيش سيف الدين غازي وقائده عزالدين زلفندار في معركة تل السلطان التي وقعت على

(١) كان الملك الصالح طفلاً في الحادية عشر من عمره لدى وفاة والده.

(٢) النوادر، ٥٩. الكامل، ٤٩٦/١١ - ٤٩٧. مرآة الزمان، ٣٧٥/٨. زبدة الحلب، ٦٦/٣. الروضتين، ٤٢/٢.

(٣) عن حصار الموصل الاوّل سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م انظر: النوادر، ٥٧. الكامل، ٤٨٥/١١. والثاني في

٥٨١هـ/١١٨٥م، الكامل ٥١٥/١١. مفرج الكروب، ١٦٧/٢. والحصار الثالث في ٥٨١هـ/١١٨٥م أيضاً. مفرج

الكروب، ١٧٠/٢. وانظر أيضاً: د. رشيد الجميلي، دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي، طبعة دار

النهضة، بيروت، ١٩٧٠، ص ١٣٨ - ١٦٠.

(٤) عن الصلح انظر: النوادر، ٧٠. الكامل، ٥١٧/١١. الروضتين، ٦٤/٢. زبدة الحلب، ٨٣/٣.

(٥) الفتح القسي، ٣٥٠. الروضتين، ١٤٨/٢.

بعد مرحلة من حلب على طريق حماه في ١٠ شوال ٥٧١هـ/١١٧٦م، وقال العماد «وجاءنا الخبر أنهم (أي جيش الموصل وحلب) في عشرين ألف فارس سوى سوادهم، وما وراءهم من امدادهم، وأنهم موعودون من الفرنج بالنجدة، وأنهم يزيدون كل يوم في القوة والشدة. وما كان اجتمع من عسكرنا سوى ستة آلاف فارس»<sup>(١)</sup>.

هنا إنبرى ابن الأثير ورأى أن من الواجب أن يرد على أقوال العماد فقال: «ذكر العماد الكاتب في كتاب (البرق الشامي)... أن سيف الدين كان عسكره في هذه الوقعة عشرين ألف فارس، ولم يكن كذلك، إنما كان على التحقيق يزيد على ستة آلاف فارس أقل من خمسمائة، فإني وقفت على جريدة العرض، وترتيب العساكر للمصاف ميمنة ومسيرة، وقلباً وجاليشية<sup>(٢)</sup>، وغير ذلك.

وكان المتولي لذلك والكاتب له، أخي مجد الدين أبا السعادات المبارك، وإنما قصد العماد أن يعظم أمر صاحبه «يقصد صلاح الدين» بأنه هزم بستة آلاف عشرين ألفاً، والحق أحق أن يتبع، ثم ياليت شعري كم هي الموصل وأعمالها إلى الفرات، حتى يكون لها وفيها عشرون ألف فارس»<sup>(٣)</sup>.

وما يهمننا من رد ابن الأثير هذا هو الخدمة التي قدمها لنا في معرض دفاعه عن هزيمة أتابك الموصل، وهي أن جيش الموصل كان تعداده ستة آلاف وحوالي خمسمائة فارس، وهذا جيش ضخم ولاشك، خاصة إذا ما قارناه بجيش صلاح الدين في هذه الوقعة، والذي هو جيش الشام وجزء من جيش مصر<sup>(٤)</sup> وهم من الفرسان.

وكذلك إذا قارناه بحجم جيش صلاح الدين في موقعة حطين الذي لم يتجاوز ضعف حجم جيش الموصل.

هذا ومقدورنا إلى حد ما أن نقدر حجم جيش بقية إمارات المنطقة، على ضوء معرفتنا لحجم جيش إمارة الموصل، التي كانت أوسع وأقوى الإمارات في ذلك العهد<sup>(٥)</sup>.

ولعل أكبر حجم وصل إليه الجيش الأيوبي، وهو في حالة حرب، كان في موقعة حطين. ويتحدث بعض المؤرخين المعاصرين، وغيرهم، عن أعداد الجيش النظامي لصلاح الدين، فيقول ابن الأثير «لقد تلاحقت سائر الأمداد والعساكر، واجتمع بهم (صلاح الدين) وساروا جميعاً، وعرض

(١) سنا البرق، ١/٢٠٠-٢٠١. مرآة الزمان، ٨/٣٣٣. الروضتين، ج١، ق٢، ص ٦٥٠-٦٥١ نقلا عن البرق الشامي. مفرج الكروب، ٢/٣٨-٣٩.

(٢) معنى الجاليش في الاصل الراية العظيمة التي في رأسها خصلة من الشعر، ثم اطلق على مقدمة القلب في الجيش، أو على الطليعة منه. صبح الاعشى، ٤/٨.

(٣) الكامل، ١١/٤٢٩. مفرج الكروب، ٢/٤١-٤٢.

(٤) كان صلاح الدين قد بعث في إثر قوة مصرية وصلت في التو إلى ساحة المعركة. النوادر، ٥٢. الروضتين، ج١، ق٢، ص ٦٥٠. مفرج الكروب، ٢/٣٢.

(٥) يخمن (جب) حجم جيش دمشق وكذلك جيش حلب بألف جندي، وحمص بخمسمائة جندي، صلاح الدين، ١٦٥-١٦٦.

العسكر، فبلغت عدتهم اثني عشر ألف فارس ممن له الأقطاع والجامكية، سوى المتطوعة»<sup>(١)</sup>.  
بينما لم يذكر العماد الكاتب عدد جند صلاح في (الفتح القدسي) واكتفى بالقول إنه ما رأى  
عسكراً أبرك منه ولا أكبر<sup>(٢)</sup>.  
في حين ذكره في كتابه (البرق الشامي) الذي نقل منه أبو شامة. وقدر الذهبي عدد مقاتلي الجيش  
الأيوبي بثمانين ألف فارس وراجل<sup>(٣)</sup>.  
يقول رنسيما: إن ما أورده عماد الدين في (البرق) ومعه المؤرخون المذكورون، من أن الجيش  
الأيوبي تألف من اثني عشر ألف فارس، وعدد كبير من المتطوعة، لا يخلو من المبالغة، غير أن هذه  
المبالغة لم تضارع تلك المبالغة التي قدر بها الجيش المسيحي، فجعله خمسين ألفاً<sup>(٤)</sup>. لكن سرعان ما  
يفند رنسيما ما قاله قبل قليل ويقول: «يصح أن نفترض أن الجيش النظامي لصلاح الدين بلغ  
حوالي اثني عشر ألف رجل، غير أنه ازداد عدداً بمن انحاز إليه من المتطوعة، ومن الكتائب التي بعث  
بها حلفاؤه، فأضحى عدده يقدر بنحو ثمانية عشر ألف رجل»<sup>(٥)</sup>.

(١) الكامل، ٥٣١/١١. زبدة الحلب، ٩٢/٣. الروضتين، ٧٦/٢. مفرج الكروب، ١٨٧/٢. السلوك، ٩٣/١. البداية  
والنهاية، ٣٢٠/١٢. الذهبي تاريخ الإسلام، مخطوط مصور في مكتبة الدراسات العليا، قسم ١، رقم ١٦٥٩ ورقة  
٧ب.

(٢) الفتح القسي، ص ٦٤.

(٣) الذهبي، مخطوط، ن. و.

(٤) رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ٧٩٨/٢.

(٥) رنسيما، ٧٩٩/٢.

## الفصل الثاني تنظيمات الجيش الأيوبي

- ١- دمشق مركز للجيش الأيوبي.
- ٢- ديوان الجيش.
- ٣- زي الأجناد.
- ٤- التموين.
- ٥- الإقطاع العسكري.
- ٦- التعبئة العسكرية.
  - أ- نظام التخميمس.
  - ب- الحلقة الخاصة، ومماليك السلطان.
- ٧- الأطلاب وأصناف الجيش حسب سلاح كل صنف:
  - أ- الفرسان (الخيالة).
  - ب- المشاة (الرجالة).
  - ج- أصناف أخرى.
- ٨- المتطوعون في الجيش الأيوبي.
- ٩- الفرق الملحقة بالجيش:
  - أ- الفرقة الهندسية.
  - ب- الفرقة الطبية.
  - ج- فرقة الموسيقى العسكرية.
  - د- حملة أعلام الجيش.



## ١- دمشق مركز للجيش الأيوبي

أصبحت بلاد الشام مركزاً للمقاومة الإسلامية ضد الصليبيين، ولاسيما في عهد نورالدين محمود الذي ملك دمشق سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م حين كانت بيد مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين أتابك<sup>(١)</sup>.

ولما توجه صلاح الدين إلى الشام سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م جعل من دمشق مركزاً للحكم الأيوبي في هذه البلاد. ولاشك أن موقع هذه المدينة القريب من الأقاليم التي يحتلها الصليبيون وبعد المراكز الأخرى - ولاسيما حلب التي ظلت بيد أمراء نورالدين ردحاً من الزمن استمر إلى سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م - إضافة إلى متانة أسوار دمشق وتوفر وسائل العيش فيها ولطف هوائها، كل هذه العوامل جعلت من هذه المدينة مركزاً لا يعرض بالنسبة لصلاح الدين، ليقوم بجهوده الرامية لتوحيد الجبهة الإسلامية، ويتحرك لاسترداد الأراضي العربية المحتلة.

فمن دمشق انطلقت القوات الأيوبية مراراً للإغارة على حصن الكرك المنيع، وإلى طبرية وحطين في سنة الفتوح (٥٨٣ - ٥٨٤هـ) وإلى جهات الشمال نحو أنطاكية وأعمالها وقلاعها، وإلى الجنوب نحو صفد وكوكب وبيسان وغيرها<sup>(٢)</sup>. وكان يعود إلى دمشق بقواته حين الانتهاء من عملياته الحربية<sup>(٣)</sup>. وقد يحدث أن يجتمع في دمشق جميع عساكر الجيش الأيوبي، كما حصل في سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م<sup>(٤)</sup> وسنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وهذا يعني أن المشرفين على شؤون الجيش الأيوبي قد وفروا المعسكر اللازم لايواء عدد غفير من الجنود، ووفروا في المعسكر ما يحتاجون إليه من طعام وأماكن لراحتهم وراحة دوابهم وغيرها. والواقع أن معسكراً ضخماً كهذا كان موجوداً في دمشق قبل العهد الأيوبي بمئات السنين، وهو معسكر الجابية الشهير، الذي كان في الأصل ضيعة قريبة من دمشق<sup>(٥)</sup>، قبل الإسلام، إلا أن الفتح الإسلامي رفع من شأنها حين حولها إلى معسكر عد أكبر معسكر في بلاد الشام ومركزاً لجندها. وامتازت الجابية بمناخها الصحي حتى اتخذت مصحاً للجنود<sup>(٦)</sup>.

(١) الكامل، ١١/١٩٧.

(٢) بهذا الصدد يقول جان سوفاجيه: إن أتابك السلاجقة والايوبيين وسموا دمشق بسمه خاصة دائمة، إذ جعلوها موقعا حريباً. انظر كتابه: دمشق الشام، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٣٦، ص ٣٤.

(٣) انظر على سبيل المثال: الكامل، ١١/٤٥٢، ١٢/٦. زبدة الحلب، ج٣، الصفحات ٩-٢١، ٢٦-٢٧، ٥٥، ٥٦، ٧٢-٧٣، ٧٤، ٧٩، ٨٤، ٩١، ١٠١، ١٠٨، أبو الفداء، المختصر، ج٥، ص ٨٧، ٩٠، ٩١، ٩٨.

(٤) محمد بن تقي الدين عمر الأيوبي، مضممار الحقائق وسر الخلائق، مطبعة عالم الكتب، القاهرة ١٩٦٨، ص ١٨٨. السلوك، ١/٨٤.

(٥) معجم البلدان، ٣/٩١.

(٦) دائرة المعارف الإسلامية، ط ١٩٣٣، ج٦، ص ٢٣٣. وعن أهمية الجابية انظر الكامل، ٢/٥٠٠-٥٠١، ٥٣٥=

إضافة إلى وجود ميدانين للتدريب وللرياضة التي كان البعض من القادة والامراء يمارسونها مثل نورالدين محمود وصلاح الدين وغيرهما، وقد وصف ابن جبير هذين الميدانين حين زار دمشق أيام صلاح الدين، وذكر أنهما يقعان خارج البلدة في جهة الغرب وكانهما مبسوطان خزاناً لشدة خضرتهما... والنهر بينهما... يذهب السلطان إليهما ويلعب فيهما بالصوالمجة<sup>(١)</sup>. وفي كل ليلة يخرج أبناء السلطان إليهما للرمية واللعب والصوالمجة<sup>(٢)</sup>. وكذلك لممارسة لعبة (القبق) التي كان نورالدين محمود مغرمًا بها<sup>(٣)</sup>، أما الميدان الثاني فكان يمتد على أرض حصباء جنوبي دمشق ولهذا دعي ميدان الحصى<sup>(٤)</sup>. ولعل القلعة كانت أبرز معالم دمشق العسكرية والإدارية، فكان فيها مرافق الدولة من مخازن السلاح (الزردخاناة) والسجن وبيت المال ودواوين الدولة<sup>(٥)</sup>. هذا وكانت دمشق ملجأً لغير القادرين على الحرب من الذين يصحبون الجيوش القادمة إليها من أماكن بعيدة. ومخزناً للاحتياطي من الذخيرة والسلاح<sup>(٦)</sup>. وكذلك كانت مأوى للأسرى الفرنج، الذين كانوا يقعون في أسر المسلمين، ولاسيما في الأماكن التي كانت غير بعيدة عن دمشق<sup>(٧)</sup>. وقد جعل من هذه المدينة مأوى للأسرى لكي يسهل عليه تبادلهم مع الأسرى المسلمين لدى العدو.

## ٢- ديوان الجيش

كان هذا الديوان مسؤولاً عن الشؤون الخاصة بالجيش، ويتولاه أحد المطلعين على قضايا هذه المؤسسة شرط أن يكون مسلماً وله الرتبة الجليلية والمكانة الرفيعة<sup>(٨)</sup>. وكان هذا الديوان بمثابة وزارة الدفاع في الوقت الحاضر، والمتولي له مسؤول عن معرفة أحوال الأجناد وتسجيل الامور الخاصة بحضورهم وغيابهم وأوضاعهم الصحية وموتهم<sup>(٩)</sup>. والمرجح أن يكون ثمة ديوانان للجيش الأيوبي، أحدهما خاص بمصر والثاني بالشام، إلا أننا لا

= ٥٨٦/٥. صبح الاعشى، ٣٩٤/١.

(١) الصولجان: العصا المعقوفة الرأس، أي لعبة الكولف Golf.

(٢) رحلة ابن جبير، ص ٢٦١.

(٣) الروضتين، ج١، ق ٢، ص ٥٧٩. ولعبة القبق نوع من التدريب على الرماية، وهي من ألعاب الفروسية، وطريقتها- تتم بنصب صار طويل من الخشب في رأسه شكل قرعة (وهي أصل معنى قبق بالتركية) بمثابة الهدف، ويوضع به حمام، ثم يأتي اللاعبون على ظهور الخيل يرمون القبق (القرعة) بالنشاب، وفائزهم من يطير الحمام. وقد يستبدل بالقرعة حلقة من الخشب. هامش ٢ من الروضتين.

(٤) محمد ياسين الحموي، دمشق في العصر الأيوبي، المطبعة الهاشمية، دمشق ١٩٤٦، ص ٥٩. جان سوفاجيه، دمشق الشام، ص ٣٥.

(٥) الحموي، ن. م. ص.

(٦) الكامل، ٤٧٨/١١.

(٧) مضممار الحقائق، ص ٢٩.

(٨) صبح الاعشى، ٤٨٨/٣.

(٩) ن. م. ص.

نعرف من الذي تولى أمر هذا الديوان في الشام، أما في مصر فقد تولاه (المهذب بن أبي المليلح ممتاتي) منذ أواخر العهد الفاطمي، واستمر على هذه المهمة أيام صلاح الدين الأولى، إلا أنه وشي به عند صلاح الدين، أو أسدالدين شيركوه - على حد قول ياقوت الحموي - لكونه من النصارى «فخاف المهذب، فجمع أولاده ودخل على السلطان وأسلموا على يده، فقبلهم وأحسن إليهم وزاد في ولاياتهم»<sup>(١)</sup> إلى أن توفي سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م، عندها تولى الديوان ابنه الأسعد مصنف كتاب «قوانين الدواوين» وتصدر الديوان فترة طويلة، ثم أضيف إليه في الأيام الصلاحية والعزيرية<sup>(٢)</sup> ديوان المال، وهذا يعني أن المتولي لديوان الجيش طيلة أيام صلاح الدين كان الأسعد ووالده المهذب. ويصف ابن خلكان الأسعد بأنه كان فيه فضائل وله مصنفات عديدة، ونظم «سيرة السلطان صلاح الدين» ونظم كتاب «كليلة ودمنة» وله ديوان شعر، رأيت به بخط ولده، وتقلت منه مقاطع<sup>(٣)</sup>. في حين لم يتطرق ابن خلكان إلى كتابه «قوانين الدواوين». توفي الأسعد عن اثنين وستين سنة، في عام ٦٠٦هـ/١٢٠٩م في مدينة حلب<sup>(٤)</sup>.

ولا تتوفر لدينا معلومات تخص هذا الديوان زمن صلاح الدين، ولا سيما المتعلقة منها بأقسامه والأعمال التي كان يقوم بها المتولون على شؤونه ومساعدتهم.

### ٣- زي الأجناد

يسط القلقشندي الكلام عن مظاهر الجيش في العصر المملوكي التركي في مصر، ذلك العصر الذي نضجت واستقرت فيه الكثير من التقاليد الخاصة بمختلف شؤون الحكم والإدارة والكتابة والجيش والمال وغيرها، والذي يعده المؤرخون استمراراً للعهد الأيوبي، بل إنهم يعتبرون العهد الأيوبي الذي لم يدم في مصر أكثر من ثمانين سنة، حلقة وصل بين العهد السلجوقي - الأتابكي من جهة، والعهد المملوكي الذي دام حوالي ثلاثة قرون (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) من جهة أخرى، ولا سيما في التقاليد العسكرية. في حين نرى أن العصر الفاطمي الذي استمر في مصر أكثر من قرنين، لم يترك ذلك الأثر في كيان الدولة الأيوبية، ومن ثم المملوكية، على الرغم من أن الأيوبيين حكموا مصر عقب انهيار الدولة الفاطمية مباشرة. بينما لم يحدث أن حكم السلاجقة أو الأتابكة بلاد مصر في يوم من الأيام. ومع هذا فالتأثير الذي تركه هؤلاء (السلاجقة والأتابكة) على شؤون الحكم الأيوبي ثم

(١) معجم الادباء، ٦/١٠٨. العماد الكاتب الاصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء مصر، نشر أحمد امين، شوقي ضيف، واحسان عباس، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة ١٩٥١، ج١، ص١١٣.  
(٢) نسبة إلى الملك العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين الذي خلف والده في حكم مصر.  
(٣) وفيات الاعيان، ١/٢١٠. وانظر: البداية والنهاية، ٢٣/٢٥٣. شذرات الذهب، ٥/٢٠.  
(٤) يعد أن هرب من صفى الدين بن شكر وزير الملك العادل أبي بكر الذي تولى حكم مصر بعد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين.

المملوكي واضح إلى حد بعيد<sup>(١)</sup>.

والواقع أن المعلومات المتوفرة عن العصر المملوكي غزيرة إلى حد كبير، ولكن لا يمكن تطبيقها على العصر الأيوبي، إلا بشيء من الحذر، ومن ثم فإن طول الحقبة التي حكم المماليك خلالها مصر يجعلنا نقول: إن النظم المملوكية التي يتحدث عنها مؤرخ ما، كالمقريزي أو القلقشندي أو ابن إياس أو غيرهم، عن فترة معينة من فترات تلك الحقبة الطويلة، ليست بالضرورة هي نفسها في فترة أخرى من التاريخ المملوكي نفسه.

وعن زي القادة العسكريين والجنود الأيوبيين يتحدث القلقشندي ويقول: إن الدولة الأيوبية لما طرأت على الدولة الفاطمية، وخلفتها في الديار المصرية، خالفتها في كثير من ترتيب المملكة، وغيّرت غالب معالمها، وجرت على ما كانت عليه الدولة الأتابكية في عهد عماد الدين زنكي بالموصل، ثم ولده الملك العادل نورالدين محمود بالشام وما معه، «وكان من شأنهم أنهم يلبسون الكلوتات<sup>(٢)</sup> الصفر على رؤوسهم مكشوفة بغير عمائم، وذوائب شعورهم مرخاة تحتها سواء في ذلك المماليك والامراء وغيرهم»<sup>(٣)</sup>.

إلا أن تغييراً جرى في لباس الرأس في بعض الفترات الأتابكية والأيوبية، فسيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي، ثاني أتابكة الموصل (٥٤١ - ٥٤٤ هـ/١١٤٦ - ١١٤٩ م) استحدث حمل السنجق على رأسه، وقلده الملوك في ذلك، وألزم الأجناد أن يشدوا السيوف في أوساطهم، ويجعلوا الدبابيس تحت ركبهم عند الركوب<sup>(٤)</sup>.

وحين «ملك صلاح الدين الديار المصرية، جرى على هذا النهج أو ما قاربه»<sup>(٥)</sup>. والملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبو بكر صاحب دمشق (٦١٥ - ٦٢٤ هـ/١٢١٨ - ١٢٢٧ م) استحدث عادة لبس الكلوته الصفراء بلا شاش<sup>(٦)</sup>، كما يذكر القلقشندي<sup>(٧)</sup>، فالكلوته في عهد صلاح الدين كانت تلبس وعليها شاش، إلى أن رفعه الملك المعظم، واستمر هذا التقليد إلى العهد المملوكي حين أمر الملك الأشرف خليل ابن السلطان محمد بن قلاوون بإعادة الشاش على الكلوته، كما كانت عليه الحال في

(١) صبح الاعشى، ٥/٤. وربما يعود سبب ذلك إلى أن تقاليد الحكم الأيوبي في مصر (إضافة إلى الشام) إنبثقت من تقاليد الحكم في بلاد الشام وبلاد الجزيرة (الفراتية).

(٢) الكلوتات: «ضرب من اللباس كانوا يرتدونه في الهند، وفي مصر من قبل الامراء» دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة: د. أكرم فاضل، طبعة دار الحرية، وزارة الاعلام، بغداد ١٩٧١، ص ٨٥.

(٣) صبح الاعشى، ٥/٤، ٣٩/٤.

(٤) الكامل، ١٣٨/١١. المختصر، ٣١/٤.

(٥) صبح الاعشى، ٦/٤.

(٦) الشاش: قطعة من البز تلف حول طاقية أو عرقية أو حول الرأس. وهي كلمة معادلة للعمامة. دوزي، المعجم المفصل، ص ١٩٧ - ١٩٩.

(٧) صبح الاعشى، ٥/٤.

عهد صلاح الدين<sup>(١)</sup>.

أما ثياب البدن فكانوا يلبسون الأقبية<sup>(٢)</sup> التثرية الواسعة والتكلات فوقها، ثم القباء الإسلامي فوق ذلك، ويشد السيف من جهة اليسار والصولق<sup>(٣)</sup> والكرزك<sup>(٤)</sup> من جهة اليمين، حسب ما يذكره القلقشندي<sup>(٥)</sup>.

وأول من أحدث هذه التغييرات هو سيف الدين غازي صاحب الموصل المذكور، وقلده باقي الامراء والمقدمون وأعيان الجند، فكانوا يلبسون قبا عىن تكون أكمام القباء الفوقاني أقصر من أكمام القباء التحتاني وأوسع منه<sup>(٦)</sup>.

وكان ما يلبسونه في الصيف يختلف - بطبيعة الحال - عما يلبسونه في الشتاء. إلا أن القلقشندي - الذي ينفرد في التحدث عن الزي العسكري بهذا التفصيل - لا يتحدث عن أزياء الجنود، بل يقصر حديثه على أزياء الامراء، إلا أننا نرى أن وصفه لا ينطبق على أزياء الجيش الأيوبي، ولا سيما لبس المناطق الفضية المطلية بالذهب أو المعمولة من الذهب المرصع باليشم<sup>(٧)</sup>. وكذلك وصفه لما كانوا يلبسونه في الشتاء من «الصوف النفيس والحرير الفائق، وتحتها فراء السنجاب الغض» وما كان الامراء يلبسونه من فرو جيد صنع من جلود حيوانات نادرة من فصيلة السموريات كالوشق والقاقم كانت تجلب خصيصاً من آسيا الوسطى موطن المماليك الأصلي، باستثناء فراء حيوان الفتك الذي كان موجوداً في مصر.

أما ما كانوا يحتدونه، ففي الصيف يلبسون الخفاف البيض، وفي الشتاء يلبسون الخفاف الصفر من الأديم الطائفي، ويشدون المهاميز الفضية على الخف، وكان الامراء الذين لهم إقطاع واسع يجعلون مهاميزهم من الذهب<sup>(٨)</sup>.

فعلى الرغم من أن القلقشندي لا يجزم في كون هذه الأزياء والأحذية كانت خاصة بالمماليك، إلا أننا نرى أن العصر الأيوبي كان عصر جهاد وصراع دائمين مع المحتلين الصليبيين، وعهد تقشف في المظهر

(١) صبح الاعشى، ص ٦.

(٢) القباء: ثوب يلبس فوق الثياب.

(٣) الصولق: جراب أو كيس من جلد يربط على الجانب الايمن من الحياصة توضع فيه حاجات السفر من الزاد، وجمعه صوالق. السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٧٨٩. واللفظ تركي يعني: الذي في جهة اليسار، وليس اليمين، ف«صول» يعني يسار.

(٤) الكرزك: الخنجر أو السكين. سعيد الديوه جي، الموصل في العهد الأتابكي مطبعة شفيق، بغداد ١٩٥٨، ص ٧٢. د. الجميلي، دولة الموصل، ص ٢٥٨.

(٥) صبح الاعشى، ٤/٤.

(٦) صبح الاعشى، ٤/٤٠.

(٧) اليشم: حجر كريم يشبه الزبرجد لكنه أصغر منه. المنجد في اللغة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط ١٧.

(٨) صبح الاعشى، ٤/٤١.

والملبس. ولكن هذا لا يعني بأن المسؤولين على الجيش لم يهتموا كلياً بالملابس، أو أنهم لم يغيروا بين ما كانوا يلبسونه في الصيف وما يلبسونه في الشتاء، ولا سيما وأن في صفوف الجيش أمراء إقطاعيات غنية، ومماليك ذات تقاليد ملكية عريقة، لا يأتمر حكامها بأمر السلطان الأيوبي، لكنهم يحضرون إلى ساحة القتال حين يستدعون. مثل الموصل وديار بكر خاصة. ومهما يكن فإن الجيش الذي يعنيه القلقشندي في وصف الأزياء كان المقصود به جيش مصر، وليس جيش ملوك وأمراء الشام والجزيرة، وهو بالتالي ينطبق على جيش المماليك - خلفاء الأيوبيين - الذي صارت له تقاليد عريقة متقنة في الاهتمام بمظاهر الحكم والأبهة أكثر من أية مرحلة أخرى من تاريخ مصر الإسلامية. وعلى أي حال فإننا لو رحنا نفصل في أوصاف الملابس وأسمائها وأوضاعها وتطورها في مختلف البلاد الإسلامية على تغير العصور، لتكلفنا من الأمر شططاً لا نجد من موارد التاريخ عليه معيناً. ونضيف أن الامراء - أو بعضهم - ولربما الجنود أيضاً - كانوا يحملون معهم بعض المعدات الضرورية التي قد يحتاجون إليها خلال المدة التي يقضونها بعيدين عن أهليهم، فكانوا يحملون معهم السكين والدفش<sup>(١)</sup> والخيوط والدسترك<sup>(٢)</sup>، والمطرقة والمسلة (الإبرة) حسب ما ذكره ابن الأثير لدى كلامه عن الأمير زين الدين علي كجك<sup>(٣)</sup>. إضافة إلى بعض معدات الأكل والشرب الضرورية<sup>(٤)</sup>.

#### ٤- التموين

إن التموين في الحروب القديمة يشكل إحدى أهم مشاكل تعبئة الجيوش نظراً لصعوبة المواصلات، والاعتماد في حمل المواد على حيوانات النقل البطيئة الحركة إضافة إلى تلف المؤن، وكذلك صعوبة الاتصال بالمراكز لطلب المؤن حين نفاذها، ولهذا فكثيراً ما كانت مسألة التموين تحدد مصير الحملات، وتسرع في حسم نتائج المعركة لصالح الطرف الذي أخذ احتياطه الكافي من الزاد والماء. فكان على القائد أن يمون جيشه بالكمية اللازمة التي تكفي المدة التي يقضيها في الطريق، وفي حالة الحرب، ثم العودة، وأن يضع في حسابه استمرار التزود بالمؤن عند الحاجة، ولا يقطع عنه خط التموين كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وإذا أدركنا أن حالة العطش الشديد التي عانى منها الصليبيون يوم حطين كانت في طبيعة أسباب هزيمتهم الشنيعة في ذلك القبيظ من شهر تموز، أدركنا أهمية سلاح الماء في رجحان كفة طرف دون

(١) الدررش: ما يشبه المخراز، ابن خلف التبريزي، طبعة مؤسسة مطبوعاتي أمير كبير سنة ١٣٣٦هـ، ص ٤٨٢. محمد موسى هندواي، المعجم في اللغة الفارسية، مكتبة مطبعة مصر ١٩٥٢، ص ١٥١.

(٢) الدسترك: منشار صغير، هندواي، ١٥٦.

(٣) الباهر، ١٣٥.

(٤) هذا ولا حاجة بنا إلى الكلام هنا عن المعدات الدفاعية التي كان المحاربون - ولا سيما القادة والفرسان - يرتدونها لوقاية رأسهم وجسمهم ورجلهم من الطعنات كالبيضة والجوشن والكراغند، فستحدث عنها في مكان آخر.

آخر، ولعل صعوبة تزود عكا بالمؤن اللازمة كانت أهم أسباب سقوطها بيد الصليبيين بعد صمود طويل رائع دام نحو سنتين.

وكانت مواد التموين تحمل في مؤخرة الجيش عادة، أي في الساقة، وكانت تسمى بـ«الثقل» ولكن حدث في بعض الحملات أن وضعوا الثقل في وسط الجيش، أي بالقرب من قلب العسكر. ويحتمل أن يكون سبب ذلك خشيتهم من استيلاء العدو عليه والظفر به. ففي أواسط جمادى الاولى سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م «رحل السلطان إلى تعبئة لقاء العدو، ورتب الأطلاب، وسارت الميمنة أولاً والقلب في الوسط والميسرة في الأخير ومقدمها مظفر الدين ابن زين الدين، وسار الثقل في وسط العسكر»<sup>(١)</sup>.

ونجد أن الجند من جهتهم كانوا يحملون معهم بعض مواد التموين الضرورية في الجراب - الصولق - المعمول من الجلد الذي يعلق على الكتف. ولدى التهيؤ للسير يتعبأ الجند بنزولهم إلى السوق والتزود بالضرورات، ولعلها لم تتعد الخبز والجبن والبصل وبعض اللحوم المجففة، وشيء من الحبوب والبقول والأثمار والتمور. فلدى الاستعداد للقيام بنوبة الرملة التي انتهت بهزيمة صلاح الدين ٥٧٣هـ/١٧٧م.

يتحدث العماد الكاتب بأسلوبه المسجع الذي اشتهر به، ويقول: نودي في الجنود «خذوا زاد عشرة أيام أخرى زيادة للاستظهار، فركبت إلى سوق العسكر للابتياح وقد أخذ السعر في الارتفاع...»<sup>(٢)</sup>. وفي الغزوات التي أعقبت موقعة حطين، وقيام الجيش الأيوبي بالإغارة على الساحل في منطقة إمارة طرابلس الصليبية سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م نودي في الجنود «أنا داخلون إلى الساحل، وهو قليل الأزواد، والعدو يحيط بنا في بلاده من سائر الجوانب فاحملوا زاد شهر»<sup>(٣)</sup>.

وحين اشتدت الضائقة على أهل عكا في الحصار الشديد الطويل، بعث الأمير بهاء الدين قراقوش من داخل المدينة يشكو إلى السلطان قلة الميرة، فرتب لهم السلطان بطسة (سفينة ضخمة) كبيرة وأرسلها، ولكي يتم دخولها إلى عكا بسلام، وضع على بطسة بعض النصارى من أهل بيروت الذين كانوا قد أسلموا، لكي يستطيعوا التفاهم مع الأعداء المحاصرين ويوهوا عليهم بلغتهم ولبسهم ويزقونهم الحليقة<sup>(٤)</sup>، وللزيادة في التمويه أمرهم أن يرفعوا الصليبان على سارية البطسة، ووضعوا الخنازير على سطحها، وساروا نحو عكا، وفي الطريق اعترضهم الصليبيون، إلا أنهم استطاعوا تمرير الخديعة وإيهامهم بأنهم صليبيون ودخلوا الميناء المحاصر<sup>(٥)</sup>، ومعهم الميرة وهي أربعمائة غرارة قمح

(١) النوادر، ٨٧. مفرج الكروب، ٢/٢٥٦.

(٢) سنا البرق، ١/٢٥٣. الروضتين، ج١، ق٢، ص٦٩٧.

(٣) النوادر، ٨٦.

(٤) إشارة إلى أن المسلمين كانوا يطلقون ذقونهم - لحاهم.

(٥) الفتح القسي، ٤١٧. مرآة الزمان، ٨/٤٠٤. مفرج الكروب، ٢/٣٣٠ - ٣٣١. البداية والنهاية ١٢/٣٣٧.

وكميات من الجبن والبصل والغنم وسائر ما يحتاجون إليه<sup>(١)</sup>. وقد تكرر إرسال المؤن إلى عكا نظراً لطول مدة الحصار، وكانت تأتيها من مصر، ذات الشروة الطائلة، إضافة إلى ما كان يرسل إليها من بيروت<sup>(٢)</sup>. وابتدع المسلمون من أجل ذلك مختلف السبل للحيلولة دون سقوطها، ثم حلت بهم الهزيمة وسقطت عكا، وكانت صعوبة التموين أهم أسباب سقوطها، كما أسلفنا.

وحدث لبعض المدن التي كانت بيد الصليبيين، أن سقطت بيد الجيش الأيوبي بسبب انقطاع الميرة عنها، بل إن حصن كوكب المنيع القريب من طبرية، قد سقط بيد المسلمين حين «أعوز سكانها الملح! فخرجوا منه أذلة، وسلموه» إلى الجيش الأيوبي<sup>(٣)</sup> رغم ما في هذا السبب من غرابة. ونجد أن الجيش الأيوبي كان يلجأ في الحروب إلى قطع طرق التموين عن عدوه لتجويعه، ومن ثم إضعافه وتسليمه، كما قام بإفساد زرع الصليبيين وكرومهم، وقطع أشجارهم في منطقة الكرك في محاولة لإضعاف صاحبها (رينو دي شاتيون)<sup>(٤)</sup> وقام أيضاً بحصد غلات العدو... حتى جف زرعهم<sup>(٥)</sup>.

#### ٥- الأقطاع العسكري

لم تكن النظم التي سار عليها صلاح الدين تختلف كثيراً من حيث الأساس، كما ذكرنا، عن النظم التي كانت متبعة في عهد نورالدين محمود، إذ أن الدولة الأيوبية نشأت في أحشاء الدولة النورية - الزنكية، وكانت متممة لها وسائرة على منهاجها<sup>(٦)</sup> على الرغم من أن النظام الإقطاعي في العالم الإسلامي بقي متشابهاً على العموم، رغم الاختلافات في التفاصيل، وذلك بسبب طبيعة تلكم البلاد وأنظمتها الإجتماعية. وهذا يعني - من طرف آخر - أن هذا النظام اختلف كثيراً عما كان معمولاً به في أوروبا في العصر الوسيط، نظراً لوجود تقاليد إقطاعية عريقة فيها، ولهذا فما يُسمى بالإقطاع الشرقي هو إقطاعٌ بالإسم ليس إلا، وكان من الضروري أن يسمّى أحد النظامين (الشرقي أو الأيوبي) بإسم آخر، ولعلّ هذا راجع إلى طبيعة التطورات الإقتصادية والسياسية والإجتماعية في كلا العالمين، وظهور ما سُمّي بـ«نمط الإنتاج الآسيوي»<sup>(٧)</sup>.

(١) النوادر، ١٣٥، الفتح القسي، ٤١٧. الروضتين، ١٦٠/٢ - ١٦١. مفرج الكروب، ٢/٣٣٠.

(٢) النوادر، ١١٧. الفتح القسي، ٤١٩.

(٣) الهروي، التذكرة الهروية في الحيل الحربية، تحقيق: مطبع المرباط، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق ١٩٧٢، ص ٨٦.

(٤) المعروف بأرناط في المصادر العربية، وستحدث عنه مرارا. مفرج الكروب ١٨٦/٢.

(٥) الروضتين، ٨/٢.

(٦) النجوم الزاهرة، ٢٧٩/٥. صبح الاعشى، ٥/٤.

(٧) أنظر أحمد صادق سعد: ست دراسات في النمط الآسيوي للإنتاج. دار الطليعة - بيروت، ١٩٧٩.

نعود ونقول: أما بالنسبة للإقطاع في عهد صلاح الدين، فلانتوقع أن يحصل فيه تطورات ذات مغزى، رغم أن من طبيعة الأمور أن يحدث هذا القائد بعض التغييرات حسب ما تقتضيه الحال الجديدة. ويبدو لنا حسب الإشارات المتوفرة لدينا، أن النظام الإقطاعي كان ضمن الأنظمة النورية التي أخذ بها النظام الجديد، والذي سينضج أكثر في العصر المملوكي في مصر. ونذكر أن النظام الإقطاعي في العهد الأيوبي ظهر بوضوح أكثر في بلاد الشام عما كان في بلاد مصر، نظراً لاختلاف الظروف البيئية وأثرها في أوضاعهما الاقتصادية والسياسية. ولعل ذلك راجع إلى الانقسام السياسي الذي كان ظاهرة ملازمة لبلاد الشام في أكثر مراحل تاريخها، حتى عندما كانت تحت سيطرة حاكم قوي كنورالدين محمود وصلاح الدين الأيوبي.

وما يعنيه النظام الإقطاع الأيوبي هو توزيع أو (إقطاع) الأراضي على كبار أمراء الدولة وذوي قرابة السلطان، ومنحهم حرية التصرف في إدارة شؤون هذه الأراضي المقتطعة بدل منحهم الرواتب<sup>(١)</sup>، وصرف واردتها داخل (الإقطاعية) مقابل إسهام أميرها في المعارك التي يعلنها السلطان، بإرسال الجند اللازم ونفقاتهم إلى الميدان. وقد سمي الديوان الذي يشرف على شؤون الجيش بديوان الإقطاع<sup>(٢)</sup>. وهذا يدل على مدى اعتماد التنظيم العسكري الأيوبي على النظام الإقطاعي، وكانت الخدمة الهامة الأساسية التي يؤديها المقطع هي قيامه بتأدية خدمات حربية وتقديم عدد من الجند إلى الجيش السلطاني زمن الحرب كاملي العدة، إذ تعهد كل مقطع بأن يكون معه عند خروجه للحرب عدد معين من الفرسان والمشاة في كل مرة<sup>(٣)</sup>.

ولدينا بعض النصوص المعاصرة التي توضح ما كان يعنيه النظام الإقطاعي النوري ثم الأيوبي. ففي معركة (الباين) التي وقعت في مصر خلال الحملة الشامية الثانية سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م، تقاعس بعض أمراء أسدالدين شيركوه عن القتال ومواجهة قوات الصليبيين بقيادة ملكهم (أموري) ومعهم قوات المصريين (الفاطميين)، فانبرى أمير من أمراء نورالدين هو شرف الدين برغش، وقال: «من يخاف القتل والأسر فلا يخدم المملوك، بل يكون في بيته مع إمرأته... والله لئن عدنا إلى نورالدين عن غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه ليأخذ ما لنا من إقطاع وجامكية<sup>(٤)</sup>. وليعودن علينا بجميع

(١) البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، طبع شركة طبع الكتب العربية، مطبعة الموسوعات ١٩٠٠، ص ٥٥. الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، نشرات كلية بنجاب، لاهور ١٩٣٧، ص ٦٨. وانظر ما كتبه كلود كاهين Cahan في مادة

الإقطاع (The Encycl. of Islam (New Edition, 1971) Vol. III, p. 1088. (art Ikta)

وسوير نهيم في دائرة المعارف الإسلامية، ط ١٩٣٣، ٤٧٨/٢. ويوليك، الإقطاعية...، ص ٥٩ - ٦٠.

(٢) ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة، القاهرة ١٣١٢هـ، ص ٨٩.

(٣) محمد حسنين ربيع، النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، مطبعة جامعة القاهرة، سنة ١٩٦٤، ص ٣٥.

Parry and Yapp: War, Technology and Society in the middle east, p. 59.

(٤) الجامكية: تعني الراتب المقرر منحه لمن يخدم في دواوين السلطان. القلقشندي ٣/٤٦٠، ٥١٩، ١٤٠/٥. وهي لفظ فارسي الأصل. د. زكي، السلاح في الإسلام، طبعة دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٥١، ص ١٨.

ما أخذناه منذ أن خدمناه إلى يومنا هذا. ويقول (أي نورالدين) تأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم، وتسلمون مثل مصر إلى الكفار، والحق بيده» (١).

ويبين هذا النص أساس الإقطاع النوري، وأنه كان نظاماً خاصاً باستغلال الأرض من قبل أعوان السلطان فيتمتع بغلاتها وإيراداتها، طوال الفترة التي تكون العلاقة طيبة بين السلطان والأمير الإقطاعي ويورد المقريري نصاً يمتاز بأهميته الخاصة، ويظهر أن العلاقات الإقطاعية بين السلطان وأمرائه كانت علاقات مؤقتة تتوقف مدتها برغبة المقطع (بكسر الطاء) ويمكنه أن ينهي هذه العلاقة متى شاء، ولاسيما حين لايقوم المقطع (بفتح الطاء) بما هو مطلوب منه كما ينبغي، ولدى إخلاله بشروط الإقطاع.

فبعد هزيمة الجيش الأيوبي في موقعة الرملة (تل الجزر) في جمادى الآخرة ٥٧٣هـ/ كانون الأول ١١٧٧م، وإثر عودة صلاح الدين إلى مصر، «قطع أخباز» (٢) جماعة من الأكراد، «من أجل أنهم كانوا السبب في هذه الكسرة» (٣). وكذلك حدث أثناء حصار عكا الطويل أن هرب البعض من أمراء صلاح الدين، منهم عزالدين أرسل وحسام الدين قمرتاش بن جاوولي، وسنقر الوشاقى الأسدي، فتغيبوا خوفاً من عقاب السلطان، فلم ير هذا بدأ من قطع إقطاعهم (٤).

ولم يكن هذا الإقطاع وراثياً بالمعنى المتداول لهذه الكلمة. إلا أنه كان يحدث أن يورث الأمير إقطاعيته لابنه الأكبر الراشد، وإذا كان ابنه قاصراً رتب له السلطان معه رجلاً «يثق إليه فيتولى أمره إلى أن يكبر» (٥) ويكون هذا الرجل بمثابة أتابك له (٦).

وكانت أسماء أجناد كل أمير تسجل في ديوانه، وكذلك «سلاحهم ودوابهم خوفاً من أن حرص بعض الأمراء وشحه، يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العدد» (٧). فكان الأمير يصرف في العادة ثلثي دخل الإمارة على تجهيز وإعاشة الجند (٨).

ويكون الأمير عادة على أتم الاستعداد لتلبية طلب السلطان، لأن جند الإقطاعيات كانوا عماد الدولة في الدفاع عن نفسها. ويقول ابن الأثير بهذا الصدد، على لسان نورالدين محمود: «نحن كل وقت بصدد التفسير، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد والعدد، دخل الوهن على

(١) الكامل، ٣٢٥/١١. الباهر، ١٣٣. الروضتين، ١، ٢، ص ٣٦٥. مفرج الكروب، ١/١٥٠. شفاء القلوب، ٣٠.

(٢) اخباز: تأتي بمعنى إقطاع، انظر: اليوتيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص ٢٢٢، ٢٢٥. السلوك، ١/٨٥.

(٣) المقريري، السلوك، ١/٦٥.

(٤) الفتح القسي، ٥٠٨. الروضتين، ١٨٧/٢. مفرج الكروب، ٣٥٧/٢. ابن الفرات، ج٢، مجلد ٤، ص ١٧.

(٥) الباهر، ١٦٩. الروضتين، ١، ٢، ص ٢٠. مفرج الكروب، ١/٢٨٠.

(٦) أتابك: المرابي - الأمير الأب (الوالد) - بالمعنى اللغوي للكلمة. صبح الاعشى، ١٨/٤، الكامل، ١٠/٨٠. د.

حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ١٢٣.

(٧) الباهر، ١٦٩.

(٨) برنارد لويس، العرب في التاريخ، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٥٤، ص ٢٢٢.

الإسلام»<sup>(١)</sup>.

إلا أن جنود الأمير الإقطاعي ينبغي أن يكونوا في أراضيهم في موسم الزراعة والحصاد، إلا إذا اقتضت الحالة بقاءهم في ساحة القتال، وكثيراً ما كان الأعداء يستغلون هذا الموسم فيقومون بالإغارة على أراضيهم. فيذكر أبو شامة - نقلاً عن ابن أبي طي: أن الصقليين بقيادة جورج (جرج) لما تحركوا ليقوموا بإنزال قواتهم على الاسكندرية عام ٥٦٩هـ / ١١٧٣م «كتبوا إلى الملك الفرنجي أن العساكر - يقصد عساكر صلاح الدين - متباعدة في نواحي إقطاعاتهم، وعلى قرب من موسم غلاتهم، وإنه لم يبق في القاهرة إلا بعضهم»<sup>(٢)</sup>.

ويبدو لنا أن النظام الفاطمي في مصر لم يكن يختلف عن قواعد الإقطاع النوري، رغم وجود بعض الفروق الجانبية، فكان ديوان الإقطاع أو ما سمي (ديوان المجلس)<sup>(٣)</sup> أحد الدواوين الملحقة بـ«ديوان الجيش» عمله الأساس النظر في شؤون الإقطاعات، فينظر فيما هو مقطع للأجناد. ولم يكن لصاحب ديوان الجيش أن يغير أحداً من الأجناد، أو شيئاً من إقطاعهم إلا بمرسوم<sup>(٤)</sup>.

وكانت حدود الإقطاعية تعين في الشهادة المعطاة للإقطاعي<sup>(٥)</sup> وتصدر بذلك وثيقة من ديوان الانشاء للمقطعين تسمى «السجل». وكان نظام صلاح الدين على غرار ذلك، فقد أصدر منشوراً لدى تعيينه ابن المقدم والياً على دمشق في سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م<sup>(٦)</sup>. وحتى لدى تعيين أولاده وأخوته كان يصدر المناشير الخاصة بذلك، كالذي أصدره سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م لدى ولاية الملك العزيز عثمان ابنه على مصر بكفالة ابن عمه تقي الدين عمر، وولاية الملك الأفضل نورالدين علي، أكبر أبنائه، على الشام بكفالة عمه الملك العادل صاحب حلب يومئذ<sup>(٧)</sup>.

كذلك كان الخليفة الفاطمي يمنح أراضي الدولة لبعض خواصه، وتكون بمثابة «إقطاع استغلال»<sup>(٨)</sup> وهو أن يكون لهم الحق في استثمارها والإنتفاع من واردها، ولا يكون لهم حق تملكها ملكية مطلقة أو وراثية، فتبقى بيد المقطع ويتمتع بها المدة المقررة. فقد أجاز الفقهاء اعطاء الأرض للقادة المحاربين مقابل ما هو مقرر لهم من الأرزاق تصرف لهم عما يقومون به من الواجبات العسكرية، ووضع الفقهاء لذلك شروطاً ترتبط بما على الإقطاع من أعمال الخراج أو الجزية، وتقدير الخراج سواء أكان استيفاؤه

(١) الباهر، ١٦٩. مفرج الكروب، ١ / ٢٨٠.

(٢) الروضتين، ج١، ق٢، ص٥٦٥.

(٣) صبح الاعشى، ٣ / ٣٨٩ - ٣٩٠.

(٤) صبح الاعشى، ٣ / ٤٨٨. الخطط (طبعة اوفسيت) ٢ / ٢٤٢.

(٥) محمد بن طلحة الوزير، العقد الفريد للملك السعيد (اسم المطبعة وسنة الطبع بلا) ص١٥٨.

(٦) جب، صلاح الدين، نقلاً عن مخطوط البرق الشامي: ج٥، ورقة ٤٧أ.

(٧) السلوك، ١ / ٨٥.

(٨) الماوردي، الاحكام السلطانية والولايات الدينية، طبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٩٦٠، ص١٩٤ - ١٩٧.

بالمقاسمة أو على مساحة الأرض (١). إلا أن الأراضي ترجع إلى الخليفة، إذا توفي هذا المقطع، أو إذا أخل بشروط الاتفاق.

وبذلك يكون هذا «اقطاع استغلال وهبة انتفاع»، فلم تكن تنتقل ملكية الأراضي العامة إلى المقطع، ليستوارثها أبنائه، بل كان يحل محل الخليفة في الانتفاع والاستغلال في المدة المتفق عليها (٢). وهذا بعض أوجه الخلاف بين الاقطاع الشرقي والأوربي. فالاقطاع الشرقي اقطاع الحكم والولاية لفترة لا تطول، إضافة إلى أن الاقطاع النوري كان يتوارثه الأبناء عن الآباء أحياناً، على غرار الاقطاع الأوربي.

ورث صلاح الدين هذا التراث الاقطاعي النوري والفاطمي، فحاول جاهداً الاستفادة منه، وتطويره لقضية الجهاد الإسلامي ولمصلحة الحكم الأيوبي، مع تبديل أشخاص المقطع بحيث يساير العهد الجديد، ويمنح الأرض لمن يرى أنه جدير بها، حتى صار الأقطاع في عهده يشمل مصر بأجمعها، فيقول المقريري: «منذ كانت أيام السلطان صلاح الدين إلى يومنا هذا «أيام المقريري» فإن أراضي مصر كلها، صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده» (٣) «أي أن بعض الأجناد كان لهم إقطاعهم أيضاً» ويبين محمد بن طلحة الوزير الحالات التي يسقط فيها الإقطاع عن الجند أو الحالات التي يرغب فيها «الجند إخراج نفسه من الديوان وقطع الخدمة» (٤).

وكانت تفاصيل ما يتعاقد عليه الطرفان تدون حسب ما يذكره ابن طلحة الوزير «في تحرير اعتبارها وتقدير عبرها بنسبة بدارها» (ناتجها) بتعدد مغلها لمدد تختلف في ريعها وأسعارها، مع تعيين المدة المتفق عليها بينهما، يذكر بدايتها ونهايتها. «ثم إثبات ما على فلاحي النواحي المقطعة من الحقوق المقررة والرسوم المقدرة واللوازم المحررة، والقسم المعتمدة، وتنزيلها في منشور من جرت تلك الناحية في اقطاعه وقراره، وذكر الاشتراط عليه في أنه لا يتعدى حده بتناول ما يغير ذلك عن استمراره واستقراره، ثم يضبط حدود ما اقطعه» مع ذكر «عدة الأسلحة التي أوجبها شرع الخدمة عليه... وإجراء كل ما يتعلق بالجيش على أجمل قواعد العوائد» (٥).

ولم يشمل الإقطاع كافة الأمراء بل كان يشمل الذين عرفوا بشجاعتهم ونكايتهم بالعدو، أما من لم يكن له اقطاع، فكان يسجل على لوائح العطاء، فتصرف له الجامكية، وهو جزء من الجيش النظامي المستعد للقتال دوماً، إلى جانب جنود الأمراء الاقطاعيين. أما الخارجون عن الاقطاع والذين لم يتم تسجيلهم لسبب أو لآخر فعرفوا بتسمية «البطالين» الذين ورد ذكرهم في مصادر العصر

(١) ن. م.

(٢) صبح الاعشى، ٥١/٤. د. طرخان، النظم الاقطاعية، ص ٢٢.

(٣) الخنط (طبعة المعهد) ٥٤/٢.

(٤) العقد الفريد للملك السعيد، ص ١٥٨.

(٥) العقد الفريد، ص ١٥٨. وانظر أيضاً: النوري، نهاية الارب، ٢٠٠/٨ - ٢٠١.

مراراً<sup>(١)</sup>. وقد ذكر العماد الكاتب أن صلاح الدين حين أراد استبدال القوات الموجودة داخل عكا بقوات جديدة، أمر بالمناداة في الباطلين ليحضروا لقبض النفقات<sup>(٢)</sup>.

هذا ولا نعرف عدد الفرسان والرجالة الذي يقدمه كل أمير اقطاعي إلى جيش صلاح الدين، ومرد ذلك، كما يذكر المقرئ<sup>(٣)</sup>، هو أن أحداً من المؤرخين لم يفرد الجيوش والعساكر بتأليف خاص. إلا أن من المؤكد أن الخدمات الحربية الاقطاعية كانت تزيد بزيادة الاقطاع، فإذا أعطى السلطان اقطاعاً جديداً لأحد المقطعين، كان على المقطع تقديم عدد أكبر من الجند إلى الجيش المركزي<sup>(٤)</sup>.

وقد عمد صلاح الدين إلى توزيع الاقطاعات في وقت مبكر، وهو لا يزال تابعاً لنورالدين محمود. فحين أرسل نورالدين خاله الأمير خالد القيسراني إلى مصر للاطلاع على ما قام به صلاح الدين، عرض هذا على القيسراني «الاجناد ومبالغ اقطاعاتهم وجامكياتهم ورواتب نفقاتهم»<sup>(٥)</sup>.

وأول من أقطعه صلاح الدين كان أباه «نجم الدين أيوب» فأقطعه الاسكندرية ودمياط والبحيرة لدى أول وصوله إلى ديار مصر مع ابنه الأكبر شمس الدولة تورانشاه وغييره في رجب ٥٦٥هـ/١١٧٠م. واقطع أخاه هذا قوص وأسوان بأرض الصعيد وعيذاب على البحر الأحمر<sup>(٦)</sup>. وفي سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م طلب تورانشاه من صلاح الدين أن يزيد من اقطاعه، فمنحه «بوش» بالصعيد وأعمال الجيزة وسمنود وغيرها<sup>(٧)</sup>.

هذا وقاد تورانشاه المذكور حملة لغزو بلاد النوبة، جنوبي مصر، وكان بصحبته الأمير إبراهيم الكردي الذي طلب من تورانشاه منحه قلعة ابريم في صعيد مصر، فأقطعه إياها، وأنفذ معه جماعة من الأكراد الباطلين<sup>(٨)</sup>. وهذا يعني أن أخا السلطان، وربما غيره أيضاً، صار في موقع يستطيع معه منح الاقطاعات لمن يشاء<sup>(٩)</sup>.

ثم وجه صلاح الدين أخاه هذا على رأس ألف جندي لفتح بلاد اليمن في شوال سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م<sup>(١٠)</sup> وبعد أن نجح تورانشاه في ضم اليمن إلى المملكة الأيوبية، غادر اليمن إلى

(١) انظر: الروضتين، ج١، ق٢، ص ٥٣٢ نقلاً عن ابن أبي طي، السلوك ٧٣/١.

(٢) الفتح القسي، ٤٥٧.

(٣) الخطط (طبعة بولاق) ١٤٧/١.

(٤) محمد حسنين ربيع، النظم المالية في مصر زمن الايوبيين، ص ٣٦.

(٥) الروضتين، ج١، ق٢، ص ٥٥٨. مفرج الكروب، ٢٥٧/١ - ٢٥٨. السلوك، ٥٢/١.

(٦) الروضتين، ج١، ق٢، ص ٤٦٦.

(٧) ن. م. ص ٤٨٨. بوش: في بني سويف. انظر السلوك: ٨٢/١.

(٨) الروضتين، ج١، ق٢، ص ٥٣٢. السلوك: ٧٣/١.

(٩) الروضتين، ج١، ق٢، ص ٥٣١. انظر: سنا البرق، ١٢٩/١. البداية والنهاية، ٢٧٠/١٢.

(١٠) الروضتين، ج١، ق٢، ص ٥٥١. ابن الوردي، ١١٧/٢. البداية والنهاية، ٢٧٣/١٢. شفاء القلوب، ٥٠. الكواكب

الدرية، ٢٢١ - ٢٢٢. ابن مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ج١، ق٢، ص ٣٧.

دمشق، وكان صلاح الدين نازلاً فيها، فطلب منه في سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م أن يقطعه بعلبك، فأرسل صلاح الدين إلى صاحبها شمس الدين محمود بن عبدالمملك المعروف بابن المقدم، من كبار أمراء نورالدين، وطلب منه أن يتنازل لأخيه عن بعلبك، فامتنع ابن المقدم عن ذلك فاضطر صلاح الدين إلى محاربتة حتى أجبره على التنازل عنها، وسلمها إلى أخيه، إلا أن هذا تنازل عن بعلبك في العام التالي، وطلب الاسكندرية عوضاً عنها، فقبل صلاح الدين ذلك، وأقطع بعلبك لعزالدين فرخشاه، ابن أخيه شاهنشاه بن أيوب.

وكان توران شاه الطموح، أحد الأشخاص الكبار القلائل في الدولة الأيوبية الذين استحوذوا على اقطاعات واسعة، وكذلك أخوه الآخر الملك العادل الذي أقطعه صلاح الدين مصر، في بعض الفترات<sup>(١)</sup> على أن يكون معه ابنه الملك العزيز عماد الدين عثمان<sup>(٢)</sup> بعد أن أخذ منه حلب ليعطيها لابنه الملك الظاهر غازي. أما ابنه السلطان الأكبر الملك الأفضل نورالدين علي فقد أقطعه دمشق<sup>(٣)</sup>. والملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، صار يبيده مناطق متباعدة عديدة هي سيميساط وميفارقين وحماه والمعرة والسلمية ومنبج وقلعة نجم وجبله واللاذقية وبلاطنس<sup>(٤)</sup> وجبل جور<sup>(٥)</sup>، واضيف إلى اقطاعاته الواسعة كفر طاب<sup>(٦)</sup> وبغراس<sup>(٧)</sup>، وفي مصر صارت له الفيوم وأعمالها مع القايات وبوش<sup>(٨)</sup>.

وحين تنازل مظفر الدين كوكبري عن ممتلكاته، ليذهب ويتسلم أربيل، أضاف صلاح الدين ما كان يبيده وهي حران والرها والموزر ومدن أخرى في الجزيرة إلى اقطاعات تقي الدين عمر، فصار هذا بذلك أكثر أقارب صلاح الدين حظوة ورغبة في امتلاك الأراضي، ولهذا قاد حملة إلى افريقيا الشمالية «جبال نفوسه وبرقة في ليبيا»<sup>(٩)</sup> في محاولة منه للاستقلال عن صلاح الدين، إلا أن السلطان استطاع أن يرضيه ويوسع اقطاعاته. وحين توفي تقي الدين سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م أقطع صلاح الدين ابنه الملك المنصور محمد جزءاً من اقطاع أبيه، وهو حماه وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم. وحصل في سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م ما جعل صلاح الدين يعيد النظر في سياسته الاقطاعية السابقة. وكانت المناسبة هي مرضه حين كان نازلاً بحران، بأرض الجزيرة، وأشيع في مصر أنه توفي «فجرت من

(١) السلوك، ٨٢/١.

(٢) الكامل، ٥٢٣/١١.

(٣) ن. م. ص.

(٤) بلاطنس: حصن منيع بسواحل الشام مقابل اللاذقية من أعمال حلب. معجم البلدان، ٤٧٨/١.

(٥) جبل جور: كورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي أرمينية فيها قرى وقلاع. معجم البلدان، ١٠٢/٢.

(٦) كفر طاب: بلدة بين المعرة ومدينة حلب في بيرة معطشة، معجم البلدان ٤/٤٧٠.

(٧) بغراس: مدينة في لطف جبل اللكام بينها وبين أنطاكية أربع فراسخ. معجم البلدان، ٤٦٧/١.

(٨) القايات: بالمتيا الحالية على حافة الصحراء الغربية.

(٩) الكامل، ٥٢٣/١١ - ٥٢٤.

تقي الدين حركات من يريد أن يستبد بملك مصر<sup>(١)</sup>. فلما عوفي من مرضه أرسل الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري الذي كان «كبير القدر عنده، مطاعاً من الجند» إلى مصر، واستطاع أن يقنع تقي الدين عمر بمغادرة مصر. فعوضه صلاح الدين بمتلكات واسعة بالشام.

وأما أخذ حلب من العادل فقد تم، حسب ما تذكره الروايات، حين تمكن أحد أمراء صلاح الدين، وهو علم الدين سليمان بن جندر - الذي كان على علاقة سيئة مع الملك العادل، لما كان بحلب<sup>(٢)</sup> رغم أنهما كانا أخوين من طرف امهما. تمكن علم الدين هذا أن يؤثر في أفكار صلاح الدين الذي أوصى لدى مرضه الأخير، كيف ينبغي أن توزع البلاد بين أولاده وأقاربه وأمرائه إذا توفي. فلما عوفي اجتمع إليه علم الدين سليمان وقال له «بأي رأي كنت تظن أن وصيتك تمضي، كأنك كنت خارجاً إلى الصيد، وتعود فلا يخالفونك؟ أما تستحي أن يكون الطائر اهدى منك إلى المصلحة؟».

وقال صلاح الدين: «وكيف ذلك؟ قال علم الدين: إذا أراد الطائر أن يعمل عشاً لفراخه قصد أعالي الشجر ليحمي فراخه، وأنت سلمت الحصون إلى أهلك، وجعلت أولادك على الأرض. هذه حلب - وهي أم البلاد - بيد أخيك، وحماه بيد ابن أخيك تقي الدين، وحمص بيد ابن أسدالدين شيركوه، وابنك الأفضل مع تقي الدين عمر بمصر يخرجته متى شاء، وابنك الآخر مع أخيك في خيمة يفعل به ما أراد. فقال له صلاح الدين: صدقت، واكنتم هذا الأمر، ثم أخذ حلب من أخيه العادل وأعطاه ابنه الملك الظاهر، وأعطى الملك العادل بعد ذلك حران والرها وميفارقين ليخرجه من الشام ويتوفر الشام على أولاده، فكان ما كان»<sup>(٣)</sup>.

وفي سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م طلب صلاح الدين من العادل أن يتنازل عن كل اقطاعاته بالشام ما عدا الكرك والشوبك والصلت «السلط» والبلقاء «الأجزاء الجنوبية من بلاد الشام» وكذلك عن نصف ما يملكه بمصر، وعوضه عن ذلك باقطاعه المذكور في البلاد الشرقية «الجزرية». أما الملك القاهر محمد بن شيركوه، والذي كان يرى بأنه أحق بالملك من صلاح الدين، فقد أقطعه السلطان حمص وتدمر والرحبة وسلمية، ولما توفي القاهر هذا في سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م أبقى صلاح الدين اقطاعه على ولده أسدالدين شيركوه «الثاني» وكتب له منشوراً بذلك<sup>(٤)</sup>.

ونرى أن صلاح الدين كان قد أحس فعلاً بضرورة إعادة النظر في كيفية توزيع أقاليم الدولة الهامة وحصونها على أبنائه، قبل أن يفوته الأوان، وقبل أن يفاتحه الأمير علم الدين سليمان، إلا أن المؤرخين اعتادوا أن يربطوا بين الأحداث الخطيرة وبين رغبة شخص ما في وقوعها، على الرغم من أن ثمة

(١) الكامل، ٥٢٤/١١.

(٢) الكامل، ٥٢٤/١١. وفيات الاعيان، ١٧١/٧. النجوم الزاهرة ٦/٣٠ - ٣١.

(٣) وفيات الاعيان، ١٧١/٧. الكامل، ٥٢٥/١١. زبدة الحلب، ٨٤/٣ - ٨٥. مفرج الكروب، ١٨٣/٢. شفاء القلوب، ١١٧.

(٤) النجوم الزاهرة، ٩٩/٦ - ١٠٠. شفاء القلوب، ٤٩. د. طرخان، النظم الاقطاعية، ص ٣٩.

احتمال بأن يكون للأمير المذكور تأثيره فيما حدث. وعلى أي حال فالذي يهمنا هنا ليس التحدث عن تفاصيل ما حدث في توزيع الاقطاعات، بل إن ما أردنا ذكره هو مواصفات النظام العسكري الذي سار عليه صلاح الدين. ومن الامراء النورية والأسدية الذين تمتعوا بمكانة رفيعة في العهد الصلاحي، ومنحوا اقطاعات جليلة: الأمير سابق عثمان بن الداية، أقطعه شيزر وأبا قبيس القريبة منها<sup>(١)</sup>. وناصرالدين بن منكورس بن خماتكين، وله حصن برزية وصهيون<sup>(٢)</sup> وبدرالدين دلدرم وله تل باشر<sup>(٣)</sup>. وعزالدين اسامة وله كوكب وعجلون<sup>(٤)</sup>، وعزالدين إبراهيم بن شمس الدين بن المقدم وله يعرين<sup>(٥)</sup>، وكفر طاب وفامية<sup>(٦)</sup>، وناصرالدين شحنة حلب وبيده عين تاب<sup>(٧)</sup>. وكذلك من الامراء سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب، وكان اقطاعه نابلس وأعمالها<sup>(٨)</sup>، فلما مات سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م خلفه ابن عماد الدين «ابن المشطوب»، وكذلك أقطع الأمير حسام الدين أبا الهيجاء الهكاري المعروف بالسامين مقدم الأكراد والأسدية بلاد نصيبين بعد فتحها سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م. والأمير مظفرالدين كوكبري أقطعه أربيل وشهرزور إثر وفاة أخيه زين الدين يوسف سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م. ومنح دريساك<sup>(٩)</sup> وبغراس<sup>(١٠)</sup> إلى علم الدين سليمان بن جندر صاحب حصن عزاز القريب من حلب<sup>(١١)</sup>.

كذلك أقر صلاح الدين حجي بن كرامة أمير العرب على اقطاعه، مكافأة له من أجل خدمته وقيامه على الأعداء أيام فتح بيروت سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م<sup>(١٢)</sup> وفي مصر أقطع صلاح الدين بني جذام وتعلبة اقطاعات وافرة، نظير المحافظة على الأمن والاشتراك معه في الجهاد وجاءت غالبية اقطاعاتهم بالبلاد المصرية الشرقية. وكانت اقطاعات الحيادة، أبناء حيدرة بن معروف في

- (١) النوادر، ١٢٦، ٢٤٥. الفتح القسي، ٣٩٤. المختصر، ١١٤/٥.  
(٢) النوادر، ٢٤٥. مرآة الزمان، ٣٥/٨. المختصر ١١٥/٥. برزية: حصن قرب الساحل الشامي على سن جبل شاهق. معجم البلدان، ٣٨٣/١. صهيون: قلعة حصينة من أعمال حمص، معجم البلدان، ٤٣٧/٣.  
(٣) المختصر، ١١٥/٥.  
(٤) ن. م. ص.  
(٥) يعرين، او بارين: مدينة بين حلب وحماء من جهة الغرب، معجم البلدان، ٣٢٠/١.  
(٦) الفتح، ٣٩٤. النوادر، ١٢٦. المختصر، ١١٥/١٥. وفامية: مدينة من سواحل حمص وقد يقال لها افامية. معجم البلدان، ٢٣٣/٤.  
(٧) شفاء القلوب، ١٩٧ - ١٩٨.  
(٨) البداية والنهاية، ٣٥٢/١٢.  
(٩) دريساك، في اقصى شمالي الشام مقابل بغراس.  
(١٠) بغراس: مدينة في لطف جبل اللكام بينها وبين انطاكية أربع فراسخ. معجم البلدان، ٤٦٩/١.  
(١١) الفتح القسي، ٢٥٨.  
(١٢) د. طرخان، النظم الاقطاعية، نقلا عن كتاب «اخبار الاعيان».

البرامون<sup>(١)</sup>، وكذلك أقطع جماعات عربية أخرى في الديار المصرية<sup>(٢)</sup>.

## ٦- التعبئة العسكرية

تعني التعبئة مجموع الأعمال التي يقوم بها القائد في مجال تحشيد القوات في ميدان المعركة، وسوقها إلى خطوط القتال، أو تنسيق قواته للرد على هجمات العدو والانتصار عليه<sup>(٣)</sup>. ولم يخرج عن هذا المعنى مفهوم التعبئة قديماً وحديثاً، إلا أن أساليبها وصنوف جيشها والآلات والمعدات التي يستعملها وغيرها هي التي تغيرت.

وما يعيننا في التعبئة العسكرية للجيش الأيوبي، هو ما كان عليه يومئذ فعلاً، دون أن ندخل في تفاصيل الأنظمة التي كانت عليها الجيوش العربية الإسلامية في العهود السابقة. إلا أننا نذكر إن أبرز أشكال تنظيم الجيوش هو نظام الصفوف المتراصة ثم نظام الكراديس<sup>(٤)</sup>. أما النظام الذي سار عليه الجيش الأيوبي فهو نظام التخميمس.

أ- نظام التخميمس:

نرى أن صلاح الدين لم يكن مبتكراً لهذا النظام، بل إنه كان موجوداً قبله، ولم يختلف عن سبقيه من القادة المعروفين الذين طبقوا هذه الطريقة من حيث الأساس. ولدى دراستنا لنظام التخميمس تواجهنا مشكلة تحديد نوعية التخميمس الأيوبي، أو طريقة رص أطراف هذا النظام - ولاسيما الجناحين - الميمنة والميسرة - وموقعهما بالنسبة لجذعه «لقلب الجيش». فالكتب التي اعتمدنا عليها، والتي صنفنا في مجال ترتيب الجيوش، تذكر عدة أنساق سارت عليها الجيوش الإسلامية في العصر الوسيط. والواقع أن تلك الكتب لاتشبع نهم الباحث من الناحية العلمية. إذ هي تتحدث عن قضايا من المحتمل أنها لم تحدث في العصر الذي تبحث عنه، ليس في مجال تنظيم الجيش فقط، بل بالنسبة للقضايا العسكرية الأخرى كذلك. لهذا نرى أن من غير الضروري التطرق إلى هذه المسائل ذات الطابع النظري البحث، والاكتفاء بالتطبيقات التي دونها مؤرخو الأحداث، مع الاستفادة قدر المستطاع من كتب الحروب والأصول النظرية.

وتنظيم الجيش الأيوبي كان على نسق كتائب يشبه ترتيب أعضاء جسم الإنسان الرئيسية، أو يشبه الصليب، فالجذع في الوسط بمثابة قلب العسكر، والرأس في المقدمة بمثابة طليعة العسكر أو المقدمة،

(١) البرمونيون: كما في ابن الجيعان، التحفة السنوية باسماء البلاد المصرية، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ١٩٧٤، ص ٤٦.

(٢) انظر: د. طرخان، النظم الاقطاعية، ص ٤١-٤٢.

(٣) الزعيم طه الهاشمي، الجغرافية العسكرية، مطبعة دار السلام، بغداد ١٩٢٧، ص ٨٣.

(٤) عن نظام الكراديس، انظر: مقدمة ابن خلدون، المطبعة البهية المصرية، ص ١٩٠-١٩١.

والبيدان في الجهتين بمثابة جناحي الميمنة والميسرة، ثم الساقين معاً في الخلف بمثابة مؤخرة أو ساقية الجيش. ومن هذا ترى أن التنظيم على هذا النسق قائم على خمسة أجزاء، ومنها تسمية الجيش بالخميس<sup>(١)</sup>.

ويرى ابن منكلي أن الصفوف كان يتم ترتيبها بثلاثة أشكال، الفرق بينها هو موقع الجناحين من القلب، وفيما إذا كانتا تتقدمان على القلب، أو يتقدم القلب على الجناحين، أو كان القلب والجناحان على مستوى واحد في خط مستقيم، وهو ما يسمى بالصف المستوي. ويقول ابن منكلي إن هذا الصف هو أوثق الصفوف، ولعله أشهرها أيضاً كما نرى، وكان ينظم في ستة صفوف، في كل صف مائة وأحد عشر فارساً. أما الشكل الآخر فيسمى بالصف الهلالي، وهو خارج الجناحين، وكانوا يضعون في كل طرف من الجناحين الخارجين كردوساً من الخيل المقوية له.

والشكل الثالث كان على عكس الهلالي، ويسمى بالصف المعطوف، وهو داخل الجناحين، وكان المسلمون لا يتخذون هذا النوع من الترتيب إلا عند الضرورة، حيث يجعلون أهل البأس والقوة في الميمنة والميسرة، أو يقوون القلب بكردوسين من الخيل، وكان براعى في تنظيم الصفوف أن يكون قصار القامة من الرجال قبل أطولهم<sup>(٢)</sup>. وكان ثمة أشكال أخرى لتنظيم الجيش أقل أهمية وشهرة<sup>(٣)</sup>.

ويرى الطرسوسي المعاصر لصالح الدين أن الجنود المشاة «الرجالة» ينبغي وضعهم «أمام الفارس ليكون له كالحصن المانع» على أن يكون هذا الراجل محمياً بستائر يتخذها أمامه تكف عنه شر من يضرب بالسيف أو الرمح أو يرمي بسهم واقع من الأعداء، ويجعل بين كل راجلين أحد رماة النبال «ليرمي إذا لاحت له فرصة في الأعداء، أو تبين له من الجمع اختلاله»<sup>(٤)</sup>. وموضع السلطان كان في القلب عادة<sup>(٥)</sup>، ومعها الاعلام حتى يراه جميع الامراء لتنفيذ التوجيهات التي تصدر منه، إلا أنه كان يغير موضعه أحياناً، ويميل إلى أحد الجناحين لتقويته، أو لاعادة تنظيمه حين يضطرب لسبب ما، وفي بعض الأحيان كان يتحول إلى المقدمة لاثارة حماس الجنود، ويلقي الرعب في نفوس العدو. وكان صلاح الدين يضع القادة والامراء المعروفين على رأس الجناحين. أما على رأس المقدمة

(١) مرضي بن علي الطرسوسي، تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب، مخطوط في مكتبة لودليان بجامعة اكسفورد - انكلترا تحت رقم 264 وفي حوزتنا نسخة مصورة منه، ورقة ١٩٠. الفتح القسي، ٨٩، ١٥٤، حسين يوسف موسى وعبدالفتاح الصعيدي، الافصح في فقه اللغة، مطبعة المدني، دار الفكر العربي، ط ثانية ١٩٦٤، ج١، ص ٦١٩.

(٢) د. جهادية القرة غولي، التنظيمات الادراية والعسكرية في العراق والشام، مطبوع بالآلة الكاتبة، ص ١٧٢، نقلا عن الادلة الرسمية في التعابي الحربية، مخطوط، ورقة ١٣ - ١٤.

(٣) للمزيد من التفاصيل انظر: جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، منشورات دار مكتبة الحياة، مؤسسة خليفة للطباعة، بيروت ١٩٦٧، ج١، ص ١٩٩.

(٤) الطرسوسي، التبصرة، ورقة ١٩٠ ب.

(٥) مفرج الكروب، ٢/٢٩٥. الحسن بن عبدالله، آثار الاول، ص ١٧٥.

«الطلائع» فكان يضع أصحاب الخيول السبق والرمي والخفة في الطراد والمقابلة<sup>(١)</sup>. ففي «الوقعة العظمى» التي حدثت بمرج عكا في شعبان ٥٨٥هـ/١١٨٩م، والتي سخر لها الصليبيون كل قوتهم بعد هزيمتهم الشنيعة في حطين والقدس وغيرها، نظم صلاح الدين قواته للمسير، ووضع في الميمنة ولديه الملك الأفضل نورالدين علي، والملك الظافر خضر، ثم عسكر الموصل بقيادة ظهير الدين بن البلتكري، وعسكر ديار بكر بقيادة قطب الدين بن نورالدين صاحب الحصن «حصن كيفا» وأمد ثم حسام الدين لاجين «لاشين» ابن أخت صلاح الدين صاحب نابلس، وصارم الدين قايماز النجمي، وجموعاً عظيمة متصلين بطرف الميمنة، وكان يقودها جميعاً الملك المظفر تقي الدين عمر، أبرز أبناء الأسرة الأيوبية شجاعةً وجرأةً بعسكره وهو مطل على البحر.

أما الميسرة فكان عليها الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب مقدم الأكراد، والأمير مجلي بن مروان، وجماعة من المهرانية والهكارية، ومجاهد الدين برتقش مقدم عسكر سنجار، وجماعة من الماليك، ثم مظفرالدين بن زين الدين «كوكيري» بعسكره، وفي مؤخرة الميسرة كبار الأسدية، مثل سيف الدين يازكوج وأرسلان بغا. وفي مقدمة القلب الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري وجمعه. أما السلطان فكان يطوف بنفسه على الاطلاع، ويحثهم على القتال<sup>(٢)</sup>.

يظهر من ذلك أن العبء الأكبر كان يقع على الجناحين، بوضع أبرز الامراء على قيادتهما، في حين أن المقدمة وكذلك القلب لم يكن فيهما من مشاهير القادة. وقد تكرر هذا الترتيب في شتى معارك صلاح الدين مع أحداث بعض التغيير هنا وهناك<sup>(٣)</sup>.

ففي عكا يذكر ابن شداد ضمن أحداث سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م، وكان هذا المؤرخ، ضمن الموكب، أن السلطان أمر العسكر أن يركب ميمنة وميسرة وقلباً تعبئة القتال، وانتظم في الميمنة أولاد السلطان الثلاثة ومعهم جيش الموصل بقيادة علاء الدين خرم شاه بن عزالدين مسعود، ثم الملك العادل أخو السلطان في طرفها وحسام الدين لاجين وصارم الدين قايماز وعزالدين جورديك وحسام الدين بشارة وبدرالدين دلدرم الباروقي وجمع كبير من الامراء. وفي الميسرة عماد الدين زنكي صاحب سنجار وابن أخيه معزالدين صاحب جزيرة ابن عمر، وفي طرفها تقي الدين عمر، وسيف الدين علي المشطوب، وخشترين الحكمي، وجمع من المهرانية والهكارية والحميدية والزرزارية وغيرهم من الامراء الأكراد. وفي القلب الحلقة السلطانية<sup>(٤)</sup>.

(١) آثار الاول، ص ١٧٥. ويرى الطرطوشي أن من الحزن أن تكون حماة الرجال والابطال في القلب، فإنه مهما انكسر الجناحان، فالعيون ناظرة إلى القلب... وإذا انكسر القلب تمزق الجناحان. انظر: سراج الملوك، مطبعة بولاق، ١٢٨٩هـ، القاهرة، ص ١٧٥.

(٢) النوادر، ١١٠. مفرج الكروب، ٢/٢٩٥-٢٩٦.

(٣) الفتح القسي، ٣٠٨.

(٤) النوادر، ١٤٧. الروضتين، ٢/١٧٩.

إلا أن السلطان كان يعيىء العسكر ويتخلل الصفوف بنفسه<sup>(١)</sup>، ويبقى على اتصال وثيق بأجزاء الجيش كلها ومحافظاً على الارتباط بامراء التعبئة ويشرف على سير المعركة، ليقدر الموقف اللازم اتخاذ حين تضطرب الصفوف، ولذلك فإنه يستخدم احتياطه في الأماكن الضرورية، ويكشف قواته لمقاومة العدو<sup>(٢)</sup>.

#### ب- الحلقة الخاصة والمماليك السلطانية

تكونت الحلقة السلطانية من جماعة من العساكر، تحيط بصلاح الدين، كانوا بمثابة حراسه أو حماته. وقد أطلقت على خاصة مماليك السلطان تسمية (الحلقة الخاصة)<sup>(٣)</sup> وكانت للحلقة مكانة ظاهرة في المعارك المختلفة، واضطلعت بدور واضح في فتح الساحل وقلاع الصليبيين المنبوعة، ويشير ابن الأثير كشاهد عيان إلى فتح قلعة برزية المعروفة بوعورة المنطقة التي تقع فيها وحصانتها، وكيف قسم صلاح الدين جيشه إلى ثلاثة أقسام للقتال بالتناوب. وحين جاء دور «حلقة صلاح الدين الخاصة، قاتلوا قتالاً شديداً رغم الحر الشديد<sup>(٤)</sup>».

وكذلك كان للحلقة الخاصة دور مشرف أثناء حصار عكا، إذ كانت تنتقل مع صلاح الدين حين انتقله بين تل الخروية وشفرعم وتل كيسان، المواضع المحيطة بعكا. وكانت هذه الحلقة هي الوحيدة التي ظلت مع صلاح الدين بعد عودة العساكر إلى مواطنها للراحة ولقدوم فصل الشتاء في سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م. وكان أكثر من في الحلقة من العساكر المصرية<sup>(٥)</sup>.

ومما يؤكد أهمية هذه الحلقة، أنها وحدها كانت في قلب الجيش الأيوبي، حسب رواية ابن شداد الذي كان ضمن الحلقة<sup>(٦)</sup>. وحدث أن سار السلطان إلى جهة العدو، ولم يكن معه سوى الحلقة<sup>(٧)</sup>.

ولعل رجال الحلقة الخاصة كانوا يشكلون الفرقة التي سميت باسم السلطان «الفرقة الصلاحية أو الناصرية» وقد ذكرنا أن المحاربين الذين ينضون تحت إمرة قائد كبير كانوا يسمون باسمه، لأنهم كانوا من مماليكه أو غلمانه، فالنورية مماليك نورالدين محمود والأسدية مماليك أسدالدين في مصر سنة ٥٦٤/١١٦٨م أنه «خلف جماعة من الغلمان، خمسمائة مملوك، وهم الأسدية»<sup>(٨)</sup> وهذا يعني أن

(١) ابن منكلي، التديبرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية، مخطوط مصور في مكتبة المجمع العلمي العراقي (سلاح ٦٤٦) ص ٢٧.

(٢) التذكرة الهروية، ص ٩٩.

(٣) النوادر، ١٧٨. الكامل، ١٥/١٢. الروضتين، ١، ج١، ق٢، ص ٥٥٤. وانظر: الباز العريني، الفروسية في مصر في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٧، ص ١٥٩ - ١٦٠.

(٤) الكامل، ١٥/١٢.

(٥) ن. م، ٨١/١٢.

(٦) النوادر، ص ١٤٧.

(٧) ن. م. ص ١٧٨.

(٨) الروضتين، ج١، ق٢، ص ٤٣٨.

الجيش الأيوبي عرف نظام المماليك. يقول بور سوورث «لقد نشأت مجموعة سلاطين المماليك من الحرس الأرقاء للسلاطين الأيوبيين، وأسس هذه السلالة صلاح الدين»<sup>(١)</sup> فالجيش المصري في عهد المماليك تكون من بقايا الجيوش الأيوبية التي جاء معظمها من المماليك الترك وبقايا الأكراد<sup>(٢)</sup>.

إلا أن السلالة لم يؤسسها صلاح الدين، كما تؤكد أحداث الفترة، بل إن المماليك الأتراك كانوا عماد الدولة السلجوقية منذ نشأتها الأولى. وكانت القاعدة العامة المعروفة عند السلجوقية في ضوء تاريخهم العسكري، هي أنهم اعتقدوا أنه لا يمكن الاعتماد على المواطنين الأحرار من السكان الأصليين كالعرب والفرس والأكراد وغيرهم في تنظيم جيشهم وأنه من الأفضل الاعتماد على المماليك الذين جلبوا من بلاد القبجاق<sup>(٣)</sup> ونشأوا في البلاط على مقربة من السلاطين وأمرائهم<sup>(٤)</sup>. إلا أنه لا يمكن الجزم أن المماليك جلبوا من بلاد القبجاق وحدها، فمن المحتمل أن يكون قسم منهم قد جاءوا من أجزاء أخرى من بلاد الترك الواسعة في آسيا الوسطى مثل فرغانة<sup>(٥)</sup>.

وقد سار الأيوبيون على سنة السلجوقية وأتابكتهم - عماد الدين زنكي ثم ابنه نورالدين - بالإكتناز من المماليك الترك واستخدمهم في الجيش. على الرغم من أن الأيوبيين أو مؤسسي الأسرة الأيوبية، لم يكونوا أتابكة ولم يكونوا مماليك لأحد «ولا جرى على أحد من بني أيوب رق»<sup>(٦)</sup>.

ويتضح من الخلاقات التي نشبت بين أمراء الفرقة الصلاحية والأسدية بعد وفاة صلاح الدين، مدى قوة المماليك في الجيش الأيوبي<sup>(٧)</sup>. فالفرقة الصلاحية، بقيادة فخرالدين جهار كس، ناصرت الملك العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين، أما الفرقة الأسدية بقيادة سيف الدين يازكوج مملوك شيركوه، فإنها اعترضت على تسلم العزيز عرش الدولة، وانساققت مع الملك العادل في اذكاء روح التنافس بين بني أيوب، باستثناء الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي الذي ظل على إخلاصه للملك

(١) تراث الإسلام، تصنيف جوزيف شاخ، ترجمة: د. محمد زهير السمهوري، الكويت ١٩٧٨، القسم الأول، ص ١٨١.

(٢) النجوم الزاهرة، ١٢٤/٦.

(٣) القبجاق أو القفجاق: جنس من الترك يسكنون إقليم حوض نهر الفولغا بالجنوب الشرقي من روسيا الحالية وشمال البحر الاسود والفولغا «ربما المقصود بها بلاد القفقاس الحالية، أو القوقاز». شمس الدين سامي، قاموس الاعلام (تركي) مهران مطبوعه سي، باب عالي جاده سنده، استانبول ١٣٠٦ - ١٣١٤، ج٥، ص ٣٥٩٩. وكانوا بدوا لا علم لهم بالإسلام قبل جلبهم إلى بلاد الإسلام. فازيلي بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، القاهرة ١٩٥٨، ص ١١٢. وانظر: صبح الأعشى ٤/٤٥٨. Heyd: Histoire du Commerce, p. 559. د. أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٩، ص ٧٣.

(٤) Lane - Poole, Saladin, p. 158.

(٥) Claude Cahen, Les Changements techniques militaires p. 121.

(٦) النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٥.

(٧) النجوم الزاهرة، ١٣٨/٦. السلوك، ١٢٥/١.

العزیز حتى توفي سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م<sup>(١)</sup>، وظل النزاع بين هاتين الفرقتين قائماً، حتى تغلب الملك العادل، ووجد كلمة الاسرة، فكان هذا نصراً للفرقة الأسيديّة في مصر<sup>(٢)</sup> وهزيمة للمالک صلاح الدين، ولاسيما بعد وفاة جهارکس سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١م<sup>(٣)</sup>.

هذا ولا تشرح مصادر فترة صلاح الدين طرق جلب المالک وأساليب التربية التي سار عليها الأيوبيون في تنشئتهم واعدادهم. إلا أن المقرئ وصف ما كان متبعاً في مصر في أيامه، ومن الجائز الاعتماد على هذا النص المتأخر، وتطبيق ما كان جارياً في عهد المالک على العهد الأيوبي، فالمعروف أن دولة المالک كانت وليدة الدولة الأيوبيّة، والنظم التي طبقها المالک كانت استمراراً - إلى حد كبير - لما كان جارياً قبلهم، كما ذكرنا، ولا يمكن أن تتعد كثيراً عما كان معمولاً به قبلهم، أو يشذوا عنه باستثناء ما كانت الضرورة تقضي من استحداث التعديلات على ضوء متطلبات العصر والحاجة إلى التغيير، لهذا يمكننا الاطمئنان إلى ما أورده المقرئ في هذا المبحث إلى حد غير قليل.

فقد ذكر المؤرخ المذكور أنه «إذا قدم بالملوك تاجر عرضة على السلطان، ونزله في طبقة جنسه وسلمه للطواشي<sup>(٤)</sup> (الملوك المسؤول عن توجيه المالک الصغار الجدد) يرسم الكتابة... فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم... وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم، ويأخذ في تعليمها كتاب الله، ومعرفة الخط والتمرين بآداب الشريعة وملازمة الصلوات والاذكار. وكان المتبع آنذاك ألا يجلب التجار إلا المالک الصغار، فإذا شب الواحد من المالک علمه الفقيه شيئاً من الفقه وقرأه، فإذا صار إلى سن البلوغ، أخذ في تعليمه أنواع الحرب (فنون القتال) من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك، فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية من معرفة ما يحتاج إليه. وإذا ركبو إلى لعب الرمح أو رمي النشاب لا يجسر جندي ولا أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم، فينقل عندئذ إلى الخدمة، وينتقل في أطوارها رتبة بعد رتبة إلى أن يصير من الأمراء، فلا يبلغ هذا إلا وقد تهذبت أخلاقه، وكثرت آدابه وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه، واشتد ساعده في رماية النشاب وحسن لعبه بالرمح، ومرن على ركوب الخيل، وقد كان لهم خدام وأكابر من النواب يفحصون الواحد منهم فحصاً

(١) وفيات الاعيان، ٩٢/٤. و(قراقوش) الخادم هو أبو سعيد بهاء الدين بن عبدالله الاسدي، نسبة إلى أسدالدين شيركوه، فقد كان من المالک، ثم خدم صلاح الدين وتولى زمام القصر الفاطمي، وناب عن صلاح الدين في بعض المناسبات، وأشرف على بناء القلعة والصور وقناطر الجيزة، ولما فتح عكا تولاهما وسورها، ثم أسره الصليبيون فأفدى نفسه بعشرة آلاف دينار. توفي سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠١م ودفن بسفح المقطم بالقاهرة. وقراقوش: لفظ تركي معناه العقاب (الطير الأسود) انظر (وفيات الاعيان، ٩١/٤ - ٩٢).

(٢) السلوك، ١٢٨/١.

(٣) وفيات الاعيان، ٣٨١/١. ذيل الروضتين، ص ٧٩. الخطط، ٨٧/٢ - ٨٨.

(٤) طواشي: خدام القصر المقربون من السلطان أو ما يسمونه «الاستاذون». صبح الاعشى، ٤٧٧/٣. وهم من الخدام الخصيان، صبح الاعشى، ٤٥٦/٥. انظر: د. حسن الباشا، الالقب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة ١٩٥٧، ص ٣٨٢.

شافياً ويؤاخذونه أشد المؤاخذة ويناقدونه على حركاته وسكناته، فإن عشر أحد مؤدبية الذي يعلمه القرآن، أو رأس النوبة (الحارس) الذي هو حاكم عليه، على أنه اقتترف ذنباً، أو أحل يرسم، أو ترك أدياً من آداب الدين أو الدنيا، قابله على ذلك يعقوبة شديدة بمستوى جرمه. فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك، وقادة يجاهدون في سبيل الله<sup>(١)</sup>.

#### ٧- الأطلاب وأصناف الجيش حسب سلاح كل صنف

كان صلاح الدين يطبق في جيشه نظام الأطلاب - الذي تحدثنا عنه من قبل - وهو قائم على أساس تقسيم الجيش إلى مجاميع، كانت بمثابة كتائب، يكون على رأس كل مائتي فارس أو مائة أو سبعين فارساً أمير مقدم<sup>(٢)</sup>. فكان يقال إن الحملة الفلانية تضم كذا من الأطلاب، إلا أننا لا نستطيع أن نجزم بأن الجيش الأيوبي اتبع نظام الأطلاب بتلك الدقة التي عرف بها الجيش المصري في عهد المماليك التركي، رغم أن لفظ الأطلاب يرد كثيراً في كتب المؤرخين المعاصرين لصلاح الدين<sup>(٣)</sup>. لكنه يرد أحياناً وكأن القصد منه هو ترتيب الصفوف، دون أن يقصد عدداً معيناً.

وكان لكل صنف من الصنوف المقاتلة والمساعدة خواص، تتميز بها عن الصنوف الأخرى، وهذا التمييز يظهر بنوع السلاح والاعتدة التي يتجهز بها، والواجبات الملقاة على عاتقه. ولا يمكن للجيش أن يتحرك بنجاح في العمليات العسكرية ما لم يعمل جميعها بوفاق وتنسيق تامين، وساعد بعضها البعض الآخر في حالات الاشتباك. وكان ثمة صنفان أساسيان في الجيش الأيوبي، إضافة إلى الأصناف الجانبية، وهما:

#### أ- صنف الفرسان (الخيالة)

يؤلف هذا الصنف قسماً ملازماً لكل جيش، ويقوم بأعمال مجيدة، وهو عصب الجيوش في حروب العصور الوسطى، وكانت من مهماته الرئيسية القتال والاستطلاع أو الاستكشاف، كما سنرى، نظراً لما تتطلبه هاتان العمليتان من سرعة الحركة الضرورية في الهجوم والكشف ومطاردة العدو وقطع طرق العودة عليه للتزود بالقوت والمؤن.

وكانوا يختارون عادة أهل النصيحة والنجدة والتجربة في الحرب للقيام بهذا الواجب، وكانوا يتفادون الاشتباك مع العدو عند القيام بالاستكشاف، فالهدف من عملهم هو تقدير قوة العدو، وكشف مواطن الضعف فيه<sup>(٤)</sup>.

(١) الخطط (طبعة بولاق) ج٢، ص ٢١٣ - ٢١٤.

(٢) المقرئ، الخطط (طبعة المعهد) ج١، ق١، ص ١٦.

(٣) النوادر، ٧٦، ١٤٨، ١٦٠، ١٨٥. الفتح القسي، ٦٩، ٧٠، ١١٥.

(٤) الهرثمي، تفريغ الكروب، تحقيق: جورج سكوتون، منشورات الجامعة الأمريكية، القاهرة ١٩٦١، ص ٥١.

وكذلك يقوم الفرسان بنجدة المواضع المعرضة للخطر المفاجيء. إلا أنهم كانوا يوضعون خلف المشاة في ترتيب الصفوف، كما يذكر الطرسوسي بقوله: «ولتكن الخيالة والأبطال من وراء الرجالة ينتظرون الحملة فإذا هموا بها، فتح لهم باباً يحملون منه» بالتعاون مع الرجالة<sup>(١)</sup>. أما المزايا التي كان ينبغي أن تكتمل في الفارس الحق، فكانت تحدد من ناحية الترويض الجسدي بالقوة البدنية والامام بفن مواجهة العدو، كفن المصارعة (المنازلة) ومعرفة استعمال الرمح، وفن الرماية<sup>(٢)</sup>. وكان الفرسان يتسلحون بالسيوف والحرايب الطويلة، ويرتدون الزرد والترس والخوذ، أما خيولهم فمن المحتمل أنهم كانوا يضعون عليها التجافيف والسروج<sup>(٣)</sup>. رغم عدم عثورنا على نص يؤكد ذلك.

#### ب- صنف المشاة (الرجالة)

وكان يؤلف القسم الأعظم من قوة الجيش، ويقوم بأعباء القتال ويتحمل مشقاته ونتائجه. وكانت الأسلحة التي يحملها أفراد هذا الصنف أسلحة خفيفة، لأنهم يسيرون على أقدامهم، فكانوا يستعملون السيوف والأقواس والرماح القصيرة. ومن واجباتهم الأخرى أنهم كانوا يقومون بإخراج أفراد العدو من خنادقهم ويقضون عليهم<sup>(٤)</sup>. ولعل أهم ما كان المشاة يكلفون به هو: حماية الجيش أثناء المسير للحيلولة دون مدهامته من قبل العدو، وحراسة القوافل التي تحمل المؤن والعتاد أثناء تنقلها<sup>(٥)</sup>. وفي ترتيب صفوف الجيش كان المشاة يوضعون في الصفوف الأمامية، وخلفهم الخيالة والأبطال، كما ذكر الطرسوسي<sup>(٦)</sup>.

ج- أما الصنوف الأخرى المساعدة؛ فكانت تعرف بأسماء الأسلحة والأعتدة التي كانت تستعملها، والواجبات التي يقوم بها كل صنف، كصنف المنجنبيين والديبايين والنفاطين وصنف المخابرة وصنف التموين وغيرها.

وقبل التوجه إلى القتال كان صلاح الدين يقوم بعرض الجيش وتعيين مواضع الأطلاب وسد الثغرات

(١) التبصرة، ورقة ١٩٩١أ.

(٢) بولينك، الاقطاعية، ص ٥٤.

(٣) أحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، مطبعة الجمهورية، دمشق ١٩٦٤، ص ١٦٦.

(٤) طه الهاشمي، دروس في المعلومات الجغرافية، مطبعة الشعب، بغداد، ١٩٣٦، ص ١٨.

(٥) خالد الجنابي، تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني، رسالة ماجستير، مطبوعة بالآلة الكاتبة، كانون الثاني

١٩٧١، ص ٣٠.

(٦) الطرسوسي، التبصرة، ورقة ١٩٩١أ.

والخروق والتأكد من صلاحية الأسلحة التي يحملها المحارب. فقبيل التوجه إلى حطين وقف السلطان يوم العرض يرتب العسكر ترتيباً ويويه تبويماً ويعييه بعيداً وقريباً. وقرر لكل أمير أمراً ولكل مقدم مقاماً، ولكل موفق موقفاً ولكل كمين مكاناً... وعين لكل أمير موقفاً في الميمنة والمسيرة لا ينتقل عنه، ولا يغيب جمعاً ولا يبرح أحد منه. وأخرج الجاليشية<sup>(١)</sup> الرماة الكماة من كل طلب، ووصى كل حزب بما يقربه من حزب. وقال: «إذا دخلنا بلد العدو فهذه هيئة عساكرنا وصورة مواردنا ومصادرنا، ومواضع أطلاننا. ومطالع أبطالنا»<sup>(٢)</sup>.

وكان ثمة شخص في الجيش مهمته النداء واستنفار الجند للقتال، وشحن الهمم، وكان موضعه قريباً من صلاح الدين، فكل ما يصدر منه من أوامر يبلغه بصوت عالٍ إلى عموم الجيش، ويسمى بالجواوش<sup>(٣)</sup> وينادي بالقوم أن يستعدوا، أو أن الحاجة تدعو الأمير الفلاني بالانتقال بأطلابه لتقديم المساعدة إلى الجهة الفلانية أثناء القتال، بعد أن أحدث العدو ثغرة فيها، أو يذكر حماس المقاتلين بنداءات مثيرة خاصة من مثل «يا للإسلام وعساكر الموحدين»<sup>(٤)</sup>. والملاحظ أن هذه المهمة «مهمة النداء» ظهرت بوضوح بعد سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م أي بعد موقعة حطين، فلم نعثر من خلال النصوص على وجود الجواوش في الجيش قبل التاريخ المذكور<sup>(٥)</sup>.

ولعل تفسير ذلك هو أن الجيش الأيوبي زاد حجمه فبات من الضروري وجود من يقوم بهذه المهمة لتعميم الأوامر السلطانية على الفرق والأجنحة، ونرى أن إذكاء حماس المقاتلين أصبح ضرورة أكثر من ذي قبل في الفترات التي لم يعد بوسع الجيش أن يحرز الانتصارات كالسابق، بعد أن ضعفت لديه قدرة الاقتحام خاصة وقد تلاحقت الامدادات إلى الصليبيين الذين كانوا لا يزالون يحتلون بعض المواقع الحصينة في الأرض العربية، أرض فلسطين وساحل الشام.

#### ٨- المتطوعون في الجيش الأيوبي

إضافة إلى المقاتلين من الفرسان والمشاة النظاميين المسجلين في ديوان الجيش الأيوبي، وإلى جند الإقطاع التابعين إلى الأمراء الأيوبيين والأمراء الآخرين الذين دخلوا في تبعية صلاح الدين تبعاً والذين كانوا يزودون الجيش الأيوبي بالمحاربين وقت الحاجة، وإضافة إلى المماليك السلطانية، كان ثمة

(١) الجاليشية: الأصل في معناها هو الراية العظيمة التي في رأسها خصلة من الشعر ثم اطلقت على مقدمة القلب في الجيش على الطليعة منه. صبح الاعشى، ٨/٤. وقد تم شرحها في مكان سابق.

(٢) الفتح القسي، ٦٩ - ٧٠.

(٣) الجواوش - أو الجاوش - أو الجاوش - أو الشاوش: لفظ تركي. انظر: السلوك، ١/٨٧٠ هامش ٢. مفرج الكروب، ٢/٢٩٥ هامش ١.

(٤) النوادر، ١٩٠. مفرج الكروب، ٢/٢٩٥، ٣٢٦.

(٥) انظر: الفتح القسي، ٢٣٥. النوادر، ٩٨، ١٠٩، ١٤٧، ١٥٩، ١٧٨، ١٨٥، ١٩٧، مفرج الكروب، ٢/٢٩٥.

من تطوعوا ووضعوا أنفسهم تحت تصرف الجيش، حياً بالجهاد في سبيل الله، ورغبة منهم في تحرير الأرض العربية الإسلامية من الاحتلال الصليبي. والواقع أن عهد الافاكة الإسلامية بدأ بوضوح بظهور المجاهد عماد الدين زنكي مؤسس أتابكية الموصل، وفي عهد ابنه نورالدين محمود الشهيد، ثم بلغ هذا العهد ذروته أيام صلاح الدين.

لقد أعاد هذا القائد الى الأذهان أيام القتال الطوعي والجهاد الأولى في صدر الإسلام، فلا غرابة إذا وجدنا جيش صلاح الدين يضم الكثير من المتطوعين في معاركه، ولاسيما في حطين وفتح بيت المقدس، والمعارك اللاحقة مما استرعى انتباه المؤرخين<sup>(١)</sup>. فذكر ابن كثير أن السلطان حين عزم على فتح بيت المقدس، قصده العلماء والصالحون تطوعاً<sup>(٢)</sup>.

وكانت واجبات الجند المتطوعة تختلف عن واجبات أفراد الجيش النظامي، فكانوا إما أن يجعلوا في جناحي الجيش النظامي، لحمايتهما من ضربات العدو، والإحاطة بجناحيهما دون أن يختلطوا بالجند المدربين النظاميين، أو توكل إليهم مهمة إزعاج جند العدو في قواعده وعرقله تجمعاته وتخريب قواعد تموينه ومواصلاته. وقد تناط إليهم مهمة مطاردة العدو عند تفهقره<sup>(٣)</sup>.

وبصورة عامة كان المتطوعة يعوزهم التدريب والمطاوله والصبر في القتال، ولكن قد يظهر بينهم من هو فارس، أو يجيد الرمي، أو يمتاز بخفة الحركة. وكان بعض من المسلمين قد تطوعوا رغبة منهم في الحصول على مكاسب مادية، إلا أنهم لم يكونوا يحصلون على شيء من بيت المال أو من الفيء<sup>(٤)</sup>. ولكنهم كانوا يأخذون نصيبهم من الصدقات، بل أن نورالدين أعطاهم حتى من بيت المال لأن المتطوعة كانوا يتمتعون بحظوة كبيرة لديه ولدى صلاح الدين، ونالوا كل عطف واحترام وتقدير من الناحيتين المادية والأدبية. فذات يوم رأى أصحاب نورالدين كثرة عطائه، فقال له بعضهم: «إن لك في بلادك ادرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء وغيرهم، فلو استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح». فغضب نورالدين من ذلك القول وأجابهم: «والله اني لا أرجو النصر إلا باولئك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاثلون عني، وأنا نائم على فراشي بسهام لاتخطيء وأصرفها الى من لايقاثل عني إلا اذا رأني بسهام قد تصيب ولاتخطيء،

(١) البداية والنهاية، ٣٢٢/١٢.

Lane- Poole, Saladin, p. 204.

عبد العزيز سيد الاهدل، أيام صلاح الدين، المكتب التجاري للطباعة والنشر بيروت ١٩٦١، ص ٢٠.

(٢) البداية والنهاية، ٣٢٤/١٢.

(٣) فتحي عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، نشر الدار القومية، القاهرة ١٩٦٦، ص ٢٧١ - ٢٧٢.

(٤) النويري، نهاية الارب، ١٥٣/٦. أبو يعلى الفراء، الاحكام السلطانية تصحيح وتعليق: محمد حامد الفقي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م، ص ٢٣. د. سعداوي، جيش مصر، ص ١٧ نقلا عن ابن منكلي، مخطوط، الاحكام الملوكية، ص ١٦.

وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال، كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم<sup>(١)</sup>.  
 فلأن هؤلاء المتطوعة كانوا من المجاهدين فانهم كانوا على استعداد دائم للبدل للقيام بالغايات أو  
 المساهمة المباشرة في الحملات<sup>(٢)</sup>. ولكن وبسبب من قلة خبرة المتطوعين بفنون القتال - كما قلنا -  
 وجهلهم بأساليب وحيل الحروب، كثيراً ما كانوا يندفعون بحماسة دون روية، فيسببون الارتباك  
 والفوضى في صفوف الجيش، لذا نلاحظ أن معارك صلاح الدين كانت تبدو أكثر نظاماً لدى  
 الاشتباك، ثم يظهر الخلل في صفوف قواته، ويعود سبب ذلك إلى الاضطراب الذي يحدثه المتطوعة  
 الذين يندفعون بقوة شجاعتهم وحماسهم الدينية، لا بما تقتضيه الفنون الحربية، ويكونون هم أول  
 الضحايا، ومن الأمثلة على ذلك ما حصل في جمادى الأولى سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م، فقد خرج صلاح  
 الدين في عدة بسيرة من حلقتة الخاصة وصعد الجبل لاستطلاع ما يفعله الفرنج الذين خيموا على  
 مسافة غير بعيدة عن المسلمين، وظن من هناك من غزاة العجم والعرب المتطوعة أنه على قصد  
 المصاف والحرب فساروا مجدين، وأوغلوا في أرض العدو مبعدين وفارقوا الحزم وخلفوا السلطان  
 وراءهم، وقاربوا الفرنج، فأرسل صلاح الدين عدة من الأمراء يردونهم ويحمونهم إلى أن يخرجوا، فلم  
 يسمعو ولم يقبلوا<sup>(٣)</sup> «وتعجب الصليبيون من اندفاع هذه الجماعة بهذه الصورة، وظنوا أن وراءهم  
 كميناً، ثم أرسلوا من يرى حقيقة الأمر، فأتاهم الخبر أنهم منقطعون عن المسلمين، وليس وراءهم ما  
 يخاف، فحملت الفرنج عليهم حملة رجل واحد، فقاتلوهم، فلم يلبثوا أن أناموهم» وقتلوهم جميعاً.  
 وشق على صلاح الدين ما جرى لهذه الجماعة الفدائية، لذا انحدر من الجبل في عسكره، واستطاع أن  
 ينتقم منهم قتلاً وغرقاً<sup>(٤)</sup>.

وكان المتطوعون ينتمون إلى مختلف الفئات الاجتماعية من المسلمين، من أبناء القبائل والقرويين  
 وأهل المدن، من الفقراء والأغنياء، ولاسيما من الفقهاء والصوفية. ويقول ابن القلانسي: إن نورالدين  
 محمود أمر بالنداء «في الغزاة والمجاهدين والأحداث المتطوعة من فتيان البلدان والغرباء بالتأهب  
 والاستعداد لمجابهة الفرنج أولي الشرك والاحاد»<sup>(٥)</sup> وكان لفظ الأحداث يستخدم للدلالة على  
 المتطوعين، ثم اختفى اللفظ لتحل محله كلمة المتطوعين، والكلمتان تدلان على أفراد تلك الجماعة  
 المقاتلة غير النظامية.

وفي المساجد كان الخطباء يحثون الناس على التطوع في الجيش الإسلامي فإذا ما نزل الخطباء من  
 على منابرهم ردد المصلون الهتافات والدعوات، مقبلين زرافات ووحدانا، من جميع الجهات إلى

(١) الكامل، ٢٩٦/١١. شذرات الذهب، ١٨١/٤.

(٢) ديمومين، النظم الإسلامية، ترجمة: د. السامر، د. صالح الشماع، مطبعة الزهراء، بغداد ١٩٥٢، ص ١٦١.

(٣) الكامل، ٢٩/١٢.

(٤) ن. م. ص ٣٠. مفرج الكروب، ٢٨٥/٢ - ٢٨٦.

(٥) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٤٠.

معسكر الجيش، وكان صلاح الدين يوكل إلى المتطوعين أحياناً أمر قتل الأسرى بأيديهم، ولاسيما من المرتدين، أو الرماة الصليبيين كما حصل في بيت الأحزان سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م. وإثر إنتصار حطين طلب صلاح الدين من «المتطوعة المتودعة والمتصوفة» أن يقتل كل واحد منهم أحد الأسرى المنتمين الى الفرقتين الصليبيتين (الداوية والإستبارية)<sup>(١)</sup> المعروفتين بعدائهما الشديد للمسلمين. بل أن المتطوعة قاموا بعمل مجيد يوم حطين وأسهموا في إحراز النصر بسرعة على الصليبيين «فتأجج عليهم استعارها وتوهج نار الضرام»<sup>(٢)</sup> وكانت الريح على الفرنج فحملت حر النار والدخان وحر القتال على حد تعبير ابن الأثير وغيره<sup>(٣)</sup>.

#### ٩- الفرق الملحقة بالجيش:

##### أ- الفرقة الهندسية:

كانت تصحب الجيش عادة فرقة هندسية، وأخرى طبية وكانت الأولى تقوم بمهمات تتطلب معرفة خاصة بشؤون الهندسة العسكرية التي يلزمها القتال، ولاسيما قتال الأسوار والخنادق، مثل نصب المعدات الحربية الثقيلة، كالمنجنيق والدبابات والأقواس الثقيلة مثل قوس الزبار والجرخ والقوس المتعددة الاتجاه وقاذفات النفط، ثم بناء المعسكرات والأسوار ولاسيما في الأماكن العسكرية الحساسة، وتشبيد الجسور ونسفها وردم الخنادق وحفر الآبار وتعيين مواقع ضرب الحصار حول أسوار، المدينة المنوي فتحها، وتهشيم هذه الأسوار وتغيير مجاري الأنهار، وغيرها من الأعمال الهندسية التي هي ضمن واجبات هذه الفرقة.

فلمدى حصار بيت المقدس ظل صلاح الدين وجيشه يطوفون حوله طيلة خمسة أيام، وأخيراً استطاع الملمون بشؤون هندسة الأسوار، العشور على المكان المناسب في الجهة الشمالية من السور، نحو باب

(١) الداوية أو الهيكلين: لفظة عربية، وهي تحريف لكلمة سريانية، بمعنى فقير وكان اسم هذه المنظمة في الاصل اللاتيني Paupere Commilitones Christi أي فرسان المسيح الفقراء. فيليب حتي، تاريخ العرب مطول، ٧٣٤. محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الكتب الشرقية، تونس ١٩٤٥، ص ٧٠. والاستبارية، أي فرسان القديس يوحنا، فيليب حتي، المصدر نفسه والصفحة. محمد المطوي والعروسي، المصدر نفسه، ص ٧١ مكسيموس مونرونند، من تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: كيريو كيريو مكسيموس مظلوم، طبع في اورشليم، في دير الرهبان الفرنسيسكانيين، ١٨٦٥، ص ١٩٩. السير جون أ. هامرتن، تاريخ العالم، مقال (السلاح) لشارلز. ح. فولكس مجلد ٥، ص ١٧٥. والاستبارية تحريف اللفظ الهسبتال Hospital أي فرسان المستشفى، وكانت هاتان الفرقتان قد ظهرتتا في الارض المقدسة بصفتهما من الفرق الدينية الخيرية، ولاسيما في الحملة الصليبية الاولى، إلا أنهما سرعان ما تحولتا إلى فرق عسكرية ذات أهمية في الحروب اللاحقة، واشترك أفرادهما في المعارك المختلفة، وكانت لهم حصون خاصة يدافعون عنها ولشدة نكايتهم بالمسلمين وحقدهم عليهم، قرر السلطان الانتقام منهم بقسوة.

(٢) الروضتين، ٧٧/٢. انظر: مرآة الزمان، ٣٩٣/٨.

(٣) الكامل، ٥٣٥/١١. ابن العديم، زبدة الحلب، ٩٤/٣.

عمودا وكنيسة صهيون، فأمر صلاح الدين بنصب معدات الحصار عند هذا الموضع<sup>(١)</sup>. وفي عام ١١٨٥/٥٥٨١م ولدى حصار الموصل التي عجز جيش صلاح الدين من إحراز نصر عسكري مباشر عليها، رغم تكرار محاولاته بسبب متانة أسوارها، أشار عليه بعض رجاله إلى تعطيش المدينة بتحويل مجرى نهر دجلة وعرض الفكرة «على رأي الفقيه العالم فخرالدين بن الدهان البغدادي، ركان مهندس زمانه... قال: هذا ممكن ولا يتعذر، ويتيسر ولا يتعسر»<sup>(٢)</sup>. وجاء في كتاب بعث به صلاح الدين إلى الخليفة العباسي، والذي كتبه مستشاره المعروف القاضي الفاضل: «وذكر المهندسون أهل الخبرة أنه يسهل تحويل دجلة الموصل عنها، بحيث يبعد مستقى الماء منها، وحينئذ يضطر أهلها إلى تسليمها بغير قتال، ولا حصول ضرر في تضييق ولا نزال»<sup>(٣)</sup>. إلا أن صلاح الدين لم ينفذ المشروع، ولعل ذلك لصعوبته وارتفاع تكاليفه وضيق الوقت واهتمامه بمشاريع أكثر أهمية.

#### ب- الفرقة الطبية:

ومصاحبة الفرقة الطبية للجيش إلى ميدان القتال لمعالجة الجرحى والمرضى كان أمراً ضرورياً. وكان الأطباء ومساعدوهم يشكلون ما يشبه مستوصفاً متنقلاً، فيه ما يحتاجونه من أدوية وأدوات ونقالات لحمل الجريح أو المريض، وكانت هذه المعدات تحمل على ظهر الحيوان، ثم ينصب المستوصف داخل خيام يبيت فيه المحتاج إلى العلاج.

والظاهر أن عهد صلاح الدين كان فترة انتعاش للشؤون المتعلقة بالطب، وذلك لكثرة الحاجة إليها، واغداق صلاح الدين والامراء المال عليهم بسخاء، والواقع أن صلاح الدين بدأ يهتم بشؤون الطب ويشجع القائمين عليه منذ وقت مبكر من حكمه، وقد أولى الأطباء الذين خدموا البلاط الفاطمي بمصر، أو البلاط النوري الأتابكي في الشام اهتماماً كبيراً، ومن هؤلاء الأطباء أبو البيان بن المدور الذي كان له جامكية «مرتب» تصل إليه كل شهر، وبقي على تلك الحال نحو عشرين سنة، ثم انقطع عن ذلك، وراح يعمل ويعالج الناس في بيته، إلا أنه لم يكن يعالج إلا من «يعز عليه جداً» حتى أنه بعث يعتذر عن معالجة الأمير اسامه بن منقذ الشيزي (صاحب كتاب - الاعتبار - المعروف) الذي قدم من اليمن. وكان لأبي البيان من المصنفات المجربة في الطب<sup>(٤)</sup>.

وضمن أطباء العهد الصلاحي أبو الفضل عبدالمنعم بن عمر الغساني المعروف بحكيم الزمان، وكان علامة زمانه في صناعة الطب والكحل وأعمالهما، استقر في دمشق وبدأ يعالج المرضى في عيادته،

(١) الكامل، ٥٤٧/١١. الروضتين، ٩٢/٢. النجوم الزاهرة، ٣٦/٦.

(٢) الروضتين، ٦٢/٢ - ٦٣.

(٣) الروضتين، ٦٣/٢. مفرج الكروب، ١٦٧/٢.

(٤) ابن أبي أصيبعة، عيون الانباء في طبقات الاطباء، اصدار دار الفكر، بيروت ١٩٥٧، ج٣، ص ١٩١.

وكان صلاح الدين يجله كثيراً<sup>(١)</sup>.

ومن الأطباء أبو الحسن علي بن أبي عبدالله عيسى المعروف بابن النقاش البغدادي الدمشقي<sup>(٢)</sup> وعفيف الدين بن عبدالقاهر الذي ألف كتاباً أهده لصلاح الدين. إلا أننا ازاء هذه الكثرة من الأطباء المعروفين، لا نعلم مدى مشاركة بعضهم في الحملات العسكرية التي يقوم بها الجيش الصلاحي، باستثناء البعض منهم مثل أبو زكريا أمين الدولة يحيى بن اسماعيل الأندلسي أحد تلامذة الحكيم مهذب الدين، فقد كان يصاحب جيش صلاح الدين في القتال، ثم استقر في دمشق كأكثر أطباء عصره ويبدو لنا أن سبب هذا الاستقرار في هذه المدينة يعود إلى وجود المستشفى النوري الكبير فيها، وقد اختيرت دمشق لقربها من ميدان القتال، فكان جرحى ومرضى الحرب يرسلون إليها بيسر. هذا وقد عجز أبو زكريا عن العمل في أواخر حياته، فأطلق له السلطان جامكية استمرت حتى وفاته<sup>(٣)</sup>، كما فعل صلاح الدين مع أطباء آخرين أمثال ابن الدهان البغدادي<sup>(٤)</sup>، والكحال أبي الفضل سليمان المصري<sup>(٥)</sup>.

ومن أشهر أطباء صلاح الدين موفق الدين أبو نصر أسعد المعروف بابن المطران الدمشقي الذي عرف عنه مشاركاته في غزوات السلطان<sup>(٦)</sup>. وكان يعمل في البيمارستان النوري بدمشق، وله مجموعة من المصنفات الطبية منها: (المقالة الناصرية في حفظ الامور الصحية)<sup>(٧)</sup> وغيرها كثير. يقول العماد الكاتب عن هذا الطبيب إنه كان بارعاً ظريفاً، ويشيد باخلاصه كثيراً، وأنه قد حظي بتقدير صلاح الدين كثيراً، فكان له شأن كبير لديه، وكانت له دراية وذكاء وفراسة<sup>(٨)</sup>. وعالج الكثير من جرحى الحرب والمرضى، ومنهم المؤرخ العماد نفسه<sup>(٩)</sup>.

هذا وكان للسلطان طبيبه الخاص يصحبه في حملاته، لأنه كان يعاني في بعض الأوقات من الام والتياث مزاج، وتظهر دمامل في ظهره، حتى لامه أصحابه على قلة اعتنائه بصحته، وعدم أخذ قسط كاف من الراحة، فكان يرد عليهم بقوله: إذا ركبت للجهاد زال عني الألم حتى أنزل!.. وكان الطبيب الخاص لاينفرد بعلاج السلطان، بل يعالج كبار قادته وامراء جيشه أيضاً، فحين مرض صاحب أربيل زين الدين يوسف نيالتكين بالحمى التي أودت بحياته في سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م أثناء حصار

(١) ن. م، ٢٥٩/٣.

(٢) ن. م، ٢٦٥/٣.

(٣) ن. م، ٢٦٨/٣.

(٤) ن. م، ٢٩٨/٣.

(٥) ن. م، ٢٩٩/٣.

(٦) ن. م، ٢٩٤/٣.

(٧) ن. م، ٢٩٧/٣.

(٨) الفتح القسي، ٥٧٦.

(٩) ن. م، ٥٧٧.

عكا، ذهب طبيب صلاح الدين لمعالجته<sup>(١)</sup>.

وكان السلطان يشرف بنفسه أحياناً على معالجة الجرحى، كما حصل بعد هزيمة المسلمين في موقعة أرسوف في شعبان ٥٨٧هـ / أيلول ١١٩١م، حين جلس وطلب بإحضار الجرحى، فقام بمداواتهم<sup>(٢)</sup>.

#### ج- فرقة الموسيقى العسكرية:

بعد أن ينادي الجاويش بالعسكر أن يستعدوا، تشد الرايات وتبدأ الكوسات<sup>(٣)</sup> بالضرب. وكان هذا بمثابة الموسيقى العسكرية، أو المارشات في الوقت الحاضر، كجزء من عملية إثارة حماس المقاتلين<sup>(٤)</sup>. وتثبت وقائع عهد صلاح الدين أن الموسيقى العسكرية كان لها شأن كبير في الجيش حتى خصص لها مكان خاص يسمى «الطبلخانا» أي «مكان الطبل» ويذكر المقرئ بهذا الصدد أنه بعد استقرار صلاح الدين في مصر وانتهاء الدولة الفاطمية «رتب نوب الطبلخانا»<sup>(٥)</sup> ونظم شؤونها. يشرح القلقشندي معنى هذا المصطلح ويقول: «ومعناه بيت الطبل ويشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات» وقد كانت هذه الآلات تضرب في أوقات القتال، وفي بقية الأيام «ثلاث مرات في كل يوم»<sup>(٦)</sup> وكان الذي ينقر على الطبل يسمى (دبندار) والنافخ في البوق يسمى (منفر) أما الذي يضرب بالصنوج النحاس بعضها على بعض، فكان يسمى (كوسى)<sup>(٧)</sup>.

وكانت عادة أن تضرب على الكوسات أيضاً لدى قدوم شخصية عسكرية هامة، وتنتشر معها الأعلام والبيارق وتنعرب البوقات، كما حصل لدى قدوم واستقبال الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين<sup>(٨)</sup>. كما كان لكل مناسبة أيقاعها الخاص، تمرن على عزفه العازفون، وعلى سماعه المقاتلون، فثمة ضربات خاصة حين تدعو الحالة إلى عدم التوقف عن القتال، رغم الهزيمة التي ألحقت بهم فكان «الكوسى يدق ولا يفتتر»<sup>(٩)</sup>. وكذلك ضربات خاصة ببشائر النصر، فحين وصل الخبر في شوال ٥٨٧هـ / ١١٩١م بأن الأسطول الإسلامي قد استولى على مراكب الفرنج التي كانت تحمل أكثر من خمسمائة صليبي «سر المسلمون بذلك، ونعق بوق الظفر»<sup>(١٠)</sup>.

(١) الفتح القسي، ٤٣٨.

(٢) الروضتين، ١٩١/٢. مفرج الكروب، ٣٦٨/٢. وارسوف: مدينة على ساحل بحر الشام «المتوسط» بين قيسارية ويافا. معجم البلدان ١٥١/١.

(٣) الكوسات: صنوج تشبه الترس الصغير يدق احدهما على الآخر بايقاع مخصوص. صبح الاعشى، ٩/٤.

(٤) النوادر، ١٤٩.

(٥) الخطط (طبعة الاوقسيت) ٢٣٣/٢.

(٦) ن. م. ص.

(٧) صبح الاعشى، ١٣/٤.

(٨) النوادر، ١١٩.

(٩) ن. م. ص ١٨٣-١٨٤.

(١٠) ن. م. ص ١٩٦. انظر: مفرج الكروب، ٣٧٣/٢-٣٧٤.

#### د- حملة أعلام الجيش:

وكان ضمن الجيش جماعة مهمتهم حمل الراية السلطانية والحفاظ عليها، والراية أو العلم بمثابة الشارة التي تميز جماعة من جماعة أخرى، ودولة عن أخرى، فكان لكل دولة إسلامية وغير إسلامية علمها الخاص الذي يتخذ من لون أو رنك<sup>(١)</sup>.

وكان لون العلم الصلاحي أصفر، وفي وسطه صورة طير النسر علامة القوة والثقة في النصر. وكان بين الرايات «راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب عليها ألقاب السلطان واسمه، وتسمى العصابة، وراية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش، ورايات صفر صغار تسمى السناجق»<sup>(٢)</sup>.

وكانت الراية الكبيرة تحمل عادة في ركب السلطان. والنسر ينحدر أصل رسمه على الرايات إلى عهود قديمة، إذ وجد مرسوماً على رايات كثير من الدول القديمة<sup>(٣)</sup>.

وفي التاريخ الإسلامي نقشه عماد الدين زنكي على النقود، ثم اتخذ الأرتقيون شارة مميزة لهم، وأخذ صلاح الدين هذا التقليد منهم ورسمه على رايته. ولعل صلاح الدين كان مبتكراً في اتخاذ الأصفر لوناً لرايته<sup>(٤)</sup>، وعن راية صلاح الدين تحدث العماد لدى فتح صيدا سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، يقول: «جاء رسل صاحبها بمفاتيحها وأذهبنا ظلماتها من العزائم الغر بمصابيحها، وطلعت الراية الصفراء باليد البيضاء على سورها»<sup>(٥)</sup>. ويقول العماد «كانت الأعلام السلطانية صفراً»<sup>(٦)</sup>.

هذا وقد ورد ذكر الراية الصلاحية في مجموعة من قصائد شعراء ذلك العصر في المناسبات التي أحرز فيها الجيش الأيوبي نصراً على الصليبيين، ورفع فيها علمه. فلدى انتصار المسلمين عليهم وتخريب بيت الأحزان سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م، هنأ جماعة من الشعراء بالفتح، منهم بهاء الدين أبو الحسن علي الساعاتي الخراساني (ت ٦٠٤هـ/١٢٠٧م) الذي قال في قصيدة له:

(١) رنك وجمعه رنوك، لفظ فارسي (وكردي) معناه اللون. وهو الشعار الذي يتخذه الأمير لنفسه عن تأمير السلطان إياه، علامة على وظيفة الامارة التي يعين عليها. د. زكي، السلاح في الإسلام، ص ٢٩.

(٢) صبح الاعشى، ٨/٤.

(٣) يقول فيليب حتي ان أصله يعود إلى السومريين. تاريخ سورية ولبنان، ترجمة كمال البازجي، مراجعة: د. جبرائيل جبور، دار الثقافة ومؤسسة فرانكلين المطبعة البوليسية، بيروت ١٩٥٩، ص ٢٥١.

(٤) يقول د. الباز العريني: ان استعمال الرنوك في الشرق والغرب ساد من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. انظر: كتاب، المالبيك، طبعة دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٧، ص ٢٢٧. ولم نتوصل إلى معرفة لون راية الدولة النورية، ويبدو أن الأيوبيين لم يستمروا على اتخاذ اللون الأصفر، فالملك الناصر داود صاحب دمشق (حفيد الملك العادل) اتخذ الأسود رنكا له تقليداً لرنك الخليفة العباسي، المالبيك، ص ٢٢٧.

(٥) الفتح القسي، ص ١٠٣.

(٦) سنا البرق الشامي، ١/١٥٠. انظر: ديوان القاضي الفاضل، مطابع دار الكتاب العربي بمصر، القاهرة ١٩٦١، ج ١، ص ٣٩. الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٦٩٧.

وما رُفعتِ اعلامُك الصفرُ ساعةً إلى أن غدت أكبادها السود ترجفُ  
كبا من أعاليه صليبٌ ويعةٌ وساد به دينٌ حنيفٌ ومصحفٌ  
اتسكن أوطان النبيين عصبهٌ تمين لى أيمانها حين تحلفُ  
نصحتكم - والنصحُ في الدين واجبٌ ذروا بيتَ يعقوب، فقد جاء يوسف<sup>(١)</sup>  
ومن الشعراء أيضاً الحسن المعروف بـ(العلم الشاتاني) الذي مدحه بقصيدته الرائية التي مطلعها:  
أرى النصر مقروناً برايتك الصفرا فسر واملك الدنيا فأنت بها أحرى<sup>(٢)</sup>

وقصائد أخرى.

وكانت الراية رمز السيادة، فكانت ترفع في الأماكن كالحصون والسفن والمؤسسات الحربية  
الرئيسية، وحين يهزم أحد الطرفين، فإن أول ما كان يفعله الجانب المنتصر هو نزع راية المنهزم وإنزالها  
ورفع رايته مكانها، كما فعل المسلمون في الحصون التي فتحوها والتي كانت بيد الصليبيين، وكما  
فعل الصليبيون في عكا، فحين هزموا المسلمين وفتحوا هذه المدينة «دخل المركيس الملعون البلد ومعه  
أربعة أعلام... فنصب علماً على القلعة، وعلماً على مئذنة الجامع، وعلماً على برج الداوية وعلماً على  
برج القتال، عوضاً عن علم الإسلام»<sup>(٣)</sup> الأصفري.

أما الراية الصليبية فيصفها ابن شداد الذي رآها محملة على عربة ويقول: «وعلم العدو مرتفع  
على عجلة هو مغروس فيها، وهي تسحب بالبعال، وهم يذبون عن العلم وهو عال جداً كالمنازة خرقتة  
بياض، ملمع بحمرة على شكل الصليبان»<sup>(٤)</sup> أي أن العلم الصليبي كان يشبه علم منظمة الصليب  
الأحمر الدولية الآن.

(١) مفرج الكروب، ٨٣/٢ - ٨٤. ويقصد به (يوسف) صلاح الدين.

(٢) وفيات الاعيان، ٢١١/٧. سنا البرق، ٢٥٠/١. الروضتين، ج١، ق٢، ص٦٩٦.

(٣) النوادر، ١٧١. الروضتين، ١٨٨/٢.

(٤) النوادر، ١٤٩. مفرج الكروب، ٣٤٣/٢.



### الفصل الثالث

## مؤسّسات مساعدة في تنظيم الجيش وإدارة شؤون القتال والسلم والأسرى

أولاً: البريد والاستخبارات:

- ١- تنظيم أمور البريد.
- ٢- اليك «فرقة الاستكشاف».
- ٣- حمام البريد.
- ٤- الكمائن.

ثانياً: إدارة شؤون القتال والسلم والأسرى:

- ١- مجلس حرب جيش صلاح الدين.
- ٢- خطط وأساليب القتال.
- ٣- موسم القتال.
- ٤- معاملة الأسرى.
- ٥- المعاهدات والهدن.



## أولاً: البريد والاستخبارات:

### ١- تنظيم أمور البريد:

اقتضت ظروف الحرب، واشتداد الصراع الإسلامي الصليبي وجود مؤسسة تهتم باستطلاع أحوال العدو، ومعرفة مدى قوته من حيث التعبئة وأنواع الأسلحة والأعتدة، ورصد تحركاته. وتهتم كذلك بإرسال الأخبار وتسلمها من أطراف البلاد. وكان أولو الأمر في الدولة يحرصون على سرية المعلومات وعدم تسرب الأنباء الخاصة بالجيش إلى الأعداء.

وكان تنظيم أمور البريد يجري بواسطة ديوان خصص لهذا الغرض، سمي بديوان البريد، وضع تحت إشراف بعض الموظفين، وكلت إليهم إدارة شؤون هذه المؤسسة. وكانت الأخبار ترسل بخيول مقصودة الأذنان ليكون ذلك علامة تميزها عن غيرها من الخيول. وبقي أمر البريد على هذه الحال إلى أن جاء بنو زنكي وبنو أيوب، فانهم أعدوا لذلك النجب<sup>(١)</sup> المنتخبة وما زال الأمر كذلك إلى أن انقرضت دولتهم وجاءت الدولة التركية (أي دولة المماليك)<sup>(٢)</sup>.

وكان المتولون على شؤون هذه المؤسسة يرسلون البريدي ليقطع مسافة إلى أن يصل إلى محطة من المحطات التي وضعت بين أطراف وأقاليم البلاد. وكانت (المحطات) تزود بالماء الكافي والزاد والعلف، ويوفر فيها المكان الخاص ليقبضهم برد الشتاء وحر الصيف، ومن هذه المحطات يستطيع البريديون أن يستبدلوا هجنهم المتعبة بأخرى مستريحة، تعينهم على تأدية واجبهم بأقصر وقت وأيسر سبل<sup>(٣)</sup>.

وكان البريديون يختارون من بين أشخاص عرفوا بالكفاءة والأمانة والذكاء، ومعرفة طبيعة الأرض التي يعملون فيها، نظراً لأهمية العمل الذي أنيط بتنفيذه إليهم، لذا قال القلقشندي: ينبغي أن يكون البريدي «قديراً على تنميق الكلام، وتحسين العبارة، وأن يكون صحيح الفكرة والمزاج، ذا بيان وعارضة ولين واستحكام منعة... صدوقاً بريئاً من الطمع»<sup>(٤)</sup>.

ويفرد الأوسي الأنصاري صفات كثيرة يلزم توفرها في البريدي (في العيون والجواسيس) كأن يكون ممن يوثق بنصيحته وصدقه، وذا حدس صائب وفراسة تامة ليدرك بوفور عقله وصائب حدسه من أحوال

(١) النجيب من الأبل هو القوي منها، الخفيف السريع. تاج العروس، ٤٧٧/١.

(٢) العمري، التعريف، ص ١٨٦-١٨٧. صبح الاعشى، ٣٧٠/١٤. الاوسي، تفريغ الكروب، ص ١٤. محمد كرد علي، خطط الشام، مطبعة الترقى، دمشق ١٩٢٥. ج ٥، ص ١٨.

(٣) د. عطية مصطفى مشرفة، نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين، مطبعة الاعتماد، نشر دار الفكر العربي (سنة الطبع بلا) ص ١٣٢.

(٤) صبح الاعشى، ص ١١٦.

العدو، وبالمشاهدة ما كتّمه العدو عن النطق به يستدل ببعض الامور على بعض. وأن يكون كثير الدهاء والحيل والخديعة، وله درية بالأسفار ومعرفة بالبلاد التي يتوجه إليها، وعارفاً بلسان أهل البلاد التي يتوجه إليها، ليلتقط ما يقع من الكلام الذي يسمعه ممن يخالطه من العدو، على ألا يكون من جنس العدو، فإن الجنس يميل إلى الجنس بالطبع. وأخيراً أن يكون صبوراً على ما لعله يصير إليه من العقوبة إذا ظفر به العدو، حتى لا يخبر بأحوال مرسله، ولا يطلع على وهن فيه وفي عسكره<sup>(١)</sup>. ولاشك أنه كان من الصعب توفر كل هذه الصفات في رجل المخابرات، وإذا وجد رجل كهذا، فلا بد أن هذا يعني أنه رجل استخبارات مثالي.

والواقع أن بريد واستخبارات صلاح الدين اشتهر دائماً بالتفوق<sup>(٢)</sup> على ما كان عند الصليبيين، ففي وقعة الرملة التي حدثت سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م بجنوبي فلسطين، والتي انتهت بهزيمة الجيش الأيوبي، أثبتت أحداثها اللاحقة أن صلاح الدين يملك بريداً فعالاً، استطاع بسرعة تحركه أن يقضي على الشائعات التي انتشرت في مصر، والتي أفادت بمقتل صلاح الدين، وقضت سرعة هذا البريد على طموح الرجال الذين مدّوا أعناقهم للإلتقاض على الحكم الأيوبي في مصر، وكان ذلك حين أرسل صلاح الدين من الحدود المصرية رسله على الهجن إلى القاهرة ليؤكدوا لكل من سوّكت له نفسه التمرد على حكمه، أنه ما زال على قيد الحياة، وحمل الحمام الزاجل بطائق البشرى بعودته إلى القاهرة<sup>(٣)</sup>.

وفي سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م، وحين كان صلاح الدين في مصر، قام بغارة على الكرك وضرب حصاراً عليها لمدة عشرة أيام، ولما رأى قلة أزواد جيشه أمر بالرحيل، والعودة إلى مصر. ويقول المؤرخ الأيوبي محمد بن تقي الدين عمر الذي كان مع الركب السلطاني: «بينما نحن سائرون إذ أتاه نجابون يشرونه بنصرة عمّي عزالدين فرخشاه في غزوة دبورية»<sup>(٤)</sup>.

وكانت مخابرات صلاح الدين من الدقة والسرعة حتى أن «أخبار العدو كانت تتواصل إليه ساعة فساعة إلى الصباح»<sup>(٥)</sup> لاسيما خلال حصار عكا. وكانت استخباراته تضم بعضاً من الصليبيين الذين استأنمهم السلطان في مناسبات مختلفة. وتكمن أهمية هؤلاء أنهم كانوا يعرفون لغة العدو، ولا يشك بهم أنهم رجال صلاح الدين، بسبب من سحتهم ومظهرهم الخارجي. فكانوا يزودون الجيش الأيوبي بأخبار العدو التي يصعب الحصول عليها عن طريق رجال استخباراته المسلمين، فذات مرة أخبروا

(١) الاوسي، مفرج الكروب، ص ١٧.

(٢) رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة د. الباز العريني، ط. دار الثقافة بيروت ١٩٦٨، ج ٢، ص ٦٧١.

Henry Treece, The Crusades, N. Y. 1962, P. 131.

(٣) سنا البرق، ١/٢٦٠. الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٧٠٢. رنسيان ٦٧٣/٢ نقلا عن وليم الصوري.

(٤) مضمار الحقائق، ص ٩٣ - ٩٤.

(٥) النوادر، ١٤٨.

صلاح الدين ما ينوي العدو القيام به من «كبس العسكر الإسلامي ليلاً»<sup>(١)</sup>. أو خبر المنجنيق الصليبي الهائل الذي انفقوا عليه ألفاً وخمسمائة دينار، والذي أعدوه للهجوم على عكا<sup>(٢)</sup>، وكذلك زودوا صلاح الدين بأخبار الحملة الألمانية<sup>(٣)</sup>.

وقد استعمل في البريد في حصار عكا كافة السبل للاتصال بالمحاربين المحاصرين، للاطلاع على أوضاعهم الصعبة، وكذلك لإرسال المال اللازم إليهم، فكان يتصل بهم بواسطة الحمام الطائر والسباحين، ولعل من أشهر قصص البطولة في البريد الأيوبي قصة العوام عيسى فقد اعتاد هذا الرجل الدخول إلى عكا، رغم الحصار البحري، ومعه توجيهات السلطان في كتب يشدها على وسطه مع مبلغ من المال. ولدى وصوله إلى عكا كانوا يطلقون طائراً لإعلام السلطان بسلامة وصوله إلى المدينة. وذات ليلة نزل إلى البحر وشد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار مع كتب للعسكر، إلا أنه لم يستطع الوصول، فغرق في ساحل عكا، وعرفوا أن مكروهاً حدث له، حال دون اطلاق الطائر. وبعد أيام عشر على جثته وعلى وسطه قطع الذهب وشمع الكتب. ويعلق ابن شداد على ذلك بقوله: «فما رأي من أدى الأمانة في حياته، وقد أداها بعد وفاته إلا هذا الرجل»<sup>(٤)</sup>.

## ٢- اليزك «فرق الاستكشاف»:

لفظ اليزك فارسي، معناه (طلائع الجيش)<sup>(٥)</sup>. وينبغي التمييز بين ما يعنيه اليزك بهذا المعنى، وبين (الجاليش) الذي يعني مقدمة القلب في الجيش، أو الطليعة منه. فالجاليش هو الجزء الأمامي من مركز القلب أو قلب الجيش الذي يسير برمته نحو القتال، أما اليزك فهو جماعة الاستكشاف التي ترسل إلى جبهة العدو قبل توجه الجيش نحوه.

فالمهمة التي يقوم بها محاربو اليزك كانت جزءاً من نظام الاستخبارات، وايصال المعلومات العسكرية الآتية إلى قيادة الجيش بالسرعة الممكنة، اذن فيوسعنا أن نقول إن اليزك عبارة عن الفعالية البريدية اليومية التي يقوم بها أفراد مختصون يكونون تحت الطلب، ليذهبوا ويتعرفوا عن كتب على ما يفعله العدو أو ينوي القيام به.

وكان أفراد اليزك يختارون من بين أهل النصح والنجدة والتجربة في الحرب للقيام بهذا الواجب. وكان هؤلاء يتحاشون الاشتباك بالعدو عند الاستطلاع، لأن الهدف من واجبهم هو (تقدير قوة العدو

(١) ن. م، ١٣١.

(٢) النوادر، ص ١٣٤.

(٣) ن. م، ص ١٤٠.

(٤) ن. م، ص ١٣٥-١٣٦. وانظر: الفتح، ٤٢٣. الروضتين، ١٦٢/٢.

(٥) ادي شير، الالفاظ الفارسية المعربة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٠٨، ص ١٦٠. محمد التونجي، المعجم الذهبي

دار العلم للملايين، بيروت ط ١، سنة ١٩٦٩، ص ٦١٩، وانظر مفرج الكروب، ٣٨/١، هامش ٣.

وكشف مواطن الضعف فيه، لذلك فانهم كانوا لا يلبسون الدروع أو التروس وغيرها من الأثقال التي تعيق حركتهم، ويختارون الجياد الهادئة السريعة، الجيدة الحوافر والظهر، التي لاتتهيج بسهولة<sup>(١)</sup>.  
والواقع أن المؤرخين المعاصرين - وخاصة ابن شداد ثم العماد الأصفهاني يذكرون للبيزك في سياق رواياتهم، مهمات كثيرة كان يقوم بها، وصار إرسال الأخبار إحدى تلك المهمات<sup>(٢)</sup>.  
ولا أدل على أهمية وخطورة البيزك في عهد صلاح الدين حين وضع على قيادته شخصيات عسكرية كبيرة من أمثال الملك العادل أخي السلطان<sup>(٣)</sup>، وابنه الأكبر الملك الأفضل<sup>(٤)</sup> وكبار امرائه مثل بدرالدين دلدردم البياروقي<sup>(٥)</sup> وعزالدين ابن المقدم<sup>(٦)</sup> وعزالدين جورديك<sup>(٧)</sup> وعلم الدين سليمان بن جندر<sup>(٨)</sup> وغيرهم. وكان هؤلاء الامراء يقودون البيزك بالتناوب، فكل منهم له نوبته<sup>(٩)</sup>.  
ومن المهمات التي اوكلت إلى البيزك تفقد أحوال المدن ولاسيما بيت المقدس حين هدها الصليبيون باعادة احتلالها ثانية بعد تحريرها في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، فما كان من صلاح الدين إلا أن بعث أخاه الملك العادل على رأس بيك للاطلاع على قدرة هذه المدينة الدفاعية، فسار العادل في ذلك لهذا الغرض «في رمضان ٥٨٧هـ/١١٩١م»<sup>(١٠)</sup> وكذا ما فعله حين أرسل الأمير عزالدين جورديك، وجمال الدين فرج وغيرهما بالمسير حتى يكونوا قريبين «من يافا» في صورة بيك ليعرفوا كم فيها من الخيالة والرجالة<sup>(١١)</sup>.

وحدث أن قام رجال البيزك بمهمة الكمين، كما حدث في طريق يافا، وأوكلت المهمة إلى بدرالدين دلدردم، «فكمن حول الطريق كميناً فيه جماعة جيدة، فمر بهم جمع من خيالة العدو يحمون قافلة تحمل ميرة». وجرى بين الفريقين قتال كانت الدائرة فيه على العدو، وقتل ثلاثون نفرأ وأسر جماعة<sup>(١٢)</sup>.  
وصار البيزك يقاتل الصليبيين في مناسبات عديدة، وكاد البيزك في إحدى مصادماته أن يلقي القبض على الملك ريتشارد قلب الأسد بعد أن أصابته طعنة، وحال دون اعتقاله أحد المقاتلين

(١) الهرثمي، مختصر سياسة الحروب، تحقيق عبدالرؤوف عون، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ص ٤٨-٤٩. الاوسي، تفريغ الكروب، ٥١.  
(٢) النوادر، ١٤٧، ٢٣٢. الكامل ٢٩/١٢. الروضتين، ٢٠١/٢.  
(٣) النوادر ١٩٢.  
(٤) الكامل، ٦٩/١٢.  
(٥) النوادر، ٢١٢، ٢٣٢.  
(٦) الفتح القسي، ٥٤١.  
(٧) النوادر، ٢١٧، ٢٣١.  
(٨) الفتح القسي، ٥٤٢. النوادر، ١٨٢، الروضتين، ١٩١/٢.  
(٩) النوادر، ١٨٢.  
(١٠) ن. م، ص ١٩٢.  
(١١) ن. م، ص ٢٣١. الروضتين، ٢٠٣/٢.  
(١٢) النوادر، ٢١٢.

الصليبيين «فقداه بنفسه، وشغل طاعنه بما عليه من حسن لبيه، فأشتغل به وأسرده، وأفلت اللعين واحفي أثره. وقتل وأسر من خيالته جماعة، وانهزموا من تلك الكرة الخاسرة وقلوبهم مرتاعة»<sup>(١)</sup>. وكذلك قام اليزك بحماية الجيش الأيوبي من هجوم مباغت قد يقوم به الصليبيون، كما حصل عند أنطاكية<sup>(٢)</sup>.

إن تلك المسؤوليات المتعددة الجوانب التي أنيطت تنفيذها إلى رجال اليزك، لتدل على مكانة اليزك في الجيش الأيوبي. وهذا يعني أن هذا التنظيم العسكري، كان يضم في صفوفه خيرة جنود الجيش الأيوبي وأشجعهم. وكان حجم اليزك يتوقف على المهمة العسكرية التي يقوم بها، ولهذا - وكما هو متوقع - فإنه كان يحوي عدداً كبيراً من الفرسان، قد يصل إلى ألف فارس أحياناً، كاليزك الذي عينه صلاح الدين للمرابطة على عكا، حين قرر هو أن ينتقل بقواته إلى جبل الخروبة. وهكذا نرى أن اليزك قد تطور بتطور مهماته في خضم المواجهة الدامية المستمرة مع أعمال البريد والتجسس، إلى تنظيم حربي نشط له أهدافه في الدفاع عن قواعد الجيش الأيوبي أو المدن الإسلامية، أو الهجوم المباغت على معسكرات العدو، وكذلك في وضع الكمائن.

### ٣- حمام البريد:

من أبرز سبل الاتصال البريدي في العصور القديمة والوسطى، استعمال الحمام الزاجل، أو ما يسمى بالحمام الهوادي لقدرته العجيبة على الاهتداء إلى عشه رغم ابتعاده عنه مسافات شاسعة<sup>(٣)</sup>، وبسبب هذه القدرة أطلق عليه الدميري اسم الشيطان<sup>(٤)</sup>. في حين وصف القاضي الفاضل هذا الطير بأوصاف لطيفة وقال إنه ملائكة الملوك، يشير إلى نزوله على الملك من الفضاء نزول الملائكة على الأنبياء، عليهم السلام، من السماء مع فرط ما فيه من الأمانة، لايتوهم من جهتها خيانة<sup>(٥)</sup> ويضيف صاحب الروضتين إلى كلام القاضي الفاضل قوله: «لقد أحسن فيما وصف، وأبدع فيما استنبط وأنصف، وهو بذلك أولى وأعرف»<sup>(٦)</sup>.

إن هذا النوع من الحمام إضافة إلى اهتدائه إلى وكره، اشتهر بسرعة طيرانه<sup>(٧)</sup>. وربما اصطيد وغاب

(١) الفتح القسي، ٥٥٢. وانظر: النوادر، ١٩٠. الروضتين، ١٩٢/٢.

(٢) النوادر، ٩٣.

(٣) الجاحظ، الحيوان، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر ١٩٣٨، ٢١٤/٣.

(٤) حياة الحيوان الكبرى، دار الطباعة، القاهرة ١٢٩٢هـ، ج١، ص ٢٩٦.

(٥) الروضتين، ج١، ق٢، ص ٥٢١. السيوطي، حسن المحاضرة ١٦٦/٢.

(٦) الروضتين، ن. ص.

(٧) يقول أمين الخولي، أن من الحمام ما يقطع ثلاثة آلاف فرسخ في يوم واحد (الجنديّة والسلم، ص ٧٢) أي حوالي ألف كيلومتر في الساعة، وهذا غير معقول.

عن موطنه عشر سنين فأكثر، ثم هو على ثبات عقله وقوة حفظه ونزوعه إلى وطنه، حتى يجد فرصة ليطير إليه<sup>(١)</sup>. ولهذا بلغت أثمان الحمامة مبالغ مرتفعة جداً، وصل إلى سبعمائة دينار، وأحياناً ألف دينار، وبلغ ثمن البيضة الواحدة من هذا النوع الفاخر عشرين ديناراً<sup>(٢)</sup>.

وكان للحمام البريدي مطارات منتظمة هي أوكارها<sup>(٣)</sup>، وقد عين عليها براجون أو حراس برعوا في الاعتناء بشؤونهم، في تدريبهم وإطعامهم وراحتهم، وإطلاقه واستقباله. لكن جرت العادة أن الطائر إذا هبط بالبطاقة لا يقطعها البراج بيده، بل يأخذه إلى الخليفة أو السلطان، خشية أن يكون في البطاقة سر ينبغي عدم اطلاع أحد عليه، حتى ولو كان الوقت غير مناسب، كأن يكون السلطان يتناول طعامه أو نائماً، فيترك طعامه أو يوقظه من نومه، حتى لا يفوت على نفسه ورعيته الأمور الهامة العاجلة، فيفك الرسالة بنفسه<sup>(٤)</sup>؛ أو يقوم رئيس الحرس بهذه المهمة<sup>(٥)</sup>.

وبالمقابل كان ثمة مشاكل عديدة اعترضت سبيل البريد الجوي، إلا أن المهتمين به استطاعوا حلها بأساليب خاصة، فلزيادة الاطمئنان والتأكد من وصول الرسالة إلى الجهة المراد إرسالها إليها، كانوا يكتبون نسختين من الرسالة ويرسلونها على دفعتين متباعدتين، بينهما حوالي ساعة من الوقت، حتى إذا قتلت إحدى الحمامتين أو افترستها الطيور الجوارح في الجو، أو وقعت في أيدي الأعداء، أمكن الاعتماد على وصول الحمامة الأخرى<sup>(٦)</sup>. وقد جرت العادة أيضاً ألا تطلق الحمامة في الجو الممطر ولا قبل تغذيتها الغذاء الكافي<sup>(٧)</sup>.

وكانت الرسالة تكتب مختصرة خالية من البسملة، ويكتب فيها لب الكلام وزيدته، على ورق خفيف، وتؤرخ بالساعة واليوم، ولا تربط إلا تحت الجناح لحفظها من المطر إذا هطل بعد إطلاق الحمامة، إضافة إلى قوة الجناح. وإذا وصلت إلى البرج الذي وجهت إليه، أمسكها البراج وأخذ البطاقة من جناحها، وعلقها بجناح طائر من حمامة البرج الذي يليه أي من المنقول إلى ذلك البرج، وهكذا حتى ينتهي إلى برج المدينة التي فيها السلطان، أو الشخص المرسل إليه، فيأخذ البراج الحمامة والبطاقة في جناحها ويحضرها بين يديه<sup>(٨)</sup>.

(١) البستاني، دائرة المعارف، مطبعة الأدبية، بيروت ١٨٨٧ مجلد ٧، ص ١٦٨. أمين الخولي، الجندرية والسلم، ص ٧٢.

(٢) صبح الاعشى، ٣٩٠ / ١٤.

(٣) ويذكر ابن فضل الله العمري أن المسافة بين مطار وآخر كانت أربعة فراسخ (التعريف ص ١٨٤) أي حوالي (٣٢) كيلومتراً.

(٤) السيوطي، حسن المحاضرة ١٦٦/٢.

(٥) ميخائيل صباغ، مسابقة البرق والحمام في سعة الحمام، رسالة منشورة في مجلة المورد البغدادية، نشر حكمت توماش، مجلد (٢) عدد (٣) ص ١٤٤.

(٦) صبح الاعشى ١١٨/١ - ١١٩.

(٧) الخطط (طبعة اوفسيت) ٢٣١/٢ - ٢٣٢.

(٨) صبح الاعشى ١١٩/١.

لا نريد أن ندخل في تفاصيل تاريخ استعمال حمام البطائق في العصور المختلفة، ولكننا نقول إنه كان له شأن كبير في مخابرات الامم القديمة، إلا أن المسلمين كانوا أكثر عناية به من سواهم<sup>(١)</sup>. ورغم اعتناء العباسيين به، إلا أن المصادر تؤكد أن أتابكة الموصل كانوا أكثر من أولى الحمام اهتمامهم، وهذا ما يقال بالنسبة لنورالدين محمود وصلاح الدين، نظراً لظروف الصراع مع القوى الصليبية التي عاشتها هذه الاسر الحاكمة التي اقتضت الاهتمام بالبريد الجوي. وكذلك عرف الحمام الزاجل في مصر الفاطمية<sup>(٢)</sup>.

لقد استعمل الحمام في اقليم الجزيرة منذ بداية العهد الأتابكي، فذكر ابن الأثير أن عماد الدين زنكي مؤسس أتابكية الموصل، لما سار من جزيرة ابن عمر سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م، أي سنة قيام الدولة الأتابكية، إلى نصيبين، وكانت بيد حسام الدين تمرتاش بن إبلغازي بن أرتق صاحب ماردين، محاولاً فتحها، فما كان من تمرتاش إلا وطلب المساعدة من ابن عمه ركن الدين داوود بن سقمان الأرتقي صاحب حصن كيفا، لدفع زنكي عن نصيبين، فوعده ركن الدين بالمساعدة، وجمع عساكره، وعاد حسام الدين إلى ماردين، وسير رقاعاً على أجنحة الطيور إلى نصيبين المحاصرة، يعلن إلى أجنادها أنه وابن عمه سائران إليهم في العساكر الكثيرة، ويطلب منهم أن يحفظوا البلد مدة ثلاثة أيام. فبينما زنكي في خيمته إذ رأى طائراً قد سقط على خيمة مجاورة، فأمر بصيده، فرأى فيه رقعة ففتحها، وإذا هي الرقعة المذكورة، فأمر فكتب غيرها يقول فيها: من حسام الدين، إنني قصدت ابن عمي، وقد وعدني بالنصرة والمسير في العساكر، وما يتأخر وصوله إلينا أكثر من عشرين يوماً «وأمر زنكي بشد هذه الرقعة (المزورة) على جناح الطائر وأرسله. فلما قرأ المدافعون عن نصيبين الرقعة، خافوا على نفوسهم، وعلموا أنهم عاجزون عن حفظ البلد هذه المدة، فأرسلوا إلى زنكي وصانعوه، وسلموا إليه القلعة، فبطل على تمرتاش وداوود ما كانا عزمنا عليه<sup>(٣)</sup>.

والواقع أن هذه الرواية تبين ضمن ما تبين أن الحمام الزاجل كان مستعملاً في تلك الفترة المبكرة من التاريخ الأتابكي، وتبين أيضاً أن ثمة احتمال لصيد الحمام، والتحليل على مضمون الرسالة التي يحملها، وضرورة اتخاذ الحيطة والحذر للحيلولة دون وقوعه بيد العدو، ومن المحتمل أن زنكي استفاد من هذه التجربة حين نظم البريد الجوي.

إلا أن الاهتمام بالحمام بلغ ذروته أيام نورالدين بن زنكي، ويقال إنه «أول من اعتنى به»<sup>(٤)</sup>، ذلك الاعتناء الذي استرعى به انتباه المؤرخين، فضمن أحداث سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م، يذكر ابن القلانسي

(١) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ٢٣٣/١.

(٢) العمري، التعريف، ١٩٦. الظاهري، زبدة كشف، ص ١١٧. د. عطية مشرفة، نظم الحكم، ص ١٣٢ - ١٣٦.

(٣) ابن الأثير، الباهر، ص ٣٧.

(٤) الظاهري، زبدة كشف، ١١٧. وانظر مادة (بريد) في دائرة المعارف الإسلامية، ط ١٩٣٣. ج ٣ ص ٦١٠، بقلم (هارتمان).

أنه عقب نزول نورالدين على بانياس في عسكره ومضايقته لها بالمنجنقات سقط الطائر من العسكر المنصور بظاهر بانياس يتضمن كتابه الاعلان بورود المبشر من معسكر أسدالدين شيركوه بناحية هونين<sup>(١)</sup>.

وهذا يعني أن حمام البطائق كان مستعملاً منذ بداية عهد نورالدين محمود، ولاسيما وأن أباه قد إستعمله من قبل، إلا أن المؤرخين يذكرون أن هذا القائد اتخذ الحمام سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م أي قبل وفاته بسنتين، وإثر القضاء على الخلافة الفاطمية في مصر، واتساع أطراف دولته. فمن المؤرخين المعاصرين عماد الدين الكاتب ثم ابن الأثير اللذين ذكرا أن نورالدين اتخذ في هذه السنة الحمام الزاجل نظراً لاتساع بلاده، وأجرى الجرايات على المرتبين لحفظها واقامتها، فحصل منها الراحة العظيمة والنفع الكبير للمسلمين<sup>(٢)</sup> فصارت الرقع تنتقل من بلد إلى بلد، فانحفظت الثغور<sup>(٣)</sup>.

أما العماد الكاتب فقد ذكر ضمن أحداث سنة ٥٦٧هـ أيضاً أن نورالدين لم يكن يقيم في المدينة أيام الربيع والصيف محافظة على الثغر ورعاية البلاد، وهو متشوق إلى أخبار مصر وأحوالها، فرأى اتخاذ الحمام المناسب، وتدريبها على الطيران لتحمل إليه الكتب بأخبار البلدان<sup>(٤)</sup>.

لقد اتخذ نورالدين محمود الحمام منذ توليه حكم حلب والشام على غرار والده عماد الدين زنكي، إلا أن ما فعله في سنة ٥٦٧هـ هو أنه نظم شؤون الحمام على أسس جديدة، وشدد على الاهتمام بأمره. اذن فكيفية رعاية الحمام وتنظيم مهامه في أنحاء الدولة النورية، ووريتها الدولة الأيوبية، وتعيين البراجين، وتقاليد كتابة الرقع وكيفية ربط البطاقة واستقبال الحمام، وفك وقراءة الرسالة، كل هذه الامور كانت موجودة حين استلم صلاح الدين مقاليد الامور، وكل ما فعله هو أنه زاد من ربط مصر بالشام بواسطة البريد الجوي، حتى صارت هناك شبكة من المهابط (المطارات) في مصر والشام، تمتد من أقصى جنوبي مصر من أسوان في الصعيد، وعبيذاب على البحر الأحمر إلى القاهرة، ومن أسوان إلى القاهرة فالسويس، وإلى بلبيس كل على حدة، ثم من بلبيس إلى الشام، ومن بلبيس أيضاً إلى الصالحية، وإلى قطيا<sup>(٥)</sup>، ومن قطيا إلى الورداء في الطريق إلى غزة. أي أن بلبيس الواقعة شرقي القاهرة كانت مركز المهابط في مصر، ومثلها كانت غزة في جنوبي فلسطين على الساحل حيث يبدأ منها خط إلى الخليل، وإلى اللد، ومنها إلى قاقون<sup>(٦)</sup>، ثم جنين فصغد فبيسان فأريد فطفس، ومنها إلى الصنمين<sup>(٧)</sup> فدمشق، ومن كل واحد من هذه المراكز إلى ما جاورها من المدن، فمن بيسان

(١) ذيل تاريخ دمشق، ٣٤٠/٣٤١.

(٢) الكامل، ١١/٣٧٥.

(٣) الباهر، ١٥٩.

(٤) سنا البرق ١/١١٩. وانظر أيضاً مرآة الزمان ٨/٢٨٥ - ٢٨٦. الروضتين، ج١، ق ٢ ص ٥٢٠ - ٥٢١. مفرج الكروب، ١/٢٨٣. العمري، التعريف، ١٩٦، الذي يقول إن نورالدين اتخذ الحمام سنة ٥٦٥، وحسن المحاضرة، ١٦٦/٢.

(٥) قطيا: قرية في طريق مصر في وسط الرمل قرب الفرما. معجم البلدان ٤/٣٧٤.

(٦) قاقون: حصن بفلسطين قرب الرملة على مسافة نصف يوم من قيسارية، معجم البلدان ٤/٢٩٩. رحلة بنيامين، المطبعة الشرقية، ١٩٥٤ ص ٩٥.

إلى أذرعاً<sup>(٢)</sup>، ومن دمشق يسرح الحمام إلى بعلبك وكذلك إلى قارة<sup>(٣)</sup>، ومن قارة أيضاً إلى حمص، ومنها إلى حماة فالمعرة فحلب فالبييرة، وهكذا بقية مدن الجزيرة الشامية<sup>(٤)</sup>.  
إن هذه المحطات الكثيرة كانت تضم ولاشك عدداً كبيراً من الحمام، وقد قدر في وقت لاحق، عدد الحمام الذي كان موجوداً في برج قلعة القاهرة وحده بحوالي ألفي طائر<sup>(٥)</sup>.  
وصارت مهنة تربية الحمام مهنة مريحة، نظراً للاقبال الشديد عليه ولاسيما أثناء حصار الصليبيين لعكا. يقول العماد الكاتب: صرنا نحبو صاحب الطيور بالاطراء، ونخصه بالمدح والثناء، ونأمره بالاستكثار، ونطلبها منه مع الليل والنهار، حتى قل وجودها عنده لكثرة الإرسال<sup>(٦)</sup>.  
وقد استفاد الجيش الأيوبي من الجهاز البريدي النوري، واستعمله صلاح الدين ونوابه في حالات الشدة، فالحمام الزاجل أرسلت البشائر من فلسطين إلى مصر بنجاة السلطان في موقعة الرملة. ويقول العماد: «وسيرنا بها البشائر، وأنهضنا ببطاقتها الطائر، لإخراص السنة الأراجيف، وإبدال التأمين من التخويف»<sup>(٧)</sup>.

وكان الجيش الأيوبي يصحب معه حمام الجهة أو الجهات التي ينوي الاتصال بها، أو حين كان ينبغي طلب المعونة منها، كما حدث في سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م حين اجتمع الصليبيون، وساروا نحو دمشق مع ملكهم، فأغاروا على أعمالها ونهبوها وأسروا وقتلوا وسبوا، فأرسل صلاح الدين ابن أخيه عزالدين فرخشاه في جمع من العساكر إليهم، وأمر أنه إذا قاربهم يرسل إليه يخبره على جناح طائر ليسير إليه، فسار فرخشاه في عسكره يطلبهم<sup>(٨)</sup>. وحصل حادث شبيه في وقعة مخاضة بيت الأحزان سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م، إذ «وردت بطاقة الطير إلى دمشق، فخرج السلطان، فما وصل إلى الكسوة القريبة من دمشق، إلا ورؤوس الصليبيين وأسراهم قد جيء بها، فرجع مظفراً منصوراً<sup>(٩)</sup>».  
ولعل ما يؤكد على قوة تنظيم البريد الجوي في هذا العهد، تواصل الحمام على صلاح الدين من مختلف أنحاء البلدان أثناء مرابطته الطويلة على عكا، فمما يذكره ابن شداد أنه أثناء رمضان

(١) الصنمين: قرية من أعمال دمشق في أوائل حوران، بينه وبين دمشق مرحلتان. معجم البلدان ٣/٤٣١.

(٢) أذرعاً: بلد في أطراف الشام، يجاور أرض البلقاء وعمان. ن م ١/١٣٠.

(٣) قارة: قرية كبيرة على قارعة الطريق، وهي المنزل الأول من حمص للقاصد إلى دمشق. وهي آخر حدود حمص. ن. م ٣٩٣/٤.

(٤) العمري، التعريف ١٩٦-١٩٧. صبح الاعشى، ٣٩٣/١٤.

(٥) ميخائيل صباغ، مسابقة البرق، مجلة المورد، ص ١٤٤. جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي ١/٢٣٣. احسان هندي، الحياة العسكرية ٢١٧.

(٦) الفتح القسي، ٣٦٠.

(٧) سنا البرق الشامي ١/٢٦٠. الروضتين ج١، ق ٢ ص ٧٠٢.

(٨) الكامل ١١/٤٥٢-٤٥٣.

(٩) الروضتين ٢/٦.

٥٨٦هـ / ١١٩٠م أرسل حمام من حلب إلى حماة، ومن حماة إلى عكا وتحت جناحه خبر يعلن فيه نواب الملك الظاهر صاحب حلب عن قيام قوات العدو من جنود إمارة أنطاكية الصليبية القريبة من حلب، بشن الغارات على القرى التابعة لحلب، مستغلين ضعف قواتها بسبب ذهاب جندها بقيادة الملك الظاهر إلى عكا، إلا أن القوات الباقية في حلب استطاعت من وضع الكمناء الذين استطاعوا دحر المعتدين الذين «لم يشعروا إلا والسيف قد وقع فيهم فقتل من عسكرهم خمسة وسبعون نفرًا، وأسر منهم خلق عظيم»<sup>(١)</sup>.

وقد تفنن المسلمون في إخفاء أسرارهم، لكي لا يطلع عليها العدو، ولا سيما أثناء حصار عكا، حتى أنهم استعملوا رموزاً خاصة، أو ما يسمى بالشفرات، تدل على أمور متفق عليها مقدماً. فقد ذكر العماد أن رجال البريد كانوا «يحملون كتباً وطبوراً ويعودون بكتب وطبور، ونكتب إليهم، ويكتبون إلينا على أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها سر الامور، ويودع المكتوب والمكتوم ما نطلعهم عليه من الخفي المستور»<sup>(٢)</sup>.

هذا ولم تصلنا إشارات حول استعمال النار والدخان في عهد صلاح الدين، أو نور الدين، كاحدى وسائل الاتصال البريدي، كما كانت مستعملة عند بعض الدول، كتلك التي استعملها المغول في بلاد إيران والشام حين كانت تبني الربايا على الأماكن المرتفعة للاشراف على السهول المحيطة بالمنطقة لتراقب تحركات العدو، وكان يعين على هذه الربايا رجال واجبههم إرسال الاشارات الدالة على حادث معين. والاشارات هي إشعال النار ليلاً، والدخان نهاراً، فينتقل الخبر من ربية إلى أخرى حتى يصل إلى القائد<sup>(٣)</sup>.

#### ٤- الكمائين:

لعل من أكثر فترات التاريخ الإسلامي نشاطاً للكمائين هي فترة الحروب الصليبية، ولا سيما أيام صلاح الدين، نظراً لقرب مواقع الاحتكاك العدائي واستمراره بين القوى الإسلامية والمرتكزات الصليبية التي أقاموها على الجهات الساحلية من بلاد الشام، أو القريبة منها. وتعني الكمائين إرسال جريدة<sup>(٤)</sup> أو سرية<sup>(٥)</sup> من المحاربين الفرسان إلى جهات العدو ومباغتته، والايقاع به في مناوشات محدودة لاتصل إلى حد القتال الواسع النطاق. أي أن العملية كانت تبدأ في السر، ولهذا كان ينبغي أن تتوفر في رجال الكمين جملة من المواصفات لكي يستطيعوا أن يقوموا

(١) النوادر، ١٤٣.

(٢) الفتح القسي، ٣٦٠.

(٣) المقدسي البشاري، احسن التقاسيم، مطبعة بريل، ليدن، هولنده، ١٩٠٧، ص ١٧٧. صالح بن يحيى، تاريخ بيروت ٣٥.

(٤) الجريدة، تعني أقل العساكر، وهي قطعة جردت من سائرها. النعالي، فقه اللغة، ص ٣٢٩.

(٥) سرية، قطعة أكبر من الجريدة، ن. م. ص.

بمهمتهم بالصورة المطلوبة.

وقد فصل مصنفو كتب أصول الحرب في ذكر تلك المواصفات، فمما قاله الأوسي، إن على رجال الكمين أن يكونوا أشجع فرسان العسكر وأدريهم بالحرب، وأعرفهم بالتجارب، فإنهم ينفردون عن العسكر، ويكونون في مكان ليس لهم فيه من يعينهم ولا ينجدهم من أهل العسكر لبعدهم عنهم... ويكونوا عارفين بأمور الحروب، عالمين بأحوال الأماكن الصالحة للاختفاء، ليتحقق الغرض الذي من أجله أرسل الكمين<sup>(١)</sup>.

ويقول بكتوت الرماح: إن على الفارس المنتخب للكمين أن يكون مقدماً جريئاً في الأهوال، راكباً، لا شغف له، ولا سعال به، ولا كثرة عطاس، ولا خريز بصدرة، ولا حشجة بحلقه، ولا بحوحة بصوته. متيقظاً ليس بنؤوم، ولا عند السهر بخوار، ولا البليد قلبياً، ولا بالكليل طرفاً، سموعاً لوقع الجرس وإن كان خفيفاً، نهوضاً عند وقت المناذاة والشدة... الخ<sup>(٢)</sup>.

أما الجياد التي تستعمل في الكمين فكان ينبغي أن تتوفر فيها صفات تجعلها صالحة لهذه المهمة، منها أن تكون ثابتة الخوافر، سالمة الظهور، لا تتحرك بكثرة أي لا تكون حرنأ<sup>(٣)</sup>، وأن لا يكون فيها من الخلق ما يستدل به على الكمين مثل الصهيل ونحوه، وينبغي أن تكون الخيول في الكمين كلها ذكوراً أو كلها إناثاً، فإن اجتماع ذكور الخيل مع إناثه يشير جلية تنبيه الأعداء فيؤدي ذلك إلى العلم بالكمين، وإلحاق الضرر بجميع العسكر<sup>(٤)</sup>. وعن المواصفات التي من الضروري توفرها في الموضع الذي ينصب فيه الكمين يقول الأوسي، إن الموضع يجب أن يكون خفياً مستتراً، وأن يكون فيه الماء والمرعى وسائر ما يحتاجه الكمين بحسب الامكان<sup>(٥)</sup>.

إلا أن هذه المواصفات كان من الصعب إيجادها في الكمائن المرسله أحياناً، على الرغم من أن مواصفات فارس الكمين كانت متوفرة بشكل عام في جماعات البدو من العرب الذين شكلوا احتياطاً جيداً في تزويد جيش صلاح الدين بالقوات الضرورية في أوقات الحرج لشن الغارات على العدو، وقد استفاد الجيش الأيوبي فعلاً من هذه الجماعات في مناسبات عديدة، وأكمنهم لقدرتهم على التظاهر بالهزيمة والضعف أمام العدو وكذلك لسرعة اندفاعهم ولخفتهم<sup>(٦)</sup>.

وقبل أن نسرد حوادث وضع الكمين نلاحظ أن المصادر لا تهتم بأمر الكمائن، إلا في المرحلة الثانية التي بدت وكأن انتصارات المسلمين قد توقفت، ويبدو هذا واضحاً بدءاً من تراجعهم أمام أسوار مدينة

(١) تفريغ الكروب، ص ٧١.

(٢) بكتوب الرماح. السؤال والامنية، مخطوط ص ١٩١. نقلا عن د. سعداوي، التاريخ الحربي ص ٢٢٢.

(٣) الحرن: الذي لا ينقاد إذا اشتد به الجري. تاج العروس ١٧٢/٩. المنجد، ص ١٣٠.

(٤) الاوسي، تفريغ، ص ٧١.

(٥) ن. م، ص ٧٢.

(٦) النوادر، ١٠٨.

صور، وحصار الصليبيين لعكا ووصول الحملة الصليبية الجديدة المعروفة بالحملة الثالثة، بقيادة ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد، وفيليب أغسطس ملك فرنسا، مروراً بسقوط عكا وهزيمة المسلمين في (أرسوف) ومحاولة الصليبيين احتلال بيت المقدس مجدداً، وانتهاء بمعاهدة الرملة. ويبدو لنا أن صلاح الدين رأى بعد سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م أن من الأفضل سلوك طريقة إرسال الكمان، والتحرش بقوى العدو، وعدم فسح المجال له ليخلد إلى الراحة، ويجمع قواته حول عكا. فصار على الجيش الأيوبي أن يدافع عن عكا من جهة، ويفرض الحصار على الصليبيين الذين يحاصرون عكا من جهة أخرى، ويرسل الكمان للتحرش بالجماعات الصليبية هنا وهناك من جهة ثالثة.

ولعل أبرز حوادث الكمين ما وقع في جمادى الآخرة سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م حين بلغ صلاح الدين خبر مفاده أن جماعة من أفراد العدو يتبسطون ويخرجون من صور ليصلوا إلى جبل تبنين<sup>(١)</sup> لجمع الحشيش والحطب، فرأى أن يضع كميناً كبيراً من الرجال الشجعان، يتوزعون في الأودية والشعاب، ويكون عدد رجال الكمين كافياً للقوة الصليبية التي خرجت، وللقوة الاحتياطية التي جاءت في أعقابها لحمايتها.

أنفذ صلاح الدين إلى عسكر تبنين، وطلب منهم أن يخرج من بين رجال الكمين نفر يسير وذلك لايهام العدو بأنهم قليلو العدد، ثم يبدأون بالتحرش بتلك الجماعة الصليبية، وحين يرد عليهم هؤلاء، يتظاهر رجال الكمين بالفرار، ويجرون خلفهم الجماعة الصليبية. وإضافة إلى هذا بعث صلاح الدين في إثر عسكر عكا وطلب منهم أن يخرجوا وراء عسكر العدو حتى إذا تحرك هؤلاء في نصره أصحابهم قصدوا خيامهم. وركب هو وجماعة من رجاله وساروا باتجاه المكان الذي سيلجأ إليه رجال الكمين المنهزمون.

ورتب صلاح الدين العسكر ثمانية أطلاب، واختار من كل طلب عشرين فارساً من الشجعان، فكون سرية، وأمرهم أن يبرزوا للعدو - حسب الخطة المرسومة - حتى يظهروا إليهم ويناشوهم، وينهزموا بين أيديهم إلى أن يصلوا إلى الكمين، ففعلوا ذلك، وظهر لهم من الصليبيين عسكر ضخم، يتقدمهم الملك<sup>(٢)</sup>، ويبدو أن خير الكمين قد وصلهم، فاحتاطوا لذلك «وتعبوا تعبئة القتال» ثم جرى بين الطرفين قتال حقيقي لأن أفراد السرية الإسلامية «انفوا عن الانهزام» ولو كآسلوب لخدع العدو «وحملتهم الحمية على مخالفة السلطان ولقائهم العدد الكثير بذلك الجمع اليسير، واتصلت الحرب بينهم» إلى نهاية نهار ذلك اليوم، ولم يرجع منهم أحد إلى المعسكر ليخبرهم بما جرى. وهزم الفرنج «وعادوا منهزمين ناكسين على أعقابهم بعد أن جرت مقتلة عظيمة من الجانبين وكان القتلى من

(١) تبنين: بلدة في جبال بني عامز المطللة على بانياس بين دمشق وصور. معجم البلدان ١٤/٢.

(٢) لا تذكر المصادر المصداق اسم هذا الملك.

الفرنج زهاء عشرة أنفس، ومن المسلمين اثنان من البيزك وأربعة من العرب»<sup>(١)</sup>. يقول العماد عن هؤلاء العرب الذين استشهدوا إنهم «رأهم العدو فعدا وراءهم، وسار بجمعه ازاءهم، فلما انتهوا إلى الجبل أدركوا، ولم يقدرُوا أن يسلكوا فقاتلوا حتى قتلوا، وأقبلوا على الله فقبلوا، وهم الأمير زامل بن تبيل، والأمير حجي بن منصور، والأمير مطرف بن رفيع وآخر معهم. فهؤلاء أربعة من ربيعة بنيت لهم في جنة الخلد ربوع»<sup>(٢)</sup>.

ونجد أن الظروف التي مر بها الجيش الأيوبي في تلك الفترة، وصلاحيه أرض الشام، ولاسيما أرض فلسطين - لوجود الأحرار الكثيفة والجبال التي تأوي رجال الكمين المقاتلين، قد حتمت على الجيش تنظيم مثل هذه العمليات العسكرية المحدودة الأثر، والتي الغاية منها إحراج العدو وجعله لا يشعر بالأمان، وهذا الأسلوب في القتال شبيه بما نسميه بحرب الأنصار، أو المغاوير.

والحادث السابق يظهر أن جماعات البدو وأمراء العرب كان لهم دور بارز في عمليات الكمين في العهد الأيوبي، وكما يؤكد الحادث التالي. فتحت عنوان «ذكر وقعة جرت للعرب مع العدو» يتحدث ابن شداد قائلاً: خرج العدو «للاحتشاش من طرف النهر، فأمكن السلطان لهم جماعة من العرب... لختهم» و«هجموا على الفرقة الصليبية على حين غرة» وقتلوا منهم خلقاً عظيماً وأسروا جماعة، وأحضروا رؤوساً عدة بين يديه، فخلع عليهم، وأحسن إليهم»<sup>(٣)</sup>.

وفي كمين آخر نصب في بطون أحد الوديان، اشترك فيه جمع من العرب مرة أخرى، وكان على رأس رجال الكمين بعض أمراء صلاح الدين الذين قتل اثنان منهم أثناء المناوشة مع العدو. وقد نظم هذا الكمين للايقاع بالصليبيين الذين خرجوا كعادتهم للاحتشاش والاحتطاب. وفي طرف من الوادي أطلق بعض رجال الكمين صوتاً، لإثارة الصليبيين، الذين تهيأوا لمعرفة مصدر الصوت، عندها خرج العرب وتظاهروا بالهزيمة نحو جهة الكمين، فطاردهم العدو، حتى وصلوا إلى الكمين، فخرج المكمنون «وصاحوا بهم صيحة الرجل الواحد» فانهمز الصليبيون بين أيديهم نحو خيامهم، واتصل الخبر بجماعتهم، فخرجوا لنجدتهم، والتحم الطرفان في قتال نتج عنه مصرع عدد من مقاتلي الطائفتين وجرح وأسر جمع من العدو وأخذ منهم عدد من خيولهم.

يقول ابن شداد: كان سبب انفصال القتال أن السلطان انفذ بجماعة من الأمراء على رأسهم سيف الدين يازكج، لحماية الكمين قائلاً لهم «إذا رأيتم الغلبة على الكمين فاطهروا». ثم أخذتهم الحماية فاشتبكوا مع الصليبيين رغم ما رأوه من كثرة عددهم، فولى الصليبيون الأدبار نحو خيامهم، والسيف يعمل في قفاهم، حتى دخلوا الخيام. وقد خرج السلطان بنفسه ليطلع على نتائج ما يجري، ومعه المؤرخ المذكور. ثم عاد رجال الكمين والبشائر تتواصل «وقد قتلوا ستين صليبياً، وقتل من

(١) النوادر، ١٠١. والمقصود بالعرب جماعة من بدو المنطقة.

(٢) الفتح القسي ٢٩٤. النوادر، ١٠١. الكامل ٣٠/١١ - ٣١. الروضتين ١٤١/٢. مفرج الكروب، ٢٨٧/٢ - ٢٨٨.

(٣) النوادر، ١٠٨. الفتح القسي، ٣٠٦. مفرج الكروب، ٢٩٤/٢.

المسلمين جماعة كان بينهم الأمير أياز المهراني وكذلك جاولي وأسر منهم فارسان معروفان، وعاد السلطان إلى خيمته مسروراً. وكان وقع هذا الكمين الناجح مؤملاً على الصليبيين، حتى أن الملك ريتشارد بعث إلى الملك العادل يعثبه على ما حدث ويطلب الاجتماع به»<sup>(١)</sup>.

والواقع أن صلاح الدين لم ينفرد بتدبير أمر الكمائن، بل إن اتباعه من أمراء الأقاليم التابعة له اشتركوا في نصب الكمائن كذلك، كما فعل الحلبيون في رمضان سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م، حين كمنوا للصليبيين الذين يجاورونهم في إمارة أنطاكية، والذين اعتدوا على حلب أثناء غياب صاحبها الملك الظاهر عنها، وذهابه إلى عكا ليكون مع قوات والده<sup>(٢)</sup>.

ومن حوادث الكمين الكثيرة ما نصب مراراً أثناء حصار عكا. لكن الملاحظ أن تفاصيله لا تختلف عن تفاصيل الكمائن التي تحدثنا عنها. إلا أن الجيش الأيوبي نصب ذات مرة كميناً كبيراً، جعل المؤرخين يطلقون على المعركة التي جرت بين الطرفين اسم «وقعة الكمين»<sup>(٣)</sup>، فيروي ابن شداد الذي حضر الوقعة ووصفها كشاهد عيان، على غرار العماد الكاتب، وقال: في ٢٢ شوال سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م رأى السلطان أن يضع للعدو كميناً، وقوي عزمه على ذلك، فأخرج جمعاً من كماء العسكر وشجاعته وأبطاله وفرسانه، وانتخبهم من بين عدد كبير من المقاتلين، وامرهم أن يسيروا في الليل، لكي لا يراهم أو يحس بهم العدو، ويكمنوا في سفح تل يقع شمالي عكا المحاصرة، بعيداً عن عسكر العدو، وطلب من نفر منهم أن يخرجوا ويتحرسوا بالقوات الصليبية التي تعسكر هناك، ويناوشوهم بالنشاب، لتحريك حميتهم. فنفذوا ما طلب منهم. عندها خرج من بين الصليبيين قرابة مائتي فارس<sup>(٤)</sup> شاكين في السلاح على خيل جيد بعدة تامة وأسلحة كاملة، وقصدوهم، وطاردوهم، ثم داخلهم الطمع فيهم لقلّة عدتهم، فانهزموا بين أيديهم، وهم يقاتلون وينتقلون، حتى أتوا الكمين عندها خرج عليهم رجال الكمين المسلحون، وثار حماس الطرفين، وصاح المسلمون فيهم «صيحة الرجل الواحد، وهجموا عليهم هجوم الأسد على فريسته، فثبتوا وصبروا وقاتلوا قتالاً شديداً» فانهزم الصليبيون، إلا أن رجال الكمين لحقوا بهم ووقعوا فيهم ضرباً بالسيف، حتى أفنوا منهم عدداً كبيراً، وأعلن الباقيون استسلامهم، فأسروهم وأخذوا خيلهم وعددهم. وأرسل المنتصرون نبأ انتصارهم إلى المعسكر الصلاحي «فارتفعت الأصوات بالتهليل والتكبير، وركب السلطان يلتقي بهم، وسار حتى أتى تل كيسان<sup>(٥)</sup> فوق يستقبل المجاهدين... ويتفقد الأسرى الصليبيين، وكان بينهم مقدم العسكر الفرنسي، وخازن الملك، فأمر بتقييدهم وإرسالهم إلى دمشق<sup>(١)</sup>».

(١) النوادر، ٢٠٠. الفتح القسي، ٥٥٩ - ٥٦٠.

(٢) النوادر، ١٤٣.

(٣) النوادر، ١٥٠. الفتح القسي ٤٤٨. الروضتين ١٨٠/٢. مفرج ٣٤٤/٢.

(٤) النوادر، ١٥١. الفتح ٤٤٨. وفي الروضتين ١٨٠/٢ أربعمئة فارس نقلوا عن البرق الشامي.

(٥) تل كيسان: موضع في مرج عكا من سواحل الشام، معجم البلدان ٤٣/٢.

وقد استمر صلاح الدين على سياسة وضع الكمين إلى انتهاه حالة الاحتراب الطويل بين صلاح الدين والصليبيين بقيادة ريتشارد بعقد صلح الرملة.

## ثانياً: إدارة شؤون القتال والسلم والأسرى:

### ١- مجلس حرب جيش صلاح الدين:

كان من الطبيعي أن يكون لصلاح الدين مساعدون يعينونه على توجيه سياسة الحرب ووضع الخطط العسكرية وإدارة شؤون الدولة، وكان هؤلاء يشكلون مجلساً شبيهاً بما يطلق عليه أركان الجيش، ويتكون من صلاح الدين، وكان يرأس الاجتماعات عادة، وعضوية اخوته، لاسيما الملك العادل، وأولاده الكبار خاصة الملك الأفضل علي والملك الظاهر غازي، وأولاد أخيه مثل تقي الدين عمر، وخاله شهاب الدين محمود الحارمي، وكبار الامراء والقادة القدامى والجدد ومستشاره الحكيم القاضي الفاضل وقاضي العسكر بهاء الدين بن شداد المؤرخ، والمسؤول عن مراسلاته الحربية العماد الكاتب الأصفهاني المؤرخ، وبهاء الدين قراقوش وسيف الدين المشطوب الهكاري، وقادة آخرين، مثل أبو الهيجاء الهذباني وعلم الدين سليمان بن جندر وأمير الأسطول المصري حسام الدين لؤلؤ، وأصحاب المدن والقلاع المعروفين من أمثال مظفرالدين كوكبري وشمس الدين ابن المقدم وعزالدين جورديك والفقهاء ضياء عيسى الهكاري.

وكان لكل من هؤلاء حق ابداء الرأي في صراحة تامة، ما داموا يتصرفون وينطلقون من مبدأ خدمة دولة صلاح الدين وجيشه، ولكن، وكما أثبتت وقائع الحروب، لم يحدث - إلا نادراً - أن علا صوت أحد هؤلاء الأعضاء وانفرد بالمناقشات دون الآخرين بغية التأثير على صلاح الدين، على الرغم من ظهور بوادر لعصيان أو امره أحياناً، كما سنرى. ولاسيما لدى عسقلان التي تم تخريبها حسب مشيئتهم، بعد أن عجز الجيش الأيوبي من الدفاع عنها واضطر السلطان إلى ممالئتهم، رغماً عنه. وكذلك ما حصل عند تنظيم الدفاع عن بيت المقدس بعد فتحها بسنين، حين رفض امرؤه الدخول إلى المدينة، لكيلا يحصل لهم ما حصل في عكا حين فشلت جهودهم. ولكن، مع هذا فإن رأي صلاح الدين كان هو الغالب على المجلس بصورة عامة. إلا أن هذا لا يعني أنه كان يستبد برأيه، وإلا لما استشارهم وأخذ بأرائهم وملاحظاتهم، بل نجده يغير موقفه حسب مقتضيات المصلحة، ويلتزم برأيهم، سواء عن قناعة أو للحفاظ على وحدة الموقف. ويلاحظ أن صلاح الدين كان يهتم بصورة خاصة

(١) النوادر، ١٥١. الفتح القسي، ٤٤٩. الروضتين ١٨٠/٢. مفرج الكروب ٣٤٤/٢ - ٣٤٥.

بمشورة أخيه الملك العادل، وإذا كان هذا غائباً عن المجلس أرسل في إثره ليعرف رأيه بشأن مسألة خطيرة<sup>(١)</sup>.

ولعل حرص صلاح الدين على مشورة أخيه في أمور الدولة، ومكاتبته المستمرة له، ثم انتظاره جوابه قبل الاقدام على تطبيق القرار المتخذ، كلفه غالباً، وفوت عليه كثيراً من المنافع الحاصلة للدولة والجهاد<sup>(٢)</sup>.

ويفسر أحد المؤرخين نقل الملك العادل من مصر إلى حلب سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م بأن صلاح الدين رغب أن يكون أخوه قريباً منه، لأنه لا يقطع أمراً دون مشورته<sup>(٣)</sup>.

ولعل أول اجتماع هام عقده مجلس صلاح الدين - حسب ما ورد في المصادر - كان في سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م حين عزم نورالدين محمود التوجه إلى مصر لاجراء صلاح الدين منها، يوم كان نائباً له في حكم مصر. لأن صلاح الدين لم يشأ - حسب رواية ابن الأثير والمؤرخين الذين نقلوا عنه - أن يجتمع بنورالدين محمود بالقرب من الكرك، كما كان مقرراً بينهما، وعاد صلاح الدين إلى مصر، بسبب اختلال الوضع فيها، أو تخشيتته أن يعزله نورالدين إذا تم الاجتماع بينهما. ولما علم أبناء الاسرة الأيوبية وأنصارهم نوايا نورالدين، عقدوا اجتماعاً ضم، إضافة إلى صلاح الدين، أباه نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي وابن أخيه تقي الدين عمر وغيرهم، واستشارهم صلاح الدين حول الإجراء الذي ينبغي إتخاذه لردع نورالدين من التقدم إلى مصر.

وكان أبرز من تحدث في المجلس تقي الدين عمر الذي دعا إلى امتشاق السلاح ضد نورالدين، في حين قام والد صلاح الدين بتهدئة الخواطر، وتصرف بحكمة تثير الإعجاب<sup>(٤)</sup>.

وعند حصن بيت الأحزان<sup>(٥)</sup> أخذ صلاح الدين مشورة قواده في ربيع الآخر سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م، حين تحصن الصليبيون في هذا الحصن وجعلوا منه مصدر خطر على الجيش الأيوبي، فطلب صلاح الدين من العدو هدمه لقاء مائة ألف دينار فأبوا «فلما رأى السلطان ذلك، جمع الامراء من أصحابه وأولي الأمر والمشورة»<sup>(٦)</sup> وأخبرهم بالموقف، فكان رأيهم زيادة المبلغ. ثم راسل صلاح الدين تقي الدين عمر، الذي كان في حماة، وطلب منه أن يبدي رأيه، فقال: رأيي هو صرف المبلغ على الأجناد

(١) الروضتين ٥٢/٢. د. سعداوي، التاريخ الحربي، ص ١٧٨.

Lane - Poole. A History of middle age, London. 1901, p. 196.

(٢) الروضتين ٥٢/٢.

(٣) ن. م. ص. وانظر: د. سعداوي، جيش مصر، ص ٣٧ نقلا عن العيني، ج ١، ق ١، ص ٨.

(٤) الكامل ٣٧٢/١١ - ٣٧٣. التاريخ الباهر، ١٥٨ - ١٥٩. وانظر: الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٥١٩. مفرج الكروب،

١/٢٢١ - ٢٢٢. الذهبي، العبر ٤/١٩٥ - ١٩٦.

(٥) بيت الاحزان: بلد بين دمشق والساحل، سمي بذلك لانهم زعموا أنه كان مسكن يعقوب أيام فراقه ليوسف. وكان

الفرنج عمروه وبنوا فيه حصنا حصينا معجم البلدان ١/٥١٩.

(٦) مضمار الحقائق، ٢٤.

وحشهم على الجهاد والعمل من أجل تخريب الحصن. فعمل السلطان بتوجيه ابن أخيه، فكان النصر لجيش الأيوبي، وتم تخريب بيت الأحزان<sup>(١)</sup>. وهذا دليل على أن صلاح الدين لم يكن يقطع أمراً، في الغالب، دون مشورة رفاق سلاحه، ولا سيما في الأمور التي تخص سلامة البلاد الإسلامية. ومرة أخرى اجتمع مجلس صلاح الدين الاستشاري للباحث حول ما ينبغي عمله مع الموصل بعد أن أرسل صاحبها الأتابك عز الدين مسعود سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م وفداً من نساء البلاط لوضع حد للقتال بين الطرفين، إلا أن المجلس قرر مواصلة الحصار<sup>(٢)</sup>.

ولعل أبرز الجلسات التي عقدها المجلس كان عند أسوار مدينة صور العاصية، وذلك في شوال ٥٨٣هـ/١١٨٧م. فطلب صلاح الدين مشورتهم بعد أن عجز عن فتحها، فقالوا: «هذا بلد حصين... في البحر ثلاثة أرباعه... قد أحاط به البحر من جانبه، وقد قطعوه بخندق في عرضه، وعمقوه ونزلوا في أرضه... وكان من أحكم الحزم، تكميل الآلات وتنميمها، وتحصيل المنجنيقات وتقديمها، وتركيب الأبراج والدبابات وتأليفها...»<sup>(٣)</sup>.

بدأ أعضاء المجلس بمناقشة الآراء، وما ينبغي فعله مع هذه المدينة التي ظلت صامدة أمام جيش صلاح الدين، تتحدها إلى النهاية. وانقسموا إلى فريقين، فريق يدعو إلى الرحيل عن صور لكثرة القتلى والجرحى، ولأنه قد فنيت النفقات وضجر العسكر، وجاء الشتاء، فمن الضروري رفع الحصار، على أن يعودوا في الربيع، «وكان هذا قول الامراء الأغنياء، وكأنهم خافوا أن يقتض السلطان منهم ما ينفقه في المعسكر إذا أقام، لخلو الخزائن وبيوت الأموال من الدرهم والدينار»<sup>(٤)</sup>.

أما الفريق الآخر، وفيهم السلطان والأتقياء من الامراء كالفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري وحسام الدين طمان وعز الدين جورديك النوري «الذي جمع الديانة والشجاعة وحسن السيرة»<sup>(٥)</sup>، فقد رأوا ضرورة الاستمرار في محاصرة صور ومضايقتها حتى تسقط<sup>(٦)</sup>. وطالت المشاورات، ثم رأى صلاح الدين أن الرأي الغالب هو لمن يرى رفع الحصار، لأنهم صاروا مقيمين بغير قتال، فاضطروا إلى الرحيل، «فرحل عنها آخر شوال، المصادف أول كانون الأول، إلى عكا، فأذن للعساكر جميعاً بالعودة إلى أوطانهم والاستراحة في الشتاء، والعودة في الربيع... وبقي صلاح الدين مع حلقته الخاصة مقيماً بعكا»<sup>(١)</sup>.

(١) سنا البرق الشامي، ٣٣٣/١ - ٣٣٥. الكامل ٤٥٥/١١ - ٤٥٧. الروضتين ١١/٢ - ١٣. مفرج الكروب ٨٠/٢ - ٨٥. البداية والنهاية ٣٠٣/١١ - ٣٠٤.

(٢) الكامل، حوادث ٥٨١هـ. زبدة الحلب ١٨/٣. الروضتين ٦٤/٢. مفرج الكروب ١٧٠/٢ - ١٧١.

(٣) الفتح القسي ١٥٧.

(٤) الكامل، ٥٥٦/١١.

(٥) الكامل ٥٥٧/١١.

(٦) الروضتين ١١٩/٢.

من هذا نرى أن صلاح الدين، على الرغم من أنه لم يكن مع رأي الفريق الغالب إلا أنه أخضع رأيه لأمره، ولاسيما وقد أصابهم الملل، وقلت عندهم الذخيرة، في شتاء الساحل البارد والموحل، ومع هذا فإن رفع الحصار عن صور قد أثر في نفسية الرجال الأتقياء والمجاهدين في جيش صلاح الدين.

ولدى حصار الصليبيين لعكا، حدث مراراً أن انعقد المجلس للمشورة، ويذكر ابن شداد أنه في اجتماع عقده صلاح الدين في ٢٩ شعبان ٥٨٥هـ/١٣ تشرين الثاني ١١٨٩م استحضر صلاح الدين الأمراء وأرباب المشورة، وطلب منهم أن يصغوا إلى كلامه، وكان ابن شداد من جملة الحاضرين، ثم قال: «بسم الله والحمد لله... اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد نزل بلدنا... ولا بد من الاهتمام بقلعه، والله قد أوجب علينا ذلك. وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل، وهو واصل، والرأي كل الرأي عندي مناجزتهم، فليخبرنا كل منكم ما عنده».

عندها بدأ الحضور بالمناقشة، فامتخضت الآراء، وجرى تجاذب في أطراف الكلام، وانفصلت آراؤهم على أن المصلحة تأخير العسكر إلى تل الخروبة المشرف على عكا، وأن يبقى العسكر أياماً حتى يستجم من حمل السلاح، وترجع نفوسهم إليهم، فقد أخذ منهم التعب، واستولى على نفوسهم الضجر، ولأن تكليفهم أمراً على خلاف ما تحمله القوى أمر لا تؤمن غائلته، والناس لهم خمسون يوماً تحت السلاح وفوق الخيل، والخيل قد ضجرت من عرك اللجم، وسأمت نفوسها ذلك، وعند أخذ قسط من الراحة ترجع نفوسها إليها، ويصل الملك العادل، ويشارك في الرأي والعمل. هذا إضافة إلى ما عرض لمزاج السلطان من الالتياث، قد اعتراه من كثرة ما حصل على قلبه، وما عاناه من التعب بحمل السلاح والفكر في تلك الأيام<sup>(٢)</sup>.

وكذلك استشار صلاح الدين أصحابه فيما يصنع للوقوف بوجه الحملة الألمانية الجبارة التي اكتسحت بلاد الروم بسرعة، ووصلت إلى أرض أنطاكية، وبدأت بالزحف نحو الجنوب سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م «فاتفق الرأي على أن يسيير بعض العسكر إلى البلاد المتاخمة لطريق العسكر الألماني الواصل، وأن يقيم هو على منازل العدو بباقي العسكر. فسار ناصرالدين ابن تقي الدين عمر صاحب منبج، وعزالدين ابن المقدم صاحب كفر طاب ويعرين، ومجد الدين بهرامشاه ابن صاحب بعلبك وسابق الدين عثمان صاحب شيزر وغيرهم»<sup>(٣)</sup>.

وهكذا كان المجلس يجتمع كلما رأى صلاح الدين ضرورة في ذلك، فقد اجتمع حين وصل الكنديري في جمادى الآخرة ٥٨٦هـ/١١٩٠<sup>(١)</sup>. واجتمع أكثر من مرة أثناء المسير إلى جهة عسقلان في شعبان

(١) الكامل ٥٥٦/١١ - ٥٥٧. الروضتين ١٢٠/٢.

(٢) النوادر، ١١٤. الفتح القسي، ٣٢٢ - ٣٢٤. الروضتين ١٤٦/٢. مفرج الكروب ٣٠٤/٢ - ٣٠٥.

(٣) النوادر، ١٢٦: الفتح القسي ٣٩٣ - ٣٩٤. الروضتين ١٥٥/٢ - ١٥٦. مفرج الكروب ٣٢٤/٢.

٥٨٧هـ/١١٩١م<sup>(٢)</sup>. وحتى لدى مراسلاته مع الصليبيين، فإنه كان يستدعي «أرباب الرأي ويشاورهم في جواب رسالة القوم»<sup>(٣)</sup>.

وإثر هزيمة أرسوف في شعبان من السنة المذكورة، سار الجيش نحو الرملة في طريقه إلى عسقلان «فجمع الامراء واستشارهم فيما يفعل، فأشاروا عليه بتخريب هذه المدينة قائلين له: قد رأيت ما كان منا بالأمس، وإذا جاء الفرنج إلى عسقلان ووقفنا في وجوههم نصدهم عنها، فهم لاشك يقاتلوننا لننزاح عنها، فينزلوا عليها، فإذا كان ذلك عدنا إلى مثل ما كنا عليه على عكا، ويعظم الأمر علينا، لأن العدو قد قوي بأخذ عكا وما فيها من الأسلحة وغيرها، وضعفنا بما خرج عن أيدينا»<sup>(٤)</sup>. ولاشك أن هذا الرأي كان رأياً حكيماً، رغم أن صلاح الدين - حسب رأي ابن الأثير - كان من المعارضين في تخريب المدينة. وجاء على لسان ابن شداد أن السلطان قال حين بدأوا بتخريبها: «والله لئن أفقد أولادي بأسرهم أحب إلي من أن أهدم منها حجراً واحداً، ولكن إذا قضى الله بذلك وعينه لحفظ مصلحة المسلمين طريقاً فكيف أصنع»<sup>(٥)</sup>.

وعقد المجلس جلسة مهمة، لعلها كانت الجلسة الأخيرة، بسبب تلاحق الأحداث، والتوقيع على معاهدة الصلح بين المسلمين والصليبيين ومغادرة ريتشارد قلب الأسد لأرض فلسطين، وأخيراً وفاة صلاح الدين. وقد عقدت هذه الجلسة الهامة في ١٩ جمادى الآخرة سنة ٥٨٨هـ/حزيران ١١٩١م حين عزم الصليبيون على قصد بيت المقدس، فحضر الامراء إلى المجلس، وعلى رأسهم الأمير أبو الهيجاء السمين الذي وصل بمشقة عظيمة نظراً لألم ألم به، وجلس على كرسي قرب صلاح الدين، وحضر أيضاً سيف الدين المشطوب، الذي خرج من الأسر تواً، وكذلك حضر أمراء الأسدية بأسرهم. وطلب صلاح الدين من المؤرخ القاضي ابن شداد أن يفتتح الجلسة بكلمة يظهر فيها فضل الجهاد. ثم تناول صلاح الدين الحديث، بعد هنيهة صمت ساد المجلس «كأن على رؤوسهم الطير» وخطب فيهم قائلاً: «... اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته، وأن دماء المسلمين وأموالهم وذرايرهم معلقة في ذمكم، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم، فإن لو يتم أعنتكم - والعياذ بالله - طوى البلاد طي السجل للكتاب، وكان ذلك في ذمتكم فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا، وأكلتم مال بيت مال المسلمين، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام»<sup>(٦)</sup>.

فانبرى الأمير المشطوب للجواب على السلطان وقال: «يا مولانا نحن مماليكك وعبيدك، وأنت

(١) النوادر، ١٣١. الفتح القسي ٤١٣. الروضتين ١٥٩/٢.

(٢) النوادر، ١٧٨.

(٣) النوادر، ٢٠٣، ٢٠٤.

(٤) الكامل ٧١/١٢ - ٧٢.

(٥) النوادر، ١٨٦. وانظر: مرآة الزمان، ٨/٤١٠. الروضتين، ١٩٢/٢. وفيات الاعيان، ١٩٨/٧. مفرج الكروب، ٣٦٩/٢.

(٦) النوادر ٢١٦. الروضتين ١٩٨/٢ - ١٩٩. مفرج الكروب ٣٨٦/٢.

الذي أنعمت علينا وكبرتنا وعظمتنا وأعطيننا وأغنيتنا، ليس لنا إلا رقابنا، وهي بين يديك، والله ما يرجع أحد منا عن نصرتك إلى أن يموت» فقال الجماعة مثل ما يقول، فانيسطت نفسه بذلك المجلس، وطاب قلبه<sup>(١)</sup>. إلا أن الامراء سرعان ما عصوا أمر السلطان، وخشوا أن يحصل لهم في القدس ما حصل لهم في عكا.

والملاحظ أن صلاح الدين شاور أصحابه في كل المناسبات والأحداث الخطيرة، ووافق على رأيهم عن رضا حيناً، وعن كره حيناً آخر، حفاظاً على مصلحة المسلمين وإيثاراً لرضائهم وحرصاً منه على احترام رأي أمرائه، إلا أنه دفع ثمن هذه المرونة غالباً في بعض الأحيان، حين ترمد بعض الامراء على أوامره كما سنرى.

## ٢- خطط وأساليب القتال:

لاشك في أن الجيش لا يستطيع أن يشتبك مع العدو ويخوض معركة دون أن يكون قد رتب أموره، بحيث تتوضح معالم الخطوات التي سيتخذها، وينبغي على الجيش ألا يتصرف بعشوائية تؤدي إلى اضطراب صفوفه. ولكن بالمقابل كان لروح الجهاد الفائقة التي امتلأت بها قلوب أكثر المحاربين المسلمين في جيش صلاح الدين أثرها الفعال في اندفاعهم نحو قتال العدو، وكان لهذه الروح قوة فاقت أثراً قوة التنظيم<sup>(٢)</sup>.

كان الهدف الأسمى للجيش الأيوبي في قتاله هو طرد المحتلين الصليبيين الذين استقروا في الساحل الشامى الممتد من أقصى الشمال في أنطاكية إلى أقصى الجنوب في عسقلان، وكذلك في بعض الأجزاء الداخلية مثل بيت المقدس والكرك والرها وحارم وطبرية وغيرها. وكان المسلمون قد استطاعوا قبل صلاح الدين تحرير بعض هذه الأجزاء، منذ أن بدأوا بتنظيم أنفسهم في فترة الافاقية التي بدأ بها المجاهد عماد الدين زنكي وابنه نورالدين محمود الشهيد، وفي عهد صلاح الدين بلغ المسلمون مستوى متقدماً من التنظيم والاندفاع نحو الجهاد والبذل.

فالهدف الاستراتيجي في قتال الأيوبي هو استعادة الأراضي التي يحتلها الصليبيون منذ أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. ومن أجل تحقيق هذا الهدف سلكت الجيوش الإسلامية مختلف السبل وشتى الأساليب، سواء عن طريق المجابهة المباشرة مع العدو، أو عن طريق إضعافه<sup>(٣)</sup> اقتصادياً ومعنوياً وحصره في نقاط الارتكاز التي حصنها. فالمسلمون - ولاسيما في عصر صلاح الدين - اتبعوا مختلف التكتيكات للايقاع بالصليبيين.

وقد أطلق في الاصطلاح الحديث (الاستراتيجية Strategy) على فن تحريك القوات، واختيار مواقعها

(١) المصادر الأنفة الذكر وانظر: Lane - Poole, Saladin, p. 341, Stevenson, p. 282.

(٢) جورج كاستلان، تاريخ الجيوش، ص ٦٧.

(٣) انظر: محمد خالد، قصة التعبئة، ص ٤٥.

المناسبة، قبل الاشتراك في المعركة وبعدها، وتوزيعها على ميادين القتال توزيعاً يناسب أهميتها، واعداد حاجاتها التي تكفيها زمناً طويلاً، ومراعاة ذلك حتى في فترات السلام. أي أن الاستراتيجية تعني فن القيادة العامة في الحرب بأجمعها.

كما أطلق لفظ (التكتيك Tactic) على فن تحريك القوات والتنسيق بينها خلال المعركة، وطريقة تنظيمها في حالة الهجوم أو الدفاع، تبعاً للخطوة الموضوعية بمعرفة القيادة العامة. فالتكتيك فن القيادة في ميدان المعركة. والمؤرخون المسلمون أطلقوا على هذين المفهومين لفظ (التعبئة) وقصدوا منه تنظيم الجيوش وصف الكتائب في المعركة أو قبلها، فتعبير (عباً) يعني (نظم) أو حصر القوى الموجودة تحت تصرفه استعداداً للقتال، وتوفيراً لمستلزماته كلها<sup>(١)</sup>.

وكذلك نعني بالتكتيك السياسة اليومية، القصيرة الأمد، التي تتبع من أجل إضعاف الجانب الآخر، أو للوصول إلى أهداف محددة مباشرة. واستمرار هذه الأعمال يتعب العدو، ويجعله في حالة من القلق والترقب، فالتكتيكات الناجحة المتواصلة ترعب العدو وتضعفه، وهذا ما كان يدركه صلاح الدين وقادة جيشه، ولهذا فإن جيشه في الوقت الذي وضع نصب عينه الهدف الأساس الذي من أجله خاض غمار الحرب ألا وهو تحرير كامل الأقاليم التي احتلها الصليبيون، إلا أنه واصل استخدام التكتيكات المختلفة، إضافة إلى أنه استفاد من نقاط ضعف الصليبيين.

والخطوة العسكرية لم يكن يضعها صلاح الدين وحده، بل كان يعينه فيه مجلسه الاستشاري، على الرغم من أن قيادة الجيش المركزية ظلت بيد صلاح الدين. والنجاح يكون في الغالب مضموناً، إذا حافظ القائد على الاتصال الدائم بالأعداء، وقد تحمل الهزائم به - كما يقول أومان - إذا فقد ذلك الاتصال<sup>(٢)</sup>. وكان الينك (الفرقة الاستطلاعية) يقوم بدور أساسي في هذا الصدد، فكان واسطة اتصال دائم بين قيادة الجيش وقوى العدو.

ومن الأساليب التي استعملها الجيش الأيوبي نجد أنفسنا أمام جملة من الأعمال والاجراءات التي يمكن إدراجها تحت إسم الأعمال التكتيكية. ومن هذه الأعمال التي قُصد منها إضعاف العدو أنه أوعز إلى جنده بقطع كروم ضياع صفد في غور الأردن في موقعة بيت الأحزان التي حدثت سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م<sup>(٣)</sup> وأمر بحصد غلاتهم<sup>(٤)</sup>. وقصد من هذا تحطيم اقتصاد العدو، وجعله لا يستفيد من الكروم وأخشابها، ومن الحبوب التي حصدها الجند.

وقد تكرر هذا العمل في مناسبات عديدة، فيذكر المؤرخ محمد بن تقي الدين عمر الأيوبي أن السلطان سار بمن انتخب من عساكره، وتوجه بهم إلى الكرك في مطلع سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م، ووصل

(١) انظر: عبدالرؤف عون، الفن الحربي، ص ٢٠٦.

(٢) Oman, A History of the art of war, p. 211.

(٣) مضمار الحقائق، ص ٢٦. السلوك، ٦٩/٧. سنا البرق الشامي، ٣٣١/١.

(٤) الروضتين، ٨/٢.

إليها بعد أيام، فوجد بها جمعاً عظيماً من الفرنج، « فنزلنا قريباً منهم، فأذللناهم وضابقتناهم حتى لاذوا بالجدار، فاستولينا عليهم فقطعنا أشجارهم ورعيننا زروعهم»<sup>(١)</sup>.

وكذلك فعلوا حين تهيأوا لموقعة حطين الحاسمة حين ساروا إلى حصن «الكرك وأخافوا أهله وأخذوا ما كان حوله ورعوا زرعهم وقطعوا أشجارهم وكرومهم، ثم ساروا إلى حصن الشوبك وفعلوا به مثل ذلك»<sup>(٢)</sup>. ويقول العماد الكاتب إن الفرنج فجعوا بكرمها وزيتونها<sup>(٣)</sup>.

وكان لتكتيك قطع الماء أثره العميق في إضعاف العدو وهزيمته، فالمعروف أن سيطرة الجيش الأيوبي على منابع الماء يوم حطين كان أحد أسباب هزيمته، كما هو معلوم، حين «حجز بينهم وبين الماء»<sup>(٤)</sup> حتى «قتلهم العطش»<sup>(٥)</sup>، ولجأ الجيش الأيوبي إلى إفساد مياه بعض ينابيع القدس سنة ١١٩١/٥٨٧م للحيلولة دون سقوطها بأيدي الصليبيين بعد هزيمة المسلمين المعروفة في عكا<sup>(٦)</sup>. وكان إفساد الماء يتم عن طريق إلقاء الزرنخ أو طرح الجيف فيه<sup>(٧)</sup>.

ومن الخطط التي اتبعتها، تطبيقه لاسلوب الحرب الخاطفة ومباغطة العدو، والانتصار عليه قبل أن يستطيع تجميع قواه، وهذه الخطة تظهر معالمها بوضوح أكثر في سنتي ٥٨٣ - ٥٨٤هـ/١١٨٧ - ١١٨٨م حين لم يكتف بالانتصار الحاسم في حطين، بل إنه اتبع الانتصار بانتصارات لاحقة سريعة بحيث يمنع الصليبيين من التجمع في مكان واحد والاشتباك معه في موقعة مكشوفة أخرى.

فإثر فوزه في حطين هجم الجيش الأيوبي على التوالي على عكا وصفورية والناصرية وقيسارية ونابلس والداروم وفتحها جميعاً. وحين استعصت عليه مدينة صور بسبب استحكاماتها، اضطر إلى تركها، واستأنف فتوحه في البقاع الأخرى وتوجهها بفتح بيت المقدس والمدن الساحلية والداخلية ففتح هونين<sup>(٨)</sup>، وجبله واللاذقية وصهيون، ثم توجه شمالاً فإستولى على حصون بكاس والشغرة وبرزية ودريساك وبغراس، المحيطة بإمارة أنطاكية، ثم اتجه قسم من جيشه مرة أخرى إلى الجنوب، ففتح في أواخر سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م حصن الكرك المتين التي سميت بصخرة الصحراء، وأخيراً فتح صفد وكوكب قبل أن يعود إلى دمشق لقدم فصل الشتاء، ولأخذ قسط من الراحة.

وأعاد صلاح الدين الكرة مع صور، وعند أسوارها طبق خطة نفذها بنجاح في فتح بعض القلاع مثل برزية، وهي خطة القتال بالتناوب<sup>(٩)</sup>، وذلك بأن قسم عسكره إلى ثلاثة أقسام، يقاتل كل قسم

(١) مضمار الحقائق، ص ٩٣.

(٢) الكامل، ٥٣/١١. الروضتين، ٧٦/٢.

(٣) الفتح القسي، ص ٦٠.

(٤) ن. م، ص ٢١٧. الروضتين، ١٧٧/٢.

(٥) النوادر، ٧٧.

(٦) ن. م، ص ٢١٧. الروضتين، ١٧٧/٢.

(٧) اثار الاول، ١٩١.

(٨) بلدة حصينة تقع إلى الشرق من صور. معجم البلدان.

منها فترة محددة، ثم يستريح ليواصل القتال قسم ثان ثم ثالث<sup>(٢)</sup>. وقد قصد باتباعه لهذا الأسلوب، إنهاك الصليبيين وعدم فسح المجال لهم ليرتاحوا، إلا أن الأسلوب اصطدام بمتانة أسوار صور، إضافة إلى وضع المدينة الطوبوغرافي.

ونجد أن صلاح الدين اتبع خطة شق صفوف الصليبيين، والإيقاع بينهم، وكسب ود بعض قادتهم، في محاولة منه إضعافهم، فيذكر ابن شداد أن السلطان جلس ذات مرة في شوال ٥٨٧هـ/ ١١٩١م واستحضر صاحب صيدا لسماع رسالته وكلامه، فحضر وحضر معه جماعة وصلوا معه، وكان المؤرخ المذكور حاضراً، وأكرم السلطان ضيوفه الصليبيين إكراماً عظيماً، وحادثهم، وقدم بين أيديهم ما جرت به العادة، ولما رفع الطعام اختلى بهم، ثم تقرر أن يصالح السلطان الماركيز مونتفرات صاحب صور، الذي انضم إليه جماعة من أكابر الفرنجة، منهم صاحب صيدا. واشترط صلاح الدين على الماركيز المنشق أن يظهر عداوته للفرنج الذين انشق عنهم «وكان سبب ذلك شدة خوفه منهم» إضافة إلى خلافه معهم بسبب الزواج، وبذل له السلطان الموافقة على شروط قصد بها الإيقاع بينهم، على حد قول ابن شداد<sup>(٣)</sup>.

ومن الاجراءات الحكيمة التي لجأ إليها صلاح الدين بصدد إضعاف العدو اقتصادياً، قيامه بتوطيد علاقته الاقتصادية التجارية مع دويلات المدن الايطالية مثل (بيزا وجنوا والبندقية). فمنذ أن تولى الحكم في مصر صار يبذل الجهود لجذب تجارة هذه المدن إلى مصر، وراح يعقد الاتفاقات مع هذه الدويلات لتبادل السفراء معها، وما يؤسف له أن نصوص تلك المعاهدات قد فقدت<sup>(٤)</sup>، وقد انتفع صلاح الدين من هذه الاتفاقيات من ناحيتين:

- ١- ازدياد موارد دولته بسبب النشاط التجاري، فحصل على حاجته من الحديد والخشب والشمع.
  - ٢- إضعاف تجارة الصليبيين، ولاسيما إذا عرفنا أن صلاح الدين كان يسيطر على البحر الأحمر. ولاشك أن هذه التجارة أدت إلى الاهتمام بإعادة بناء الأسطول الإسلامي الأيوبي<sup>(٥)</sup>.
- ففي خطاب وجهه صلاح الدين إلى الخليفة العباسي سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م قال: «ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنة (أهل بيزا) والجنويون، كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لاتطاق ضراوة ضرهم، ولا تطفأ شرارة ضرهم، وتارة يكونون سفار يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة، وتقصر عنهم

(١) الكامل، ١١/٥٥٣-٥٥٤.

(٢) النوادر، ٩٢. الفتح القسي، ٢٤٩. الكامل، ١٢/١٥. الروضتين، ٢/١٣١. زبدة الحلب، ٣/١٠٥. مفرج الكروب، ٢/٢٦٦.

(٣) النوادر، ٢٠٢. وانظر: الفتح القسي، ٥٦٠.

(٤) Heyd, Histoire di Commerce., p. 396. جب، صلاح الدين، ص ١٤٥-١٤٦. ارنست باركر، الحروب الصليبية، ترجمة د. الباز العريني، مطبعة لجنة البيان العربي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٢٢٩.

(٥) د. الباز العريني، الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ص ٧٨.

يد الأحكام المرهونة، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده، وكلهم قد قررت معهم المواصلة، وانتظمت معهم المسألة، على ما نريد ويكرهون، وعلى ما نؤثر وهم لا يؤثرون»<sup>(١)</sup> وهذه العلاقات بين مصر والمدن الايطالية لم تكن بالأمر الجديد بل هي استمراراً لما كانت عليه في العهد الفاطمي<sup>(٢)</sup>.

ومما يذكر بصدد خطط صلاح الدين الحربية، انه لجأ، في سني صراعه الاخيرة مع الصليبيين الذين كان يقودهم ريتشارد قلب الأسد، إلى تخريب مدينة عسقلان التي كانت المفتاح الجنوبي لبيت المقدس وطريق القوافل الذاهية إلى مصر، وكان المسلمون يطلقون عليها عروس الشام لحسنها<sup>(٣)</sup> ولجأ السلطان إلى هذا الاجراء، حين عجز جيشه عن الدفاع عنها<sup>(٤)</sup> وخشي ان يستولي عليها الصليبيون، وهي عامرة - كما حصل لعكا - فيقطعوا بها طريق مصر. ورأى صلاح الدين ادخار قوة جيشه الدفاعية لحفظ بيت المقدس، واستشار صلاح الدين أخاه الملك العادل واکابر امرائه في ذلك، فأقروه على رأيه، وقال علم الدين سليمان بن جندر، احد كبار مستشاريه: هذه يافا قد نزل العدو بها، وهي مدينة تقع في الوسط بين عسقلان والقدس، ولا سبيل إلى حفظ المدينتين معا، فاعمد إلى اشرفهما وحصنها<sup>(٥)</sup>، وهكذا تقرر تخريب عسقلان.

والواقع أن هذه المدينة لم تكن الوحيدة التي تعرضت لهذا المصير، بل تقرر تخريب حصن الرملة كذلك<sup>(٦)</sup>، وحصن النطرون الذي كان من أملاك الداوية<sup>(٧)</sup>، وجزء من سور يافا<sup>(٨)</sup> وغزة<sup>(٩)</sup>، واللد<sup>(١٠)</sup>، والداروم الواقعة في أقصى ساحل الشام الجنوبي، وقد خربها صلاح الدين حين ملك الساحل في سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م<sup>(١١)</sup>، وهذا ما حصل لحصن سرمينية أيضاً، فبعد أن فتحه الملك الظاهري غازي في جمادى الآخرة سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م أخرج أهله منه ثم هدمه وسواه مع الأرض

(١) الروضتين ج١، ق٢، ص٦٢١-٦٢٢.

(٢) د. صابر محمد دياب، سياسة الدول الإسلامية في حوض البحر المتوسط، دار الثقافة العربية للطباعة، القاهرة، ط١، سنة ١٩٧٣، ص٢٣٠ وما بعدها.

(٣) معجم البلدان، ١٢٢/٤. آثار البلاد، ص٢٢٢.

(٤) النوادر، ١٨٧. الكامل، ٧١/١٢. الفتح القسي، ٥٥٠. الروضتين، ١٩٢/٢. السلوك، ١٠٦/١.

(٥) الفتح القسي، ٥٥٠. التاريخ المنصوري، ٢٠٧. مرآة الزمان، ٤١٠/٨.

(٦) النوادر، ١٨٩. الفتح القسي، ٥٥١. الكامل، ٧٢/١٢. معجم البلدان، ٦٩/٣. الروضتين، ١٩٢/٢. مفرج الكروب، ٣٧١/٢. وفيات الاعيان، ١٩٩/٣. السلوك، ١٠٦/١. النجوم، ٤٧/٦. التاريخ المنصوري، ص٢٠٧.

شفاة القلوب، ١٧٣.

(٧) النوادر، ١٩١. الروضتين، ١٩٣/٢. وفيات الاعيان، ١٩٩/٧. مفرج الكروب، ٣٧١/٢. السلوك، ١٠٦/١.

(٨) مرآة الزمان، ٤١٠/٨.

(٩) شفاة القلوب، ١٧٣.

(١٠) النوادر، ١٨٩. الفتح القسي، ٥٥١. وفيات الاعيان، ١٩٩/٧. وبعض المصادر تذكر أنه خرب كنيسةتها فقط:

الكامل، ٧٢/١٢. الروضتين، ١٩٢/٢. شفاة القلوب، ١٧٢.

(١١) معجم البلدان، ٤٢٤/٢. شفاة القلوب، ١٧٣.

وعفى إثره<sup>(١)</sup>. وخرّب حصن يازور<sup>(٢)</sup> بسواحل الرملة من أعمال فلسطين<sup>(٣)</sup>. وخرّب معه بلدة (بيت جبرين)<sup>(٤)</sup> قبيل عقد الصلح مع ريتشارد.

ومما يدخل ضمن خطط صلاح الدين الاستراتيجية، تأمينه للطريق الموصل بين مصر والشام والذي تبلغ المسافة بينهما مسيرة حوالي ثلاثين يوماً<sup>(٥)</sup>. ويبدو أنه أدرك، وهو في طريقه إلى الكرك والشويك عن طريق أيلة<sup>(٦)</sup> منذ أن كان نائباً لنورالدين محمود في مصر، أن الضرورة الحربية تقضي بتطهير شبه جزيرة سيناء كلها من الجماعات التي يمكن أن تلعب دوراً تخريبياً معيقاً لسلامة الطريق بينهما، فظهر الوديان ومعايير الطرق منهم، ثم رأى أن من الحكمة أن يشيد قلعة في قلب شبه الجزيرة، والراجح أنه بدأ بمشروعه منذ استيلائه على أيلة في سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م.

واختار صلاح الدين لتلك القلعة أرضاً مرتفعة مخروطية الشكل تقع على نحو ميل إلى الشمال الشرقي من عين صدر العزيز، والموجودة بدرب الشعري، الذي يبدأ من السويس إلى أيلة، على مسافة ٥٧ كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من السويس<sup>(٧)</sup>.

وشيد صلاح الدين القلاع والمنازل وأقام الحراس على طول الطريق بين مصر والشام فأعاد الأمن والسلام إلى سيناء. وقد اعتاد صلاح الدين وقواده أن يسلكوا هذا الطريق في غدواتهم وروحاتهم إلى الشام، ومنه جاءته قوافل التموين المتواصلة من مصر، مزودة بالرجال والعتاد أثناء جهاده الطويل مع الصليبيين.

واهتم بتحسين مدينتي مصر والقاهرة، وثغور الديار المصرية ومداخلها، وأهمها في عهد صلاح الدين - كما بينها معاصره ابن ممتي - هي الاسكندرية ودمياط ورشيد وعيذاب وتيس<sup>(٨)</sup>.

وأدرك صلاح الدين مدى الخطر الذي قد يلحق بمصر من ناحية الشمال من جانب الصليبيين، وكان ما حصل في دمياط حين حاصرها أموري براً وبحراً سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م، جعله يولي هذا الثغر قدراً كافياً من اهتمامه، فكان حريصاً على تحصينه.

وكذلك اهتم بتحسين سواحل البحر الأحمر، فقد علم سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م أن الصليبيين يحاولون

(١) الكامل، ١٣/١٢. زبدة الحلب، ١٠٤/٣. مفرج الكروب، ٢٦٤/٢.

(٢) النوادر، ٢٢٨ مفرج الكروب، ٤٠٠/٢.

(٣) معجم البلدان، ٤٢٥/٥.

(٤) بيت جبرين بين بيت المقدس وغزة. معجم البلدان، ٥١٩/١.

(٥) الروضتين، ٢٨/٢.

(٦) أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام (معجم البلدان ٢٩٢/١) وهي ميناء ايلات الحالية على خليج العقبة في فلسطين المحتلة.

(٧) انظر: د. سعداوي، التاريخ الحربي، ص ٣٨.

(٨) قوانين الدواوين، ٣٢٥.

مد نفوذهم إلى جهاته، ولاسيما حين حاول الأمير أرناط «رينو دي شاتيون» إنزال سفنه على الأقسام القريبة من إمارته في الكرك، إلى جهات خليج العقبة<sup>(١)</sup>.

ولم يكذب يتم تركيب قطع السفن التي جلبها هذا الأمير الصليبي، حتى استولى بعضها على جزيرة القلعة (جزيرة فرعون) في حين قام البعض الآخر بالإغارة على الموانئ المصرية الصغيرة على البحر الأحمر.

أما في داخل مصر، فلعل أهم التحصينات التي أقامها كانت في مدينة القاهرة التي بدأ بها صلاح الدين سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م غير أنه يلاحظ أن ما فعله في تلك السنة لم يتعد إحداث تجديدات في سور القاهرة الذي كان بحاجة إلى أعمال الصيانة. ويتجلى ذلك مع كلمة (عمارة) التي ترد في عبارة «في هذه السنة، شرع السلطان في عمارة سور القاهرة، لأنه كان قد تهدم أكثره وصار طريقاً لا يرد داخلاً ولا خارجاً، وولاه لقراقوش الخادم<sup>(٢)</sup>».

ورأى صلاح الدين تشييد قلعة القاهرة، والمعروف أن مصر قبل مجيء الأيوبيين إليها، كانت خالية من قلعة تحميها، فكان لا بد لصلاح الدين أن يبني قلعة يتحصن فيها، خوفاً مما يقوم به أنصار الفاطميين من حركات معادية<sup>(٣)</sup> خاصة حين يغادر مصر إلى الشام لجهاد الصليبيين. وقد استمر العمل في بناء القلعة بعد عودته إلى مصر سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م، إلا أن بناءها لم يتم خلال حكم صلاح الدين، والذي تم منها هو هيكلها والبئر الحلزوني الذي حفر في الصخر داخل القلعة. وقد أسهم في بنائها الأسرى الصليبيون<sup>(٤)</sup>. واستخدم فيها حجارة الأهرامات الصغار التي كانت بالجيزة. وبعد اتمام تخطيط القلعة أمر ببناء سور يحيط بمصر والقاهرة، بعد أن رأى أن لكل من هاتين المدينتين سور لا ينعما، ولا قوة لاهلها تحميها<sup>(٥)</sup>.

وهذا السور هو ثالث الأسوار التي بنيت حول القاهرة، وأولها بناه جوهر الصقلي وثانيها بناه بدر الجمالي، وقد بني الاثنان من اللبن<sup>(٦)</sup>. وكان المشرف على بناء هذه التحصينات كلها في عهد صلاح الدين هو بهاء الدين قراقوش المذكور<sup>(٧)</sup>.

وفي سياق الحديث عن خطط القتال نتكلم عن أرض المعركة، لأن الأرض التي جرت عليها المعارك،

(١) الروضتين، ٣٥/٢. مفرج الكروب، ١٢٧/٢.

(٢) الروضتين، ج١، ق٢، ص٤٨٨.

(٣) الخطط، (طبعة اوفسيت) ٣٠/٢.

(٤) ابن جبير، ٢٥.

(٥) سنا البرق الشامي، ٢٣٩ - ٢٤٠. الروضتين ج١، ق٢، ص٦٨٧ - ٦٨٨.

(٦) بيومي، قيام الدولة الايوبية، ص٢٣٧.

(٧) سنا البرق، ٢٩٧. الروضتين، ٢٧/٢. عبداللطيف البغدادي، الافادة والاعتبار، ط. لندن، ١٩٦٥، ص٨ - ١. مفرج

الكروب، ٦٧/٢. ولمزيد من المعلومات عن السور، انظر: مفرج الكروب، ٥٢/٢. ود. عبدالرحمن زكي، قلعة صلاح

الدين، ٣١ - ٥١.

لها تأثير كبير على الخطط العسكرية التي كان يضعها صلاح الدين مع مستشاريه، ونتائج المعركة تتوقف أحياناً على الأرض التي يختارها هذا الجانب أو ذاك، ونجاح القائد يظهر من حسن اختيار المواقع، بحيث يكون جيشه في موقع حصين يضمن سلامته في حالتي الهجوم والدفاع، ويضمن سهولة الحصول على المؤن والاعتدة والرجال، ومحاولة جعل العدو لا يتمتع بهذه المزايا قدر المستطاع. والواقع أنه لم تكن هناك أرض معينة يلتقي فيها الطرفان بشكل دائم، بل كانت المعارك تنتقل من أرض إلى أخرى، حتى ليخيل، إلى من لم يتعرف على طبيعة أرض الشام التي كانت مسرحاً لكافة معارك صلاح الدين ضد الصليبيين منذ أن ترك أرض مصر سنة ٥٧٠هـ/١١٧٣م، أن معارك هذا القائد كانت مضطربة، لا تسير على نظام، ولكن الأمر لم يكن كذلك، بل إنه كان على علم بطبيعة الأرض في كل منطقة من مناطق هذه البلاد، فيطبق خطة في أرض قد لا يطبقها في أخرى. ولكن المسألة لم تكن بهذه السهولة دائماً، ولا سيما حينما كان الجانب الصليبي هو الذي يقرر موعد المعركة وأرضها، أو أنهم يجلبون معهم الآلات الضخمة التي سنتحدث عن بعض منها، عندئذ كانت الصعوبات تعترض سبيل الجيش الأيوبي، وتضطره على تغيير خطته وأساليبه.

## ٢- موسم القتال:

لم تكن الرغبة وحدها تكفي لإعلان الحرب على العدو، بل كان ثمة أمور عديدة تؤثر في مجرى الأحداث وتحركها، وتدفعها نحو الاشتباك. ولكن في كل الحالات تبقى الظروف الملائمة مسألة حيوية لها أهميتها لدى كلا الطرفين المتعادين، فكانت هناك مواسم تصلح للقتال أكثر من غيرها. فالاستعدادات كانت تبدأ بانتهاء موسم الشتاء وارتفاع درجات الحرارة مع قدوم الربيع، أما ما كان يجري في الشتاء بين الجانبين فلم تكن تتعدى المناوشات القصيرة، ووضع الكمائن وإرسال فرق الاستطلاع لمعرفة أحوال العدو. وإذا نظرنا إلى فترات المعارك نلاحظ أنها تقع خلال الشمانية أو التسعة أشهر التي تبدأ مع انتهاء حدة البرد، وتنتهي مع قدوم الشتاء.

فعلى سبيل المثال حدثت موقعة حطين في شهر تموز ١١٨٧م / ربيع الثاني ٥٨٣هـ، بل إن صلاح الدين استغل اشتداد الحر خيراً استغلالاً، فكان الطقس الحار وحاجة العدو الشديدة إلى الماء، أحد العوامل التي ساعدت الجيش الأيوبي في انتصاره على الجيش الصليبي. وفي نفس هذا الموسم أحرز الجيش الأيوبي مجموعة انتصاراته الكاسحة في فتوح الساحل، وتوجهها بفتح بيت المقدس في أيلول ١١٩٠م (رجب ٥٨٣هـ). ويذكر العماد أن جميع عمليات جيش صلاح الدين العسكرية وفتوحاته، تمت في فصل الصيف بقوله: «وكل ما تم من النصر يوم حطين وفتح القدس وتسلم بلاد الساحل إنما تسنى بشهر سيفه في فصل الصيف وشهوره»<sup>(١)</sup>. ويقول ابن شداد إن السلطان «كان يعطي دستوراً في أوائل الشتاء»<sup>(١)</sup>.

(١) الروضتين، ١٢١/٢.

والملاحظ أن الهدنة التي وقعها صلاح الدين مع صاحب أنطاكية عام ٥٨٤هـ/١١٨٨م والتي كانت مدتها ثمانية أشهر، تبدأ من تشرين الأول إلى نهاية أيار (مايس)<sup>(٢)</sup>. ويبرر العماد عقد هذه الهدنة بضجر الجيش الإسلامي ورغبته في الراحة، وبأن أمد الهدنة سينتهي «قبل إدراك الغلة وأوان حصادها»<sup>(٣)</sup>.

والظاهر أن العساكر الإسلامية كانت ترجع إلى أوطانها في الشتاء، ليس لصعوبة القتال في هذا الموسم، أو لأخذ قسط من الراحة والإستجمام، فحسب، بل لأن الشتاء هو موسم اعداد الأرض للزراعة، وعلى العاملين فيها أن يكونوا على أراضيهم في هذه الفترة.

وكذلك إذا تابعنا اليوميات الخاصة بتحركات صلاح الدين التي دونها كل من العماد الكاتب وابن شداد وغيرهما من المؤرخين المعاصرين واللاحقين، نرى أن القتال ووصول جيوش الأطراف إلى الميدان يتوقف في فصل الشتاء، ولكن ما أن ينتهي هذا الفصل القارص والموحل - ولاسيما في بلاد الشام - حتى يدب النشاط في الجيش، فيبدأ بالاستعداد لمجابهة عدوه، وتصل إلى ميدان القتال قوات الأطراف. فمما يذكر أنه في ١٢ ربيع الثاني سنة ٥٨٦هـ (أواسط مايس، أي ربيع سنة ١١٩٠م) وصل أكابر أمراءه، منهم عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار على رأس جيش، وبعده وصل معز الدين سنجر شاه بن غازي بن مودود صاحب جزيرة ابن عمر، ثم وصل علاء الدين خرم شاه ابن صاحب الموصل عزالدين مسعود ابن مودود، وزين الدين يوسف بن علي كجك صاحب أربيل، وكذلك وصل أسطول مصر وفيه الذخيرة والميرة<sup>(٤)</sup>.

وفي رمضان من السنة/ أيلول ١١٩٠م. وصل جيش حلب بقيادة ابن صلاح الدين الملك الظاهر غازي ومعه بعض كبار الامراء والقادة مثل: سابق الدين عثمان صاحب شيزر وعزالدين ابن المقدم وحسام الدين حسين باريك والملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه صاحب بعلبك<sup>(٥)</sup>.

أما بعد أن ينتهي موسم القتال فتعود العساكر إلى بلدانها. يقول العماد أنه حين هجم «الشتاء العنيف، وانحرف حريف الحريف... واشتعلت رؤوس الجبال شيباً للثلج، وحل الوحل المخيم...» طلب الامراء من صلاح الدين الاذن بالعودة إلى بلادهم للراحة والاستجمام، فسار صاحب سنجار، وتلاه

(١) النوادر، ١٩.

(٢) هكذا يحدد العماد الكاتب فترة الهدنة بالتقويم الشمسي - الميلادي، وليس الهجري. انظر (الفتح القسي، ص ٢٦٠). وانظر أيضاً (النوادر، ٩٤. الكامل، ١٢/٩. الروضتين، ١٣٣/٢) ونجد أن ابن شداد وابن العديم (زبدة الحلب، ١٠٤/٣) وابن كثير (البداية والنهاية، ٣٣٠/١٢) وغيرهم قد جعلوا أمد الهدنة سبعة أشهر.

(٣) الفتح القسي، ٢٦٠.

(٤) الفتح القسي، ٣٨٠ - ٣٨٥. وانظر: النوادر ١٢١. الروضتين، ١٥١/٢.

(٥) الفتح القسي، ٤٣٤.

صاحب جزيرة ابن عمر، ويعدده ابن صاحب الموصل<sup>(١)</sup>.  
ويذكر ابن شداد بهذا الصدد تحت عنوان (عود العساكر من الجهاد) أنه «لما هجم الشتاء وهاج البحر وأمن العدو أن يضرب مصافاً، وأن يبالح في طلب البلد وحصاره من شدة الأمطار وتواترها، اذن السلطان للعساكر الإسلامية في العودة إلى بلادها، لتأخذ نصيباً من الراحة، وتجم خيولها إلى وقت العمل...»<sup>(٢)</sup>.

وقد تكررت حوادث قدوم العساكر إلى ساحة المعركة لانفجاء الجيش الصلاحي المركزي، بعد انتهاء فصل الشتاء، ثم العودة إلى أوطانها بمجيء هذا الفصل<sup>(٣)</sup>.

وضمن أيام القتال كان صلاح الدين يستبشر بيوم الجمعة نظراً لمكانة هذا اليوم، وقدسيته لدى المسلمين، وهذا لا يعني أنه كان يتوقف عن القتال في أيام الاسبوع الاخرى، في انتظار يوم الجمعة، لكنه كان يتفأل من نتيجة القتال إذا صادف وكان اليوم هو يوم جمعة، ففي وقعة حطين سير عساكره وسط نهار الجمعة من ربيع الآخر من سنة ٥٨٣هـ تبركاً بدعاء الخطباء على المنابر، فرمما كانت أقرب إلى الإجابة<sup>(٤)</sup>. ودخل جيش صلاح الدين عكا يوم الجمعة<sup>(٥)</sup>.

وفي فتوح قلاع الساحل الشمالي لبلاد الشام، أي القلاع المحيطة بأنطاكية، اتفقت أن جميعها فتحت: «في أيام الجمعة، وهي علامة قبول دعاء الخطباء المسلمين وسعادة السلطان حيث يسر له الفتوح في اليوم الذي تضاعف فيه ثواب الحسنات»<sup>(٦)</sup>، ولعل مجلس حرب صلاح الدين كان يخطط لجعل القتال يقع في يوم جمعة.

وهذا يعني أن هذا اليوم كان له تأثيره الطيب على نفوس المقاتلين المسلمين واندفاعهم البطولي في القتال. فقد فتح المسلمون جبلة القلعة المشورة بساحل الشام قرب اللاذقية<sup>(٧)</sup> في يوم الجمعة ١٨ جمادى الأولى ٥٨٤هـ/المصادف ١٥ تموز ١١٨٨م، وفتحوا اللاذقية في الجمعة ٢٥ من الشهر المذكور، وقلعة صهيون المتينة من أعمال حمص<sup>(٨)</sup> في الجمعة ٢ جمادى الآخرة، وفتحوا قلعة بكاس الواقعة على شاطئ العاصي من أعمال حلب<sup>(٩)</sup> في يوم الجمعة ٩ جمادى الآخرة، وقلعة الشجر قرب أنطاكية<sup>(١٠)</sup> في الجمعة ١٦ جمادى الآخرة، وسمرانية من أعمال حلب<sup>(١١)</sup> في الجمعة ٢٣ جمادى

(١) ن. م، ص ٤٥٤. مفرج الكروب، ٢/٤٦٦.

(٢) النوادر، ١٥٠-١٥١. الروضتين، ٢/١٨٠.

(٣) انظر على سبيل المثال: النوادر، ٢١١، ٢٣٠. الفتح القسي، ٤٧٢، ٤٩٥. الروضتين، ٢/٢٠٢.

(٤) النوادر، ٧٥. الروضتين، ٢/٨٠. الكامل، ١١/٥٣٩.

(٥) وفيات الاعيان، ٧/١٧٥. النجوم الزاهرة، ٦/٣١.

(٦) النوادر، ٩٢. الكامل، ١٣/١٢. الفتح القسي، ٢٤٧. الروضتين، ٢/١٣٠. ابن العديم، ٣/١٠٤.

(٧) معجم البلدان، ٢/١٠٥.

(٨) ن. م، ٣/٤٣٧.

(٩) ن. م، ١/٤٧٤.

الآخرة / ١٩ آب ١١٨٨ م<sup>(٣)</sup>.

ونرى أن النصر والهزيمة لا علاقة لهما بيوم محدد، وتأثير يوم الجمعة بالنسبة لجيش صلاح الدين كان نفسياً، والانتصارات كانت تحصل حتى في غير أيام الجمعة، ثم أن انتصاراته لم تقتصر على هذا اليوم، إضافة إلى أنه لم يخلُ من هزائم الحقت بجيشه، فتذكر المصادر أن هزيمة الجيش الصلاحي الفعلية في الرملة قد صادفت يوم الجمعة غرة جمادى الآخرة سنة ٥٧٣هـ/كانون الثاني ١١٧٧ م<sup>(٤)</sup>. وأن أعلام الصليبيين وصلبانهم وشعارهم ارتفعت على أسوار وأبراج ومآذن عكا في ظهيرة نهار الجمعة ١٧ جمادى الآخرة ٥٨٧هـ<sup>(٥)</sup>.

#### ٤- معاملة الأسرى:

الملاحظ في معظم الحروب التقليدية وقوع قسم من المحاربين أسرى بأيدي الجهة الثانية في الحرب، وكان عدد الأسرى يختلف حسب حجم الجيش، والمدة التي استغرقتها المعركة، أو حسب التكتيك المتبع في هذه المعركة أو تلك، أو إذا كان القتال من النوع المكشوف أو أنه قتال الأسوار، ويحصل أن يقع كافة المحاربين ومن معهم من سكان المدينة المحاصرة أسرى بأيدي الجيش المنتصر، كما حصل مراراً للجيش الأيوبي حين فتح مجموعة من المدن الشامية، أو للجيش الصليبي حين سقطت عكا بيده سنة ٥٨٧هـ/١١٩١ م، أو حين وقع كافة المحاربين الصليبيين أسرى بيد الجيش الأيوبي إثر موقعة حطين الشهيرة. والملاحظ أن معاملة الأسرى الصليبيين لم تجر على نظام واحد ثابت، فكان الأمر يتوقف على الطريقة التي تم بها الانتصار عليهم أو على الظروف النفسية للسلطان وموقفه من بعض فئات العدو أو لأسباب أخرى كما سنرى.

والواقع أن الدارس لموضوع معاملة الأسرى يقع في حيرة نظراً لاختلاف أساليب التعامل، ولعل من أبرز أسباب ذلك هو عدم وجود قواعد متفق عليها بين المسلمين ومن يحاربونهم، ولهذا ظل الأسرى تحت رحمة الجانب الأسر يتصرف بمصيرهم كيفما يشاء، يبيعه أو يسترقه أو يستغله في بعض الأعمال، أو يقتله.

ولم يكن صلاح الدين يميل إلى سفك الدم والانتقام من الأسرى الصليبيين، على الرغم من أنهم

(١) ن. م، ٣/٣٥٢.

(٢) ن. م، ٣/٢١٧.

(٣) الفتح القسي، ٢٤٦-٢٤٧. النوادر، ٩٢. الروضتين، ١٣٠/٢. في حين نجد أن القلقشندي يعتبر يوم الثلاثاء هو اليوم الخاص بالحرب، أما يوم الجمعة فيعتبره يوم خلوة ونكاح (صبح الاعشى ٣٦٧/٢). أما ابن منكلي فيقول: فان كانت الحرب يوم الجمعة، وهذا اليوم قل ان تقع فيه حرب، فان ثارت قل أن تهدأ (مخطوط - التدبيرات السلطانية، ورقة ١٠).

(٤) الروضتين، ج١، ق٢، ص٦٩٩. مفرج الكروب، ٥٨/٢.

(٥) النوادر، ١٧١. الروضتين، ١٨٨/٢. مفرج الكروب، ٣٦٠/٢.

جاؤوا من الأساس غزاة محتلين لبلاد المسلمين، فمما يروى عنه في هذا الصدد أنه منع أولاده من قتل الأسرى، لكيلا تنمو في نفوسهم غريزة سفك الدم، فلربما إذا اعتادوا على قتل أسراهم، وهم صغار، فسيفعلون ذلك دون تفریق بين المسلم والكافر<sup>(١)</sup>. بل إنه حذر ولده الملك الظاهر - وهو ابن العشرين سنة - من إراقة الدم، في آخر وصية له أثناء مرضه الأخير<sup>(٢)</sup>.

إلا أن الأمر لم يكن يسيير على هذا النحو دائماً، فقسوة واقع الحروب الصليبية جعلت الجيش الإسلامي الأيوبي يتصرف بطريقة عنيفة غير مطابقة لموقف الشرع الإسلامي أحياناً<sup>(٣)</sup>.

ولعل من الصواب أن نضع حادث سقوط عكا حداً فاصلاً جعل صلاح الدين يغير موقفه وطريقة تعامله مع الأسرى. حيث صار يقتلهم انتقاماً لآلاف الأسرى الذين نكل بهم ريتشارد بمنتهى الوحشية إثر سقوط هذه المدينة بأيدي قواته - كما سنرى - فمنذ ذلك اليوم أقسم صلاح الدين أنه لا يظفر بأحد منهم إلا قتله بمن قتلوا ممن بعكا<sup>(٤)</sup>.

وهذا لا يعني أن الأسرى الصليبيين لم يقتلوا بأيدي الجيش الأيوبي قبل سقوط عكا، أو أن الأسرى لم يعاملوا إلا بالقتل بعد هذا الحادث. وبصورة عامة نجد أن معاملتهم كانت تتباين بين تشغيلهم في أعمال السخرة وحجزهم في دمشق، وعرضهم للبيع أو قتلهم. ولعل من الصواب أن نقول: أن صلاح الدين لم يشذ عن القادة أو الحكام السابقين في طريقة تعامله للأسرى، ولا حاجة بنا إلى سرد أحداث التاريخ، ولكننا نكتفي بالقول إن نورالدين محمود الذي سار صلاح الدين على نهجه، في طريقة حكمه، كان يجهز على الأسرى في بعض المناسبات، كما حدث ذلك في سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م حين جلب له الأسرى، فأمر بضرب أعناقهم<sup>(٥)</sup>.

وكان نورالدين محمود يسجنهم في أكثر الأحيان، ولاسيما القادة الكبار منهم، كما حدث لأرنات «رينو دي شاتيون» صاحب أنطاكية «ثم الكرك» الذي حبسه خمس عشرة سنة، ثم أطلق الأمير كمشتكين، أحد أمراء نورالدين، سراحه بعد وفاته نكاية بصلاح الدين. وكان القصد من الإبقاء على حياة الأسرى - ولاسيما الأمراء منهم - هو الاستفادة منهم في إجراء عملية التبادل مع الأسرى

(١) النوادر، ١٥٦. الروضتين، ١٨٣/٢.

(٢) النوادر، ٢٣٨. Stevenson, p. 207.

(٣) يوضح القرآن الكريم الموقف من الأسرى حين يبين في الآية: (فإذا لقيستم الذين كفروا فاضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق، فإما مناً بعد، وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها...) [سورة محمد، الآية ٤]. تعني الآية: اقتلوا الأعداء حين اللقاء بهم، حتى إذا انتصرت عليهم شدوا وثاق من يقع في الأسر. وأمر سبحانه أن تمّنوا عليهم مناً بعد أن تأسروهم فتنطلقهم إما مناً، وإما أن تغدوهم فداءً. الطبري، مجمع البيان في تفسير القرآن، طبع ونشر دار الفكر، بيروت ١٩٥٥، ط ٢، ج ٢٦، ص ٣٠. والفداء هو إطلاق سراح الأسير لقاء مال، أو بمبادلتة بمثله من الجانب الآخر.

(٤) الكامل، ٦٩/١٢.

(٥) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٣٩. الروضتين، ج ١، ق ١، ص ٢٦٩.

المسلمين. إذ أن المعروف عن نورالدين محمود حرصه الشديد على فكاك أسرى المسلمين، سواء بالتبادل أو بالفداء، ولاسيما الأسرى المغاربة منهم، لأنهم غرباء عن الشام، ولا أهل لهم فيها. فمما يذكره ابن جبير بهذا الصدد أن من جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة في الشام، أن الملوك والأغنياء كانوا يخرجون مبلغاً من مالهم يخصصونه لافتكاك الأسرى المغاربة. فلما عوفي من مرضه أرسل في فدائهم<sup>(١)</sup>.

وحرص صلاح الدين على الاقتداء بنورالدين محمود والسير على منواله في هذا، بل إنه ما برح يطلق سراح الأسرى الصليبيين الفقراء دون مقابل، كما حدث لدى فتحه بيت المقدس، إضافة إلى قيامه بافتكاك الأسرى المسلمين، وقد تحتم ذلك عليه بوصفه المسؤول عن حياة المحاربين، ولأن بتحريرهم من الأسر يطلق قوة إسلامية حبيسة في معسكر العدو، ومن ثم فإن ذلك عمل من أعمال البر والتقوى، وسار على هذا النهج بعض امرائه. فمما يذكر عن مظفر الدين كوكبري صاحب أربيل، صهر صلاح الدين، أنه كان يبعث برسله مرتين في كل سنة إلى بلاد الساحل «الشام» ومعهم المال الكثير لتحرير الأسرى المسلمين من أيدي الصليبيين<sup>(٢)</sup>، حتى أن سبط ابن الجوزي يقول إن أموال أربيل قد استنفذتها الصدقات، وقدر هذا المؤرخ عدد أسرى المسلمين الذين حررهم كوكبري بنحو ستين ألف أسير، ما بين رجل وامرأة<sup>(٣)</sup>.

ومما يروى عن حسن معاملة صلاح الدين للأسرى الصليبيين أنه وقع في أسره بعد نجاح الكمين الذي نصبه جنوده لأفراد العدو في شوال ٥٨٦هـ/ شتاء ١١٩٠م وأحضر إلى مجلسه جماعة منهم، وبدأ السلطان يلاطفهم ويستفسر عن أحوالهم، ويعاملهم برقة، ثم ألقى نظره على أحد كبار مقدميهم، فرآه يرتجف برداً فخلع عليه فروة خاصة، ثم أمر لكل واحد من الباقين بفروة، ثم أحضر لهم طعاماً أكلوه، وأمر لهم بخيمة نصبت قريباً من خيمته، وكان يكارمهم في كل وقت، ويحضر المقدم على الخوان في بعض الأوقات، ثم أمر بتقييدهم وحملهم إلى دمشق مكرمين، وأذن لهم في أن يرأسلوا أصحابهم، وأن يحضروا لهم من عسكرهم ما يحتاجون إليه من الثياب<sup>(٤)</sup>.

ومن وقائع حسن معاملة الأسرى ما حصل سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م، حين أحضروا إليه خمسة وأربعين نفرًا صليبياً من بيروت، وكان بينهم شيخ طاعن السن «لم يبق في فمه ضرس»، ولدى إحضاره أمام صلاح الدين طلب من المترجمان أن يسأله عن السبب الذي حمله على القدوم إلى الشرق وهو في هذا العمر، وغيرها من الأسئلة، فأجاب الصليبي الهرم على أسئلة السلطان «فرق السلطان، ومن عليه وأطلقه، وأعادته راكباً على فرس إلى معسكر العدو»<sup>(١)</sup>. في حين كان صلاح الدين ينتقم من بعض

(١) ابن جبير، ٢٨٠.

(٢) القزويني، آثار البلاد، ص ٢٩٠.

(٣) مرآة الزمان، ٦٨٢/٨.

(٤) النوادر، ١٥١. وانظر: مفرج الكروب، ٣٤٥/٢.

الأسرى شر انتقام، لأنهم ارتكبوا جرائم شنيعة لا تُغفر إلا بسفك دمهم، بل والتشهير بهم قبل الشروع بقتلهم. فحين نظم أرناط حملة بحرية ويرية للقيام بغزو مدينة الرسول، تجهز الأسطول الإسلامي للرد عليهم، فاستطاع من إلحاق الهزيمة بهم، ومطاردتهم والقضاء القبض عليهم وحملهم إلى مصر، وإرسال اثنين منهم إلى منى لنجرهما كما تنحر الذبائح<sup>(٢)</sup>. وكان ذلك في ذي الحجة سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م حين وصل الرحالة ابن جببير إلى الاسكندرية، وشاهد تجمعاً من الناس جاؤوا لمشاهدة الأسرى الذين ادخلوا البلد راكبين جمالاً، ووجوههم إلى أذنايها وحولهم الطبول والأبواق، للتشهير بهم على ما ارتكبه<sup>(٣)</sup>.

ومن هذا نرى أن معاملة الأسرى الصليبيين بقسوة لم تقتصر على الذين وقعوا في أسر المسلمين بعد سقوط عكا فقط، بل شملت الأسرى الذين وقعوا في قبضة الجند الأيوبي قبل حادث السقوط أيضاً. ففي أول صدام مع الصليبيين الذي انتهى بهزيمة المسلمين في الرملة، كما تحدثنا عنه، أمر صلاح الدين بضرب أعناق الأسرى الذين تم أسرهم قرب عسقلان<sup>(٤)</sup>.

وحدث مثل ذلك أيضاً في ربيع الآخر سنة ٥٧٤هـ/ أيلول ١١٧٨م، حين أغارت طائفة من الفرنج على حماة، فخرج إليهم مقدم الجيش الأيوبي الأمير منكورس بن خماتكين، فأسر مقدميهم، وقتل بقيتهم، فجلب الأسرى إلى السلطان، فأمر بضرب أعناقهم، وسلمهم بيد الرجال الزهاد الذين كانوا في موكب الجيش<sup>(٥)</sup>. ولدى مرج عيون، حيث انتصر الجيش على الصليبيين في بداية ٥٧٥هـ/ صيف ١١٧٩م. أسر الكثير من الصليبيين، وبينهم مجموعة من كبار القادة، منهم مقدم الداوية ومقدم الاسبتارية، وصاحب طبرية وأخوه صاحب جبيل، وكذلك صاحب منطقة الجليل، وبلدوين بن بارزان صاحب الرملة وصاحب جنين، وابن صاحب مرقية وغيرهم، إضافة إلى عدد غفير من فرسان القدس وعكا ومن البارونية، بلغ عددهم أكثر من مائتين وسبعين أسيراً، أمر السلطان بوضعهم في الأسر في دمشق. وقد جرت، بعد هذا الحادث بحوالي سنة، عملية تبادل الأسرى بين الطرفين، ولاسيما القادة الكبار منهم، فبذل ابن بارزان في نفسه مائة وخمسين ألف دينار صورية<sup>(٦)</sup>، إضافة إلى إطلاق سراح ألف أسير مسلم.

(١) النوادر، ١٥٦.

(٢) الكامل، ٤٩١/١١. ابن جببير، ٣٥. مرآة الزمان، ٣٦٩/٨. الروضتين، ٣٧/٢. مفرج الكروب، ١٢٨/٢.

السلوك، ٧٩/١. المخطط (ط. بولاق)، ٨٦/٢.

(٣) ابن جببير، ٣٤.

(٤) الروضتين، ج١، ق٢، ص٧٠٠. مفرج الكروب، ٥٩/٢.

(٥) سنا البرق الشامي، ٣٠٨/١. مفرج الكروب، ٧٠/٢ - ٧١.

(٦) الدنانير الصورية، وتسمى أيضاً بالدنانير المشخصة. وقد ذكر القلقشندي (صبح الاعشى ٤٣٧/٣) انها دنانير يؤتى بها من البلاد الافرنجية والرومية، وهي معلومة الوزن، على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس الحواريين.

وكان من ضمن الذين أطلق سراحهم الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري الذي أسر في كسرة الرملة سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م. فالتزم صلاح الدين فكاكه، وأطلق سراح صاحب الجليل بخمسة وخمسين ألف دينار، أما مقدم الداوية «أود» فإنه مات في السجن، فطلبوا جثته، مقابل إطلاق سراح أحد مقدمي الجيش الأيوبي<sup>(١)</sup>. ولاشك أن الحصول على هذه المبالغ من المال، مع تحرير الأسرى المسلمين كان أفضل من قتل الأسرى الصليبيين.

وفي هذا العام، نجح الجيش الأيوبي في تخريب حصن بيت الأحزان الصليبي<sup>(٢)</sup>، ووقع في أسره عدد كبير من أفراد العدو «وجيء بهم إلى السلطان، فمن كان مرتداً أو رامياً ضربت أعناقهم» واستطاع من تحرير أكثر من مائة أسير، أما الأسرى الصليبيون الآخرون فقد أرسلهم مقيدين إلى دمشق كالعادة<sup>(٣)</sup>. وكانت دمشق قد اتخذت مقراً لايواء الأسرى - كما ذكرنا آنفاً - إضافة إلى أنها كانت مركز تحرك قوات صلاح الدين، وذلك لقربها من ميدان القتال، فمن السهولة إرسال الأسرى إليها. وجلبهم منها للمبادلة.

وأكبر عملية أسر جماعية حدثت في معركة حطين، حين وقع آلاف من المحاربين الصليبيين وقادتهم، أسرى بأيدي المسلمين. فما أن حلت الهزيمة بالقادة على قرون حطين، إلا وصعد المسلمون إليهم، فألقوا خيمة ملكهم الحمراء أرضاً، وأسروهم عن بكرة أبيهم، وكان بينهم الملك جي لوسينيان وأخوه والأمير أرناط الشهير بحفده على المسلمين، وصاحب جبيل، ومقدم الداوية الذي كان أعظم الفرنجية شأنًا، وأسروا أيضاً جماعة من أعضاء الفرقة الداوية والاسبتارية، حيث قتلوا في الحال<sup>(٤)</sup>.

بل أنه نادى بأن كل من يجلب إليه داوياً أو اسبتارياً أعطاه خمسين دينار، فأتوا له في الحال بمائتين منهم، فأمر بضرب رقابهم بأيدي جماعة من أهل الدين والفقه والتصوف<sup>(٥)</sup>. وكتب إلى نائبه بدمشق «الصفى بن القايبض» أن يضرب عنق كل من يجده من أفراد هاتين الفرقتين، إذا أبى أن يدخل إلى الدين الإسلامي، فامتثل النائب لأمر السلطان. يقول ستيفنسون إن صلاح الدين قتل الأسرى بلا ريب، ولكننا لا نعرف سبباً لهذه المعاملة التي خص بها أفراد هاتين الفرقتين<sup>(٦)</sup>. إلا أن الجواب لسؤال هذا المؤرخ هو أن صلاح الدين فعل ذلك لشدة عداوتهم للمسلمين ولشجاعتهم<sup>(٧)</sup>. ولأنهم كانوا أشد شوكة من جميع الفرنج<sup>(٨)</sup>.

(١) سنا البرق الشامي، ٣٢٨/١ - ٣٢٩. مضممار الحقائق، ١٧ - ١٨. الروضتين، ٨/٢ - ٩. البداية والنهاية، ٣٠٢/١٢. السلوك، ٦٨/١.

(٢) سنا البرق، ٣٣٣/١ - ٣٣٦. مضممار الحقائق، ٢٤ - ٢٥. الكامل، ٤٥٥/١١. مفرج الكروب، ٨٢/٢.

(٣) الروضتين، ١١/٢. مفرج الكروب، ن. ص.

(٤) الكامل، ٥٣٧/١١. النوادر، ٧٨.

(٥) الفتح القسي، ٨٦. الكامل، ٥٣٨/١١. الروضتين، ٧٩/٢. مفرج الكروب، ١٩٦/٢.

(٦) Stevenson, p. 248.

(٧) الكامل، ٢٢/١٢. الروضتين، ٧٩/٢. مفرج الكروب، ٢٧٣/٢. العليسي، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل =

بعد هزيمتهم في حطين أعتبر كافة المحاربين الصليبيين أسرى بأيدي المسلمين، فأمر صلاح الدين بنصب خيمة كبيرة ليستريح فيها ومعه كبار قادة جيشه، وكذلك الزعماء الصليبيون الذين كانوا قد أهلكتهم الظمأ، وأجلس الملك وأخاه جفري إلى جانبه، ومعه أرناط. فطلب صلاح الدين بإحضار الماء البارد<sup>(٢)</sup> فناوله للملك فشرب، وأعطى الملك بقاياها إلى أرناط فشرب. فغضب صلاح الدين حين شرب هذا دون إذن منه. وقال: «إن هذا الملعون لم يشرب الماء باذني فينال أمانى»<sup>(٣)</sup>. وكان من عادة المسلمين أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال أسرته أمن. فقصد السلطان بقوله إن أرناط ليس آمناً، رغم أنه شرب من مائتنا. ثم بدأ «يقرعه بذنوبه، ويعدد عليه غدراته» وقال للحضور: كنت قد نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به، احدهما لما أراد المسير إلى الحرمين الشريفين، واستخف بالنبي، وقال للمسلمين: «قولوا لمحمد يجيء وينصركم»<sup>(٤)</sup>. والثانية لما أخذ القافلة القادمة من مصر غدراً. والتفت السلطان إلى أرناط وقال له: «ها أنا انتصر لمحمد» ثم عرض عليه الإسلام فأبى، فسل النيمجاه (السيوف الصغير) الذي يحمله معه، وضربه به فحل كتفه، وتم عليه من حضر، ثم حملوا الجثة ورموها خارج باب الخيمة<sup>(٥)</sup>. عندها ارتعدت فرائض الملك، وظن أن السلطان سيفعل به ما فعل مع أرناط، إلا أنه طمأنه، وهدأ من روعه، وقال: لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك. وأما هذا فقد تجاوز حده، فجرى عليه ما جرى<sup>(٦)</sup>.

هذا وقد بلغ عدد أسرى حطين إضافة إلى قتلاهم حداً بحيث أن من «كان يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا أحداً، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحداً»<sup>(٧)</sup>. وقد قيد المسلمون الأسرى في الحبال. ورأى العماد الكاتب فارساً واحداً يقود ثلاثين أو أربعين أسيراً في حبل واحد، وفي بقعة واحدة رأى مائة أو مائتين، يحميهم حارس<sup>(٨)</sup>.

وقدر عدد الأسرى بثلاثين ألف أسير، وهذا ما أثر في كساد أثمانهم في السوق لدى عرضهم

= (ط. النجف ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م)، ٣٢٢/١.

(١) الكامل، ٥٣٨/١١.

(٢) الجلاب، في النوادر، ٧٨.

(٣) الكامل، ٥٣٧/١١. النوادر، ٧٨. الفتح القسي، ٨١. مرآة الزمان، ٣٩٤/٨. الروضتين، ٧٩/٢. مفرج الكروب،

١٩٤/٢. الانس الجليل، ٣٢٢/١. شفاء القلوب، ١٢١. ابن العبري، تاريخ الدول السرياني، مجلة المشرق، ٤٤،

ص ٤٤٥.

(٤) مفرج الكروب، ١٩٢/٢. زبدة الحلب، ٩٦/٣. الانس الجليل، ٣٢١/١.

(٥) النوادر، ٧٩. الفتح القسي، ٨١. مرآة الزمان، ٣٩٤/٨. الروضتين، ٧٩/٢. مفرج الكروب، ١٩٥/٢. وفيات

الاعيان، ١٧٧/٧. زبدة الحلب، ٩٦/٣. شفاء القلوب، ١٢١.

(٦) النوادر، والروضتين، ومفرج الكروب، وشفاء القلوب: نفس الصفحات. الذهبي، مخطوط، تاريخ الإسلام، ١، ج

أخير، ورقة ٧ب. الانس الجليل، ٣٢١/١.

(٧) الروضتين، ٧٨/٢. مفرج الكروب، ١٩٣/٢. الذهبي، نفس الروقة.

(٨) الفتح القسي، ٨٣. النوادر، ٧٧. الروضتين، ٧٨/٢. وفيات الاعيان، ١٧٦/٧. شفاء القلوب، ١٢٠. الذهبي،

ورقة ٨ ب.

للبيع، فبلغ ثمن الأسير في دمشق ثلاثة دنانير. وصارت اسرة كاملة تباع في مناداة واحدة، ولقد بيع رجل وامرأته وخمسة أولاده بثمانين ديناراً. ووصل هوان (رخص) الأسرى وكشرتهم حداً، أن بيع منهم أسير بنعل<sup>(١)</sup>.

إلا أن المسلمين لم يمسوا هؤلاء بسوء، وكذلك لم يمسوا أسرى المدن التي فتحها الجيش الأيوبي. ففي القدس اعتبر كل من لا يدفع المبلغ المقرر أسيراً. وحدد صلاح الدين مقدار ما يدفعه الرجل عن نفسه عشرة دنانير، وعن النساء خمسة وعن كل طفل دينارين<sup>(٢)</sup> يتساوى في دفعه الفقير والغني<sup>(٣)</sup> أما مدة الدفع فحددت بأربعين يوماً، وإذا لم يدفعوا ما عليهم فإنهم سيتحولون إلى أسرى، وفعلاً لم يستطع بعض الفقراء الصليبيين من دفع ما عليهم، فسيقوا إلى ملجأهم في دمشق، إلا أن القادة والأغنياء الصليبيين حرروا البعض منهم لقاء مبالغ معينة، فدفع باليان بن بارزان مقدار ثلاثين ألف دينار مقابل إطلاق سراح ثمانية عشر ألف صليبي، فوافق صلاح الدين على هذا المبلغ<sup>(٤)</sup>.

وكذلك قام بعض قادة الجيش الأيوبي، بإطلاق سراح البعض من الأسرى للاستفادة منهم في تشغيلهم. بل ادعى بعض الامراء مثل مظفر الدين كوكبري صاحب حران والرها - يومئذ - أن زهاء خمسمائة أرمني كانوا من بلدة الرها وصلوا إلى القدس لغرض العبادة ولأداء الحج، وتم اعتقالهم واعتبارهم من أسرى الحرب، فطلب من السلطان إطلاقهم، فأطلقهم<sup>(٥)</sup> وجاء دور الملك العادل فأطلق سراح عدد كبير منهم<sup>(٦)</sup>.

وبعد أن وصلت قوات صلاح الدين إلى أقصى حالات الانتصار، بدأ خط الانكسار يظهر بوضوح يوماً بعد يوم، منذ أن أخفق في أخذ صور الذي اعتبر، كما ذكرنا، خطأً فاصلاً بين مرحلتين، وما أعقب ذلك من هزيمة المسلمين في عكا وأرسوف وانسحابهم من يافا، كل ذلك غير موقف صلاح الدين من الأسرى، سواء الذين يتخطفهم جنوده، أو الذين يقعون في الأسر خلال المناوشات المستمرة بين الطرفين.

ويمكن الاعتماد على اليوميات التي دونها ابن شداد الذي واكب جيش صلاح الدين إلى النهاية. ففي المعركة الشهيرة التي وقعت في عكا في ٢٠ جمادى الآخرة سنة ٥٨٦هـ/ آب ١١٩٠م والتي

(١) الروضتين، ٨٢/٢. الذهبي، ورقة ٨أ.

(٢) في بعض المصادر دينار واحد، النوادر، ٨٢.

(٣) الفتح القسي: ١٢٧. الكامل، ٥٤٩/١١. الروضتين، ٩٥/٢. مفرج الكروب، ٢١٤/٢. السلوك، ٩٦/١. الانس الجليل، ٣٢٨/١. وينفرد أحمد بن ابراهيم الحنبلي بقوله انه فرض على الرجل عشرة دنانير، وقيل عشرين، وعن المرأة خمسة وعن الصبي أربعة، وعن الطفل دينار، وقيل بل عن الأمة والطفل دينار. شفاء القلوب، ١٢٨. وهو مصدر متأخر لا يعول عليه في هذا الصدد.

(٤) الروضتين، ٩٥/٢. مفرج الكروب، ٢١٥/٢.

(٥) الروضتين، ٩٥/٢. مفرج الكروب، ٢١٥/٢.

(٦) الروضتين، ن. ص.

سميت بالوقعة العادلة، وانتصر فيها المسلمون، ذكر المؤرخ أنه لم ينج من القوم إلا النادر، ولقد خاض ابن شداد في دماء الصليبيين بدابته، واجتهد أن يعد القتلى فلم يقدر لكثرتهم، وشاهد بينهم امرأتين مقتولتين، ضمن أربع نسوة اشتركن في القتال، وأسر منهن اثنتان، أما من الرجال فقد أسر نفر يسير، فأمر السلطان بقتلهم<sup>(١)</sup>.

وفي عكا أيضاً خرج المسلمون راجلهم وفارسهم بقيادة الأميرين الكبيرين بهاء الدين قراقوش وأبي الهيجاء الهذباني، وفاجأوا العدو بالخروج المباغت من المدينة المحاصرة، وبدأوا بضربهم وقتلهم وأسروهم، ووصل عدد القتلى إلى سبعين مقاتلاً، وأسروا خلقاً عظيماً، من جملتهم رجل من كبار قوادهم، وجاء الصليبيون يستفسرون عنه، إن كان ما زال على قيد الحياة. وعندما علم الجند المسلمون مكانته، أجهزوا عليه، رغم ما بذله الفرنج من أموال طائلة لقاء إطلاق سراحه، وما كان من المسلمين إلا ورموا جثته إليهم «فضربوا بنفوسهم الأرض، وحنوا على وجوههم التراب» وأثر هذا الحادث على نشاطهم المقبل حيث انهارت معنوياتهم<sup>(٢)</sup>.

وحدث ذات مرة أن قام كلا الطرفين بحرق أسير ينتمي إلى الجانب الآخر، وكان ذلك حين خرج من العدو رجالة كثيرة على شاطئ النهر في عكا، فلقبهم اليزك الإسلامي، واصطدم الطرفان، فأسر الصليبيون مسلماً وقتلوه، ثم أحرقوه، فما كان من المسلمين إلا وأخرجوا أسيراً كان في حوزتهم وقتلوه، ثم اشعلوا فيه النار. وقد رأى المؤرخان العماد الكاتب<sup>(٣)</sup> وابن شداد<sup>(٤)</sup> النارين تشتعلان في زمان واحد.

إن التنكيل بالأسرى المسلمين صار عملاً اعتاد عليه الصليبيون، إلا أنهم لم يرتكبوا عملاً شنيعاً مع الأسرى، كالذي فعلوه إثر سقوط عكا، حين قتلوا حوالي ثلاثة آلاف أسير مسلم، بعد أن أوثقوهم بالحبال، وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد بايعاز من ريتشارد قلب الأسد، فقتلوهم طعناً وضرباً بالسيف، واليزك الإسلامي يشاهدهم ولا يقدر أن يفعل شيئاً، للضعف الذي كانوا فيه. وغشي المسلمين حزن عظيم وكابة عظيمة، على حد قول المؤرخ ابن شداد، ولم يبقوا من المسلمين إلا الرجال الذين عرفوا بقدرتهم في العمل لتسخيرهم في مهامهم الخاصة<sup>(٥)</sup>.

وكان لهذه المجزرة الرهيبة تأثيرها الكبير على نفسية صلاح الدين وأمرائه وجنده، وجعلهم ينتظرون الفرصة السانحة للانتقام عما جرى لرفاقهم، حتى صار واجب اليزك الأساس هو اختطاف أفراد الصليبيين ثم قتلهم. فأثناء المسيرة من عكا نحو عسقلان، وعند المنزل الرابع استطاع اليزك الأيوبي

(١) النوادر، ١٣٠.

(٢) النوادر، ١٣٤.

(٣) الفتح القسي، ٤٩٣.

(٤) النوادر، ص ١٦٣ - ١٦٤.

(٥) النوادر، ١٧٤.

من خطف اثنين من الصليبيين « فأمر بضرب رقابهما في الحال، فقتلا، وتكاثر الناس عليهما بالسيوف تشفياً<sup>(١)</sup>. وفي نفس اليوم وبالقرب من قيسارية أتوا باثنين آخرين « وقد أخذنا من أطراف العدو، فقتلنا أيضاً شر قتلة، وكان في حدة الغيظة لما جرى على أسرى عكا<sup>(٢)</sup>. ثم أسروا صليبياً لم يقتلوه في الحال، بل حاولوا أخذ بعض المعلومات الخاصة بالجيش الصليبي بواسطة مترجم، ثم « أمر بضرب عنقه، ونهى عن التمثيل به » وكذلك فعلوا بالمترجم، وباتنين آخرين اخذنا من الجيش الصليبي، حتى بلغ عدد من قتل في ذلك اليوم « ٥ شعبان ٥٨٧هـ » ثمانية أسرى.

واعتاد أفراد البيزك الأيوبي على أعمال الخطف، ثم قتل المختطفين، فضاغف صلاح الدين عدد أفراد البيزك، بحيث استطاعوا من جلب أربعة عشر من الفرنج ومعهم امرأة هي بنت أحد الفرسان الصليبيين، فقتلوه<sup>(٣)</sup>.

وعلى الرغم من أن المختطفين لا يدخلون في عداد أسرى الحرب، ولكن نفذ فيهم الجيش أحكام الأسير، ولاشك أن لجوء صلاح الدين إلى هذا الأسلوب في مناوأة العدو بمناوشات صغيرة وخطف أفراد من المشاة السائرين في الجناح الخلفي من الجيش، أو لدى خروجهم إلى جمع الحطب والحشائش، كان تكتيكاً جديداً اضطر صلاح الدين إلى اتباعه، نظراً لما أصاب جيشه من نكسات، وقصد من هذا التكتيك إنهاء العدو، بدلاً من الدخول معه في معركة حقيقية كبيرة، إلا أن الأثر الذي تركه هذا التكتيك كان محدوداً، لأن الجانب الصليبي قد غدا منذ وصول الحملة الثالثة، أقوى من أن يضعفه أسلوب الخطف ومعارك الاستنزاف الصغيرة، بل إن ريتشارد لم يشأ أن تفلت الفرصة من يده، بالانشغال بالرد على هذه التحرشات، فأراد الوصول إلى غايته في احتلال الأماكن الاستراتيجية مثل يافا وعسقلان، لتوصله إلى هدفه الأساسي، وهو القدس وكذلك ديار مصر التي زاد تعلقه بها، بعد أخذ القافلة الضخمة القادمة منها، والذاهبة إلى الجيش الأيوبي، وأدرك مدى غنى مصر.

هذا ونجد أن صلاح الدين كان يرى أن من الأفضل الإبقاء على حياة الأسرى للاستفادة من طاقتهم في بعض الأعمال. فحين شرع ببناء حصن القاهرة « قلعة صلاح الدين » سخر هؤلاء الأسرى في القيام بالأعمال الشاقة « كنشر الرخام ونحت الصخور العظام، وحفر الخندق المحدد بسور الحصن، وكان خندقاً ينقر بالمعاول نقرأ في الصخر عجباً من العجائب. ولا سبيل - كما يقول ابن جبير - أن يمتهن في ذلك البنيان أحد سوى العلوج الأسارى من الروم<sup>(٤)</sup>، وذكر مؤرخ مصري متأخر « أن قراقوش كان يستعمل في بناء القلعة والسور خمسين ألف أسير<sup>(٥)</sup> صليبي.

(١) النوادر، ١٧٧.

(٢) ن. م. ص.

(٣) ن. م، ص ١٧٨-١٧٩. وانظر أيضاً: ١٨٣ و ١٨٦.

(٤) ابن جبير، ص ٢٥. وانظر: المقرئ (الخطط، طبعة المعهد) ٣٣٢/٤. السلوك، ٩٩/١.

(٥) علي مبارك، الخطط التوفيقية، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٧٠.

#### ٤- المعاهدات بين صلاح الدين والصليبيين

لم يكن صلح الرملة أول اتفاق يعقد لايقاف القتال بين صلاح الدين وبين الجماعات الصليبية، بل سبقته اتفاقيات عديدة، كان أولها ما عقد في مستهل سنة ٥٧١هـ/ صيف ١١٧٥م، أي في بداية استقرار صلاح الدين في بلاد الشام. ولا ريب أن ضغط الظروف السياسية والاقتصادية والعسكرية وغيرها، هو الذي دفعهما إلى عقد هذه الهدنة، ولاسيما وأن صلاح الدين حديث الوصول إلى الشام، وقد جابهته مشاكل عديدة، منها موقف بعض أمراء نورالدين محمود من حكمه الفتى، وعلاقته مع الملك الصالح اسماعيل بن نورالدين، والموقف المعادي الذي اتخذته أتابكة الموصل منه. وكذلك العلاقات العدائية بين صلاح الدين وبين الطائفة الاسماعيلية التي وصلت إلى حد محاولة اغتياله أكثر من مرة<sup>(١)</sup> إضافة إلى الوضع الاقتصادي السيء الذي كانت فيه بلاد الشام في تلك السنة، مما أثر على حالة كلا الجانبين، فاضطر إلى اللجوء إلى سياسة المهادنة. فتذكر المصادر أن سنة ٥٧١ كانت سنة جذب في الشام<sup>(٢)</sup>.

هذه الأسباب جميعاً دفعت السلطان إلى إيقاف القتال، وقيام فترة سلم مع الصليبيين. وحين تم عقد الهدنة، أمر السلطان العساكر المصرية بالعودة إلى مصر، نظراً لانتفاء الحاجة إلى وجوده في الشام، بالإضافة إلى صعوبة الوضع الاقتصادي فيها - كما قلنا - وكذلك حاجة مصر إلى جندها في موسم الحصاد، فيذكر العماد أن السلطان اذن لعسكر مصر بالانصراف والإقامة في مصر «ريثما يستوعب المغل»<sup>(٣)</sup>.

والواقع أن صلاح الدين لم يعقد هذه الهدنة أو غيرها، إلا وهو حذر من الصليبيين مخافة أن ينقضوها، كما حدث فعلاً، فكان يتخذ لنفسه الحيلة في الشروط والبنود التي تقيد العدو، وتمنعه من القيام بالعدوان. وكذلك لم يكن يلقي السلاح، ويركن إلى السلم مع عدو محتل، بل إنه كان يضع جيشه في حالة استعداد وترقب وإستنفار دائمين، ولاينقطع عن القيام بمناوشته خشية غدره، وكان صلاح الدين يستشير مجلس حربه حين يعزم على الاتفاق مع العدو لايقاف القتال<sup>(٤)</sup>.

هذا ولايتوفر لدينا شيء عن بنود هذا الاتفاق، ولكن يظهر أن الجو الذي ساد بينهما كان سلبياً، رغم ما تخلله من أعمال عسكرية قام بها هذا الطرف أو ذاك. والراجح أن مفعول المعاهدة لم يكن

(١) بهذا الصدد انظر: النوادر، ص ٥٢. الكامل، ٤٣٦/١١ - ٤٣٧ و ٤٢٩. العماد، سنا البرق، ٢١٠ - ٢١١ و ٢١٨ - ٢١٩. مرآة الزمان، ٣٢٩/٨ و ٣٣٥. ابن العديم، زبدة الحلب، ٢٨/٣. الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٦٥٨ - ٦٦١. مفرج الكروب، ٢٤/٢ و ٤٤ و ٤٧. السلوك، ٦١/١ - ٦٢ مصطفى غالب، سنان راشد الدين، دار البيقظة العربية، بيروت ١٩٦٧، ص ١٢٣ و ١٢٨ و ١٣٠.

(٢) الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٦٤٣. مفرج الكروب، ٣٦/٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٩١/١٢.

(٣) سنا البرق، ١٩٥/١. الكامل، ٤٣٥/١١. الروضتين، ٦٤٣/١.

(٤) الكامل، ١٩/١٢. سيد الاهل، أيام صلاح الدين، ص ١٦٠.

شاملاً، بحيث تدخل ضمنها بقية الجماعات الصليبية، ولا أدل على ذلك من الصدام الذي جرى قرب الرملة سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م. وحصر الصليبيين لمدينة حماة في نفس العام، وقيام صلاح الدين بتخريب بيت الأحزان بعد عامين.

ولكن لم تجر أية أعمال عسكرية بين صلاح الدين وإمارة أنطاكية وطرابلس الصليبيتين إلى سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م حين أغار صلاح الدين على جهات أنطاكية وطرابلس، بعد أن نقض الصليبيون - ولاسيما ريموند الصنجيلي صاحب طرابلس - المعاهدة المبرمة بينه وبين صلاح الدين، حين انحرار إلى جانب أرناط والملك جي لوسينيان، وأعلن الحرب على صلاح الدين، فحدثت معركة حطين. وهذا الاتفاق الذي عقد مع ريموند كان سببه الخلاف الذي دب بين الزعماء الصليبيين أنفسهم حول عرش بيت المقدس<sup>(١)</sup>.

والتجأ ريموند إلى ظل السلطان، وعقد معه اتفاقية، إلا أن أرناط سبب في خرق هذه الاتفاقية - كما رأينا - ثم انضم إليه ريموند، وقامت معركة حطين.

**الهدنة الثانية مع أنطاكية ٥٨٤هـ/١١٨٨م:**

إن المعارك التي أعقبت حطين، والتي اجتاحت كل بلاد الشام، توقفت عند أنطاكية، على الرغم من أن صلاح الدين فتح الحصون الواقعة في أطراف هذه الامارة، مثل بغراس ودريساك والشغر وبكاس وسرمينية وغيرها، وسبب هذا التوقف يعود إلى الهدنة التي عقدت بين صلاح الدين وبين صاحب أنطاكية بوهيمند. وحدث ذلك في ٢ شعبان ٥٨٤هـ/ تشرين الأول ١١٨٨م حين فتح الجيش الأيوبي حصن بغراس المنيع الواقع شمال أنطاكية، وعزم على التوجه إلى أنطاكية نفسها وحصرها، فعلم صاحبها نوايا السلطان، فخاف أن تسقط هذه المدينة الكبيرة في قبضة الجيش الأيوبي، فأرسل إلى صلاح الدين يعرض عليه الهدنة، وأعلن عن استعداده لاطلاق سراح ما في حوزته من الأسرى المسلمين، وكانوا زهاء ألف أسير<sup>(٢)</sup>. فاستشار صلاح الدين كبار قاداته وأصحاب الأطراف، فأشار أكثرهم إلى الموافقة على طلب بوهيمند، ولاسيما وأن الجيش الأيوبي كان بحاجة إلى الراحة<sup>(٣)</sup>. فأجيب إلى الطلب. واتفق الطرفان على إيقاف القتال لمدة ثمانية أشهر، تبدأ من أول تشرين الأول

(١) الكامل، ١١/٥٢٦-٥٢٧. زبدة الحلب، ٣/٩٣. الروضتين، ٢/٧٤. مفرج الكروب، ٢/١٨٤. وكانت البداية حين تزوج ريموند الملكة (اشيفا) صاحبة طبرية والوصية على عرش مملكة بيت المقدس عن ابنها الصغير الذي أوصى له خاله الملك المجذوم - الذي لم يعقب - بعرش الملكة، فمات الولد، وتزوجت أمه من ريموند المذكور، فصار هذا ملكاً للمملكة. إلا أن الملكة أحبت شخصاً ثانياً وتزوجته، وصار هذا الزوج بحكم الملك على عرش مملكة بيت المقدس «وطالب من ريموند حساب البلاد» للفترة التي حكم خلالها هذه المملكة، هذه المملكة فوقع الخلاف بين ريموند وهؤلاء، فانحاز إلى صلاح الدين.

(٢) مفرج الكروب، ٢/٢٧٠.

(٣) الكامل، ١٢/١٩. الروضتين، ٢/١٣٣. شفاء القلوب، ١٥٧.

وآخرها نهاية شهر أيار (مايس)<sup>(١)</sup>، ليكون «انقضاء الهدنة قبل إدراك الغلة، وأوان حصادها، فيستريح فيها الأجناد»<sup>(٢)</sup>.

وكان صاحب أنطاكية يومئذ، أعظم الفرنج شأنًا، وأكثرهم ملكًا، فإن الفرنج كانوا سلموا إليه طرابلس وجميع أعمالها، بعد موت صاحبها ريموند، الذي قضى نحبه إثر فراره المدوي من ساحة حطين، إضافة إلى ما كان له من الممتلكات، لأنه - أي ريموند - لم يخلف ولدًا، فلما سلمت طرابلس إلى بوهيمند جعل ولده الأكبر نائباً عنه فيها<sup>(٣)</sup>.

وعلى إثر هذه الهدنة أطلق سراح الأسرى المسلمين في أنطاكية، ثم عاد صلاح الدين إلى حلب في الثالث من شعبان، وسار منها إلى دمشق، وفرق العساكر الشرقية، كعماد الدين زنكي صاحب سنجار والخابور وعسكر الموصل.

إلا أن الهدنة - كالهدنة السابقة - لم تشمل كافة الأطراف الصليبية. ولذلك فإن السلطان، بعد استراحة قصيرة دامت أقل من أربعة أسابيع، استأنف فتوحه في بداية رمضان حين توجه من دمشق إلى صفد، غير آبه «بمفارقة الأهل والأولاد والوطن في هذا الشهر الذي يسافر الإنسان أينما كان فيجتمع فيه بأهله» وحين أشير على صلاح الدين بتفريق بقية العساكر أجابهم: إن العمر قصير، والأجل غير مأمون، وقد بقي بيد الفرنج حصون كوكب وصفد والكرك، ولا بد من الفراغ منها، فإنها في وسط بلاد الإسلام، ولا يؤمن شر أهلها، وإن أغفلناهم ندمنا فيما بعد<sup>(٤)</sup>.

والواقع أن صلاح الدين لم يتسن له الوقت للوصول إلى منطقة أنطاكية ثانية، إلا أنه خشي أن يقوم صاحبها بنقض الهدنة من جانبه، ويتحرش بالأجزاء التي فتحها الجيش الأيوبي، مستغلاً انشغال الجيش بحصار عكا. لكن شيئاً من هذا لم يحصل، ولعل صاحب أنطاكية كان يخشى من قوات حلب التي كانت تحت حكم الملك الظاهر.

وظل صاحب أنطاكية وطرابلس في عزلة عما جرى في الساحة سواء في صور أو في عكا أو في القدس، ولم نسمع عنه قيامه بأي نشاط يذكر إلى جانب الصليبيين. ولكن يلاحظ أن صلاح الدين حينما أدخل الطائفة الإسماعيلية والأراضي التي كانت بيدهم، ضمن المناطق الإسلامية التي ينبغي أن يشملها صلح الرملة، أعلن الملك ريتشارد بأن يدخل إمارة أنطاكية بالمقابل ضمن المناطق الصليبية التي تشملها المعاهدة، كما سنرى.

(١) هكذا يحدد المؤرخون فترة الهدنة بالتاريخ الميلادي، انظر: الكامل، ١٩/١٢، الفتح القسي، ٢٦٠. الروضتين، ١٣٣/٢. مفرج الكروب، ٢/٢٧٠. أو سبعة أشهر، النوادر، ٩٤. زبدة الحلب، ٣/١٠٧. البداية والنهاية، ٣٣٠/١٢.

(٢) الفتح القسي، ٢٦٠. الروضتين، ١٣٣/٢.

(٣) الكامل، ١٩/١٢.

(٤) النوادر، ٩٥.

## صلح الرملة (٥٨٧هـ/١١٩١م):

وكان صلح الرملة آخر وأشهر معاهدة صلح عقدت بين الطرفين، وسبب شهرتها هو أنها اعقبتها مغادرة الملك الانكليزي ريتشارد للأرض المقدسة عبر الشرق ووسط أوروبا<sup>(١)</sup>. ثم وفاة صلاح الدين بعد مدة وجيزة، وكانا أشهر قائدين أنجبتهما الحروب الصليبية، وأكثرهم جاذبية في الشرق والغرب. وكان الصلح بمثابة الفصل الختامي للحملة الثالثة، تلك الحملة التي اشترك فيها أعظم ملوك أوروبا يومئذ لمجابهة انتصارات صلاح الدين في حطين وفتح بيت المقدس والحصون الشمالية والساحل الفلسطيني ومنطقة الغور، إضافة إلى أن هذا الصلح شمل كافة الأطراف المتحاربة من الطرفين على عكس المصالحات التي كانت تتم بين صلاح الدين وبين إحدى الامارات الصليبية.

وفكرة هذا الصلح تعود بداياتها إلى أيام حصار عكا، إلا أن السلم الذي أراده الصليبيون يومئذ كان يهبط الثمن، وفيه إذلال للمسلمين، فكان عليهم أن يتخلوا بموجبه عن كل المكاسب التي حصلوا عليها، والمدن التي استرجعوها، وهذا ما لم يكن بوسع المسلمين أن يقبلوه. يذكر ابن شداد أن معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي صاحب الجزيرة، حين هم بالعودة إلى بلاده، استأذن السلطان، إلا أن هذا لم يوافق، بل طلب منه التريث لأن «رسل العدو متكررة في معنى الصلح»، فلا يجوز أن ينفذ العساكر حتى تتبين على ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب<sup>(٢)</sup>. إلا أن محاولة الصليبيين باءت بالفشل، وأعقبتها تطورات جعلت فكرة الصلح في حكم الملغاة.

ولكن الصليبيين أعادوا الكرة أثناء المسير الذي نظموا للتوجه من عكا نحو عسقلان، فعند المنزل الثامن (في ١٠ شعبان سنة ٥٨٧هـ / أيلول ١١٩١م) طلب رسل ريتشارد من البيك الأيوبي إرشادهم إلى من يتحدثون معه، وكان مقدم البيك حينئذ علم الدين سليمان بن جندر، فمضى إلى الرسل الصليبيين وحين وصل إليهم أفهموه بأنهم يريدون الملك العادل، وكانوا يعرفون أنه الساعد الأيمن لصلاح الدين. فسار العادل نحوهم واجتمع بهم فقالوا له: «لقد طال القتال، وقتل من الجانبين الرجال الأبطال، وإنا جننا في نصره الساحل، فاصطلحوا أنتم وهم، وكل منا يرجع إلى مكانه»<sup>(٣)</sup>.

وأراد السلطان من جانبه أن يستغل جو المفاوضات، فبعث إلى العادل يطلب منه أن يطيل معهم الحديث، ريثما تصل القوات التي كانت في طريقها إليهم. فذهب العادل للاجتماع بريتشارد، وطلب منه توضيح مطالبه لعرضها إلى السلطان فكان جواب ريتشارد: «القاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا، وتصرفون إلى بلادكم»<sup>(٤)</sup> فرد العادل على مفوضه الصليبي أن طلبه في حكم المستحيل

(١) Kerr, The Crusades, Printed in Britain, 1966, p. 58.

(٢) النوادر، ١٤٥. الروضتين ١٦٥/٢. مفرج الكروب ٣٤١/٢.

(٣) النوادر ١٨٢. الروضتين ١٩١/٢. مفرج الكروب ٣٦٧/٢.

(٤) نفس المصادر والصفحات.

« وأن دون ذلك قتل كل فارس وراجل»، وقطع المفاوضات لأنها سارت في مجرى صعب. وعاد إلى خيمة أخيه السلطان<sup>(١)</sup>.

ومع هذا فإن الملك ريتشارد لم يبأس من جدوى لقاءاته بالملك العادل، لاسيما وأن هذا بعث إليه بهدية ثمينة إرضاء لمخاطره، ورد عليه ريتشارد بأن أرسل إليه هدية عبارة عن حصان فاخر. وأثبتت الأحداث أن العادل كان دبلوماسياً ماهراً، نال إعجاب ريتشارد وسائر الصليبيين<sup>(٢)</sup>.

سارت المفاوضات ببطء، فطلب ريتشارد مقابلة الملك العادل مرة أخرى، لا يصلح موقفه إلى السلطان، وليقول له: إن الطرفين هلكا، وخربت البلاد... وأن عقدة المشكلة هي القدس والصليب وتقسيم البلاد، فالقدس - على حد قول القائد الصليبي - متعبدنا، ولن نتنازل عنه، وإن لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا منها ما هو قاطع الأردن (الضفة الغربية إلى البحر - أي كل فلسطين الحالية). أما الصليب فهو خشبية لا مقدار له عندكم، وهو عندنا عظيم، فيمن به السلطان علينا، ونصطلح ونستريح من هذا العناء الدائم<sup>(٣)</sup>.

ولما وقف السلطان على فحوى الطلب استدعى أرباب المشورة في مجلس حربه، واستشارهم في كيفية الرد عليه. والذي رآه صلاح الدين في جواب ذلك هو الرد الحاسم الذي يقول: «إن القدس لنا كما هي لكم، وهي عندنا أعظم مما هي عندكم، فهي مسرى نبينا ومجمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنها، ولا نقدر على التلطف بذلك بين المسلمين. وأما البلاد فهي لنا في الأصل، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها، لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت، وما أقدركم الله على عمارة حجر منها ما دامت الحرب قائمة. أما الصليب فهلاكه عندنا قرية عظيمة، ولا يجوز أن نفرط فيه إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منه<sup>(٤)</sup>. أي أن صلاح الدين لن يتنازل حتى عن الصليب إلا لقاء الحصول على بعض الامتيازات لصالح المسلمين.

والظاهر أن موقف صلاح الدين بدأ يتصلب بعد أن رأى ثمة جهة صليبية أخرى تبغي التفاوض معه. إذ كان المركيز كتراد مونتفرات صاحب صور، قد اتصل بالسلطان عن كثب وطلب منه التفاوض لقاء إعطائه صيدا وبيروت، ويجاهر ريتشارد بالعداء، ثم يقصد - أي المركيز - عكا ويأخذها منهم. وقد قطعت هذه المفاوضات شوطاً إلى الأمام، لأن السلطان أراد أن يجعل من المركيز بديلاً عن ريتشارد، ويتخذه وسيلة لشق صفوف الصليبيين في هذا الظرف الدقيق. فسير إليه مفاوضه (العدل النجيب) يحمل رسالة تتضمن الطلب من المركيز البدء بحصار عكا وأخذها، ثم إطلاق من بها من

(١) الفتح القسي ٥٤٢. الحموي، التاريخ المنصوري، ٢٠٧. الروضتين ١٩١/٢. مفرج الكروب ٣٦٧/٢. الانس الجليل ٣٧٣/١.

(٢) رنسيما، ١١٥/٣ - ١١٦.

(٣) النوادر، ١٩٤. الروضتين، ١٩٣/٢. مفرج الكروب، ٣٧٣/٢.

(٤) النوادر، ١٩٤. الروضتين، ١٩٣/٢. مفرج الكروب، ٣٧٣/٢.

الأسرى المسلمين، لقاء تسليم صيدا وبيروت إليه، لكن من عشية نفس اليوم (٩ رمضان ٥٨٧هـ) خرج رسول ريتشارد إلى الملك العادل محاولاً «تحريرك سلسلة الحديث في الصلح»<sup>(١)</sup> لكي لا يدع لصلاح الدين الفرصة للتفاوض مع غيره.

وكان ريتشارد يتظاهر أحياناً بصلاية موقفه، في حين نجده مصراً على انجاح المفاوضات، نظراً للوضع المضطرب الذي كانت تمر به انكلترا يومئذ، إضافة إلى خشيته من سوء العاقبة إذا نجح صلاح الدين في مفاوضاته مع الماركيز، أو إذا حاول أن يستغل خلاف ريتشارد المستعر مع الملك الفرنسي فيليب اغسطس المتعاون مع الماركيز<sup>(٢)</sup>. لذا طرح ريتشارد، مشروعاً غريباً صعب التنفيذ، مفاده أن يتزوج الملك العادل بجوانا أخت ريتشارد، أرملة ملك صقلية، ويتنازل لها ريتشارد عن الأراضي التي في حوزة الصليبيين، والمنتدة من عكا إلى يافا وعسقلان، ويجعلها ملكة، ويعطي السلطان أخاه جميع ما في يده من أراضي فلسطين، ويجعله ملكاً عليها، ويحتفظ بما كان في يده من البلاد والإقطاع، ويسلم إليه صليب الصلوات، أما مقر المملكة فيكون القدس، ويقوم كل طرف بفك أسرى الطرف الثاني<sup>(٣)</sup>.

وعرض المشروع على صلاح الدين بحضور جماعة أمرائه من أمثال علم الدين سليمان بن جندر وسابق الدين عثمان وعزالدين ابن المقدم وحسام الدين بشارة، فوافق عليه في الحال ظناً منه أن ريتشارد غير جاد في مقترحه، وأن الفكرة لاتعدو كونها نوعاً من المزاح. إلا أن الرأي العام المسيحي ثار ضد المشروع، وصدته الفكرة، فدخل بعضهم إلى الأميرة جوانا «وخوفوها واتهموها في دينها وعنفوها، وقالوا: إنها فضيحة فظيعة، وسبة شنيعة... وإنها عاصية للمسيح» فتراجعت عن رأيها. ثم اعتذر ريتشارد بدوره للملك العادل عن موقف أخته، وعرض عليه أن يترك الإسلام ويدخل في دين النصرانية، عندها عرف العادل أن المشروع كان خديعة<sup>(٤)</sup>. إلا أن ريتشارد كان جاداً في مصاهرة الملك العادل، فمقابل فشل المشروع عرض عليه أن يتزوج ابنة أخته، وذكر أن زواج جوانا لم يتم بسبب من أن البابا ينبغي «استئذانه في تزويج الشيب من بنات الملوك، أما الأبقار فيزوجها أهلها دون أخذ موافقه البابا»<sup>(٥)</sup>.

وحاول ريتشارد جهد إمكانه مع "صديقه" العادل أن يهيئ الجو لعقد لقاء بينه وبين صلاح الدين، إلا أنه تلقى جواباً بالرفض لأن «الملوك إذا اجتمعوا، تقبح منهم المخاصمة بعد ذلك، فإذا انتظم أمر، حسن الاجتماع» وحين وصل رد صلاح الدين إلى ريتشارد «استعظم الجواب، وعلم أنه لا يقدر على

(١) النوادر، ص ١٩٠.

(٢) بشأن النزاع بين الصليبيين، انظر: رنسيما، ٩٩/٣.

(٣) النوادر، ١٩٥-١٩٦. الفتح القسي، ٥٥٥. الروضتين، ١٩٣/٢. الكامل، ٧٢/١٢.

(٤) مرآة الزمان، ٤١٠/٨. الروضتين، ١٩٣/٢.

(٥) النوادر، ٢٠٤.

بلوغ غرض»<sup>(١)</sup>. وكذلك رفض السلطان فكرة عقد اتفاق جزئي يتعلق بتبادل الأسرى، وقال لرسول ريتشارد «إن كان الصلح فعلى الجميع، وإن لم يكن صلح، فلا يكون من حديث الأسارى شيء»<sup>(٢)</sup>. يقول ابن شداد: إن السلطان كان غرضه عدم عقد الصلح، فإنه التفت إلى في المجلس، وقال لي: متى صالحناهم لم تؤمن غالتهم، فإني لو حدث لي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر، ويقوى الفرنج، والمصلحة الاستمرار على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل، أو يأتينا الموت<sup>(٣)</sup>. إلا أن الأحداث كانت أقوى من رغبة صلاح الدين، فاضطرته إلى موافقه على عقد الصلح، ويظهر هذا من قول مؤرخه: إن السلطان «غلب على الصلح»<sup>(٤)</sup>.

طلب السلطان أن يعقد مجلس حربه للتشاور بشأن الجهة الصليبية التي ينبغي عقد الصلح معها، وكان ذلك في ١١ شوال ٥٨٧هـ/١١٩١م، فأظهر العادل وبعض الأمراء الميل إلى المضي في المحادثات مع ريتشارد، لأنه سوف يبادر إلى مغادرة فلسطين إلى انكلترا، على حين أن الماركيز صاحب صور ينوي البقاء والاستقرار في الأرض المحتلة، إلا أن رسل الماركيز ظلوا يترددون إلى السلطان، وظلت المفاوضات مستمرة مع الماركيز إلى أن اغتيل بيد اثنين من أفراد الطائفة الاسماعيلية<sup>(٥)</sup>، وفي وقت كان صلاح الدين أحوج ما يكون إليه لاتخاذ وسيلة ضغط على ريتشارد، عله يحصل على بعض التنازلات منه. وبهذا الصدد ذكر العماد الكاتب: «لم يعجبنا قتل الماركيز في هذه الحالة، وإن كان من طواغيت الضلالة. لأنه كان عدو ملك الانكتير، ... ومنافسه في القليل والكثير. وهو يرسلنا حتى نساعده عليه، وننزح ما أخذه من يديه، وكلما سمع ملك الانكتير أن رسول الماركيز عند السلطان، مال إلى المراسلة بالاستكانة والاذعان. وأعاد الحديث في قرار الصلح... فلما قتل الماركيز سكن روعه، وطاب قلبه»<sup>(٦)</sup>.

وعلى إثر اغتيال الماركيز كونراد وصل رسول ريتشارد بصحبة الحاجي يوسف صاحب سيف الدين في ١٩ جمادى الآخرة ٥٨٨هـ/١١٩١م. ليلبغ السلطان رسالة الملك التي يقول فيها: «إنه راغب في مودتك وصدقتك، وإنه لا يريد أن يكون فرعون يملك الأرض، ولا يظن ذلك فيك، ولا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم، ولا يجوز لي أن أهلك الفرنج كلهم، وهذا ابن أختي قد ملكته هذه الديار، وسلمته إليك ليكون هو عسكره بحكمك، ولو استدعيتهم إلى الشرق سمعوا وأطاعوا». ويضيف إلى قوله مخاطباً السلطان: إنك لم تبخل على الرهبان حينما طلبوا منك كنائس، وأنا أطلب منك كنيسة... ولو

(١) النوادر، ٢٠١. مفرج الكروب، ٣٧٤/٢.

(٢) النوادر، ٢٠٢.

(٣) النوادر، ٢٠٣. وفيات الاعيان، ١٩٩/٧.

(٤) النوادر، ن. ص. وانظر: الفتح القسي، ص، ٦٠٣.

(٥) النوادر، ٢٠٨. الفتح القسي، ٥٨٩. الروضتين، ١٩٦/٢.

(٦) الفتح القسي، ٥٩٠. الروضتين، ١٩٦/٢.

أعطيتني مزرعة قبلتها. فلما اطلع صلاح الدين على رسالة ريتشارد، جمع أرباب الرأي وأصحاب مشورته، وسألهم عما يكون الجواب. فأشاروا إلى عقد الصلح «لما قد أخذ المسلمين من الضجر والتعب، وعلاهم من الديون» واستقر الرأي على جواب ريتشارد بالشكل التالي:

«ما دمت دخلت معنا المدخل، فما جزاء الاحسان إلا الاحسان، إن ابن أختك يكون عند السلطان كبعض أولاده. ويقول السلطان: «سيبلغك ما أفعل في حقه من الخير، وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهي القمامة»<sup>(١)</sup>. ويقيه البلاد نقسمها، فالساحلية تكون بيدك، والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا، وما بينهما تكون مناصفة، وعسقلان وما وراءها تكون خراباً، لا لنا ولا لكم»<sup>(٢)</sup>.

وبعد أسبوع وصل رسول ريتشارد إلى مجلس صلاح الدين، وقدم إليه شكر الملك، وقال: «إن الملك يطلب من السلطان أن يكون لنا في قلعة القدس عشرون نفرًا»، أما تقسيم البلاد فإن الملك موافق عليه. إلا أن صلاح الدين ومجلس حربه اعترضوا على مسألة القدس، وأعلنوا للرسول الصليبي: أن القدس ليس لكم فيها حق سوى زيارتها. وعسقلان لا يد من تخريبها. وغادر رسول ريتشارد معسكر صلاح الدين في مستهل رجب ٥٨٨ هـ ومعه ممثل عن السلطان هو الحاجي يوسف<sup>(٣)</sup>.

وما لبث أن عاد الرسول مرة أخرى، وفي المرة الرابعة ذكر أن ريتشارد يعترض على تخريب عسقلان، لأنه عمرها يعد تخريبها، وخسر على سورها مالا جزيلاً. ويقول: «لا يمكننا أن نخرب من عسقلان حجراً واحداً»<sup>(٤)</sup>.

انتهت هذه المفاوضات بالفشل بسبب عقدة عسقلان. إلا أن كل طرف صار يعرف ما يريد الطرف المقابل. ثم حدث حصار يافا. وفي أعقاب فشل صلاح الدين في أخذ هذه المدينة، جدد ريتشارد حديث الصلح، فطلب الاجتماع ببعض أمراء السلطان الذين استطاع من كسب ودهم وصدقاتهم «بحيث صاروا يجتمعون به في أوقات متعددة»<sup>(٥)</sup>.

ثم أرسل ريتشارد مندوباً عنه إلى السلطان ليقول له على لسانه: إن من الامور المتبعة عند «الفرنج أنه إذا أعطى واحد لآخر بلداً، صار تابعه وغلामه، وأنا أطلب منك يافا وعسقلان، ويكون عساكرهما في خدمتك دائماً، وإذا احتجت إليّ وصلت إليك في أسرع وقت وخدمتك»<sup>(٦)</sup> أي أن ريتشارد طلب يافا وعسقلان على سبيل الإقطاع، بمفهومه الأوربي القروسطي، من صلاح الدين، دون أن يشرح كيف تجري التبعية عند غياب الملك في أوروبا<sup>(٧)</sup>.

(١) هكذا تسمى المصادر العربية كنيسة القيامة. النوادر، ٢١٩. الروضتين، ٢/٢٠٠. مفرج الكروب، ٢/٣٩١.

(٢) نفس المصادر والصفحات.

(٣) النوادر، ٢٢٠. الروضتين، ن. ص. مفرج الكروب، ٢/٣٩٢.

(٤) النوادر، ٢٢١.

(٥) النوادر، ٢٢٧.

(٦) النوادر، ٢٢٨. الروضتين، ٢/٢٠٢.

(٧) رنسيان، ٣/١٣٦.

وكان جواب السلطان: «نجعل هذين البلدين قسمين، أحدهما لك وهو يافا وما وراءها، والثاني لي وهو عسقلان وما وراءها» فعاد الرسول إلى ريتشارد، ثم رجع ثانية إلى صلاح الدين ليجدد المطالبة بعسقلان، ويقول: «إنه إن تم في هذه الأيام سار إلى بلاده، وإلا احتاج إلى أن يشتي هنا»<sup>(١)</sup>. فأجاب السلطان: «إن التنازل عن عسقلان غير ممكن. وأما قضاء فصل الشتاء في هذه البلاد فلا بد منه، لأنه قد استولى عليها، ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت بالضرورة، وإذا أقام ابتعد عن أهله، ووطنه مسيرة شهرين، وهو شاب في عنفوان شبابه، ووقت اقتناص لذاته. أما أنا ففي وسط بلادتي، وعندي أولادي وأهلي، ويأتي إلى ما أريده، وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا، وشيعة منها، ورفضتها عني، والعسكر الذي يكون عندي في الشتاء غير العسكر الذي يكون عندي في الصيف»<sup>(٢)</sup>.

وأثناء هذه المفاوضات قدمت عساكر الأطراف إلى معسكر صلاح الدين، مما وطد موقفه ورفع معنوياته، وأول ما وصل كان عسكر الموصل، ثم عسكر مصر، وكذلك قدم الملك المنصور ابن تقي الدين عمر<sup>(٣)</sup>.

استمر ريتشارد في طلب الصلح، ورسله لا ينقطعون في طلب الفاكهة والثلج «وكان السلطان يمه بذلك، ويقصد كشف الأخبار بتواتر الرسل»<sup>(٤)</sup>. ثم أرسل ريتشارد إلى الملك العادل يطلب منه أن يحاول مع السلطان أن يهبه عسقلان «وأمضي ويبقى هو مع هذه الشردمة اليسيرة، يأخذ البلاد منهم، فليس لي غرض إلا إقامة جاهي بين الفرنجة، وإن لم ينزل السلطان عن عسقلان، فيأخذ لي منه عوضاً عن خسارتي على عمارة سورها»<sup>(٥)</sup>.

وهذا يعني أن ريتشارد كان يهيمه بالدرجة الأولى الحفاظ على سمعته بين بني قومه، ولا يهيمه كثيراً استيلاء المسلمين على الأراضي التي بحوزة الصليبيين بعد أن يغادر المشرق. وكذلك فإن طول فترة المفاوضات أثبتت أن الثقة التي يوليها أحد الطرفين كانت شكلية لاتتعدى المجاملات الدبلوماسية، ولحاجتهما الحقيقية إلى إيقاف القتال. وبالنسبة لصلاح الدين كان محققاً في عدم الثقة بالقائد الصليبي. فكم من مرة أقسم هذا القائد الصليبي، أو ذاك الملك على عدم امتشاق السلاح بوجه صلاح الدين، لكن ما أن تسنح له الفرصة، إلا ويحنت يمينه، حسب القانون الصليبي في نكث العهود الذي يقول بأن لا يمين يلزم الصليبي تجاه المسلم (الكافر!)<sup>(٦)</sup>.

(١) النوادر، ٢٢٨. الروضتين، ٢٠٢/٢.

(٢) النوادر، ٢٢٨. الروضتين، ٢٠٢/٢. مفرج الكروب، ٤٠٠/٢.

(٣) النوادر، ٢٣٠. الروضتين، ٢٠٢/٢. مفرج الكروب، ٤٠١/٢.

(٤) النوادر، ٢٣١. الروضتين، ٢٠٣/٢.

(٥) النوادر، ٢٣٢. الروضتين، ٢٠٣/٢. مفرج الكروب، ٤٠٢/٢.

(٦) د. عبدالقادر اليوسف، علاقات بين الشرق والغرب، ص ١١٤.

وعلى أي حال ففي سير هذه المفاوضات الطويلة، طلب رسل ريتشارد الاجتماع بالأمير بدرالدين دلدرد الذي كان يقود اليك، وكان على علاقة طيبة مع الملك الصليبي، فأذن له السلطان بذلك. وذهب دلدرد إلى ريتشارد، وعاد ليخبر «أن الملك تنازل عن عسقلان، وعن طلب العوض عنها، وقد صح مقصوده في الصلح»<sup>(١)</sup>، عندها أحضر السلطان ورقة ثبت عليها حدود المملكة الصليبية التي تبقى بيدهم، وذكر ضمنها المدن التالية مع أعمالها، وهي عكا وحيفا ويافا وقيسارية، وأخرج منها الرملة واللد وبيني ومجدل يابا وكذلك الناصرة وصفورية. وأنفذ الورقة بيد رسوله ليقول للملك الانكليزي «هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم، فإن صالحتم على ذلك فمبارك، قد أعطيتكم يدي، فينفذ الملك من يحلف، ويكون ذلك في بكرة غد، وإلا فليعلم أن هذا تدفيع ومماطلة، ويكون الأمر قد انفصل بيننا»<sup>(٢)</sup>.

إلا أن ريتشارد سرعان ما أنكر تنازله عن العوض عن عسقلان، فكان أن تنازل له صلاح الدين عن الرملة واللد. «ورأى السلطان في ذلك مصلحة لما غشي الناس من الضعف، وقلة النفقات والشوق إلى الأوطان، ولما شاهده من تقاعدهم وتقاعسهم في أخذ يافا. فخاف أن يحتاج إليهم فلا يجدهم، فرأى أن يجمعهم مدة حتى يستريحوا، وينسوا ما آل إليه وضعهم، أما السلطان فيقوم خلال هذه الفترة بتعمير البلاد، ولاسيما مدينة القدس، بتحسينها ثم شحنها بما يقدر عليه من الأسلحة»<sup>(٣)</sup>. ثم أضاف صلاح الدين إلى بنود الصلح الشرطين التاليين:

أولاً: تكون عسقلان خراباً. ويتفق الطرفان على خرابها خشية أن يأخذوها عامرة فلا يخربوها. ثانياً: «دخول بلاد الاسماعيلية» أي اعتبار المناطق التي في حوزة الطائفة الاسماعيلية جزءاً من البلاد الإسلامية التي تشملها المعاهدة. ومقابل هذا اشترط الصليبيون دخول أنطاكية وطرابلس ضمن معاهدة الصلح.

واستقرت القاعدة على أنهم يحلفون بكرة الأربعاء ٢٢ شعبان ٥٨٨هـ/ ٢ أيلول ١١٩٢م، لأنهم كانوا قد أكلوا شيئاً يوم الثلاثاء، ولم يكن من عادتهم الحلف بعد الأكل. وصباح اليوم المذكور قدم جموع الامراء، واعتذروا عن غياب ريتشارد، لأن الملك لا يحلفون عادة، لذا اکتفوا بأن «أخذوا يده وعاهدوه» واقتنع السلطان بالعدر، وكان ضمن من حضر من زعماء الصليبيين الكندي (الكونت هنري دي شامبيني) ابن أخت ريتشارد، والهمفري بن الهمفري وأمير أنطاكية وطرابلس وغيرهم من كبار الامراء الصليبيين، وبالبيان أبيلين (ابن بارزان) ومقدمات الاستتارية والداوية. وفي صباح الخميس حضر رسل السلطان وأخذوا يده، وعاهدوا على الصلح بموجب القاعدة المستقرة،

(١) النوادر، ٢٣٢. الروضتين، ٢٠٣/٢. مفرج الكروب، ٤٠٣/٢.

(٢) نفس المصادر والصفحات.

(٣) النوادر، ٢٣٣.

واقترحوا أن يحلف كبار القادة وهم الملك العادل والملك الأفضل والملك الظاهر وسيف الدين علي بن أحمد المشطوب ويدرالدين دلدردم البياروقي، والملك المنصور ابن تقي الدين عمر وابن المقدم وغيرهم<sup>(١)</sup>. وكان أمد الاتفاقية ثلاث سنين<sup>(٢)</sup>. أو ثلاث سنين وثلاثة أشهر<sup>(٣)</sup> أو ثلاث سنين وثمانية أشهر<sup>(٤)</sup>. ويبدأ مفعول المعاهدة مع بداية شهر أيلول الموافق ٢١ شعبان ثم أمر المنادي أن ينادي في الأماكن العامة «ألا أن الصلح قد انتظم، فمن شاء أن يدخل إلى بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا أن يدخل إلى بلادهم فليفعل»<sup>(٥)</sup>.

هكذا تمت المصالحة بين الفريقين، دون أن يلتقي زعيمهما وجهاً لوجه، لا حرباً ولا سلاماً. ثم سير السلطان مائة نقاب لتخريب سور عسقلان، ولاخراج الفرنج منها. وكان يوم الصلح يوماً مشهوداً غشي الناس من الطائفتين من الفرح والسرور، ما لا يعلمه إلا الله تعالى<sup>(٦)</sup>.

يعود ابن شداد ليعلم مرة أخرى أن صلاح الدين لم يكن من رأيه قيام الصلح، ويقول: والله العظيم إن الصلح لم يكن من ايثاره، فإنه قال لي في بعض محاوراته في الصلح: أخاف أن اصالح وما أدري أي شيء يكون مني، فيقوى هذا العدو، وقد بقيت لهم هذه البلاد، فيخرجوا لاستعادة بقية بلادهم، وترى كل واحد من هؤلاء - يقصد امراءه - قد قعد في رأس حصنه. ثم يردف قائلاً: لكنه رأى المصلحة في الصلح لسامة العسكر، ومظاهرتهم بالمخالفة، وكان مصلحة في علم الله تعالى، فإنه اتفقت وفاته بعيد الصلح، فلو كان اتفق ذلك في أثناء الوقعات لكان الإسلام في خطر<sup>(٧)</sup>. يظهر مما سلف أن صلاح الدين أذعن للتوقيع على المعاهدة لجملة أسباب منها:

أولاً: لم يستطيع جيشه من أحرار أي نصر على الصليبيين منذ أمد غير قصير، واضطر إلى اللجوء إلى أسلوب الدفاع، وركز جهوده على تحصين بيت المقدس.

ثانياً: الضجر والتعب الذي أصاب المحاربين المسلمين، وابتعادهم عن أوطانهم، وهذا كان من عيوب

(١) النوادر، ٢٣٥. الروضتين ٢/٣٠٢. مفرج الكروب ٢/٤٠٤. الانس الجليل ٣٩٠.

(٢) النوادر، ٢٣٣.

(٣) الروضتين ٢/٣٠٣. مفرج الكروب ٢/٤٠٤. ابو الفداء، المختصر، ١٠٥/٥. السلوك، ١١٠/١. صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢١. شفاء القلوب، ١٧٧.

(٤) الفتح القسي، ٦٠٥. الكامل، ٨٥/١٢. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ٢٢٣. الغساني، الملك الأشرف عماد الدين ابو العباس اسماعيل، المسجد المسبوك والجمهر المحكوك، دار التراث الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، دار البيان، بغداد، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥، ص ٢١٧. ويخطئ ابن كثير حين يذكر ان الفترة حددت بثلاثين سنة وستة أشهر. البداية والنهاية، ٣٥٠/١٢.

(٥) النوادر، ٢٣٥. مرآة الزمان، ٤١٩/٨. الروضتين، ٢٠٤. وفيات الاعيان، ٢٠٠/٧. مفرج الكروب، ٤٠٥/٢. النجوم الزاهرة، ٤٨/٦. الانس الجليل، ٣٩٠.

(٦) النوادر، ٢٣٥. مرآة الزمان، ٤١٩/٨. النجوم الزاهرة، ٤٨/٦. الانس الجليل، ٣٩٠.

(٧) النوادر، ٢٣٥. الفتح القسي، ٦٠٤. الروضتين، ٢٠٤/٢. وفيات الاعيان، ٢٠٠/٧. مفرج الكروب، ٤٠٥/٢. النجوم الزاهرة، ٤٨/٦.

الجيش الأيوبي الذي كان قوامه جيوش امراء الإقطاع، فإضطر صلاح الدين إلى عقد صلح الرملة لأنه «رأى ذلك مصلحة لما أصاب الناس من الضعف والشوق إلى الأوطان» (١).

وكان من ضمن عيوب الجيش أن امراءه كانوا يكلفون بالانفاق على كتائبهم التي تدخل ضمن الجيش العام، ويمون الجنود أنفسهم بما يحتاجون إليه من معدات ومواد تموينية، فكانوا يقعون أحياناً تحت طائلة الديون، وكان هذا أحد أسباب ضجرهم (٢). أو ما صار المؤرخون يسمونه بـ«قلة النفقات» وما «علاهم من الديون» (٣).

هذا ولما تم الصلح، واستقرت القواعد، أعطى السلطان الناس دستوراً للعودة إلى أوطانهم، فكان أول من سار هو عسكر أربيل في مستهل شهر رمضان، ثم سار بعده عسكر الموصل وسنجار وعسكر حصن كيفا. وهنا كانت نهاية حروب صلاح الدين، ونهاية الحملة الصليبية الثالثة، التي خرجت بمكسب ضئيل لا يقارن بضخامة الحملة، وهذا المكسب هو عكا التي أخذها الصليبيون على أشلاء الأسرى المسلمين، ويعد موت حوالي ستين ألف صليبي (٤).

أما صلاح الدين فكأنه كان على علم بدنو أجله، وما سيحدث من خلاف بعد وفاته، بين أهل بيته وأمرائه، وإهمالهم لشؤون الحرب وتنظيم الجيش والبحرية، وما كان يقع من خلاف بين جنده وامرائهم، ولاسيما بين الأكراد والأتراك (٥). وفعلاً حصل ما توقع إذ توفي السلطان بعد حوالي ستة أشهر. فقد غادر مع خواصه القدس ليستقر في دمشق، حيث وافاه الأجل يوم ٢٧ صفر ٥٨٩هـ/٣ مارت ١١٩٣م.

(١) النوادر، ٢٣٣.

(٢) النوادر، ٢١٩. الروضتين، ٢/٢٠٠. مفرج الكروب، ٢/٣٩١.

(٣) النوادر، ٢٣٣.

(٤) سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب، ص ٣٢٠.

(٥) النوادر، ٢١٧. الكامل، ١١/٥١٩. الروضتين، ٢/١٩٩.

## الفصل الرابع أسلحة الجيش الأيوبي

مدخل

خزانة السلاح وصناعة الأسلحة

أنواع الأسلحة

أولاً - الأسلحة الفردية:

١- السيف. الخنجر. النماج.

٢- الرمح. الفأس. اللت. التبت والجماق.

٣- القوس وأنواعها:

أ- قسي الزيار

ب- قسي الجروح

ج- الزنبورك

د- قوس الرجل

هـ- قوس الحسبان

و- القوس المتعددة الاتجاه

ز- قوس قاذفة النفط

٤- المقاليع.

ثانياً - الأسلحة الثقيلة:

١- النفط وقاذفات النار.

٢- الآلات الجماعية:

أ- المنجنيق

ب- الدبابة وملحقاتها

ثالثاً - أسلحة وقاية الجسم:

١- الترس.

٢- أغطية الجسم:

أ- المغفرة

ب- الجوشن

ج- التجفاف.

رابعاً - المثلثات.

خامساً - العجلات.

## مدخل

إن دراسة الأسلحة والمعدات الحربية في أي مرحلة من مراحل التاريخ لتعكس بوضوح مستوى تقدم الصناعات أي مستوى تقنية أو (تكنولوجيا) السلاح في ذلك العصر. وما يلحق بذلك من استخراج المعادن الضرورية وصهرها وتنقيتها وتخليطها وقطع الأخشاب وغيرها. وقد تكون هذه المعادن متوفرة في بعض المناطق البعيدة عن مراكز الاستيطان، عندئذ ينبغي تصفيتها ونقلها إلى مراكز تصنيعها، أو القيام بتصنيعها في نفس منطقة استخراج المعادن أي قرب المناجم، أو قرب الغابات، ثم إرسال الأسلحة المصنعة إلى المحاربين أو إلى أولي الأمر في المدن.

أما الصرف على صناعة الأسلحة أو تمويلها، فلا نعرف عنه شيئاً، وفيما إذا كانت الدولة تتحمل نفقات هذه العمليات، أو أنها كانت تمول الجهات المختصة لتقوم بصناعتها. وقد عالج المؤرخان المصريان عثمان النابلسي والمقريزي بعض جوانب هذا الموضوع، فقد ذكر الأول «أن الحراج - الغابات - حكمها حكم المعادن، وهي لبيت مال المسلمين، ما لأحد فيها ملك ولا اختصاص»<sup>(١)</sup>. وذكر المقريزي أن ديوان صلاح الدين قرر أن تكون غابات مصر ملكاً للدولة، ولاسيما غابات مناطق بهنسا وسفط وأشمونين وأسيوط وأخميم وقوص<sup>(٢)</sup>.

### خزانة السلاح وصناعة الأسلحة:

إن المؤرخين الذين دونوا تاريخ العهد الصلاحي، لم يولوا الاهتمام الكافي لمؤسسات الدولة ونظمها، ربما باستثناء ابن ممتي. عكس ما فعله مؤرخو مصر في عهد المماليك، من أمثال النويري والقلقشندي والمقريزي وابن تغري بردي والسيوطي وغيرهم. فالتاريخ الذي دونه مؤرخو عصر صلاح الدين، كان تاريخ فعاليات هذا القائد العسكرية وجيشه وفعاليات أقاربه وامرائه، ولهذا لا نعثر على نصوص تخص قضايا مؤسسات الدولة وتنظيم أنشطتها، من قبيل ديوان الجيش وخزانة السلاح وتنظيم اقتصاديات الدولة في الحرب والسلم، على الرغم من أن أية دولة لا يمكن أن تخلو من مؤسسات أو دواوين تنظيم مختلف شؤونها. وإذا اعتمدنا على الكتب المصنفة في العهود السابقة أو اللاحقة للعهد الأيوبي فليس من المحتم أن يكون ما فيها مطابقاً لما كان موجوداً في هذا العهد، ولاسيما ونحن لم نعثر إلا على القليل من النصوص الخاصة بتنظيمات دولة نورالدين محمود أو الدولة الأتابكية.

يقول ابن ممتي: إن خزائن السلاح كان فيها مستخدمون، وتجلب إليها ما تحتاج إليه من خشب

(١) لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية، ص ٤٨.

(٢) الخطط، طبعة بولاق، ١٩٣/٢.

وحديد وعقب وسلوخ وأصباغ وآلات يعملون منها ما يؤمرون به من آلات السلاح على اختلاف أوصافها وتباين أصنافها<sup>(١)</sup>.

أما القلقشندي فيقول: إن خزانة السلاح هي المعبر عنها في زمننا (زمن المماليك) بالسلاح خاناه، وتوضع فيها مختلف صنوف السلاح<sup>(٢)</sup>. ثم يعدد القلقشندي أنواع الأسلحة التي كانت تحويها خزانة السلاح المصرية في العهد المملوكي. وفي مكان آخر يطلق على خزانة السلاح اسم بيت السلاح وكذلك «الزرد خاناه» ومعناها بيت الزرد، لما فيها من الدروع الزرد، وتشتمل على أنواع السلاح من السيوف والقسي العربية، والنشاب والرماح والدروع... وتصنع فيها الأسلحة اللازمة للجيش بحيث يكفي حاجة مصر «ويحمل منها إلى جميع بلاد الشام وتعمر بها البلاد والقلاع»<sup>(٣)</sup>.

وكان في خزانة السلاح «من الصناعات المقيم بها لإصلاح العدد وتجديد المستعملات جماعة كثيرة، ويسمى صانع ذلك (الزرد كاش) وهي لفظة أعجمية معناها صانع الزرد»<sup>(٤)</sup> وإضافة إلى صنع الأسلحة، وما تحتاج إليه من صقل وشحذ وجلاء وتشقيف وغيرها من الأعمال لصيانة وإدامة الأسلحة<sup>(٥)</sup>.

أما المتولي لشؤون الخزانة فكان يسمى (ناظر خزائن السلاح) وواجبه الاشراف على امور السلاح، وتدوين ما يدخل إلى الخزانة من سلاح وما يخرج منه<sup>(٦)</sup>.

وبهذا الصدد، ونحن نعالج موضوع صناعة الأسلحة نقول: إن استمرار حالة الحرب مع الغزاة الصليبيين التي عاشتها المنطقة، ولاسيما بلاد الشام، أدى إلى قيام صناعات حربية نشطة خاصة وأن هذه المنطقة تتوافر فيها بعض موادها الأولية إلى جانب فئة من الصناعيين المهرة، فبلاد الشام عرفت بتوفر مادة الخشب فيها من غابات الجبال الكثيفة، ولاسيما أشجار الصنوبر<sup>(٧)</sup> والسنديان والبلوط والزان وغيرها، إلا أن المنطقة عرفت بقلّة وجود الحديد فيها، وقد عوض المسؤولون - ولاسيما صلاح الدين - عن هذا النقص باستيراد الحديد من إيطاليا<sup>(٨)</sup> وغيرها. واقتصر وجوده على بعض أجزاء الشام والموصل، فقد ذكر المقدسي البشاري لدى كلامه عن الشام بقوله: «وبه معادن حديد في جبال بيروت»<sup>(٩)</sup> ومن الراجح أن هذا الحديد ظل يستخرج من مناجمه في عهد الحروب الصليبية، سواء من

(١) قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية، طبعة مصر ١٩٤٣، ص ٣٥٤.

(٢) صبح الاعشى، ٤٧٣/٣.

(٣) صبح الاعشى، ١٨٣/٤.

(٤) ن م، ص ١١/٤ - ١٢.

(٥) النويري، نهاية الارب ٢٢٨/٨، ٢٠٠/٦ وما بعدها.

(٦) صبح الاعشى، ص ٣٢.

(٧) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، طبعة المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ١٩٦٢، ح ٢، ق ٢، ص ١٠١.

(٨) Claude Cahen, Les changements techniques, p. 118.

(٩) المقدسي البشاري، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، طبعة بريل، ليدن، ١٩٠٦، ص ١٨٤. ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ن. ص.

قبل المسلمين أو من قبل الصليبيين حين احتلوا هذا الجزء. هذا إضافة إلى غنى منطقة الموصل بالحديد والقيبر والنفط الأبيض الضروري لقاذفات النار<sup>(١)</sup>.

وكانت الموصل تمد صلاح الدين بين فترة وأخرى، بما تجود به أرضها وأيدي صناعاتها، فكانت ترسل إليه «أحماً من النفط الأبيض، ومن التراس والرماح، ومن كل جنس أحكمه وأقومه وأجوده»<sup>(٢)</sup>. أما مصر فقد كانت غنية بأنواع من الخشب التي استخدمت في صناعة السفن. ويذكر القلقشندي أن الأسلحة كانت تصنع في مصر ومنها تصدر إلى الشام<sup>(٣)</sup>. ورغم أن هذا المؤرخ يتحدث عن عهد المماليك، إلا أن من المحتمل جداً أن ينطبق كلامه على العهد الأيوبي كذلك.

والملاحظ في موضوع تاريخ الأسلحة أن المؤرخين قد صبوا اهتمامهم بالدرجة الأولى على أسماء وأنواع الأسلحة وكيفية صنعها وكذلك أول استخدام هذا السلاح أو ذاك في التاريخ، في حين أنهم لم ينظروا إلى أماكن صنعها إلا نادراً، ولهذا أصبحت معرفتنا بهذه المسألة من الأمور العسيرة، هذا إذا استثنينا السيف وأسلحة قليلة أخرى، وسنتحدث عنها في أماكنها.

ومن المحتمل أن الأسلحة الثقيلة كانت تصنع في مدن الشام، إضافة إلى مصر رغم افتقارنا إلى نص يؤكد ذلك، فهذا النوع من الأسلحة كالمنجنيقات والدبابات والأبراج والسلاالم ورأس الكيش وغيرها، كان أساس صنعها جميعاً هو مادة الخشب، بالدرجة الأولى، المتوفرة بكثرة في بلاد الشام ومصر، ومن المستبعد أن تستورد هذه الآلات بشكلها المصنوع من مكان آخر، في مصر والشام والجزيرة، لثقلها وصعوبة نقلها، وارتفاع أثمانها. هذا ويذكر اسامة بن منقذ نوعاً من السروج الذي كان يصنع في غزة وينسب إليها<sup>(٤)</sup>.

ويشير الحسن بن عبدالله في موضوع القسي ويقول: إن ما يصنع في دمشق منها كان «أجود من غيرها»<sup>(٥)</sup>.

(١) المقدسي، ص ١٤٥.

(٢) الفتح القسي، ٣٥٠. الروضتين، ١٤٨/٢. مفرج الكروب، ٣٠٧/٢.

(٣) صبح الاعشى، ١٨٣/٤.

(٤) الاعتبار، ص ٢٨.

(٥) آثار الأول، ص ١٦٠.

## أنواع الأسلحة:

ونقسمها إلى عدة أصناف منها: أسلحة فردية خفيفة، وأسلحة جماعية ثقيلة، ثم أسلحة وقاية الجسم، وأخرى كيميائية.

### أولاً - الأسلحة الفردية

#### ١- السيف:

السيف هو أشهر الأسلحة التي استخدمت في المعارك كافة على طول التاريخ، وقد استعمله العرب قبل الإسلام، وظل على وضعه بعد الإسلام، حيث صار من أشرف وأمضى الأسلحة بيدهم، فكان القوة الضاربة في يد الجند، يهجمون به على أعدائهم ويوجهون إليه طعناتهم، ويبقرون به خيولهم، فكان أعظم الأسلحة ذكراً وأسمى وصفة، فقد ورد ذكره مراراً في القرآن الكريم والحديث الشريف، وكان العرب يعشقونه ويجلونونه، حتى إنهم أطلقوا عليه أسماء متعددة تجاوزت المائة، وكانت تلك الأسماء صفات، والصفات تكثر عادة للشيء حين تزيد العناية والتغني بحامده وآثاره<sup>(١)</sup>.

وكان السيف ينسب تارة إلى صانعه، وتارة «إلى الموضع الذي طبع فيه، فيقال فيما طبع بالهند مهند وهندي، وفيما طبع باليمن: يمان، وفيما طبع بالمشارف - وهي من قرى العرب، قريبة من ريف العراق - قيل له: مشرفي»<sup>(٢)</sup>.

وكان الصانع يبالغون في تحلية السيوف. فتارة ترصع بالجواهر، وتارة يحلون بها بالذهب أو الفضة. وإن كان الاعتبار إنما هو بالسيف لا بالحلية<sup>(٣)</sup>.

واشتهرت بلاد الهند بأنها كانت موطن صناعة السيوف وتصديرها، وتصدير الحديد والفولاذ إلى الخارج لصناعته، وقد كانت البلاد الإسلامية تستورد هذه المواد من الهند وينقلها التجار إلى دمشق لصنع السيوف الدمشقية، إضافة إلى وجود الحديد في بعض أقسام بلاد الشام، كما ذكرنا<sup>(٤)</sup>. فكان يستخرج من مناطق الفرزل ودوما والشوير ومشقرة، وكذلك في مشارف حوران والقلمون<sup>(٥)</sup>. ويرسل إلى دمشق لصنع السيف الذي ظلت هذه المدينة تفتخر بما يصنع فيها من السيوف الممتازة، التي تنقش على نصالها آيات قرآنية وقصائد وشعارات حماسية تدعو إلى حمل السلاح والاندفاع لمقاتلة العدو.

(١) محمد فرج، المدرسة العسكرية الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦٩، ص ٢٤٤.

(٢) كتاب، خزانة السلاح، مؤلف مجهول، مخطوط مصور في مكتبة الدراسات العليا، كلية الآداب ٣٢٨، جامعة بغداد، رقم ١٢٣٢ ورقة ٢٤. صبح الاعشى، ١٤٠/٢ في حين يذكر ياقوت الحموي أن المشارف قرى قرب حوران، منها بصرى من الشام، إليها تنسب السيوف المشرفة. معجم البلدان، مادة المشارف.

(٣) صبح الاعشى، ١٤٠/٢.

(٤) المقدسي، احسن التقاسيم، ١٨٤.

(٥) د. عبدالرحمن زكي، السيف في الإسلام، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٥٧ ص ١٠٥.

ويقول د. زكي: إن هذه المدينة ظلت محتفظة بشهرتها في صناعة السيوف إلى أن فتحها تيمورلنك عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م وأجلى منها بعض الأعيان والعمال الماهرين في مختلف الصناعات، ومنهم صناع السيوف، وأسكنهم في مدينة سمرقند<sup>(١)</sup>. وإضافة إلى دمشق كانت في القاهرة والموصل مصانع للسيوف<sup>(٢)</sup>.

ويعود د. زكي إلى الكلام عن السيف الدمشقي ويرى أن الشهرة التي نالتها دمشق في صناعة السيوف قد بولغ فيها كثيراً على عهد الحروب الصليبية، وأن صناعة السيوف الفاخرة لم تكن وقفاً عليها، وأنها كانت على وجه خاص موطناً لصناعة السيوف... ومما يؤكد قولنا - كما يقول - إن المراجع الأدبية والتاريخية والتحف التي وصلت إلينا، لم تسجل اسم أي سلاح دمشقي، كما أننا لا نعرف إلى الآن أي سيف بديع وممتاز في مجموعات السيف المشهورة، يمكن نسبته على وجه التحقيق إلى دمشق<sup>(٣)</sup>.

ونرى أن د. زكي يببالغ في غمط مكانة دمشق في صناعة هذا السلاح، إضافة إلى ما في كلامه من تناقض واضح مع كلامه السابق. ولكن يبدو لنا أن هذه المدينة صارت تفقد مكانتها السابقة شيئاً فشيئاً، ليس في عهد تيمورلنك، بل قبل عهد صلاح الدين كذلك، إذا صح كلام الطرسوسي الذي يقول فيه إن السيف «منه ما يكون بالمغرب والأندلس وبلاد الروم، ويوجد منه بالهند والصين ما هو مختار فريد، وكذلك يوجد منه بالمغرب... وأما بديار مصر فالموجود من معادنه غير مرغوب كثيراً<sup>(٤)</sup>». وهذا يعني أن بلاد الشام ومصر لم تكن لهما أيام صلاح الدين الذي عاصره الطرسوسي، مكانة تذكر في صناعة هذا السلاح<sup>(٥)</sup> وهذا يعني أن السيف كان يستورد من خارج هذين الاقليمين. ونجد أن الطرسوسي يذكر أن صلاح الدين شهد تطور صناعة السيوف فبلغت مستوى رفيعاً من الرقي والتعقيد، بإدخال مواد متعددة في تركيبها «حتى أن منه ما يركب فيفعل فعل المغناطيس في جذب الحديد<sup>(٦)</sup>» فتضاف إليه شبكة من العقاقير ما يجفف رطوبته ويكسبه يساً يسيراً تعتدل به طبيعته «أي يصبح أقل تعرضاً للصدأ» وتنقى الترايبية المفسدة التي خالطت معدن الحديد ليشرق بذلك نوره<sup>(٧)</sup>. ثم يعدد هذا المؤلف المختص بوصف مختلف أنواع الأسلحة أصنافاً من السيوف، ويحدد نسب المواد الداخلة في صناعة كل منها سواء أكانت مواد نباتية أو كيميائية مع ذكر نوع

(١) د. زكي، السيف، ص ١٠٦. احسان هندي، الحياة العسكرية، ص ٧٩.

(٢) د. حسن حبشي، نورالدين والصليبيون، ١٥٥.

(٣) د. زكي، السيف، ص ٢١١.

(٤) التبصرة، ١٩٩.

(٥) في حين يذكر كلود كاهين، ان الحديد الذي كان يستعمل لصنع الاسلحة يسمى (بحديد دمشق) انظر:

Claude Cahen, Les Changement techniques militaires., p. 118.

(٦) التبصرة، ورقة ١٩٩.

(٧) التبصرة، ورقة ٢٠٠.

الحديد. والسيف الفاخر هو ذلك الذي يمتاز بصلابته ومقاومته لتأثيرات الجو، ويكون ذلك حين تكون نسبة الفولاذ فيه عالية، ونسبة الشوائب قليلة «فهو أذكى ما يصنع منه وأقواه، وأشرف ما يعمل من أصنافه وأعلاه»<sup>(١)</sup>.

ومن المواد التي تدخل في صناعته مواد غريبة في أسمائها وهي: «اهليلج كابلي، بلبليج، مغنيسيا، الشابرقان، ذرايح<sup>(٢)</sup>، سقمونيا، سنبد، وتنكار<sup>(٣)</sup>» وكذلك (قشور رمان حامض، حرم، عفص، بلوط، وصبير)<sup>(٤)</sup> وثمة مواد أخرى تستعمل في سقي السيف بعد صنعه ليكون أشد قطعاً وأكثر جودة، بحيث يمكنه من قطع كل شيء حتى الزجاج، كما يقول المؤلف، ومن هذه المواد: (فطر الحية، عصارة شجر العوسج، دردي الخمر، زيد البحر، نشادر، عصارة شجر البنج الرطب، ومواد أخرى غيرها).

إن هذه المواد المتنوعة، وتفصيل شرح كيفية صنع السيف لتدل على مدى التطور الذي طرأ على صناعة السيف. ونذكر على سبيل المثال أحد أصناف هذه السيوف: يؤخذ من الحديد الترماهن، وإن كان من رؤوس المسامير القديمة كان أجود، فيلقى عليها وزن سبعة عشر درهماً أهليلج كابلي ولبليج من كل واحد بالسوية، ويوضع الحديد في قصعة ويغسل بالماء والملح غسلاً نقياً، ثم يلوث بذلك الدواء، ويوضع في بودقة، ويذر عليه درهم ونصف مغنيسيا وينفخ عليه في المسبك، ويرش عليه ماء البيض ويترك أياماً ليبرد، ويكون سيفاً مسموماً قاتلاً<sup>(٥)</sup>. ونوع آخر من السيوف يصنع بأخذ ثلاثة أرطال حديد نرماهن، ومن الشابرقان رطل، ويوضع المزيج في بودقة ويلقى عليه ما زنته خمسة دراهم مغنيسيا، وما مقداره كف (قبضة) قشور رمان حامض، وينفخ عليه حتى يذوب في المسبك، وترش عليه البيضة، فتحصل على سيف بتار.

هذا وقد حصل تغير على طريقة حمل السيف قبل عهد صلاح الدين بقليل، ثم صار تقليداً سار عليه الحكام، فبعد أن كان يحمل على الأكتاف ابتدع سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي طريقة شده في الأوساط<sup>(٦)</sup>.

والواقع أن بعض الأسلحة كان كثير الاستعمال إلى درجة كبيرة بحيث لم ير المؤرخون حاجة إلى ذكرها، ولم يكن ثمة محارب مهما كانت صفتها، إلا ويحمل معه بعض الأسلحة وخاصة السيف، أو ما يقوم مقامه من الأسلحة الخفيفة مثل:

(١) ن. م، ورقة ١٩٩.

(٢) ذرايح: من السموم القاتلة، المنجد، ص ٢٣٤.

(٣) لم نعثر على معاني هذه الألفاظ.

(٤) التبصرة، ورقة ٢٠٠.

(٥) التبصرة، ورقة ٢٠٠ ب.

(٦) الكامل، ١٣٨/١١. أبو الفداء، المختصر، ٣١/٤. صبح الاعشى، ٣٩/٤.

## ٢- الخنجر:

وهو سلاح شبيه بالسيف المقوس، إلا إنه أصغر منه حجماً، حتى إن منه ما يحمل في الجيب. وكان يحمل عادة في الوسط، ولا يزال هذا السلاح يستعمل على نطاق ضيق في بعض المناطق من جهات العالم، ولاسيما في البلاد الشرقية من قبل الأقوام الجبلية وسكان البوادي خاصة، وهو معروف على نطاق واسع. وسلاح شبيهه بالخنجر إلا أنه لا يرد ذكره في المصادر إلا نادراً، هو (المنجاة) أو (النيمجه) ويعني بالفارسية والكردية (النصفي) أي نصف سيف. وهو خنجر مقوس يشبه السيف القصير<sup>(١)</sup> وكان البعض من المحاربين يتسحلون به، مما يذكر أن صلاح الدين قتل الأمير الصليبي الشرس أرناط (رينو دي شاتيون) صاحب الكرك يوم انتصار حطين بهذه الآلة التي كان يحملها معه.

## ٣- الرمح:

الرمح سلاح خاص بالطعن استعمله المسلمون والعرب قبل الإسلام، في معاركهم كافة، ويتألف من عود يتراوح طوله بين ٤ - ٧ أذرع، في رأسه حربة المعدنية، وكانت الرماح ضربان، أحدهما متخذ من القنا، وهو قصب مسدود الداخل، يثبت ببلاد الهند خاصة، يقال للواحدة قناة، ويقال لمفاصلها أنابيب ولعقدها كعوب، فإن كان قد نشأ في نباته مستقيماً بحيث لا يحتاج إلى تثقيب قيل له الصعدة. وإن احتاج إلى تقويم قيل له: مثقف<sup>(٢)</sup>.

ويوصف القنا بالخطي، نسبة إلى الخط، وهي بلدة بالبحرين تجلب إليها الرماح من الهند، وتنتقل منها إلى بقية ديار العرب والمسلمين. والضرب الثاني من الرماح ما يتخذ من الخشب كالزان ونحوه ويسمى الذوايل<sup>(٣)</sup> ويقول ابن سيده إنها دعيت بذوايل لبيسها ولصوق قشرها<sup>(٤)</sup>. أما الحديد الذي في أعلى الرمح فيسمى السنان.

والرمح كان سلاحاً خاصاً بالفرسان، إلا أن المشاة حملوه أيضاً، وكانت رماحهم أقصر من رماح الفرسان، ويسمى المزراق<sup>(٥)</sup>. وكانوا يحسنون استعمالها رمياً وطعناً<sup>(٦)</sup>.

وثمة رمح شاع استعماله في فترة الحروب الصليبية سمي بالقنطارية Kontarian ودعي بهذا الاسم لأنه يصنع من نوع من الخشب يحمل هذا الاسم باليونانية<sup>(٧)</sup>.

(١) انظر: مفرج الكروب، ١٩٥/٢. د. محمد التونجي، المعجم الذهبي، ص ٥٨٣.

(٢) صبح الاعشى، ١٤٠/٢.

(٣) صبح الاعشى، ١٤٠/٢.

(٤) المخصص، ط المطبعة الكبرى الاميرية، ببلاق مصر، ٣١/٦.

(٥) التبصرة، ورقة ١٠٥. ابن الازرق، بدائع السلك في طبائع الملك، منشورات وزارة الاعلام، بغداد ١٩٧٧. ح ١، ص ١٥٩.

(٦) نعمان ثابت، الجندية في الدولة العباسية، ط ٢، مطبعة أسعد، ١٩٥٦، ص ١٧٤.

(٧) مفرج الكروب، ١٨٣/١ هامش ٣. د. زكي، السلاح في الإسلام، ص ٤٧.

وكانت القنطاريات معروفة لدى الصليبيين، فحين طلب الخليفة الفاطمي العاضد من نورالدين أن يسحب الأتراك المشاركين في الحملة إلى مصر والاكتفاء بصلاح الدين وخواصه. رد عليه نورالدين قائلاً بأن قنطاريات الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك<sup>(١)</sup>. وضمن أحداث ٥٧٥هـ/١١٧٩م يتحدث الذهبي قائلاً «نزل صلاح الدين على بانياس، وأغارت سراياه على الفرنج، ثم أخبر بمجيء الفرنج فبادر في الحال وكبسهم، فإذا هم في ألف قنطارية وعشرة آلاف راجل»<sup>(٢)</sup>.

ويفهم من كلام الطرسوسي وكأن القنطاريات كانت من الأسلحة الخاصة بغير المسلمين، فيقول «وينو الأصفر (!) ومن جانسهم من الروم يعتمدون رماحاً من الخشب الزان والشوح وما شاكله، ويسمونهم القنطاريات، ليست بالطويلة، ويطنعون بها، ومن فرسانهم من تقربص بها، وهو أن يجعل طرفها في قربوص<sup>(٣)</sup> سرجه ويطعن وأستنها قصار عراض كهيئة البلطية وما جرى مجراها»<sup>(٤)</sup>.

وقد صنفت كتب عديدة في كيفية استخدام الرمح، سواء أكان المقاتل من الفرسان أو من المشاة<sup>(٥)</sup>. وتحدث الطرسوسي عن أنواع من الرماح كانت متداولة أيام صلاح الدين<sup>(٦)</sup>، وقال إن أحسن الطعنات هي بالرمح الأصم القصير، الذي يكون سنانه في صورة البلطية في التحديد والتدوير، صغيراً أصغر ما يكون. والظاهر أن نوعاً من الرماح كان يرمى بشدة كما يشد السهم بتوتيره بأن «تجعل فيه قطعة من وتر القطن» للرمي إلى مسافة أبعد مما يرمى بها الرمح العادي. وكان الوتر يثبت في قفل، ولدى الاستعمال يفتح الرامي ف«يطلق ويخرج ذلك السهم بقوة شديدة»، وكان هذا النوع من الرمح معروفاً في السنوات الأخيرة من الحكم الفاطمي إذ أن الطرسوسي يقتبس معلوماته من أبي الحسن الأبرقي الاسكندراني الذي صنع هذا الرمح بنفسه لوزير الخليفة الفاطمي الأخير ضرغام ربيب شاور الذي قضى عليه صلاح الدين<sup>(٧)</sup>.

وذكر الطرسوسي رمحاً يطلق السهم، هو الرمح الأجو، وهو معقد التركيب، يختلف شكله وطريقه استعماله عن الرمح العادي. فيؤخذ رمح يشق من وسطه إلى نصفين، وتجويف القطعتان تجويفاً وتسمحان بآلة التجويف مسحاً جيداً حتى لا تبقى فيه شظية تعيق السهم الذي يدخل فيه، وبعد هذا

(١) الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٤٦٠. مفرج الكروب، ١٨٣/١. ابن الفرات، ح ١، مجلد ٤، ص ٨٧.

(٢) العبر في خبر من غير، ٢٢١/٤.

(٣) قربوص، أو قربوس، حنو السرج، أي قسمه المقوس المرتفع من قدام المقعد ومن مؤخره. وهما قربوسان. المنجد، ص ٦١٧.

(٤) التبصرة، ١٠٥.

(٥) ابن هذيل الاندلسي، حلية الفرسان وشعار الشجعان، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٩، ص ٢٠٥-٢٠٧. آثار الاول، ي ١٦٢-١٦٣. احمد بن محمد الحموي، النفحات المسكية في صناعة الفروسية، مطبعة التفيض، بغداد، ١٩٥٠، ص ٦٢-٦٣.

(٦) التبصرة، ورقة ٩٦ب - ١٠٦ب.

(٧) التبصرة، ورقة ٩٦ب.

يطبق نصفاً الرمح ببعضهما. « ويعقب الرمح من أوله إلى آخره بالعقب والغرا » ويدهن ثم يركب في أسفل الشق مفتاح بزر يكون أسفله قريباً من مماسه داخل الرمح وزره مع بقيته بارز من الشق بروزاً يتمكن الذي يجعله في عقرب الوتر من إدخاله فيه، وينفذ فيه مسمار من جانبي الرمح ويكون يتقدم ويتأخر. وتجعل أمامه العقرب وصوبه قطعة خشب منحوتة لطيفة لها ثخانة، طرفها الذي يلي القوس فيه فرض جيد إذا جعل فيه الوتر مسكه. والطرف الآخر مشقوق نصفين بمقدار ما إذا جعل فيه القفل مسكه ومنعه من أن يترجع إلى أسفل<sup>(١)</sup> فينقلب الوتر منه الوتر الذي للقوس، وتجعل في عنق هذا الزر الذي جعل فيه القوس صرصرة من وتر عملت كالحلقة. فإذا جذب الوتر أفلت القوس ووقع زر القفل بأصبعه عن العقرب فانخفضت العقرب إلى أسفل بجبر الوتر وانفلت الوتر فاندفعت باندفاعه الضفدعة في جوف الرمح فدفعت السهم فخرج من السنان بقوته<sup>(٢)</sup>.

وإن دلت هذه الأوصاف على شيء فإنما تدل على مدى التطور الذي أدخل على صناعة الرمح، وطريقة استعماله، ثم إن هذه التحسينات قد غيرت من صفة الرمح وجعلت منه آلة جديدة معقدة، مركبة من الرمح والقوس والسهم، وهذا يعني أن الحاجة إلى أسلحة للقضاء على العدو بسرعة أكثر، وبجهد أقل، قد فتقت أذهان المعنيين بشؤون الأسلحة التي كان لها شأنها الكبير يومئذ. ومن المحتم أن هذه الآلات قد استعملت فعلاً، على الرغم من أن مؤرخي الأحداث لا يذكرون - على العموم - أي نوع من الرماح - أو غيره من الأسلحة قد استعمله المحاربون في هذه الموقعة أو تلك، لأن هذه التفاصيل لم تكن ضمن اهتماماتهم. ومن الأسلحة الفردية نذكر:

١- الفأس أو الطبر<sup>(٣)</sup>، وهو من أسلحة الضرب والتهشيم يستعملونه عند الاشتباك<sup>(٤)</sup>. والفأس آلة ذات هراوة قصيرة ورأس حاد ويصنع رأسها من النحاس أو الحديد، واستعمالها قديم جداً، إلا أن أكثر استعمالها كان في القرون الوسطى. وإضافة إلى القتال فقد استعمل الفأس من قبل فرقة القطاعين الذين يفتحون الطريق في الغابات لمرور الجيوش لذلك كانت هذه الفرقة تسير في المقدمة في

(١) من الصعوبة تصور بعض شروح الطرسوسي نظراً لاقتضاب كلامه واسلوبه المبهم وانقراض تلك الأجهزة وعدم وجود نموذج يمكن الاعتماد عليه لفهم ما يرمي اليه المؤلف، أما الصور الموجودة في المخطوطة فإنها لاتفي بالغرض، هذا إضافة إلى ضعف اللغة التي يستعملها أحياناً، وهذا ينطبق على بعض النماذج الأخرى من الأسلحة المعقدة التي يصفها.

(٢) التبصرة، ورقة ٩٩ب.

(٣) أو التبر الذي يعني الفأس بالفارسية، ولذلك يسمى السكر الصلب بالطبرزد، ومعناه الذي يكسر بالفأس، صبح الأعشى، ١٤١/٢.

(٤) مفرج الكروب، ٣٤٤/٢.

(٥) البستاني، دائرة المعارف، المجلد ٩، ص ٦٩٦.

مثل هذه الحالات<sup>(٥)</sup>.

وثمة آلات شبيهة بالفأس أو تقوم بنفس مهمته، مثل الخطاف<sup>(١)</sup>، واللت<sup>(٢)</sup> الذي يعرفه الطرسوسي بأنه فأس عظيم<sup>(٣)</sup>. وكان مستعملاً في الفترة التي نحن بصددتها. فقد ذكر المؤرخون أن أسدالدين شيركوه حين قرر الانسحاب من مصر بعد فشل الحملة الأولى عليها، قام بإخراج جنده من بلبس، في حين وقف هو في آخرهم يراقبهم «ويبده لت من حديد يحمي بهم ساقاتهم، والمسلمون والفرنج ينظرون إليه»<sup>(٤)</sup>.

## ٢- النبوت والعمود والدبوس:

والنبوت عصا غليظة الرأس، مرققة من طرف وثقيلة من الطرف الآخر، وقد يجعلون في رأسها المسامير الحادة لتصبح أكثر تأثيراً، وهي أكثر استعمالاً لدى الفرسان<sup>(٥)</sup>. أما العمود أو ما سمي به (اللت)<sup>(٦)</sup> فهو يشبه النبوت، إلا أنه يصنع من الحديد وحده. أما الدبوس فيكون رأسه من الحديد ونصابه من الخشب المحكم التقدير والتدوير<sup>(٧)</sup>. وثمة من يجعل كلاً من الدبوس والعمود آلة واحدة<sup>(٨)</sup>. أو أن الآلة كانت تسمى العمود ثم أطلق عليها اسم الدبوس<sup>(٩)</sup>.

وكان العمود (والدبوس) يستعمل لتهديم رأس العدو حتى ولو كان لابساً الخوذة المعدنية<sup>(١٠)</sup>، ولذلك يسمى به (المقمة)<sup>(١١)</sup> وكان يحملها الفرسان في السروج تحت أرجلهم ويتقاتلون بها بعد التضارب بالسيوف والرماح<sup>(١٢)</sup> كمحاولة أخيرة لدحر العدو، لأنها كانت شديدة النكاية به<sup>(١٣)</sup>. فكان «لا يثبت لها شيء تصدمه، ولا يقف له جسد تلاقيه إلا وتهلكه»<sup>(١٤)</sup> ويعدد الطرسوسي «أصنافاً من هذه الآلة، تختلف من حيث شكل الرأس واللون وتحديد الأضراس وشكل الخرزة وطرق

(١) نعمان ثابت، الجندية، ١٨٨. احسان هندي، الحياة العسكرية، ١١٧.

(٢) انظر: محيط المحيط، مادة (لت). مفرج الكروب، ١١/٣٠٠.

(٣) التبصرة، ورقة ١٢٠أ.

(٤) الكامل، ١١/٣٠٠. مفرج الكروب، ١/١٤٠. الروضتين، ج ١، ص ٢، ص ٣٣٦.

(٥) احسان هندي، الحياة العسكرية، ص ١١٥.

(٦) R. Dozy, Supplement aux Dictionnaires Arabes, Liban - Beyrouth, 1968, Vo 1.2, p. 523.

(٧) التبصرة، ورقة ١٢٠أ، ب. احسان هندي، الحياة العسكرية، ص ١١٤.

(٨) صبح الاعشى، ٢/١٤٢.

(٩) نعمان ثابت، الجندية، ص ١٨٩. د. زكي، السلاح في الإسلام، ٢٦.

(١٠) احسان هندي، الحياة العسكرية، ص ١١٤.

(١١) د. زكي، السلاح، ٢٦.

(١٢) ادى شير، الالفاظ الفارسية المعربة، ص ٦٠.

(١٣) احسان هندي، ١١٤.

(١٤) التبصرة، ١٢١أ.

(١٥) التبصرة، ١٢٠ - ١٢٥أ.

صنعها وتلبسها بمواد صلبة قاتلة، مثل الماس وغيرها<sup>(١٥)</sup>. وكانت هذه الآلة تستعمل في حالة المواجهة المباشرة مع العدو، فقد استعمله الجيش الأيوبي في مرج عكا، حين دفع صلاح الدين مقدمة جيشه (الجاليشية) لملاقاة الصليبيين الذين أثنوا فيهم الضرب باللتوت والدبابيس والنشاب والرماح<sup>(١٦)</sup>.

وآلة الجماق أو (الجوماق)<sup>(١٧)</sup> شبيهة بالدبوس<sup>(١٨)</sup> استعملها الجيش الأيوبي في بعض مصادماته. فقد أشار ابن الأثير لدى كلامه عن فتح قلعة برزية الحصينة الواقعة شرقي اللاذقية، إلى آلة الجماق التي رآها بنفسه في يد صلاح الدين. فحين اشتد الكرب على المسلمين في هذه الموقعة، نظراً لوعورة المكان الذي تقع فيه قلعة برزية، «قام صلاح الدين في سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم، وكان تقي الدين عمر ابن أخيه كذلك، فقاتلوههم إلى قريب الظهر ثم تعبوا، ورجعوا فلما رآهم صلاح الدين قد عادوا، تقدم إليهم ويده جماق يردهم<sup>(١٩)</sup>».

٣- القوس:

كانت القوس أبرز أسلحة الرمي، بل كانت طوال قرون عديدة، السلاح الوحيد للرمي إلى مسافات بعيدة. وقد استعملتها الأمم والجماعات منذ القدم في حالة الحرب والسلم، فقد استعملوها لصيد الحيوانات والطيور، إضافة إلى استعمالها في رمي العدو. وكانت من الأسلحة الشائعة لدى العرب قبل الإسلام وفي الفترة التي نحن بصددنا عرف الأتراك بأنهم كانوا رماة ماهرين<sup>(٢٠)</sup>. فمما تذكره المصادر أن الخليفة الفاطمي العاضد طلب من نورالدين محمود، بعد أن نجحت حملته على بلاد مصر واستقر رجاله فيها، طلب -كما ذكرنا- أن يسحب الأتراك الذين جاءوا مع الحملة من مصر. إلا أن نورالدين رفض طلب الخليفة، وامتدح الأتراك، لأنهم رماة جيِّدون، والفرنج الطامعون في مصر لا يربحون إلا منهم<sup>(٢١)</sup>.

وأبسط أشكال القوس عبارة عن أعواد لبنة متينة تتخذ من بعض الأشجار تقوس كالللال، ويثبت فيها وتر قوي بأحكام، وكان الوتر يتخذ من جلد البعير أحياناً، وترمى به السهم. يجذب الوتر إلى الخلف باتجاه الرامي، أي إلى عكس اتجاه السهم بحيث يضغط عقب (نهاية) السهم على الوتر، بتوتيره يترك السهم لينطلق إلى الجهة المعنية.

(١) مفرج الكروب، ٣٤٤/٢.

(٢) وتسميها العامة في العراق (جماع) وفي مصر (بلطة).

(٣) مفرج الكروب، ٢٦٦/٢ هامش ٣.

(٤) الكامل، ١٥/١٢. مفرج الكروب، ٢٦٦/٢.

(٥) عن مهارة الاتراك في الفروسية ورمي النشاب، انظر: رسائل الجاحظ، تحقيق: د. عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٦٤، ص ٤٥. الحسن بن عبدالله، آثار الاول، ١٤٦.

(٦) الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٤٦٠. مفرج الكروب، ج ١، ص ١٨٣. ابن الفرات، ح ١، مجلد ٤، ص ٨٧.

وكانت السهام تتخذ من خشب قريب العقد متوسط، واتخذها العرب من خشب النبع يقطعون عيدانه ويشذبونها ثم تلحى عنها القشور وتصلى بالنار حتى تلين<sup>(١)</sup>. والسهام يجب أن تكون صحيحة الاعتدال والاستدارة والقتل والثقل والخفة، وطوله وقصره على حسب مقادير الرامي<sup>(٢)</sup>.

وكان المحارب يحمل معه عادة مجموعة من السهام لرميها حين الحاجة يودعها في كيس يضعها على كتفه يسمى المجعبة أو الكنانة، كانت تصنع من الجلد أو الخشب<sup>(٣)</sup>.

هذا ولم تعد القسي تعمل بالشكل البسيط المذكور، بل أصبحت تصنع بأشكال مختلفة، ونرى أن التطورات التي أدخلت على صناعتها بلغت مستوى لم تبلغها صناعة أي سلاح من الأسلحة الفردية الأخرى، حتى صارت أشكالها المستحدثة بعيدة عن شكلها السابق، وغدت تنافس المنجنيق في بعض مهماته على الرغم من أن أساس فكرتها ظلت كما كانت، ولهذا لم يتغير اسمها، بل تغيرت نعوتها وتركيباتها.

ونرى أن أكثر هذه الأنواع من القسي، إن لم نقل كلها، قد استعملت في عصر الحروب الصليبية، ولاسيما في عهد صلاح الدين، تلك الحروب التي كانت أبرز أسباب تطور الأسلحة الإسلامية بسبب استخدامها المكثف الدائم في الصراع مع المحتلين وتأثرهم أحياناً بما كان لدى الصليبيين من هذا السلاح أو غيره نتيجة طول فترة احتكاكهم بهم، أو تأثر الصليبيين بما كان لدى المسلمين من أسلحة. ولا أدل على استعمال هذه الأسلحة في عهد صلاح الدين من أن الطرسوسي المعاصر له قد ذكر كيفية صنعها بشيء من التفصيل. ومن هذه الأنواع:

أ- قسي الزيار:

يصف الطرسوسي هذا النوع من القسي بأنها أشدها رمياً وأعظمها جرماً وأنكأها سهماً، ويحتاج إيتارها إلى عدد من الرجال... ولا يكاد أحد يقف لها<sup>(٤)</sup>.

وكانت قوس الزيار عبارة عن آلة ثابتة ثقيلة تعمل على مبدأ القوة الدافعة كالقسي الأخرى، أي قوة شد الوتر الضخم ثم تركه يعود إلى حالته الطبيعية قاذفاً ما يحمله إلى بعد يتناسب مع قوة الشد، أي مع «تزيير»<sup>(٥)</sup> الوتر، ولذا سميت بقوس الزيار. وكانت ترمي سهماً هائل الحجم يتراوح طوله بين ٦٠ - ١٨٠ سم، ووزنه ٢ - ٣ كغم، وقد أخذ الصليبيون هذا السلاح من المسلمين، واستعملوه في حروبهم في النصف الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، أي بعد

(١) امين الخولي، الجندية والسلم، ص ٢٧ نقلاً عن ابن منكلي (الاحكام الملوكية).

(٢) آثار الأول، ١٦٠.

(٣) نهاية الارب، ٢٣٥/٦. صبح الاعشى، ١٤٢/٢. تاج العروس ٣٢٣/٩.

(٤) التنصرة، ورقة ٧٧ب.

(٥) تزيير، من الزور: اعوجاج او ميل.

وفاة صلاح الدين بحوالي نصف قرن، ونقلوه معهم إلى أوربا واستعملوه في حروبهم، وسموه باسم يناظر اسمه العربي هو «منجنيق السهام»<sup>(١)</sup>. وقد بلغت هذه القوس من القوة بحيث بلغ «مقدار حيلها جر عشرين رجلاً يجرها بحيلة رجل واحد، ويرمي عنها أشد رماية وأنكأها وبأرتب حالة» وأنها فيبلغ منها غاية الأرب. وينتهي إلى نهاية الطلب<sup>(٢)</sup>.

لذا اعتبرت قوس الزيار أقوى أنواع القسي. يقول الطرسوسي إن صنع الزيار يكون بعمل قوس من صفتين من خشب السنديان، طول كل صفحة منها ستة أذرع، وعرضها الأكثر شبر ونصف والأوسط شبر واحد، والأصغر نصف شبر، ويكون رأس هذه الصفحة مقدار قيراطين<sup>(٣)</sup>، أي بعرض الاصبع وتبطن هاتان الصفحتان بالقرن والغراء في زمن الخريف وتحزم القسي، ويترك إلى أن يستوفى وقتها. وبعد التأكد من أن القرن قد التصق بالخشب التصاقاً يؤمن عليه من الانقلاع، يحس الخشب وتزال فواصله ويطلّى بالغراء ويترك ليبرد، وبعد ذلك يثقف بالمبرد، ويترك إلى أن تزول خشونتها ويستوي هدامها، ثم يدهن ويزوق... ويضيف الطرسوسي قوله: «ثم يصنع وتران من الخشب السنديان لاصقان به أو مثبتان معه وينسج على الضلع الأعلى والأسفل على مقدار الثلثين من الضلع الأوسط زيار معمول من شعر وبريسم كل حبل فيها من غلظ أصبع الخنصر... فإذا كمل نسج الزيار يدار بأوتاد الخشب... ثم تنزع تلك الأوتاد وتجعل فيها صفحتي القوس المذكورة<sup>(٤)</sup>».

ويستدل من المصادر المعاصرة على أن قسي الزيار كانت مستعملة في عهد صلاح الدين. فيذكر العماد الكاتب الأصفهاني أنه بعد فتح القدس عاد إلى مصر الملك العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين ونائبه على مصر تاركاً «خزانة سلاحه بالقدس كلها، وكانت أحمالاً بأموال، وأثقالاً كجبال وذخائر وافية... وفيها آلات وزيارات»<sup>(٥)</sup>.

ولدى فتح حصن صهيون المنيع، وهو من أعمال حمص الجبلية، ضرب صلاح الدين الحصار الشديد عليه «وكان معه من الرجال الجليلين كثير، وهم في الشجاعة بالمنزلة الشهيرة، ودام رشق السهام من قسي البید والجرح والزنبورك والزيار»<sup>(٦)</sup> وهذه كلها أصناف متطورة من القسي، استعملها الجيش الأيوبي في هذا العصر، وسنتحدث عنها تباعاً.

(١) د. سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر. احسان هندي، الحياة العسكرية، ص ١٢٤.

(٢) التبصرة، ١٧٨.

(٣) القيراط: مقدار عرض الاصبع، المنجد، ٦٢٠.

(٤) التبصرة، ورقة ٨٠.

(٥) الفتح القسي، ١٤٤.

(٦) الكامل، ١٠/١٢. مفرج الكروب، ٢/٢٦٢.

## ب- قسسي الجروح:

الجرخ آلة حربية شبيهة بالمنجنيق لأنها ترمي السهام والنفط والحجارة لكنها أخف منه<sup>(١)</sup>. وتصنع من القرن وليس من الخشب وكانت تستعمل من داخل السور للدفاع عن قلاع المدينة المحاصرة<sup>(٢)</sup>. وهذا يعني أن الصليبيين كانوا أكثر استعمالاً لهذه القوس لغرض الدفاع عن أنفسهم، إذ لم يحدث أن حاصر الصليبيون مدينة إسلامية في عهد صلاح الدين باستثناء عكا وبعض المدن الصغيرة إثر سقوط هذه المدينة بأيديهم. في حين فرض الجيش الأيوبي الحصار على جميع المدن التي كان الصليبيون يحتلونها باستثناء أنطاكية وطرابلس ومدن صغيرة قليلة أخرى، ومن المحتمل أن يكونوا قد استعملوا هذه القوس وهم محصورون داخل أسوار هذه المدن فقط ولم تستعمل في حالة الهجوم. أما قوس الجرخ المستعملة في مراكب البحر، فكانت تصنع من الخشب، لأن هواء البحر يضر القرن ويفسده، وكان الرمي بسهام الجروح متقناً إلى حد كبير، وقلما يخطيء الرامي الهدف إذا كان عارفاً حاذقاً<sup>(٣)</sup>، وقد عرفت هذه القسسي عند المغاربة والفرنجة، ثم أدخلت إلى المشرق الإسلامي أيام الحروب الصليبية فاستعملها المسلمون في معاركهم، وقد تطرقنا إلى رواية ابن الأثير التي ذكر فيها سهام الجروح ضمن الآلات التي استعملت في فتح حصن صهيون.

وذكر ابن شداد أن قوات صلاح الدين حين حاصرت مدينة أنطرسوس الساحلية، دافعت عنها القوات الصليبية من الداخل «بجروح كثيرة تجرح الناس عن بعد»<sup>(٤)</sup> واستعمله الجيش الأيوبي في فتوح المدن ومنها مدينة بيروت<sup>(٥)</sup> والمسلمون المدافعون عن عكا، حين تعرضت إلى هجوم صليبي شديد أدى إلى وقوع قطعة من سورها، استعملوا الجروح والمجانيق من داخل المدينة لحمايتها والحيلولة دون دخول الصليبيين إليها، إلى أن تم بناء القطعة<sup>(٦)</sup>.

أما عن استعمال الصليبيين للجروح في حالة الهجوم، فقد كان ذلك لدى هجومهم المتواصل على عكا. فيذكر ابن شداد أنه في ٤ رمضان من سنة ٥٨٦/١١٩٠م «زحف العدو على عكا في خلق لا يحصي عددهم إلا الله تعالى، فأهملوهم أهل البلد وشجعان المقاتلة الذين فيه، وذوو الآراء المثقفة

(١) احسان هندي، الحياة العسكرية، ١٢٧. د. عبدالرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص ١٦.

Dozy, Supplement aux Dict, Vol. 1, p. 182.

(٢) الحسن بن عبدالله، آثار الاول، ١٦٠.

(٣) آثار الاول، ١٦٠.

(٤) النوادر، ص ٨٨.

(٥) الفتح القسسي، ١٠٤.

(٦) النوادر، ١٥٤. انظر عن الحادث: الفتح القسسي، ٤٥٩ - ٤٦٠. الروضتين، ١٨١/٢. انظر عن استعمال الجروح ايضاً: النوادر، ١٣٦. مفرج الكروب، ٣٣٦/٢.

من مقدمي المسلمين فيه، حتى نشبت مخالب أطماعهم في البلد، وسحبوا آلاتهم المذكورة حتى قاربوا أن يلصقوها بالسور، وتحصن منهم في الخندق جماعة عظيمة وأطلقوا عليهم سهام الجروح وأحجار المجانيق وأقواس الرمي والنيران، وصاحوا عليهم صيحة الرجل الواحد « واستطاع الجيش الأيوبي من إلحاق الهزيمة بالعدو(١) ».

ج- الزنبورك:

لم تتطرق المصادر إلى أوصاف هذا النوع من الآلة، على عكس الأنواع الأخرى، إلا أننا نجد أن المؤرخين يذكرونها ضمن آلات اطلاق السهم على الرغم من أن البعض يعدونها نوعاً من السهام، فيورد (دوزي Dozy) نصاً يؤكد فيه كون الزنبورك نوعاً من السهام إذ قال: «الزنبورك سهم في سمك الابهام وفي طول الذراع وله أربعة أوجه وطرفه من الحديد وهو مريش ليكون في انطلاقه أكثر ثباتاً، وحيثما سقط فإنه مؤكد الاصابة، وقد يخترق في رمية واحدة جسمي رجلين وقف أحدهما خلف الآخر، واخترق في نفس الوقت درع الجندي وملابسه، ثم نفذ بعد ذلك واستقر في الأرض، وقد يصيب كذلك أحجار الأسوار»<sup>(٢)</sup>.

ويضيف دوزي إلى قوله إن اللفظ قد يعني «الزنبور الصغير» سمي كذلك للشبه بين الصوت الذي تحدثه تلك الحشرة وبين الصوت الذي يحدثه وتر القوس عند انطلاق السهم. ويقول د. سعداوي: إن سهام الزنبورك نظراً لنكايتها الشديدة حرم البابوات استعمالها<sup>(٣)</sup>.

ونجد أن الزنبورك يرد ذكرها بصفقتها أحد أنواع القسي وليس أحد أنواع السهام، فقد ذكر ابن الأثير في الرواية الآتفة الذكر: «ودام رشق السهام من قسي اليد والجرح والزنبورك والزيار، فجرح أكثر من بالحصن»<sup>(٤)</sup> وذكر صاحب كتاب (آثار الأول)<sup>(٥)</sup> أن الروم كانوا أهل صنائع وحرف وحكم، وفيهم صبر وخدمة، ولهم حيل في السياسات ووضع آلات حربية، وحظهم في الفروسية قليل ولهم ضرب بالسيف ورمي بالجرح والزنبورك. ويذكر أبو شامة الجروح والزنبورك جنباً إلى جنب<sup>(٦)</sup>. في حين أن رواية العماد الكاتب تربط بين «الزنبوركات والناوكات»<sup>(٧)</sup>، أي أنهما ضربان من السهام<sup>(٨)</sup>.

(١) النوادر، ١٤٢. الروضتين، ١٦٣/٢.

(٢) Dozy, Supplement aux Dict, Vo1. lp. 605. مفرج الكروب، ٢٤٤/٢ هامش ١.

(٣) التاريخ الحربي، ص ١٩٦ هامش ٢. إلا ان د. سعداوي يخطيء حين يقول إن المؤرخين العرب لم يشيروا إلى الزنبورك في مؤلفاتهم إلا في حصار صور... ولم يستعملوها إلا متأخرين منذ سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م وشاع استعمالها في الشرق منذ ذلك التاريخ.

(٤) الكامل، ١١/١٢.

(٥) ص ١٤٦.

(٦) الروضتين، ١١٩/٢.

(٧) الفتح القسي، ١٦٣.

(٨) انظر صفحة ٢٨٧ من الكتاب.

وكما هو متوقع فإن التطور التقني الذي حصل في صناعة الأسلحة قد بلغ مرحلة متقدمة في العصر الأيوبي، ولا أدل على ذلك من وجود هذه المجموعة من آلات اطلاق السهام التي كانت تطويراً لفكرة الأقواس. إلا أن القوة المحركة الدافعة لهذا السلاح ظلت تعتمد على الطاقة البشرية من شد وتوتير وتوجيه واطلاق، ومن هذه الأقواس المتطورة ما يشرحها الطرسوسي تحت عنوان «صفة المجرة» للتحديث عن قوس أنبوسية القوام، وتكون باتخاذ «مجرة خافية على مقدار القوس، طولها طول السهم دفعتين وليكن في الموضع الذي يصل إليه الوتر» بقفل معدني من الحديد أو النحاس يوضع فيه مسمار يتحرك صعوداً ونزولاً، فيغلق القفل بالمسمار «المفتاح» وإذا نزع عنه «ترك القفل إلى أسفل فينفلت الوتر ويدفع السهم، فيخرج... وأيسر جذب ينزعه من الكلاب وإن طال عن أن يصل إليه جعل في طرفه ميقات (حبل) يجذب به عند الحاجة إلى إفلات السهم، ويثقب عرضاً ويجعل فيه ميل من حديد يثبت في المجرة وليكن السهم بمقدار القوس وغلظه، فمنه ما يكون طوله ذراع في غلظ الرمح ونصله، ويجعل السهم على المجرة في الموضع الذي يفرض له فيها مقابل الوتر»<sup>(١)</sup>.

ويتحدث ابن هذيل الأندلسي عن هذه القوس التي يسميها بـ(القوس الافرنجية) ويقول إنها تتألف من عمود وقضيب وجوزة ومفتاح، ويقول إن العمود يسمى المجرى وإنما سمي بذلك لجري السهام، وكان مفتاحه طالعاً من جهة الجوزة يرمي سهاماً عديدة مشتملة<sup>(٢)</sup> وكانت هذه القوس تطلق السهام لمسافة بعيدة وبدقة متناهية مما يجعلها تشبه البندقية إلى حد ما. والظاهر أن اختراع المجرة (الماسورة) كان البداية لاختراع القصبية (السبطانة) في الأسلحة النارية، كما أن الأنواع التي صنعت في أواخر القرون الوسطى من هذه القسي تشبه إلى حد بعيد (الغدارات النارية)<sup>(٣)</sup> التي هي تطوير لفكرة القوس الانبوسية بعد اكتشاف البارود<sup>(٤)</sup>، وهذا السلاح عرفه الصليبيون واستعملوه في معاركهم ضد المسلمين<sup>(٥)</sup>.

د- قوس الرجل:

ويكون توتير هذا النوع من القوس بدفع رجلي الانسان مع جذب ظهره. وهذا الجذب يحوج الانسان أن يجعل في وسطه حزاماً من الجلد البقري الجيد الدباغ، وفي كلايين من الحديد يجعل وتر القوس فيهما، ويجعل الرامي رجليه في بطن القوس جاذباً بظهره الحزام الذي فيه الكلابان إلى أن يحصل

(١) التبصرة، ٨١ب.

(٢) ابن هذيل، حلية الفرسان، ص ٢١١ - ٢١٢.

(٣) أو ما يسمى (اربالست Arbalist أو Arbalest الذي هو القوس المقذوف، سلاح من أسلحة القرون الوسطى كانوا يستخدمونه لقتل السهام والكرات والحجارة... الخ. المورد - قاموس انكليزي - عربي، منير البعلبكي، ط ١١، دار العلم للملايين، ١٩٧٧، بيروت، ص ٥٨.

(٤) احسان هندي، الحياة العسكرية، ص ١٠٥.

(٥) Oman, A History of the Art of war in the Middle Ages, Second Edition, New York. Vo 1. I, p. 330.

الوتر في القفل الذي في المجرة، وينزل المفتاح فيها، ثم يأخذ القوس بيديه ويجعل النبلة في المجرى ويضم المفتاح عن القفل إلى باطن المجرة، فيدور القفل، لأنه كالبكرة اللطيفة في محور حديد مسمر في جانبي فتح المجرة، فإذا أدار المفتاح عنه دارت البكرة وانفلت الوتر فيدفع النبلة فيخرج بحدته<sup>(١)</sup>.

هـ- قوس الحسيبان:

وهي قوس عربية - كما يقول الطرسوسي - تطلق سهاماً سريعة وصغيرة، وسرعتها متأتية من أن أنبوب القوس يسع مجموعة من السهام الصغيرة لا يقل عددها عن خمسة « فإذا دفعها الوتر خرجت كالجراد المنتشر في دفعة واحدة، فشبهت هذه السهام بالجراد وسميت القوس قوس الحسيبان<sup>(٢)</sup> ولم يكن لهذا النوع من القسي قفل أو جوزة كما هي الحال في النوعين المذكورين، ونظراً لسرعة الرشق فيها واطلاقها لعدد من السهام الواحدة بعد الأخرى فقد كانت القوس المفضلة لدى المحاربين، ولعل سهام هذه القوس الصغيرة هي المعينة بالناوكات التي يرد ذكرها في مصادر هذه الفترة<sup>(٣)</sup>، والتي تعني بالفارسية السهام الصغيرة<sup>(٤)</sup>.

ويسمي ابن منكلي هذه القوس بقوس (البنجكان) التي تعني بخمسة أسهم - بالكردية والفارسية - « وهو الرمي الذي ليس وراءه رمي... وهو جيد للرمي على العدو فوق الأسوار » ويعلم ابن منكلي أن هذه القوس كانت موجودة منذ عهد قديم<sup>(٥)</sup>.

#### و- القوس المتعددة الاتجاه:

هذه القوس لم تكن قوساً واحدة، بل أربع قسي جرخ في برج واحد له أربعة اتجاهات أو خمسة أو ستة أو أكثر حسب رغبة الصانع. تنصب في كل جهة قوس، ولكل منها مجرة وتتصل المجاري الأربعة اتصالاً مركزياً بقفل واحد، يتحكم به شخص واحد. وكل مجرة منها فيها ثلاثة سهام أو أربعة، أي أن الأقواس الأربع كانت من نوع قسي الحسيبان أو (البنجكان) التي ترمي الناوكات، وحين يفتح الرامي القوس تنطلق منها مجموعة السهام بالاتجاهات الأربعة. وإذا كان البرج سداسياً وضعت عليه ست أقواس وتطلق أربعة وعشرين سهماً، وهكذا تتضاعف السهام بتضاعف اتجاهات البرج. فيظن المقابل بأن في البرج عدة رجال يرمون الشباب<sup>(٦)</sup>.

(١) التنصرة، ورقة ٨٥ب.

(٢) التنصرة، ورقة ٨٦أ.

(٣) الفتح القسي، ١٦٣. يذكر الطبري هذه الأقواس ضمن حوادث سنة ٢٥١هـ/ ٨٦١م ويقول: «واقبلت الرماة من بغداد بالناوكية في الزواريق ربما انتظم السهم الواحدة عدة منهم فقتلهم» تاريخ الرسل والملوك، طبعة انتشارات جهان، طهران، عن طبعة دي غويه، مجلد ١٢، ج ٣، ١٦٢٦.

(٤) هنداي، معجم الالفاظ الفارسية، ص ٣٢١.

(٥) التدبيرات السلطانية، مخطوط، مصور في المجمع العلمي العراقي، ورقة ٦٢.

(٦) التنصرة، ٨٩ب - ٩١أ.

#### ز- قوس قاذفة النفط:

لم تعد القوس تقتصر على رمي السهام فقط، بل تطورت مهامها إلى رمي النفط كذلك. والقوس التي تقوم بهذا العمل شبيهة بقوس الرجل ولها مجراة مكملة بقلها وجوزتها. وترتبط بها كفة نصف كروية على مثال نصف جوزة هندية، وتجوف تجويفاً تسع القارورة<sup>(١)</sup> التي يوضع فيها النفط، وباستعمالها ترمي النفط المشتعل على العدو «وتكسر ما تلاقىها من الأجسام وتحرق ما تماسه» لأن القارورة «تخرج منها كالسهم بقوة قذفها»<sup>(٢)</sup>.

هذا ونضيف أن السهام كانت تستعمل إضافة إلى ما ورد، كأداة للتخاطب وفي رمي الرسائل إلى المحاصرين داخل سور الحصن، فكانت الرسائل تكتب أحياناً على السهم مباشرة، فإذا أراد المهاجم أن ينشر الذعر بين سكان المدينة ومحاربيها كتب لهم على السهم أو على ورقة مشدودة بها، أخباراً قد تكون ملفقه، للتأثير على روحهم المعنوية، وجعلهم يميلون إلى التسليم، ثم ترمى إليهم، وقد يكون من في الحصن يرغبون في التسليم، فيكتبون طلبهم ثم يرمون به في سهم إلى من في الخارج<sup>(٣)</sup>.

#### ٤- المقاليع:

لعلها من أقدم أسلحة الرشق، فبعد أن كان الانسان يرمي الحجارة بيده، رأى بالتجربة والمران أن زيادة حركة الذراع تزيد من قوة الدفع في الحجر إلى مسافات بعيدة. فكان أن اخترع المقلاع. وهو عبارة عن قطعة جلد أو قماش قوية مطوية تمسك من طرفها، ويوضع الحجر أو قطع الحديد أو الرصاص في وسطها<sup>(٤)</sup>. فكان يستعان به في استعماله على قوة الطرد المركزية، وذلك يجعل المقذوف في طرفها بين حبلين يجتمع رأسهما في يد القاذف، فيديرهما ثم يخلي أحد الطرفين فينبعث المقذوف بعيداً نحو الهدف<sup>(٥)</sup>، ويبقى المقلاع بيده ليكرر العملية مرة أخرى وهكذا. وعلى الرغم من أن مراجع العصر لم تشر إلى استعمال المقلاع أيام صلاح الدين، إلا أن من المحتمل أنه كان يستعمل بصفته سلاحاً للرشق الفردي.

(١) التبصرة، ص ٨٨ - ب.

(٢) وهذا يعني أنهم كانوا يستعملون القوارير المملوءة بالنفط لقذفها على العدو. وهذه القوارير شبيهة بالقنبلة النفطية.

(٣) عبدالرؤف عون، الفن الحربي في صدر الإسلام، دار المعارف، شارع كورنيش النيل، القاهرة ١٩٦١، ص ١٤١.

(٤) البستاني، دائرة المعارف، ٧/٢٠٧.

(٥) امين الخولي، الجنديّة والسلم، ص ٢٨.

## ثانياً - الأسلحة الثقيلة

### ١- النفط وقاذفات النار:

لم تعد الأسلحة قاصرة على أسلحة اليد التقليدية، أي التي كانت تستعمل من قبل الفرد المحارب، منذ عهود طويلة، كالتى تحدثنا عنها، بل أدخلت النار في قوام أسلحة الرشق لقذف العدو بها، والواقع أن فكرة استعمال النار لم تكن جديدة، بل سبقت هذه بعدة قرون، إلا أن الجديد هو أن الحروب الصليبية نشطت أفانين وحيل حرب الحصار، وطورتها بما فيها من طرق الهدم ووضع الألغام واستخدام صنوف السهام والمجانيق والكبوش، والاعتماد على أنواع المشعلات وأسلحة الدفع القوية. وقد كان أول استعمال للنار من قبل المشاركة، وينسب اختراعه إلى رجل مصري<sup>(١)</sup> أو سوري<sup>(٢)</sup> اسمه كالينيكوس Callinikos عاش في بعلبك في منتصف القرن السابع الميلادي. وقد استخدم المشاركة هذا السلاح الفعال في حروبهم، وكانت النار مكونة من مزيج من مواد سريعة الالتهاب، مثل الكبريت والنفط وبعض الراتنجات<sup>(٣)</sup> والأدهان في شكل سائل يطلقونه من أسطوانة نحاسية مستطيلة، أو يطلقونها بشكل كرات مشتعلة أو قطع الكتان المشبع بالنفط<sup>(٤)</sup>.

واشتهرت هذه القذائف بقوة فعلها وأضرارها البليغة لما لها من الفعل وقوة الاشتعال في الماء والهواء، ويقال إنها إذا اشتعلت أحرقت الحديد والحجر<sup>(٥)</sup> ولا تطفأ إلا باللبود المبلولة بالخل والشب والنظرون<sup>(٦)</sup>، أما الماء فإنه يزيدا اشتعالاً. وقد اقتبس الاغريق (اليونان) من المشاركة هذه النار، ثم أخذها العرب المسلمون من الاغريق، بعد أن اطلعوا على سرها وأطلقوا عليها اسم النار الاغريقية<sup>(٧)</sup>.

أما الآلة التي يرمى بها النفط والمحروقات فكانت تسمى النفاطة أو الزراقة، إلا أنهم صاروا يطلقون هذه المواد بالسهم أو المجانيق، لأنها ترمي إلى مسافات أبعد ويكون تهديفها أضعف. أما قاذفها فيسمى بالنفاط أو الزراق. وكان يرتدي ثوباً خاصاً غير قابل للاشتعال يطلق عليه لباس النفاطين، كما كانت هناك تجافيف<sup>(٨)</sup> خاصة تكسى بها الفرس التي تحمل النفاط، كي لا تتضرر من

(١) دائرة المعارف، البستاني، ٧٠٥/٩. د. سعاد ماهر، البحرية في مصر ٢٣١.

(٢) جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ١٩٢/١. احسان هندي، الحياة العسكرية ١٥٢، امين الخولي، الجندية والسلم ص ٣٣. د. زكي، السلاح في الإسلام، ص ٥٩، جورج كاستلان، تاريخ الجيوش، ص ٥٥. ادوين جون ديفيز، فرنسا الجريحة على ضفاف النيل، ترجمة زكي شنودة المحامي. مطبوعات كتابي، سنة الطبع بلا، ص ٧٥. د. جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبي على مصر، دار الكتب الجامعية، الاسكندرية، ط اولي، سنة ١٩٦٩، ص ١٥٧.

(٣) او عرق الشجر، مادة صمغية قابلة للالتهاب، تنضحها بعض الاشجار مثل الصنوبر والبطم والأرزية والمصطكي.

الخوارزمي، مفاتيح العلوم، مطبعة الشرق، القاهرة ١٣٤٢ ص ١٤٩.

(٤) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ١٩٢/١. نعمان ثابت، الجندية ١٤٦. عبدالرحمن زكي، السلاح، ٥٩.

(٥) دائرة المعارف، البستاني، ٧٠٥/٩.

(٦) الحسن بن عبدالله، آثار الاول ١٩٧. والنظرون يعني البورق. مفاتيح العلوم ١٤٨.

(٧) ادوين جون ديفيز، فرنسا الجريحة، ص ٧٥.

(٨) التجافيف: الدروع الخاصة بالوقاية من النار. وستحدث عنها فيما بعد.

قطرات النفط التي تسقط عليها<sup>(١)</sup>.

وكانت النار الاغريقية شديدة النكاية بالصلبيين الذين كانوا يجهلون استعمالها، فاقصر استعمالها على الجانب الإسلامي، وبهذا يقول (اومان): إن النار الاغريقية تبدو قليلة الاستعمال جداً في الغرب، فلم يكونوا متأكدين من تركيبها<sup>(٢)</sup>، واستمر جهلهم ألى ما بعد انتهاء العهد الأيوبي. فقد وصف الفارس والكاتب الفرنسي «دي جوانفيل» في كتابه (ذكريات عن الحروب الصليبية) النار الاغريقية التي كان المسلمون يرمون بها الجيش الصليبي في معركة دمياط الثالثة التي جرت في عهد الملك الأيوبي الأخير في مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب في جمادى الأولى سنة ٦٤٦هـ/٢٥ آب ١٢٤٨م، وتحدث هذا الكاتب عن الذعر الذي استولى على الصليبيين أمام هذا السلاح الخطير، وقال على لسان صديقه السير ولتر دي كوريل Walter de Cureil: أيها السادة، نحن في خطر داهم، لأن العدو لو صوب النار نحو أبراجنا وبقينا نحن في أماكننا لأتانا الموت من كل مكان، ولو أننا غادرنا مراكزنا التي استولينا عليها للحقنا العار، فلا منقذ لنا من هذا الخطر الداهم إلا الله. فنصيححتي إليكم أن نخر سجداً كلما صوبوا هذه النار نحونا، لنبتهل إلى الله سبحانه وتعالى أن ينجيننا من هذا الخطر.

هذا ولم يكن الملك لويس التاسع نفسه أقل من رجاله جزعاً، ويقول جوانفيل واصفاً الرعب الذي استحوذ على الملك: وكانت النار ترسل في انطلاقتها الأضواء الباهرة التي تملأ رحاب المعسكر، فيبدو كأننا في وضح النهار، ولقد صوب العدو النار نحونا هذه الليلة ثلاث مرات، كما أطلقوها من قسيهم أربع مرات، وكان الملك القديس كلما سمع أن النار الاغريقية قد صوبت نحونا انتصب واقفاً على سريره ورفع يديه نحو السماء، وابتدأ الصلاة وعيناه مخصلتان بالدموع وهو يقول: أيها الاله الطيب، احفظ لي شعبي<sup>(٣)</sup>.

وقد وصفت الاميرة «اناكومينا» ابنة الامبراطور البيزنطي (الكسيسوس كومينوس) الذي شهد عصره الحملة الصليبية الاولى، هذه النار الاغريقية في كتابها عن تاريخ حياة أبيها فصورتها حين تعلق في الجو وحين تشتعل، ثم حين تنفض كقطعة من الجحيم فتشوي الناس شياً، وتتركهم مع متاعهم رماداً تذروه الرياح... وقد أشارت الأميرة إلى تركيبها الذي يشبه التركيب الذي أورده الطرسوسي، وقالت: إن هذا المزيج الناري يعبأ في أنابيب، ويقذف على العدو، فيصلبه ناراً حامية، إذ ينفجر بقوة الاصطدام، فيندفع منها لهيب لا يمكن لمخلوق أن يخمد، وتنتشر شرارته في كل جانب

(١) احسان هندي، الحياة العسكرية. ص ١٥١. التذكرة الهروية، ص ٨١، هامش ٣ للمحقق.

(٢) Oman, The arts of war in the middle ages, N. Y. 1953, p 72.

(٣) محمد سعيد العريان. د. جمال الدين الشبال، قصة الكفاح بين العرب والاستعمار طبعة ثانية. دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٦٠م، ص ٨٣. احسان هندي، الحياة العسكرية، ١٥٣ - ١٥٤. د. جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبي على مصر، ص ١٥٧.

فتجعل ما حواليتها أتوناً متلظياً<sup>(١)</sup>. وذكر جوانفيل أن هذه النار «لها صوت يهزم كالرعد القاصف، وهي منقضة في الفضاء كتنين هائل من اللهب يطير في الجو متوهجاً بنور كنور كوكب عظيم، ثلاث مرات في تلك الليلة المرعبة ألقوا علينا هذه الشياطين النارية... النار الاغريقية» ويضيف إلى قوله إن المسلمين حين قذفونا بهذه النار «كأنما فتحوا باب جهنم فجأة في وجوهنا فاندلعت النار في برجينا الخشبيين، وامتدت السننتها تلتهم كل ما تصل إليه»<sup>(٢)</sup>.

هذا ويذكر العماد الكاتب: أن المسلمين حين بدأوا بقذف الأبراج التي نصبها الصليبيون على سور عكا، بقذور تحوي المواد الحارقة، أصابتهم الدهشة «من البلل، ولا يدرون بما وراءه من الشعل»<sup>(٣)</sup> وحين أحرق المسلمون تلك الأبراج بهت الكفار.

يتحدث الطرسوسي عن طرق تحضير المواد الحارقة المكونة من نפט وكبريت ومسحوق نورة غير مطفأة وزيت الأترج<sup>(٤)</sup> والكتان ودقيق التبن ونخالة الحنطة ودهن البلسان<sup>(٥)</sup> وشحم الدلفين وصبغ السندروس<sup>(٦)</sup> والراتينج<sup>(٧)</sup> وقشر التوت وقشر البيض. ومزج هذه المواد بطرق خاصة وأوزان معينة يتكون خليط مركب له قوة هائلة في الاحراق، ويوضع «في قرعة ويركب عليه الانبيق «آلة التقطير» وتؤخذ وصلة «قطعة قماش» وتوقد تحته نار قوية، إلى أن يقطر جميعه، ثم يؤخذ الزيت وتضاف كمية أخرى من مسحوق نورة غير مطفأة وتضاف إلى الزيت ويضاف إليه أيضاً ربع مقدار من النفط ويستعمل فانه يحرق إحراقاً قوياً لا مثيل له»<sup>(٨)</sup>.

ويقول الطرسوسي إن تحضير النار كان من الأسرار التي ينبغي الاحتفاظ بها للحيلولة دون تسربها إلى العدو. وجعلوها مستوراً إلا لمن يرضونه من الفضلاء «العلماء»<sup>(٩)</sup> ثم يتحدث عن طريقة ثانية في تحضيرها ويقول: تؤخذ أترج صغير، ويقشر قشره الأعلى ويترك إلى أن يذبل ويعصر زيتته، ثم يطبخ على النار لمرات عديدة، ويضاف إليه دهن البلسان، ويستعمل فانه من العجائب<sup>(١٠)</sup> «ثم يذكر طريقة أخرى لنار عجيبة ويكون تحضيرها بإضافة جزء من صبغ السندروس وصبغ الراتينج مع جزء

(١) ديفيز - فرنسا المجرحة ص ٧٥ - ٧٦. د. جوزيف، العدوان الصليبي. ص ١٥٦ هامش ٢.

(٢) ديفيز - ص ٧٧. د. جوزيف، ١٥٨.

(٣) الفتح القسي ص، ٣٧١.

(٤) الاترج، من جنس الليمون، وتسميه العامة الكبار، ومذاقه مر. المنجد.

(٥) البلسان، شجر له زهر ابيض بهيئة العناقيد يستخرج منه دهن عطر، وهو من فصيلة البخوريات. المنجد ص ٤٨.

وكان كثير الوجود في مصر. عبداللطيف البغدادي، الافادة والاعتبار، ط لندن ١٩٦٥ ص ٤٠.

(٦) السندروس، لفظ يوناني نوع من الصمغ. المنجد ٣٥٥.

(٧) الراتينج، صمغ من شجر صنوبري كما ذكرنا آنفاً وانظر: فرهنك امير كبير. ص ٣٢٨.

(٨) التبصرة، ١٤٠ أ - ب.

(٩) ن. م. و، ١٤٠ ب.

(١٠) ن. م. و، ١٤٠ أ.

من ملح نفطي إلى زيت الأترج» ويخلط الجميع ويطيخ على النار ويستعمل فإن ناره لا تنطفيء<sup>(١)</sup> والظاهر أن بعض هذه النيران كانت تقذف بالنشاب، أو توضع في أوان فخارية لترمي بكفة المنجنيق<sup>(٢)</sup>.

وكما قلنا فإن هذه النيران لم تكن تطفأ أبداً إلى أن تأتي على آخر ما تقع عليه وتحرقه، وتظل مشتعلة مدة شهر وأكثر، و«كلما أصابها الماء أو التراب ازدادت وقوداً»<sup>(٣)</sup>، وهذا دليل على مدى التطور الحاصل في تركيب النار، بل إنهم أوجدوا مزيجاً يشتعل ويرمى لحرق المراكب، فكان يمشي على الماء دون أن تنطفيء ناره، وقد استعمل العرب المسلمون بعض هذه التراكيب، واستعملوها في معاركهم البرية والبحرية منذ فتوحاتهم الأولى.

ولاشك في وجود معامل أو مختبرات تجري فيها التجارب على تلك المواد ومعرفة مدى مفعولها، والاستفادة منها، وعند نجاحها يقومون بصناعتها وتحضيرها ووضعها تحت الاستعمال عند الحاجة. بل دعت الحاجة أيضاً إلى اكتشاف مواد تستعمل في طلاء الأجسام للحيلولة دون احتراقها، فكانوا يأخذون التجافيف «ملابس وقاية الجسم من النار» المبطنة باللبود ويكسون بها الخيل ويطلونها بمزيج مكون من نسب متفاوتة من الطلق، والصمغ العربي والجبس وبياض البيض وغيرها من المواد، وتذق وتنخل وتعجن بالخل المخفف، عندها تدهن أجزاء من التجفاف بعد أن يوضع على جسم الفرس، ولاسيما في «مقدم الفرس ومؤخرته وحول الكفل» وكذلك تدهن أجزاء من درع الفارس المصنوع من اللباد وقلنسوته<sup>(٤)</sup>.

وبما أن صناعة المواد النارية قد بلغت هذا المستوى المتقدم، وأن هذه المواد كانت تكبس في أوان فخارية وتوضع في كفة المنجنيق لرميها على العدو، إذن فقد توصل المعنيون بأمر هذه الصناعات إلى عمل نوع من القنابل، أو قوارير النفط التي «هي قدور يجعل فيها النفط ويرمى بها على الحصون والقلاع للاحراق»<sup>(٥)</sup>.

وكان النفط يستخرج من بعض المناطق، ومنها ساحل بحر القلزم «البحر الأحمر» في مصر، فكان يسيل دهنه - كما يقول القلقشندي - من أعلى جبل قليلاً، وينزل إلى أسفله، ويجمع في أوعية خاصة قد وضعها الأولون، تأتي العرب فتحملة إلى خزائن السلاح السلطانية<sup>(٦)</sup> «ورغم أن القلقشندي يتحدث عن فترة متأخرة، إلا أن من المحتمل أن يكون النفط قد استخرج من هذه المنطقة

(١) ن. م. و، ١٤١ ب.

(٢) التبصرة، ١٤٢ أ، ب ولا حاجة إلى الاسهاب في شرح بقية طرق تحضير النار التي تبلغ أربع عشرة طريقة.

(٣) ن. م. و، ١٤٨ ب.

(٤) ن. م. و، ١٤٦ أ - ب.

(٥) صبح الاعشى ١٤٥/٢.

(٦) ن. م. ٢٨٤/٣.

في فترة سابقة أيضاً. وكذلك كان يستخرج في منطقة الموصل، فتذكر المصادر أن الملك عز الدين مسعود بن مودود - صاحب الموصل - أرسل أحمالاً من النفط إلى صلاح الدين في سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م مع بعض أنواع الأسلحة الفاخرة كجزء من المعونة التي كانت الموصل تبعثها إلى السلطان في جهاده<sup>(١)</sup>.

ولم يكن النفط يستعمل خالصاً بمفرده، بل أضاف إليه المشتغلون بالصناعات الحربية تركيبات تجعله أشد فتكاً، لذا كانت النفوط أنواعاً كثيرة، منها الأبيض والأزرق وملح النفط<sup>(٢)</sup>، وبعض النفوط لم تكن تحوي على شيء من النفوط المستخرجة من باطن الأرض، منها نطف كان يستعمل في هذه الفترة ويؤخذ من الأترج المر الذي ينمو بكثرة بثغر الاسكندرية. وطريقة تحضيره تكون بتقشير قشره الأعلى، وتركه ليذبل، ثم يعصر زيتته، ويطحخ على النار وتخلط معه مواد أخرى مثل دهن البلسان<sup>(٣)</sup>.

هذا وقد استعمل الجيش الأيوبي النار في مناسبات عديدة سواء في قذفهم الحصون والمدن التي يحتلها الصليبيون، أو في دفاعهم عن مدينة عكا، وحرقتهم مجانيق العدو وأبراجه. فقد أحرقوا بقذائفهم دبابة ابن ملك الألمان الهائلة التي «دخل تحتها الوف الناس، وكان لها رأس عظيم برقية طويلة»<sup>(٤)</sup>.

وكذلك أحرقوا بالمستحضرات التي ركبها ابن عريف النحاسين الدمشقي أبراج العدو الثلاثة المخيفة التي نصبوها على أسوار عكا في ٢٨ ربيع الأول ٥٨٦هـ/١١٩٠م. فتقدم ابن العريف، وجلب أوعية النفط التي هيأها، وسلمها إلى المشرفين عن المنجنيق وطلب منهم رمي أحدها إلى البرج، فرموه فأصابوا أعالي البرج، «والفرنج يعجبون من البلبل، ولا يدرون بما وراءه من الشعل» ثم قذفوا بوعاء ثان على طبقة البرج الوسطى، وآخر على طبقة البرج السفلى، وبعد ذلك أطلقوا النار عليه فاشتعل البرج من طرفيه الأدنى والأعلى، وتعذر على من فيه من الفرنج الخروج من البرج وإنقاذ أنفسهم، وكانوا سبعة نفر، فاحترقوا جميعاً، وحاولت جماعة من الصليبيين إخراجهم من البرج، «فاحترقوا بدروعهم وسيوفهم، وتقلبت الجحيم عليهم غيظاً». ثم تحول ابن العريف إلى البرج الثاني، ثم الثالث فأحرقهما على التوالي... واحترقت أيضاً مجانيقهم وستائرهم التي كانت بقرب الأبراج<sup>(٥)</sup>.

أما البارود فلم يجر استخدامه أيام صلاح الدين، وطوال الفترة الأيوبية بل تأخر ذلك إلى نهاية القرن السابع الهجري «الثالث عشر الميلادي»، فقد ظهرت إشارات إلى ملح البارود والمواد الأخرى

(١) الفتح القسي، ٣٥٠. الروضتين، ١٤٨/٢. مفرج الكروب ٣٠٧/٢.

(٢) د. سعادوي، التاريخ الحربي، ص ٢٢٣، نقلاً عن مخطوط فهرست الكتب ص ٧٧ - ٧٨.

(٣) التنصرة، ١١٤١.

(٤) مرآة الزمان ٤٠٤/٨.

(٥) الفتح القسي، ٣٧. وانظر النوادر، ١٢١. مرآة الزمان، ٤٠٢/٨. البداية والنهاية ٣٣٥/١٢. الذهبي مخطوط

تاريخ الإسلام الجزء الأخير ورقة ١٢٢أ.

في مؤلف «الفروسية والمناصب الحربية» الذي صنّفه حسن الرماح في تلك الفترة<sup>(١)</sup>. وكذلك وردت إشارات إلى استعمال البارود في كتاب «التعريف بالمصطلح الشريف»<sup>(٢)</sup>.

## ٢- الآلات الجماعية:

نقصد بالآلات الجماعية تلك التي يديرها أكثر من شخص واحد، نظراً لثقلها وصعوبة نقلها وتوجيهها. على عكس الآلات الفردية التي لا يحتاج استعمالها إلا إلى شخص واحد. والأسلحة أو الآلات الجماعية التي استخدمها الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين هي:

### أ- المنجنيق:

ومكانة هذه الآلة بين الأسلحة الجماعية، كمكانة السيف بين الأسلحة الفردية، نظراً لأهميتها القصوى، فكانت «أعظم الآلات نكاية وأشدّها»<sup>(٣)</sup>. وهو آلة قاذفة استخدمها الفينيقيون قديماً، وعندهم أخذها اليونان، وبواسطتهم انتشرت إلى بقية المناطق فاستخدمها الفرس، ثم العرب المسلمون، فقد أرشد المسلمين إليها الصحابي سلمان الفارسي، وقيل إنه صنعها لهم بيده، فاستخدموها في حصار الطائف سنة ٨هـ/٦٢٩م<sup>(٤)</sup>.

على الرغم من أن بعض المصادر تذكر أن المسلمين نقلوا المنجنيق عن البيزنطيين مباشرة، وليس عن طريق الفرس<sup>(٥)</sup>. ولعل ما يؤيد اقتباس المسلمين من الفرس أن لفظ المنجنيق فارسي<sup>(٦)</sup>. ومهما يكن من أمر فإن المنجنيق كان يستعمل في معارك المدن أو ما يسمى حرب الأسوار والحصار، لأن المنجنيق استخدم في الأساس لذك الأسوار بقذفها بالحجارة «وغيرها من المواد» بصورة متتالية لإحداث الثغرات في الحصون والأبراج وهدمها، لغرض النفاذ إلى داخلها. وكذلك قذفها بالمحروقات. ولذلك فهو يشبه في أيامنا هذه مدفعية الميدان الثقيلة<sup>(٧)</sup>.

(١) فيليب حتي، تاريخ العرب، ص ٧٥٦.

(٢) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٢٠٨.

(٣) آثار الأول، ص ١٩١.

(٤) الكامل، ٢/٢٦٦. محمد فرج، السلام والحرب في الإسلام، دار الفكر العربي بالقاهرة، ١٩٦٠، ص ٩٣.

(٥) Von Kremer, The Orient Under the Caliphs, p. 327, Omen, A History of the art of wars., p. 21. (٦) الجواليسي،

المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم، مطبعة (اوفسيت طهران) ١٩٦٦، ص ٣٠٦. الجوهري، الصحاح،

١٤٥٥/٤. ابن قتيبة، المعارف، ص ٥٥٤. وفييات الاعيان، ٤٥/٧. تاج العروس، ٣٠٧/٩. صبح الاعشى،

١٤٤/٢. ادي شير، الالفاظ الفارسية المعربة، ١٤٦.

يرى د. صلاح حسين العبيدي، أن ثمة احتمالاً كبيراً في أن يكون أصل المنجنيق عربياً، وأن العرب لم يقتبسوه من

الفرس أو من البيزنطيين. انظر مقاله في مجلة سومر (منجنيق من الحضرة) مجلد ٣٢ ج ١+٢ لسنة ١٩٧٦،

ص ١٢٢. ومقالة (المنجنيق سلاح عربي في ضوء التقنيات الأثرية)، مجلة آفاق عربية، السنة ٤، العدد (٥)، كانون

الثاني ١٩٧٩، ص ٧٢، ومجلة كلية الآداب، العدد (٢٥) شباط ١٩٧٩، ص ٥٩٥.

(٧) عبدالرؤف عون، الفن الحربي، ص ١٥٦.

ويمكن أن نأخذ فكرة تقريبية عن مفعول المنجنيق من التخريبات والحرائق، وأعمال الهدم التي أحدثها في أسوار المدن والقلاع الحصينة التي فتحها المسلمون، وكذلك الصليبيون، كما يبدو من وصف أورده اسامة بن منقذ لقوة منجنيق رومي «صليبي» دك به الصليبيون أسوار مدينة شيزر التي كانت تحكمها اسرة اسامة مؤلف كتاب «الاعتبار». ويقول هذا المؤلف: «لما نزل الروم إلى شيزر سنة ٥٣٢هـ/١١٣٨م، نصبوا عليها مجانيق هائلة، جلبوها معهم من بلادهم ترمي الثقل، ويبلغ حجرتها ما لا تبلغه النشابية، ويرمي الحجر عشرين أو خمسة وعشرين رطلاً<sup>(١)</sup>. ولقد رموا مرة دار صاحب اسامة فهدمت علوها وسفلها بحجر واحد<sup>(٢)</sup>».

ومع ذلك فإن بعض المهتمين بالفن الحربي لتلك الفترة<sup>(٣)</sup>، يرون أن المصادر المختلفة لم تستطع أن ترسم صورة واضحة عن هذا السلاح، لأنها - المصادر - لم تتعرض له بالوصف التفصيلي، ولم تذكر كيفية الرمي به، ولا طرق الوقاية منه. والواقع أن اتخاذ المنجنيق ليس إلا تطوراً لفكرة رمي الحجارة باليد، ثم بالمقلاع، وحين فكر الرامي أن يقذف إلى مسافة أبعد ويرمي أحجاراً أكبر ويدفع أقوى، تمخضت فكرته عن صنع جهاز تتوفر فيه كل هذه المواصفات، فاخترع المنجنيق.

وأبسط أشكاله عبارة عن قاعدة من الخشب، مربعة أو مستطيلة يرتفع في وسطها عمود خشبي قوي، ثم تركيب في أعلاه ذراع تتحرك إلى الأعلى والأسفل، وفي أحد طرفيها وعاء نصف كروي يتناسب حجمه مع هيكل المنجنيق توضع فيه المقذوفات من حجارة أو حديد أو أوعية النفط، وفي طرف الذراع الثاني يتدلى ثقل التوازن. وقد استعمل هذا المنجنيق فترة طويلة، ثم ادخل عليه كثير من التحسينات حتى صار جهازاً معقداً. ولعل أشهر وأقدم من تحدث بتفصيل عن أنواع المنجنوقات كان الطرسوسي، ثم كتب عنه مؤلفون آخرون مثل الحسن بن عبدالله في كتابه «آثار الأول» و«ارنيغا الزردكاش» مؤلف «الأنيق في المجانيق» وغيرهم.

يقول الطرسوسي: إن المنجنوقات مختلفة التركيب والأصناف، فمنها العربي وهو أتقن مصنوعات وأوثق معمولاتها، والتركي، وهو أقلها كلفة وأحصرها مؤونة، ثم الفرنجي. ثم يعين نوع الخشب الجيد الذي يصنع منه، وخاصة خشب الجراسيا «القراصيا» وخشب الأرز، وما شاكله من الأخشاب التي تمتاز بصلابتها، ويتقارب عقدها من بعضها<sup>(٤)</sup>.

وكانت ذراع المنجنيق تشد بحبال قوية متينة إلى مؤخرة القاعدة وتجذبها إلى الخلف، وعند الرمي يلف المنجنوقي العمود الخشبي بحبل الذراع فتجذب الذراع إلى الخلف، فيمتد الوتر الذي خلفها إلى نهايته، ثم توضع المواد المراد قذفها في كفة الذراع، ثم تفك الحبال الخلفية مرة واحدة، فيجذبها الوتر

(١) الرطل أكثر من ٤٠٠ غرام.

(٢) اسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ١١٣.

(٣) Claude Cahen, Les changements techniques militaires., p. 119. وعبدالرؤف عون، الفن الحربي، ١٥٦ - ١٥٧.

(٤) التبصرة، ورقة ١٢٧ ب.

بقوة عند انكماشه فتصدم الذراع بالحائط الخشبي المثبت أمامها بقوة، فترمي رميتها القوية<sup>(١)</sup>. ولعل من المفيد أن نقتبس الوصف الذي أتى به الحسن بن عبدالله حين ذكر المنجنيق اللولبي، والدائري وقال «وفيها ثقالات من الرصاص إذا دار فيها الرجال رفعت السهم، فإذا تركت رمت فلم تحتج إلى رجال كثيرين، وقد يتخذ بقسي كبار موتورة، وتجعل قبضاتها إلى الأرض مشدودة في قواعد المنجنيق، وفي أوتارها حبال مشدودة إلى حلقة المنجنيق وتحرك بزيار فيخرج أشد ما يكون، وإذا أراد الرمي بقدر النفط أو العقارب أو ما شاء فعل، فإن كان خفيفاً ثقله بالرصاص والأحجار، وإن كان من النفط أو النار اتخذ له كفة من الزرد وحبالاً بسلاسل<sup>(٢)</sup>.

والواقع أن هذا المؤلف حاول أن يعطي للقاريء فكرة واضحة عن المنجنيق، لكنه لم يبلغ المقصود، لإجمال عباراته واختصارها<sup>(٣)</sup>. وقد تفنن الصانع إلى حد بعيد في صنع المجانيق، ولم يتوقفوا عن تطويره، خاصة المنجنيق الذي يرمي النار، حتى وصل المنجنيق في العصر المملوكي في مصر والشام مرحلته الأخيرة من الكمال في عمله، والدقة في رميه. وصار يوسع الرماة أن يتحكموا في تحديد المسافة إلى حد بعيد، ووضعوا القوانين والضوابط لتحديد الزاوية وتعيين الهدف بدقة. فقد جاء في كتاب «الأنبيق في المجانيق» في هذا الصدد: «إذا أردت أن ترمي بعيداً فانك تضع الحجر في المنجنيق وترمي به إلى مطلبك، فإن أردت أبعد منه فانك تدهن اصبع المنجنيق بالزيت، فإن رميت به وبلغت ما تطلب وأردت أبعد من ذلك، فانك تضع بين حلقة سواعد المقلاع وبين الاصبع الحديد قطعة من المشاق وترمي به، فإن بلغت مقصودك فحسن، وإن أردت أبعد منه، فانك تضع في اصبع المنجنيق كعكة من حبل وترمي به، فانك تبلغ مقصودك. وإن أردت أبعد منه فانك تضع فيه كعكة أخرى، فانك تبلغ الذي تطلبه<sup>(٤)</sup>».

ويستمر الزردكاش في سرد الخطوات أو الاجراءات الأخرى التي ينبغي للمشرف على المنجنيق أن يقوم بها ليكون رميه إلى مسافات أبعد فأبعد إلى أن يبلغ عدد تلك الخطوات ثلاث عشرة خطوة. وهكذا بالنسبة لتقريب الرمي، فيقول: إن أردت القرب فانك تضع الحجر وترمي به إلى حيث تريد، فإن أردت أقرب منه، فانك تدهن ثلثي الاصبع وترمي به فانك تبلغ المقصود. ثم إن أردت أقرب تغيير الساعد بأغلظ منه، وإن أردت أقرب تغيير الساعد بأغلظ منه، وإن أردت أقرب فانك تزيد الحجر رطلاً بعد رطل إلى مائة رطل، وإن أردت أقرب من ذلك فبنوع آخر وهو أنك تخفف ما زنته رطل إلى مائة رطل فانك تبلغ المقصود<sup>(٥)</sup>.

(١) عبدالرؤف عون، الفن الحربي، ص ١٦٠.

(٢) آثار الاول، ١٩١.

(٣) عبدالرؤف عون، ص ١٥٧. د. سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، ص ٢٢٥.

(٤) د. سعاد ماهر، البحرية، ص ٢٢٦. نقلاً عن الأنبيق في المجانيق، ورقة ١٢.

(٥) د. سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، ٢٢٧، نقلاً عن مخطوط (الأنبيق في المجانيق) ورقة ١٣.

والراجع أن صناعة جهاز المنجنيق قد بلغت في عهد صلاح الدين مستوى جيداً من الاتقان والدقة، فقد كان هذا العهد الفترة التي جربت خلالها مختلف صنوف الأسلحة المتطورة التقليدية<sup>(١)</sup>، ويظهر ذلك من أنواع المنجنيقات التي وصفها الطرسوسي، وذكر تفاصيل كل نوع على حدة. فقد تحدث عن المنجنيق العربي وقال إنه يصنع من الخشب الجيد، ويكون على شكل مثلث متساوي الساقين، تكون قاعدته دون الضلعين، ويركب في أعلى المثلث آلة توازن الكفتين أو ما يسميه الخنزيرة، ويشد إليها سقف لحماية الرماة من الحاق الأذى بهم من الأعداء، وفي أحد طرفي الكفة حبل مثبت فيه مقدار ذراع، والطرف الآخر يجعل عند وضع الحجر في الكفة في خطاف حديد وثيق قد جعل في طرف السهم ليخرج منه عندما نقلت الكفة فيقذف الحجر الذي فيها<sup>(٢)</sup>.

ثم يتحدث هذا المؤلف عن المنجنيق الفارسي ويسميه بالتركي أيضاً، وكان ينصب مائلاً ويجعل له قاعدة تمسكه في ربع القائمة من الأعلى، ويركز في الأرض منفرجة عن القائمة لتمسكها ويجعل في رأس العمود القائم موضع تركيب فيه الخنزيرة<sup>(٣)</sup>.

وثمة منجنيق فارسي آخر يصفه الطرسوسي ويقول: إنه «شكله لي الشيخ أبو الحسن بن الأبرقي الإسكندري» معاصره الذي كثيراً ما أخذ الطرسوسي معلوماته عنه، ويذكر أن معدل قوة هذا المنجنيق يكون جر خمسين رطلاً، وفي أصل قائمته قوس جرح يجذبه رجل واحد، فاذا جذب الرجل السهم حصلت القنابيل «الجال» التي يجذبه بها وتر القوس في قفله واشغل الرجل الكفة في حلقة قد ثبتت في قاعدة تمسك السهم وأخذ القوس ورمى بها فأقلت السهم وقذف الحجر<sup>(٤)</sup>.

وكذلك وصف مصنف «التبصرة» منجنيقاً يسميه بالمنجنيق الفرنجي<sup>(٥)</sup>، والراجع أن المسلمين تأثروا بالصليبيين في صنعه، وبدل استعمال المسلمين لهذا المنجنيق على جملة التأثيرات المتبادلة بين القوتين المتعاديتين.

وكما قلنا فإن المنجنيق كان السلاح الأول في حرب الأسوار وحصار المدن، ولم يجر قتال في هذا المجال دون استعمال هذا السلاح الفعال، ولا تتوفر لدينا معلومات تشير إلى مكان صنع المنجنيق. ومن المحتمل أنه كان يصنع في المدن نظراً لوجود الفنيين فيها. وفي هذه الحالة كانت تجابههم مشكلة نقله وإيصاله إلى ميدان القتال بصورة مفككة ثم تركيب أجزائه، هذا بالنسبة للمنجنيق الكبير. أما المنجنيق الصغير، أو ما كان يسمى بالعرادة، فكان ينقل كاملاً على الأرجح.

وكان الصليبيون ينقلون معداتهم الثقيلة على عجلات، ويضعون آلانهم الحربية - كالدبابة - عليها<sup>(٦)</sup>، والراجع أنهم نقلوا مجانيقهم على العجلات أيضاً، في عين لم تردنا اشارات تدل على

(١) Parry and Yapp, War, Technology and Society in the middle east, p. 103.

(٢) التبصرة، ١٩١ ب.

(٣) ن. م. و. ١٩٢ ب.

(٤) التبصرة، ورقة ١٢٨ ب.

(٥) ن. م. ورقة ١٢٨ أ.

(٦) الفتح القسي، ٤٨٧.

استعمال المسلمين للعجلات، ولهذا فمن المحتمل أنهم كانوا ينقلون أجزاء المنجنيق على ظهور خيولهم<sup>(١)</sup>. ولاشك أن النقل بكلتا الوسيلتين لم يكن أمراً ميسوراً في ذلك العصر، نظراً لصعوبة الطريق، وعدم تبليطه ليسهل سير العجلات ومرور السابلة عليه، وكذلك لصعوبة العبور على الممرات المائية.

ونظراً لفعالية المنجنيق، فكر المعنيون بأمر الأسلحة، في التقليل من الأضرار التي يلحقها هذا السلاح، وذلك بالحيلولة بين مقذوفاته وبين الحصون بحفر الخنادق الواسعة وملئها بالمياه لتمنع وصول المنجنوقات إلى مقربة من أسوار المدينة. وإذا استطاع المهاجم من طم الخندق ووصلوا إلى الأسوار، عمد المدافعون عن المدينة إلى رمي المنجنوقيين بالسهم، من خلال منافذ شرفات حصونهم وقلاعهم، لذا كان القائد المهاجم يضع أمام رماة المنجنيق جنوداً مدرعين يحمون تقدم مسير الموكب ويدهم التروس. أو أن المهاجمين يحملون المنجنيق على عربة لها ستائر واقية من خيش غليظ تضعف فعل السهام الموجهة إليهم من الحصن<sup>(٢)</sup>.

وكان من وسائل الوقاية من المنجنيق، إكساء الجزء العلوي من السور بالخشب الصلب الذي لاتضره الحجارة، كخشب العرعر، لأن خط رمية المنجنيق يشبه قوساً شديداً الانحناء، على نحو ما هو حاصل في قنبلة مدفع «الهاون» الذي هو أقرب المدافع شبيهاً بالمنجنيق في سهولة الرمي به وتقوس مرماءه، فكانت هذه الأخشاب تحمي السور من حجارته إذا كُسيَ بها.

وكانوا يشدون أعلى السور بزوايا خشبية مائلة للخارج تتدلى منها ستائر من البسط الغليظة أو اللبود، أو شبك من الخيال الغليظة، ويشدونها بعيدة عن حائط السور بعض الشيء فإذا رمي بالحجر أصاب تلك الستائر فترده عن الحائط وإذا وصل كان ضعيف الأثر، فاقد القوة، فلا يضره بشيء<sup>(٣)</sup>. وهناك نوع من المنجنوقات سمي بالعرادة، استعملت لالقاء الحجارة والسهم، وهي أشبه بالمدفعية الخفيفة التي توجه قذائفها نحو مواقع العدو<sup>(٤)</sup>. ولم تشر المصادر إلى وجودها بيد المسلمين في هذا العهد، ولكن من المحتمل أنهم استعملوها دون ذكر اسمها، أو اعتبروها منجنيقاً صغيراً فعلاً.

ب- الدبابة وملحقاتها:

آلة هجومية جماعية أخرى، إلا أنها أقدم من المنجنيق، فقد استخدمها المصريون القدماء والآشوريون فال يونان والرومان والفرس والعرب المسلمون حيث استعملوها في حصار الطائف سنة ٦٢٩هـ/١٢٢٩م<sup>(٥)</sup>.

(١) نعمان ثابت، ص ١٥٨. عبدالرؤوف، الفن الحربي، ١٦١.

(٢) Claude Cahen, Les changements, p. 119.

(٣) آثار الاول، ١٩٤. الفن الحربي، ١٦٢.

(٤) عبدالرؤوف، الفن الحربي، ١٦٧.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، مطبعة الاستقامة، ١٩٣٩، ج ٢، ص ٣٥٤. الكامل، ٢٦٦/٢.

والدبابة أقل تعقيداً وقدرة على التطور من المنجنيق، ومجال استعمالها أقل منه. إذ كانت الدبابة تستعمل في حرب الأسوار فقط. وباختراع المنجنيق صار استعماله مصاحباً لاستعمال الدبابة، لأنها سلاح يعين المنجنيق في القيام بمهمته، كما تتعاون المدفعية مع الدبابات الحديثة. وهذا يعني أن الجيش الأيوبي استعمل هذا السلاح منذ أن بدأ بهجومه على المدن الحصينة والقلاع، ولاسيما منذ سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وكذلك استعمله الصليبيون في حصارهم الطويل لمدينة عكا التي دافع عنها المسلمون باستماتة.

وكانت الدبابة آلة متحركة تتخذ من الخشب السميك، وتغلف باللبود أو الجلود المنقعة في الخل لدفع النار، وتركب على عجلات مستديرة ليسهل دفعها وسحبها<sup>(٢)</sup>. وحين الوصول إلى هدفها قرب الأسوار كان المحاربون يصعدون عليها أو يدخلون في جوفها، ويدهم آلات تهشيم السور وهدمه، وكذلك كانوا يستعملون الدبابة في تسلق سور المدينة، أي أنهم جعلوها بمثابة برج وسلم، فيرتقون أعلى السور ويدهم النبال والرماح يرمون بها جنود العدو داخل الحصن أو المدن المحاصرة.

يصف ابن شداد الدبابة وصفاً شاملاً بقوله: «إنها آلة عظيمة مخيفة يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم، ملبسة بصفائح الحديد، ولها من تحتها عجل تحرك بها من داخل، وفيها المقاتلة، حتى ينطح بها السور، ولها رأس عظيم، برقية شديدة من حديد، وهي تسمى كبشاً، ينطح بها السور بشدة عظيمة، لأنه يجرها خلق عظيم فتهدمه بتكرار نطحها<sup>(٣)</sup>». وهذا يعني أن هذه الدبابة لم يكن يدفعها أحد من الخلف بل كانت تسيير عن طريق تحريك عجلاتها من الداخل، وترتبط بها الكباش التي تنطح الأسوار، وهي من ملحقات الدبابة الأساسية، ولعل النطح كان المهمة الرئيسية التي تقوم بها الدبابة. وقد يجعلون داخل الدبابة سلسلة حديد نازلة من أعلى، وفي طرفها خشبة عظيمة في قلب حديد، وطرفه على صفة رأس البكرة، وذلك الرأس من معدن فيجذبون السلسلة، وعند الجذب يدخل رأس البكرة في البرج، وإذا أطلقوا السلسلة يخرج الرأس ويضرب السور مراراً بسرعة فيحدث ثغوراً في الموضوع المقصود<sup>(٤)</sup>.

وكان يرافق الدبابة في سيرها عادة بعض الجنود الذين يشنون أمامها لحماية المشرفين عليها أثناء تأدية عملهم، كما كان يرافقها جنود آخرون مهمتهم تسهيل تقدم الدبابة، فان اعترض طريقها خندق طرحوا بعض الأخشاب عليه، فتكون بمثابة جسر تعبر عليه الدبابة<sup>(٥)</sup>.

(١) النوادر، ص ١٤٠. وانظر أيضاً: الروضتين، ١٦٢/٢. مفرج الكروب، ٣٣٤/٢. وابن الفرات، ج١، مجلد ٤، ص ٢٢٧.

(٢) آثار الاول، ١٩٢.

(٣) النوادر، ص ١٤٠. وانظر أيضاً: الروضتين، ١٦٢/٢. مفرج الكروب، ٣٣٤/٢. وابن الفرات، ج١، مجلد ٤، ص ٢٢٧.

(٤) أمين الخولي، المجدية والسلم، ص ٣٢.

(٥) آثار الاول، ١٩٢.

هذا وعرفت الدبابة بأسماء أخرى، منها «الدراجة» التي يقول ابن منظور إنها «الدبابة التي تتخذ في الحرب يدخل فيها الرجال»<sup>(١)</sup>. وكذلك عرفت باسم البرج الذي يوصف بأنه جهاز متحرك من الخشب ومغطى بالحديد والجلد، وكان يستعمل للاقتراب من حصون العدو أو المدن المنيعه، لاقحامها ولقذف السهام أو الأحجار أو أية مقذوفات أخرى. وكان يجر على عجلات خشبية أو حديدية. وكان يتألف من عدة أدوار يعلو بعضها بعضاً. فتذكر المصادر أن الصليبيين نصبوا ثلاثة أبراج مصنوعة من الخشب والحديد على عكا، ومغطاة بالجلود ومسقاة بالخل، للحيلولة دون حرقها، ويسع كل واحد منها خمسمائة مقاتل، ومركب على عجل بحيث يديرونها إلى الاتجاه المطلوب<sup>(٢)</sup>.

واعتبر البعض من المؤرخين أن الدبابة والضبر شيء واحد<sup>(٣)</sup> في حين يبدو من الشرح أن الضبر كان من ملحقات الدبابة، وليس الدبابة نفسها، وكان المهاجمون يستعملونه لدى اقتربهم من السور أو باب الحصن، فيغطون أنفسهم بقطعة سميكة واسعة من الجلد كانت بمثابة دروع جماعية، ليقوا بها أنفسهم من سهام المدافعين عن البلد. فيقول صاحب (تاج العروس) إن الضبر جلد يغشى خشباً فيها رجال تقرب إلى الحصن للقتال<sup>(٤)</sup>. بل نجد إن هذه القطعة صارت تسمى بأسماء أخرى مثل القفح<sup>(٥)</sup> أو الستارة<sup>(٦)</sup> أو الجفتا<sup>(٧)</sup> ويتحدث الطرسوسي عن هذا الجهاز الواقى دون أن يذكر اسمه<sup>(٨)</sup>. يقول (دوزي) إن الجفتا سياج ساتر (Palissade)<sup>(٩)</sup> وجاء في معجم الوسيط، وقاموس المورد أن (Palissade) سياج من اوتاد خشبية.

ويبدو أنها كانت نوعاً من المتراس أو الحاجز المعيق لتقدم العدو يحتمي خلفه الجنود الرماة أثناء القتال<sup>(١٠)</sup>. وقد استعملت الدبابة من جانب الصليبيين أيضاً، ولاسيما أثناء حصار عكا. فذكر سبط ابن الجوزي أن «ابن ملك الألمان (فريدريك باربروسا) أعد دبابة عظيمة دخل تحتها ألوف الناس، لها رأس عظيم برقية طويلة، إذا انطحت السور دخلت فيه وهدمته» إلا أن المسلمين تمكنوا من حرق هذه الدبابة الهائلة<sup>(١١)</sup>؛ رغم طابع المبالغة الواضح في تقدير حجمها.

(١) لسان العرب، ٢/٢٦٦.

(٢) البداية والنهاية، ١٢/٣٣٥. ابن الوردي، ٢/١٤٦.

(٣) د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٦٧، ج١، ص ١٨٣. احسان هندي، الحياة العسكرية، ١٤٣، عبدالرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ٣٨.

(٤) تاج العروس، ٣/٣٤٧. والافصح في فقه اللغة، مطبعة المدني، القاهرة، ط٢، سنة ١٩٦٤، ج١، ص ٦١٧.

(٥) الافصح في فقه اللغة، ج١، ص ١٦١٤.

(٦) عبدالرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص ٣١. احسان هندي، الحياة العسكرية، ١٤٢.

(٧) انظر: الفتح القسي، ١٠٥. مفرج الكروب، ٢/٢٥٨.

(٨) التبصرة، ١٣٤ ب.

(٩) Dozy, Supplement eux Dict., Vol. I, p. 200.

(١٠) انظر: الكامل، ٨/١٢ و ١٥/١٢. الفتح القسي، ص ١٠٥.

(١١) مرآة الزمان، ٨/٤٠٤.

ويتحدث مؤرخون آخرون عن دبابه صليبية أخرى أوقعت الرعب في قلوب المحاربين المسلمين المدافعين عن عكا، نظراً لضخامتها، ولأن المسلمين لم يألوا دبابه بهذا الحجم، إذ كانت مكونة من أربع طبقات «ولها من الأحكام بأس ولباس، وهي خشب وورصاص وحديد ونحاس» على حد تعبير العماد الكاتب، ويضيف هذا المؤرخ بقوله: «وفي طباقها سباع ضوار وذئاب طلّس، وبلي البلد منها بكل بلية، ورزيء بكل رزية. وكانت هذه الدبابه على العجل، ليقرّبوا بتقريبها أسباب الأجل، فباتت القلوب منها على الوجل»<sup>(١)</sup>.

واستطاع الصليبيون من إيصالها قرب أسوار عكا الحصينة، بحيث لم يبق بينها وبين البلد سوى أذرع خمسة. وخاف أهل البلد كثيراً، وحدثتهم نفوسهم في طلب الأمان من العدو وتسليم البلد، إلا أنهم وهبوا أنفسهم للجهاد، فأخذهم الحماس، وقرروا مقاومة الدبابه، فواتروا رميها بالنفط ليلاً ونهاراً، إلى أن استطاعوا إحراقها، واندلعت النيران فيها «وارتفعت لها ذؤابة نحو السماء، واشتدت الأصوات بالتكبير والتهليل»<sup>(٢)</sup> ويقول العماد «وأضاءت الأفاق بنيرانها، واطلمت بدخانها. فجلت لنا بياض النصر في السواد، فكأنه سواد الناظر أو سويداء الفؤاد، بل سواد المداد يأتي من أنواره بالامداد، فجلا حريق هذه الدبابه صداً قلوبنا المغتمة...»<sup>(٣)</sup>. وهذا يدل على ما كان للدبابه من نكاية وأثر قوي في هدم الأسوار، وإلحاق الهزيمة بالمدن التي تنصب عليها.

وكان الكبش يركب على كتلة خشبية ضخمة مستديرة يبلغ طولها حوالي عشرة أمتار أو أكثر، وتندلى هذه الكتلة من سطح الدبابه محمولة بسلاسل أو حبال قوية تربطها من موضعين، فإذا أراد الجند هدم سور أو باب قريوا الدبابه منه، ثم وقفوا داخلها يأخذون في أرجحة رأس الكبش للخلف والأمام، وهو معلق في السلاسل ويصدمون به السور أو بابه، مرات عديدة، حتى تنهار حجارته، فيعملون على ثقبه وهدمه، أو يدخلون المدينة من بابها بعد ان استطاعوا تهشيمه<sup>(٤)</sup>.

والملاحظ أن الصليبيين صنعوا كباشاً مخيفة في محاولة منهم فتح عكا. فقد وصف العماد الكاتب كبشاً مركباً على دبابه ضخمة بقوله: «واستأنف الفرنج عمل دبابه هائلة، وآلة للغوائل غائلة. في رأسها شكل عظيم يقال له الكبش، وله قرنان في طول رمحين كالعمودين الغليظين. فكم سور إذا نطحته طحنته»<sup>(٥)</sup>.

وكانت الدبابه متينة «فقد سقّفوها مع كبشها بأعمدة الحديد، وكمّلوا لها أسباب الإحكام الشديد ولبسوا رأسي الكبش بعد الحديد بالنحاس، وكسوها حذراً عليها من النار سائر لباس الباس. فلم يبق

(١) الفتح القسي، ٤٨٧. وانظر (النوادر) في وصف هذه الدبابه، ص ١٦٢.

(٢) مفرج الكروب، ٣٥٢/٢. ابن الفرات، ج ٢، مجلد ٤، ص ٨.

(٣) الفتح القسي، ٤٨٧.

(٤) جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ١٩٠/١. نعمان ثابت، الجندية، ١٨٥.

(٥) الفتح القسي، ٤٣٢. الروضتين، ١٦٤/٢.

للنار إليها سبيل، ولا للعطب عليها سبيل»<sup>(١)</sup>. ومن ملحقات الدبابة الأخرى، أو الآلات التي تستعمل معها - إضافة إلى الكيش - آلة تسمى «سفود»<sup>(٢)</sup> مصنوعة من الحديد أو الفولاذ، وهي تختلف عن الكيش في «أن رأسها محدد، على شكل السكة التي يحترق بها، في حين أن رأس الكيش مدور، وهذا يهدم بثقله، وتلك تهدم بحدتها وثقلها»<sup>(٣)</sup>.

وفي المعركة التي حدثت في ٤ رمضان ٥٨٦هـ / ١١٩٠م، أوقع المسلمون الهزيمة بالعدو و«هجموا على كبشهم، وألقوا فيه النار والنفط، وتمكنوا من حرقه لهرب المقاتلة عنه... وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل وسرت نار الكيش بوقتها إلى السفود فاحترق، وعلق المسلمون في الكيش الكلاب الحديد المصنوعة في السلاسل فسحبوه، وهو يشتعل، حتى حصلوه عندهم في البلد، وكان مركباً من آلات هائلة عظيمة، وألقوا الماء عليه حتى برد حديده وبلغنا - كما يقول ابن شداد - من البلد أنه وزن ما كان عليه من الحديد فكان مائة قنطار بالشامي» ثم أنفذ رأس الكيش إلى السلطان ومثل بين يديه، وشاهده المؤرخ المذكور وقلبه، ويقول إن شكله على مثال السفود الذي يكون بحجر المدار، قيل: إنه ينطح به فيهدم ما يلاقيه، وكان ذلك من أحسن أيام الإسلام<sup>(٤)</sup>.

وكذلك كان من ملحقات الدبابة السلاالم التي كانت تساعد المحاصرين على اعتلاء الأسوار وفتح مغاليق الحصون، وقد كانت سلاالم الحصار تصنع أول الأمر من الحبال التي تنتهي بخطافات يسهل تعليقها بحجارة السور، ثم صارت تصنع من الخشب أو الحديد، كما وكانت تزود، في بعض الأحيان، بعدة عجلات أو بكرات ليسهل نقلها من مكان إلى آخر<sup>(٥)</sup> وقد استخدمت هذه السلاالم في الحروب الصليبية أيام صلاح الدين<sup>(٦)</sup>.

### ثالثاً: أسلحة وقاية الجسم:

وهي تلك التي يمكن تسميتها بالأسلحة الدفاعية، أو التي تستخدم لوقاية الجسم، وتفادى الإصابة بضربات العدو. وقد جاء استعمالها بعد الأسلحة الهجومية، لأن الدفاعية تأتي للحد من إصابات الأسلحة الهجومية، وهذا ما نعني به الأسلحة الدفاعية. إلا أننا إذا نظرنا إلى أنواع الأسلحة نظرة شمولية نجد أنها تستعمل للهجوم وللدفاع معاً، وحتى التي نطلق عليها اسم الأسلحة الدفاعية يمكن

(١) نفس المصدرين والصفحتين.

(٢) (سنور) في النوادر ص ١٤١ و(سفود) في الروضتين ١٦٢/٢. ومفرج الكروب، ٣٣٤/٢. وما في النوادر تصحيف من الناقل.

(٣) النوادر، ١٤١. وانظر: الروضتين، ١٦٢/٢. مفرج الكروب، ٣٣٤/٢.

(٤) النوادر، ١٤٢. الروضتين، ١٦٣/٢. والملاحظ أن المصادر الإسلامية، ولاسيما المعاصرة منها، حين تتحدث عن الأسلحة والمعدات التي كانت تستعمل في الحروب الصليبية، فإنها تتحدث - على العموم - عن تفاصيل تلك المعدات التي كان يستعملها الصليبيون، خاصة المعدات الثقيلة، وليس تلك التي كان يستعملها الجيش الإسلامي.

(٥) احسان هندي، الحياة العسكرية، ص ١٤٩.

(٦) النوادر، ١٤١. الروضتين، ١٦٢/٢. مفرج الكروب، ٣٥٣/٢.

إستعمالها في حالة الهجوم كذلك، إلا أنها تبقى أسلحة دفاعية لوقاية جسم المحارب في المقام الأول. وأهم صنوف هذه الأسلحة:

#### ١- الترس:

هو الآلة التي يتقي بها الضرب والرمي عن الوجه والصدر، أي يصون الجسم من ضربات السيف والرمح والسهم والحجارة وغيرها. وكما جاء في (لسان العرب) أن الترس يعني التستر بالترس. ويسمى (الجنة) أيضاً أخذاً من الاجتنان، وهو الاختفاء، وكان الترس يصنع من الخشب ثم استبدل بالحديد، أما الذي كان يصنع من الجلد، فيسمى (درقة)<sup>(١)</sup> وصنع أحياناً من عيدان مضمومة، ولفت عليها خيوط القطن المغزول<sup>(٢)</sup>.

وكان يصنع بأشكال مختلفة منها المسطح والمستطيل المحفر الوسط (المقعر)، ومنها المقبب المنحني الأطراف إلى الخارج، وهذا النوع لا يتقى به الرمح لأنه متى طعن ثبت الرمح فيه وصرع صاحب الترس، وإنما يتقى من النشاب لأن رأسه يستتر رأس الفارس وطوله يقي جسمه، والمسطح يتقى به الرمح<sup>(٣)</sup>.

ولاشك أن الترس الكبير، كان يضايق المحارب الفارس، ويشل استخدام ذراعه اليسرى التي تمسك به، إلا أنه كان مريحاً أكثر بالنسبة للمشاة. فكان على الفارس أن يحمل ترساً خفيفاً ليكون أكثر قدرة على الحركة. ويلاحظ أن الترس الذي استعمله العرب والمسلمون - ولاسيما في عصر الحروب الصليبية - كان مستدير الشكل<sup>(٤)</sup>. وقد تفنن الصناع المسلمون في صنع الأتراس ونقشوا عليها الآيات والحكم والأشعار<sup>(٥)</sup>.

ونظراً للاحتكاك الحربي المستمر بين المسلمين والصليبيين، صار من المألوف أن يتأثر أحد الطرفين بما كان لدى الطرف الآخر من معدات، ومنها الترس، فصار المحارب المسلم يستعمل الطارقيات وهي التروس التي يستعملها الفرنج والروم ويتباهون في حسن اذهايتها ودهانها وتلوينها بأنواع الأصباغ وتصويرها واتقانها. وكانت الطارقيات مستطيلة في شكلها بحيث تستطيع أن تستتر جسم الرجل أو الفارس<sup>(٤)</sup>.

يرى دوزي أن أصل الطارقة مأخوذ من الكلمة اللاتينية (تاركا Targa)<sup>(٥)</sup> ولدى وصف المؤرخين

(١) ابن هذيل الاندلسي، حلبة الفرسان، ص ٢٣١. صبح الاعشى، ١٤٣/٢.

(٢) آثار الاول، ١٦١. نعمان ثابت، الجندية، ١٧٩. جرجي زيدان، ١٨٦/١.

(٣) صبح الاعشى، ن. ص. التبصرة، ١٠٩ أ.

(٤) لاحظنا أن كافة التروس المعروضة في متحف دمشق الحربي مستدير الشكل.

(٥) زيدان، ١٨٧/١. د. زكي، السلاح في الإسلام، ص ١٦. احسان هندي، الحياة العسكرية، ص ٦٩.

(٤) التبصرة، ورقة ١٠٩ ب.

(٥) دوزي، هامش ٣. مفرج الكروب، ٢٧٩/٢. ونحن بدورنا لانستبعد أن تكون (طارقة) مأخوذة من (درقة) المذكورة.

المسلمين للتروس الصليبية فإنهم يستعملون هذا اللفظ (الطوارق) دون غيره، فقد ذكر العماد أن الصليبيين كانوا «لماضعهم ملازمين... وبالخنادق محتمين وبالطوارق معتصمين» وفي مكان آخر ذكر أن الصليبيين تدرعوا بالأسوار والخنادق وتستروا بالطوارق. وقد استعمل المسلمون الطارقيات في بعض حروبهم. فقد ذكر ابن الأثير أن المسلمين رموا الصليبيين، لدى فتح حصن برزية المنيع في جمادى الآخرة ٥٨٤هـ/١١٨٨م بالطارقيات<sup>(١)</sup>. وثمة نوع آخر من التروس سمي بالجنويات، والجنة تطلق على ما اتقى بها كالترس والدرع<sup>(٢)</sup>.

يضيف الطرسوسي الجنويات بقوله إنها كالطوارق إلا أنها غير محددة الأواخر، بل مقطوعة لتقف على الأرض، وهي التي يزحف بها الرجالة للقتال، وتكون للصف كالحصن المانع من النبال. ويضيف أن هذا الترس لا يؤثر فيه شيء من السلاح، ولا سهام قسي الزبار<sup>(٣)</sup>. وكانت الجنويات بيضوية أو مستطيلة الشكل، وكانت من السعة بحيث كانوا يحملون عليها المجرى أحياناً<sup>(٤)</sup>، أي أنهم كانوا يحولون الترس إلى نقالة عند اللزوم. هذا ويرد ذكر الجنويات مع الطارقيات في المصادر العربية أحياناً<sup>(٥)</sup>.

ومن معدات وقاية الجسم الأخرى، ما كان يلبس، سواء منها في الرأس أو في الصدر والظهر، وكذلك الذراعين وحتى الركبتين. وكان ارتداؤها ضرورياً للحد من تأثير الأسلحة، ولاسيما السلاح الأبيض، كالسيوف والرمح والسهام، بل إن المعنيين بأمر السلاح اكتشفوا طرقاً للوقاية من النار، فكانوا يرتدون ثياباً تطفى من الداخل والخارج بمواد متخذة من النشادر والشب المصري واليمني ومواد أخرى. فإذا اندلعت النار في ثوب المقاتل بتأثير المواد الحارقة فإن النار لاتصل إلى داخله لارتدائه اللباس الواقي<sup>(٦)</sup>؛ وكان يطلق على هذا اللباس اسم (التجفاف).

ونرى أن صنع معدات وقاية الجسم المعدنية كان يكلف الكثير من المال والجهد والوقت، ولهذا فإن ارتداها اقتصر على القادة وأمراء الجيش، أو الذين يوجهون للقيام بمهمات خاصة تستوجب ارتداء هذه الدروع والملابس. فقد كان من الصعب توفيرها لكافة المحاربين، في وقت كان استخراج المعادن، ومنها الحديد، وتصفيتها وصبها في قوالب خاصة، أو تقطيعها وتركيبها على شكل مناسب للجسم، أو أحد الأطراف، من العمليات الشاقة، وتجري في ظروف صعبة وبطرق بدائية، جعلت توفير هذه المعدات لكافة المحاربين أمراً غير ممكن، ونتكلم أولاً عن الغطاء الحديدي الذي كان يلبس على الرأس.

(١) الكامل ٧/١٢ و ١٥/١٢.

(٢) النويري، نهاية الأرب، ٢٣٩/٦.

(٣) التبصرة، ورقة ١١٠ آ.

(٤) احسان هندي، الحياة العسكرية، ص ٧١.

(٥) النوادر، ٢٢٦. الكامل، ١٥/١٢. الروضتين، ٢٠/٢.

(٦) امين الخولي، الجندية والسلم، ص ٤٤، نقلا عن مخطوط (الاحكام الملوكية) لابن منكلي، ص ٢٩.

## ٢- أغطية الجسم:

### أ- المغفرة والبيضة

تتحدث المصادر عن نوعين من الأغطية التي كانت تلبس على الرأس، أولهما (المغفرة) أو (الغفارة) وهي زرد أو حلقات الدرع ينسج على قدر الرأس<sup>(١)</sup> ثم يتدلى منه ليغطي الرقبة وجوانب الوجه، والذي يكون عادة متصلاً بالجوشن نفسها<sup>(٢)</sup>. وفوق المغفرة يضع المقاتل على رأسه غطاءً آخر من حديد أشبه بالخوذة، يسمى البيضة<sup>(٣)</sup> وعلى البيضة تلبس العمامة أو القلنسوة<sup>(٤)</sup>.

### ب- الجوشن:

أما الدرع التي كانت تلبس على بقية أجزاء الجسم فكانت على هيئة ثوب ينسج من حلقات حديد رفيعة، يشبه في نسجها إلى حد ما «الشبكة» التي يضعها رجال الفرسان في بعض الجيوش على أكتافهم، وتسمى (الجوشن)<sup>(٥)</sup>. وأحياناً كانت حلقاتها تنسج مزدوجة، وتسمى (الدروع المضاعفة) لتزداد إحكاماً ومنعة.

والدرع في الغالب يكون قطعة واحدة يغطي البدن من العنق إلى الركبتين أو ما دونهما، تشبه إلى حد ما الثوب الذي يلبسه جنود الفرسان المسمى بالانكليزية (أوفرال Overall)<sup>(٦)</sup>، وكانوا يلبسون تحت الدرع غلالة من ثوب، قد يكون من الكتان السميك، أو تكون درعاً صغيرة، وتسمى الشليل<sup>(٧)</sup>.

ولا حاجة بنا إلى ذكر كافة أصناف الدروع والزرد الفضفاضة والمغافر، وذكر تسمياتها العديدة التي تحفل كتب اللغة بشروح أنواع هذه المعدات وأجزائها، نظراً إلى عدم استعمالها أيام صلاح الدين بنفس التفاصيل والنوعية والتسمية. فرأينا أن نلقي الضوء على أهم أنواع معدات الدفاع والتي كانت موجودة فعلاً، أو يرجح وجودها، في ذلك العصر. وقد بلغت صناعة الدروع أوجها عند المسلمين في هذه الفترة<sup>(٨)</sup> فيذكر الطرسوسي لدى كلامه عن

(١) ابن سيده، المخصص، المكتب التجاري، بيروت، مجلد السفر السادس، ص ٧٢. تاج العروس ٤/٤٥١. والافصح في فقه اللغة، ط ٢، ح ١، ص ٦١٥.

(٢) تاج العروس، ن. ص. صبح الاعشى، ١٤٢/٢.

(٣) صبح الاعشى، ن. ص. ابن هذيل، حلبة الفرسان، ٢٣٠.

(٤) تاج العروس، ٤/٤٥١.

(٥) ابن منقذ، الاعتبار، ٥٢. تاج العروس، ٩/١٦١. ادى شير، الالفاظ الفارسية المعربة، ٤٩٠. محمد فرج، السلام والحرب، ٩٢. هنداي، المعجم الفارس، ١١٣.

(٦) عبدالرؤف عون، الفن الحربي، ص ٥١.

(٧) ابن سيده، المخصص، مجلد ٢، السفر السادس، ص ٧٠. الافصح في فقه اللغة ١/٦١٥.

(٨) عبدالرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص ٢٧.

صناعة الدروع: أن الجواشن كانت تصنع من قطع صغيرة من الحديد تارة، ومن القرن تارة، ومن الجلود تارة أخرى... وكانوا يركبون اخلاطاً إذا عجنت واتخذت جواشناً منعت السهام أن تنفذ فيها، وأثنت السيوف بل فللتها وكسرتها<sup>(١)</sup>. ثم يتحدث الطرسوسي عن تفاصيل تراكيب عجيب يخلط مساحيق عدة مواد مع طحال أو دم ومواد أخرى، ثم تحفيها<sup>(٢)</sup>.

وإحدى طرق تحضير المواد تكون بأخذ جلود الإبل وتنقيها في اللبن والقلي إلى أن يتقشر شعرها ويبيض لونها وترفع، وتفصل من الجواشن، وتترك فترة، ثم تعمد إلى نوع من الزجاج، فيسحق سحقاً ناعماً ويخلط مع برادة النحاس مع مواد أخرى، وتؤخذ من كل واحد جزء وتعجن بالغراء ويكسى منها الجلود المنفصلة (المذبوغة) وجهاً واثنين وثلاثة وأربعة، ويترك كل وجه حتى يجف، ثم يلبس بالدهن ودهن الأصباغ<sup>(٣)</sup>.

إلا أن ارتداء هذه الدروع في الواقع لم يكن أمراً سهلاً، فرغم مزاياها الدفاعية، إلا أن عيوبها تظهر عند الاستعمال، ولم يكن من الممكن القضاء على هذه العيوب. فثقل القميص المزود كان يقع على الكتفين، كما أن كمي القميص كانا من الثقل بحيث يتعذر استخدام السيف في قوة ويسر. أضف إلى ذلك أنه وجد بالتجربة العملية أن طيات الزرد عند ثنية الدراع تعوق الساعد واليد عن العمل على وجه فعال.

ولما كانت ضربة الرمح أو السيف أو الفأس قد تحطم الزرد فتخترق حلقاته المتشابكة لحم المصاب وتشتد خطورته إلى حد بالغ، فقد وجد - كما ذكرنا - أن من الضروري أن يلبس تحت الزرد ثوب سميك محشو أو ملبد، وكان هذا مما يعوق المحارب أيضاً، لأنه يغدو إنساناً مدرعاً ثقيلاً، يفقد حرية الحركة وسرعة الالتفات<sup>(٤)</sup>.

وكانت الواقيات الدفاعية المصنوعة من القماش أو الجلد تقوى بصفائح معدنية صغيرة. وقد اكتسب صانع السلاح المزيد من الخبرة في حرفته بمرور الزمن - كما وضع ذلك الطرسوسي - وصار يصمم واقيات أكبر وأكثر تعقيداً وأخف وزناً وإعاقة.

وتشير المصادر إلى هذه الدروع والكزاغند الذي هو ثوب مبطن بالحريير يلبس أيام القتال<sup>(٥)</sup> وكان يشبه معطفاً قصيراً<sup>(٦)</sup>. وقد استعمل أيام الحروب الصليبية، ووردت عنه إشارات عديدة، وهو شبيهه بالكبير أو الكبيرة الذي هو قباء يتخذ للحرب<sup>(٧)</sup>.

(١) التبصرة، ورقة ١١٦ ب.

(٢) التبصرة، ورقة ١١٨ أ.

(٣) التبصرة، ورقة ١١٩ ب.

(٤) هامرتن، تاريخ العالم، ٣٢٥/٥.

(٥) محمد التوحجي، المعجم الذهبي، ص ٤٤٦.

(٦) أو الجاكيت Jacquetto كما في معجم دوزي. Dozy, Vol. 2, p. 479 Surcoat الذي هو معطف يرتديه الفرسان

فوق دروعهم. المورد، ص ٩٣٢. وانظر مفرج الكروب ٤٤/٢ هامش (٥).

(٧) الجواليقي، المغرب، ص ٢٥٢.

ويبدو أن الكبيرة كان يلبسها الفرسان والمشاة معاً أيام صلاح الدين، فقد ذكر ابن شداد أن «الرجالة كان عليهم الكبيرة الشخينة»<sup>(١)</sup> وكان صلاح الدين يلبس المغفر والكراغند بصورة دائمة أثناء المصادمات<sup>(٢)</sup> فقد ذكر ابن الأثير أن بعض أفراد الطائفة الاسماعيلية كادوا أن يقضوا على صلاح الدين في سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م حين وثبوا عليه أثناء ما كان نازلاً على قلعة (اعزاز) قرب حلب «لولا المغفر الزرد الذي كان يلبسه تحت قلنسوته، فأمسك صلاح الدين يد الاسماعيلي» إلا أن هذا ظل يوجه طعناته على رقية صلاح الدين بالسكين «وكان عليه كراغنده، فكانت الضربات تقع في زيق الكراغند فتقطعه، والزرد يمنعها من الوصول إلى رقبته لبعده أجله»<sup>(٣)</sup>.

ولعل هذه التجربة المبررة علمت صلاح الدين - وهو في بداية حياته العسكرية في الشام - ألا ينزع كراغنده إلى نهاية حياته. فيذكر ابن شداد أنه نظر إلى صلاح الدين ذات يوم من أيام الشتاء ٥٨٩هـ/١١٩٣م أي قبيل وفاته بفترة قصيرة «فلم أجد عليه كراغنده، وما كان له عادة يركب بدونه... فلم أجد الصبر دون أن سرت إلى جانبه وحدثته في إهمال هذا، فكأنه استيقظ فطلب الكراغند...»<sup>(٤)</sup>.

#### ج- التجفاف:

يرد في مصادر هذه الفترة وكتب اللغة والسلاح ذكر (التجفاف) وهو لفظ فارسي، أصله (تن بناه) أي حارس البدن<sup>(٥)</sup>. وكان لباساً يرتديه الفارس، ويلبسه حصانه كذلك<sup>(٦)</sup>، للوقاية من الإصابة بالنار. وقد ذكر ابن شداد أن التجفاف كان لباساً واقياً خاصاً بالمحاربين الفرسان، حين تحدث عن عدد أفراد جيش إحدى الحملات الصليبية، وقال: كان عددهم «اثنين وأربعين ألف مجفجف، وأما الرجالة فلا يحصى عددهم»<sup>(٧)</sup>.

أما إن منكلي فيجعل التجفاف لباساً يغطون به جسم الفرس<sup>(٤)</sup> والذي يوضح هذا ما جاء في شروح الطرسوسي في صنع التجفاف «وهو أن تؤخذ تجافيف مبطنة باللبود فيكسى بها الخيل بعد أن تطليها بالطلاء المانع من إحراق النار»<sup>(٥)</sup> ثم يبدأ الطرسوسي بشرح طريقة تحضير المواد التي تطلى

(١) النوادر، ١٧٩. وانظر أيضاً: الروضتين ٢/١٩٠. مفرج الكروب، ٢/٣٦٥.

(٢) مرآة الزمان، ٨/٣٣٤.

(٣) الكامل، ١١/٤٢٩. سنا البرق الشامي، ١/٢١٠ - ١١١. وانظر زبدة الحلب ٣/٢٩. مفرج الكروب، ٢/٤٤ -

٤٥.

(٤) النوادر، ٢٤٢ - ٢٤٣. مفرج الكروب، ٢/٤١٥.

(٥) الجواليقي، المغرب، ١٩١. ادي شير، الالفاظ الفارسية، ص٣٤.

(٦) الافصاح في فقه اللغة، ط٢، القاهرة ج١، ص٦١٣.

(٧) النوادر، ١٢٦.

(٤) مخطوط (التدبيرات السلطانية) ورقة ٦٣.

(٥) التبصرة، ورقة ١٤٥ ب.

بها الملابس الواقية، يقول: إنها مكونة من الطلق المحلوب والصمغ العربي والجبس والدقيق وبياض البيض وغيرها، ثم تعجن هذه المواد «بخل خمر قد مزج بالماء حتى انكسرت حموضته عجنًا شديداً، وتلطخ بذلك التجافيف لطحاً جيداً»، ثم يقول: «وتشدها في مقدم الفرس وفي مؤخرته وحول الكفل، كل ذلك على التجافيف، أما المحارب فيلبس درعاً من خيش مبطن باللبود وسراويلاً، وقد اشبع جميع ذلك بالطلاء المذكور... وكذلك تطلّى بها القلنسوة المصنوعة من اللبود»<sup>(١)</sup>.

#### رابعاً: المثلثات

على الرغم من أهمية هذا النوع من السلاح، إلا أننا لم نعثر على إشارة في الكتب الخاصة بأحداث عصر صلاح الدين تثبت استعماله، من قبل الجيش الإسلامي، أو الجيش الصليبي، إلا أننا نستبعد عدم استعماله، نظراً لأهميته في المعارك التي تعتمد على المناوشات القصيرة بين قوتين متجاورتين متعاديتين، ولاسيما وأن اليك الإسلامي - كما ذكرنا - كان يمتاز بفعاليتيه المستمرة، خاصة أيام صلاح الدين، إضافة إلى أن الطرسوسي معاصر صلاح الدين يشيد بهذه الآلة ويمتدح نكايتها ويصفها بأنها من ألطف الآلات، جمعت بين المحاسن والكفاية، أنها أبدع المصنوعات وأسرعها تأثيراً في النكاية<sup>(٢)</sup>. وكذلك يتحدث عنها الهروي، المعاصر لصلاح الدين كذلك، ويطلب من الجيش أن «يفرش الحسك حول المواضع القريبة» للحيلولة دون اقتراب العدو<sup>(٣)</sup>.

وأصل الحسك، نبات له ثمرة خشنة «شوكية» تتعلق بصوف الغنم ووبر الإبل في مراتعها<sup>(٤)</sup> وهي شوكة صلبة معروفة<sup>(٥)</sup>. إلا أن اللفظ صار يطلق على آلة صغيرة تصنع من الحديد أو الخشب، ذات أطراف شوكية على هيئة مثلث مستدق الأطراف شبيه بأشواك الحسك الابرية، ترمى في طريق خيول العدو لتتشب في حوافرها وتمنعها من الحركة<sup>(٥)</sup>.

وقد يجعلون الحسك أكثر من ثلاث قوائم، كأن تكون ذات ست قوائم، وعندئذ تكون للحسك ثلاث شوكات قائمة على وجه الأرض، وتتغرز في الأرض ثلاث شوكاته الأخرى<sup>(٦)</sup>.

أما حالات استعماله فهي:

أولاً- في حالة الدفاع المستكن، وذلك لعرقلة تقدم العدو نحوهم وإحباط هجومه إذا أمكن، وليعقبوا

(١) ن. م، ورقة ١٤٦ ب.

(٢) التبصرة، ٧٨ آ.

(٣) التذكرة، ص ١١٣.

(٤) تاج العروس، ١١٩/٧.

(٥) لسان العرب، ١٠/١٩٤. والافصح في فقه اللغة، ح ١، ص ٦١٧.

(٥) آثار الاول ١٩٤. الشيخ احمد رضا، متن اللغة، مطبعة دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٨، ٨٨/٢. وانظر ادي شير،

الالفاظ الفارسية المعربة، ص ٥١. احسان هندي، الحياة العسكرية، ص ١٥٤-١٥٥.

(٦) التبصرة، ١١٧٨. امين الخولي، الجندية والسلام، ص ٤٢.

هجومه باعطاب سنايك خيوله، وكانوا بهذه الحالة يفرشون بالحسك الأرض المحيطة بمواقعهم كلها، إلا دروباً خاصة لا يعرفها غيرهم، يتركونها دون فرشها، وذلك لكي يتمكنوا من استخدامها للقيام بالهجوم المضاد إذا سمحت لهم الظروف بذلك. وبهذا الصدد يذكر الخوارزمي أن الأمير إذا خاف من مكائد العدو فليثثر الحسك، في الطرق ليأمن<sup>(١)</sup>.

ثانياً- لاستدراج العدو وإيقاعه في كمائنهم المنصوبة، وذلك بخدع العدو بالدخول معه في معركة وهمية، ثم التظاهر بالهزيمة، وعندما تبدأ قوات العدو بمطاردتهم ينثرون الحسك في طريقها، فينشرب في أرجل الخيل فلا تتقدم ولا تتراجع، عندها يبرز رجال الكمين، ويحاصرون العدو ويرمونهم بالسهم ويقضون عليه، وكان استعماله في هذه الحالة يشبه عملية زرع القنابل وبث حقول الألغام حول المعسكرات في الحروب الحديثة.

ثالثاً- في فترات توقف القتال اليومي، إذ كانوا يدخلون معسكرهم، ويفرشون الأراضي التي يحتمل أن يتقدم العدو منها بالحسك لكي يحتاطوا من مفاجآته لهم ليلاً. وكان هؤلاء الفعلة من المتدربين يتقنون مهمتهم هذه بشكل جيد<sup>(٢)</sup>.

هذا وكان من الضروري أن تحدد شوكات الحسك وتبرد ثم تسقى بالسموم، لأن هذه الآلات كما يقول الطرسوسي - إذا سقيت قتلت<sup>(٣)</sup>.

#### خامساً: العجلات

وأخيراً لابد من الإشارة إلى مسألة جديدة بالذكر تخص إحدى معدات القتال التي انفرد الجانب الصليبي باستعمالها في بعض مجالات الحرب، وهي العجلات أو العربات، فالمعروف أن هذه الآلة، على الرغم من قدمها، واستعمالها من قبل أقوام عديدة قبل الإسلام، كالمصريين والآشوريين والفرس والرومان وغيرها، إلا أنها لم ترد عنها إشارة تؤكد استخدامها في تاريخ الحروب الإسلامية، وهذا أمر جدير بالتقصي والبحث.

لكن الملاحظ من جانب آخر أن العجلات، على الرغم من عدم استعمالها في الحروب ولاسيما في نقل الجيوش، إلا أن الصليبيين قد استعمالوها في مجالات أخرى وعلى نطاق ضيق، فيذكر ابن شداد أن الصليبيين كانوا ينقلون قتالهم أثناء المعارك من ميدان القتال بواسطة العجلات<sup>(٤)</sup>.

ويذكر كذلك أن الصليبيين حملوا الأبراج الثلاثة الهائلة التي كانت «كأنها الجبال» على عجل. ولاشك أن العربة الحاملة لهذه الأبراج كانت ضخمة إلى حد كبير، إذ يقول المؤرخ إن الواحد منها كان

(١) الخوارزمي، مفيد العلوم ومبيد العلوم، ص ٣١٨. عبدالرؤف عون، الفن الحربي، ص ١٩٧.

(٢) احسان هندي، الحياة العسكرية، ص ١٦٩. نعمان ثابت، الجندية، ص ١٥٦.

(٣) التبصرة، ٧٨. أ.

(٤) النوادر، ١١٣. الروضتين، ١٤٦/٢.

يسع « ما يزيد على خمسمائة من المقاتلة، ويتسع سطحها لأن ينصب عليه منجنيق، وكان ذلك قد عمل في قلوب المسلمين من الخوف ما لا يمكن شرحه... وتقطعت قلوب المقاتلة فيه»<sup>(١)</sup>.  
وأثناء السير إلى جبهة القتال كان الصليبيون يرفعون علمهم «على عجلة وهو مغروس فيها، وهي تسحب بالبعال وهم يذبون عن العلم»<sup>(٢)</sup>.

(١) النوادر، ١٢٠. الروضتين ١٥٣/٢.

(٢) النوادر، ٤٩. الروضتين ١٧٩/٢.

## الفصل الخامس البحرية الأيوبية

### تمهيد

- ١- إصلاحات صلاح الدين في مجال البحرية.
- ٢- مراكز صناعة السفن في مصر.
- ٣- أنواع المراكب في البحرية:
  - أ- الطريدة ب- الشيني ج- البطسة
  - د- الحراقة هـ- المسطح و- الحمالة
  - ز- البركوس ح- الشلندي ط- الأعزازي
  - ي- العشير.
- ٤- معدات الأسطول وأسلحة المقاومة:
  - أ- الكلاب ب- الباسليقات
  - ج- التوابيت د- اللجام.
- ٥- نشاط البحرية والمراحل التي مرت عليها:
  - أ- مرحلة التمهيد.
  - ب- مرحلة قوة الأسطول الأيوبي في مصر.
  - ج- مرحلة ما بعد حطين إلى صلح الرملة.



## تمهيد

لكي تكتمل الصورة عن الجيش الأيوبي، نرى من الضروري أن نتحدث عن القوة البحرية الأيوبية باعتبارها قوة دعم لهذا الجيش. وبحرية صلاح الدين إنما هي استمرار للبحرية الفاطمية التي كان لها دور كبير في الدفاع عن سواحل مصر وسواحل الشام التي كانت تابعة للفاطميين في وقت سابق<sup>(١)</sup>. وحين نهضت الدولة الصلاحية بمسؤولية الدفاع عن أراضي مصر، ثم الشام كانت البحرية المصرية قد ضعفت إلى حد كبير، ولاسيما في بلاد الشام، بسبب استيلاء الصليبيين على عسقلان وصور وعكا. وبلغت عدة الأسطول الفاطمي في أواخر أيامها «ثمانين شوان وعشر مسطحات وعشرة حمالات»<sup>(٢)</sup> وقد تفاقم وضع هذا الأسطول سوءاً، فحين توجه الصليبيون للمرة الرابعة إلى مصر بقيادة ملكهم (اموري) في عهد وزارة شاور، أمر هذا الوزير بإشعال النار في حوض السفن، فاحترقت مراكب الأسطول، ونهبها العبيد فيما نهبوا<sup>(٣)</sup>. وإذا صحت رواية المقريزي فإن هذا يعني أن صلاح الدين قد بدأ من الصفر في إنشاء أسطول البحرية الأيوبية في مصر<sup>(٤)</sup>. ومن أجل إحياء البحرية في مصر قام صلاح الدين بجملة من الإصلاحات وهي:

### أولاً:

جعل غابات مصر ملكاً للدولة، ولا سيما غابات المناطق «بهنسا وسفط وأشمونين وأسيوط وأخميم وقوص» وكانت قيمة العود الواحد تبلغ مائة دينار حسب قول المقريزي<sup>(٥)</sup>. ولم يسمح بموجب هذا القرار لأحد بالتصرف بالأشجار، وذلك للارتفاع بأخشابها وقد ظل هذا المبدأ معمولاً به إلى أواخر الدولة الأيوبية في مصر، على الرغم مما أصاب الأسطول من إهمال، كما سنرى. وبهذا الصدد ذكر عثمان بن ابراهيم النابلسي المعاصر للدولة الأيوبية في مصر: «أن الحراج - الغابات - حكمها حكم المعادن وهي لببت مال المسلمين، ما لأحد فيها ملك ولا اختصاص»<sup>(٦)</sup> وصار مفعول هذا القانون يسري على المواد الضرورية التي تستوردها الدولة من الخارج أيضاً، ولاسيما الحديد والخشب الضروريان لقيام صناعة السفن، فمما يذكر أن الدولة الأيوبية كانت لها

(١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٧٩ - ١٨٠. صبح الاعشى ٥١٩/٣. د. عبدالعزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية، ط جامعة بيروت العربية ١٩٧٢، ص ١٤١.

(٢) الخطط (ط بولات) ١٩٣/٢. اسماعيل سرهنك، حقائق الاخبار عن دول البحار، المطبعة الاميرية ببولات، مصر ١٣١٤هـ، ج٢، ص ٢٦. د. محمد حسنين ربيع، النظم المالية، ص ١٦٠. ويقول القلقشندي إن الشواني كان عددها يزيد على خمسة وسبعين شينياً، صبح الاعشى، ٥١٩/٣.

(٣) الخطط، ن. ص. سرهنك، ن. م. ص.

(٤) انظر بهذا الصدد: محمد ياسين الحموي، تاريخ الأسطول العربي، مطبعة الترقى دمشق ١٩٤٥، ص ١٣٦.

(٥) الخطط، ١٩٣/٢.

(٦) لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية، ص ٤٨. Claude Cahen, Les Changements techniques. p. 118.

صلات ومعاهدات تجارية مع جمهوريات المدن الايطالية، حصلت بموجبها على حاجتها من هاتين المادتين<sup>(١)</sup>. ومما يؤكد سريان القانون المذكور على هذه المواد، ما يقوله المؤرخ النابلسي المصري المذكور في أن كل خشب وحديد وورصاص... وغير ذلك من الأصناف التي ترد إلى الديار المصرية عن طريق البحر إنما يبتاعه الديوان بكسب يسير، وذلك لصنع الشواني (سفن) وغيرها من المراكب والعمارات وخزائن السلاح<sup>(٢)</sup>.

وكان في الاسكندرية ديوان سمي بالمتجر السلطاني، عمله شراء البضائع المستوردة التي تحتاجها الدولة للأغراض العسكرية، ولاسيما في بناء السفن، وكان المشرفون على المتجر يشترون هذه البضائع بأموال الخمس التي تفرض على التجار<sup>(٣)</sup>.

وقد استفاد صلاح الدين في بناء أسطوله، إضافة إلى ما ذكرناه، من أخشاب الصنوبر والأرز التي تنبت في غابات لبنان، وكذلك من معدن الحديد الذي كان يستخرج من جبال لبنان بالقرب من بيروت<sup>(٤)</sup>. وإذا صح هذا، فإن ذلك حصل بعد أن عادت تلك المناطق إلى المسلمين، أي بعد سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م.

ثانياً:

أفرد صلاح الدين ديواناً خاصاً للأسطول عرف بديوان الأسطول، وخصص للمصرف عليه خراج الفيوم وأعمالها وخراج البرين الشرقي والغربي، ويضم البر الشرقي نواحي بهتين والأميرية والمنيا، والبر الغربي يضم ناحية سفت ونهيا ووسيم والبساتين خارج القاهرة. وكذلك خصص حصيلة النطرون التي بلغ مقدار ضمانها يومئذ ثمانية آلاف دينار في السنة، مضافاً إلى ذلك ما يحصل عليه من مال الزكاة في مصر، والذي بلغ أكثر من خمسين ألف دينار، إلى جانب أجره المراكب الديوانية (الحكومية)<sup>(٥)</sup>.

ثالثاً:

اهتم صلاح الدين برفع المستوى المعاشي لرجال البحرية والعاملين في صناعة السفن وملحقاتها لتحسين أوضاعهم وتشجيع الناس على الالتحاق بصفوف البحرية والعمل في الأسطول، وتقرر أن

(١) Heyd, Histoire du Commerce, Vol. 1, pp. 396 - 397. د. الباز العريني، الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ص ١٧٥.

(٢) لمع القوانين المضية، ص ٤٥.

(٣) ابن ممتي، قوانين الداوين، ص ٣٢٧.

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ١٨٤. ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج ٢، ٢، ص ١٠١.

(٥) المقرئزي، المخطط، ١٩٣/٢. السلوك، ٧٣/١.

يكون دينار الأسطول نصف وربع الدينار (٤/٣) الدينار) بعد أن كان نصف وثمان الدينار (٨/٥) الدينار) أي بزيادة (٥, ١٧٪) من قيمة الدينار السابق<sup>(١)</sup>.

#### رابعاً:

عين صلاح الدين شخصيات عسكرية هامة على رأس الأسطول، فعلى الرغم من أن المصادر لا تشير إلى أسماء الذين عملوا في إدارة شؤون البحرية الأيوبية في السنوات الأولى من تاريخ الدولة الأيوبية، سوى اسم القائد البارز حسام الدين لؤلؤ الذي اشتهر في حادث الرد على عدوان أرناط، الذي سنتحدث عنه، وكذلك أسماء قادة السفن من أمثال يعقوب الحلبي وجمال الدين محمد بن أرككز، ويدران الفارسي، ومحمد بن اسحاق، وعبدالسلام المغربي وغيرهم، إلا أن تعيين أخيه الملك العادل مسؤولاً عاماً لمؤسسة البحرية في السنوات المتأخرة، ليدل دلالة قاطعة على مدى اهتمام صلاح الدين بديوان الأسطول. وحين تسلم الملك العادل عمله «أقام في مباشرته وعمالته صفي الدين عبدالله بن علي بن شكر»<sup>(٢)</sup> أي أن العادل عين صفي الدين ليكون نائبه في الإشراف على إدارة الأسطول. وقد منح صلاح الدين صاحب الأسطول صلاحيات واسعة لتنفيذ المهمات الخاصة بالبحرية. فبعد أن أتم صلاح الدين اعداد الأسطول سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م كتب إلى سائر البلاد يقول: «القول قول صاحب الأسطول، وأن لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه، وأمر صاحب الأسطول ألا يبارح البحر»<sup>(٣)</sup>.

#### خامساً:

اهتم صلاح الدين كثيراً بتحسين ثغور مصر، وقرر القيام بعمليات واسعة في أوقات مختلفة لتعمير أبراجها وأسوارها، وحفر الخنادق حولها، وخصص لهذه المهمة مبالغ طائلة، وعين عليها رجالاً أكفاء لتنفيذها مثل بهاء الدين قراقوش (الذي أوكلت إليه مهمة تجديد وبناء الكثير من المباني العسكرية وغيرها).<sup>(٤)</sup>

وكان صلاح الدين يقوم بزيارات تفقدية للإشراف على عمليات التحصين والبناء الجارية في الثغور المطلة على البحر المتوسط ولاسيما الاسكندرية ودمياط وكذلك تنييس. فإثر عودته من رحلته الأولى إلى بلاد الشام خرج في شعبان ٥٧٢هـ/١١٧٦م يصحبه ولداه الملك الأفضل علي والملك العزيز عثمان ومعهم العماد الكاتب المؤرخ المعروف «وجعل طريقه على دمياط، ورأى في الحضور بالثغر ومشاهدته الاحتياط»<sup>(٥)</sup> وفي سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م رتب صلاح الدين المقاتلة على البرجين الواقعين على طرفي

(١) الخطط، ١٩٤/٢. السلوك، ٤٥/١.

(٢) الخطط (طبعة المعهد) ج٣، ق٢، ص٢١١.

(٣) الروضتين، ج١، ق٢، ص٦٩٠.

(٤) وفيات الاعيان، ٩١/٤.

(٥) العماد، سنا البرق الشامي، ٢٤١/١. الروضتين، ج١، ق٢، ص٦٨٩.

المدينة من جانب البحر، وأمر بشد المراكب إلى السلسلة ليقاتل عليها المدافعون عنها، إذا استطاع العدو الدخول من بين البرجين. وكذلك أمر في نفس السنة بترميم سور دمياط وسد الثلمات فيه<sup>(١)</sup>. وفي وقت لاحق أمر صلاح الدين بحفر خندق دمياط، وعمل جسر عند سلسلة البرج بها<sup>(٢)</sup>. ثم غادر دمياط إلى ثغر الاسكندرية «وشاهدنا - كما يقول المؤرخ - ما استجده السلطان من السور الدائر، وما أبقاه من حسن الآثار والمآثر، وما انصرف حتى أمر بإتمام الثغور وتعمير الأسطول»<sup>(٣)</sup>. وكانت هذه هي الزيارة التفقدية الثانية التي قام بها إلى الاسكندرية، فقد زارها في المرة الاولى عند البدء بعمارة وتجديد سورها في سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م، أي في عهد خلافة العاضد، حين كان صلاح الدين وزيراً له. فقد ذكر العماد الكاتب أن صلاح الدين سار إلى الاسكندرية في شعبان من السنة المذكورة «ليشاهدها ويرتب قواعدها، وهي أول دفعة سار إليها في أيام سلطانه، وعم أهلها بإحسانه، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها»<sup>(٤)</sup>. وقام صلاح الدين بزيارة ثالثة وأخيرة للاسكندرية في سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م، لمشاهدة الأسوار التي جدها والعمارات التي مهدها، وأمر بالانتهاء<sup>(٥)</sup>.

ومن التحصينات التي اتخذها صلاح الدين في الاسكندرية خلال هذه الزيارة أنه أمر فخرالدين قراجا بكسر اربعمائة عمود روماني كانت تحيط بعمود السواري، والقائنها عند شاطئ البحر لمنع مراكب العدو من الوصول إلى مرساها، أو لكسر حدة الأمواج على سور الاسكندرية<sup>(٦)</sup>. ومن الأعمال التي نفذها في وقت لاحق، في ثغر تنيس الواقع بين الفرما ودمياط<sup>(٧)</sup>، أنه أمر في سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م «باخلاء مدينة تنيس، ونقل أهلها إلى دمياط، واخراج النساء منها، حتى خلت تنيس من المقاتلة»<sup>(٨)</sup>.

والراجع أن هذا الاجراء قد اتخذ بسبب عدم قدرة هذا الثغر على القيام بالدفاع عن هذا الجزء من ساحل مصر، في وقت صارت البحرية الأيوبية ضعيفة أمام البحرية الصليبية، ولاسيما بعد وصول جحافل الحملة الثالثة، والضربات المتلاحقة التي وجهت إلى الجيش الأيوبي. وهذا ما دفعه إلى الالتجاء إلى الأعمال الدفاعية في هدم الحصون أو الثغور التي يمكن أن يحتلها الصليبيون ويتخذوها مركزاً للهجوم على الجهات المهمة كمصر وبيت المقدس، وقد انعكست هذه السياسة على ما فعله في

(١) الخطط (ط المعهد الفرنسي) ج٥، ص٤٣.

(٢) السلوك، ١/١١١.

(٣) الروضتين، ج١، ق٢، ص٦٨٩.

(٤) سنا البرق الشامي، ١/١٠٩. الروضتين، ج١، ق٢، ص٤٨٦.

(٥) الروضتين، ٢/٢٤.

(٦) عبداللطيف البغدادي، كتاب «الافادة والاعتبار» ط لندن ١٩٦٥، ص١٣٠.

(٧) معجم البلدان، ٢/٥١.

(٨) السلوك، ١/١١١.

دمياط أيضاً - كما ذكرنا - ففي السنة نفسها أمر بحفر خندق دمياط، وعمل جسر عند سلسلة البرج<sup>(١)</sup>. وهذا ما فعله في الأقسام الجنوبية من فلسطين حيث أوعز بهدم بعض المدن والحصون، كما تحدثنا.

#### سادساً:

قام صلاح الدين بتشجيع الناس على الالتحاق بصفوف البحرية واستقدم العناصر الكفوءة من خارج مصر، وقد نجحت محاولته بسبب المغريات التي صار ديوان البحرية يوفرها لهم، أو ببث روح الجهاد في نفوس المسلمين، وحثهم على التطوع للعمل في الأسطول، حتى صار «خدام الأسطول يقال لهم المجاهدون في سبيل الله والغزاة في أعداء الله ويتبرك بدعائهم الناس»<sup>(٢)</sup> وقد ضرب صلاح الدين نفسه مثلاً رائعاً في الجهاد، فقد ذكر مؤرخه ابن شداد الذي شاهد الكثير من أهوال البحر، أن صلاح الدين التفت إليه ذات يوم في نهاية حوار دار بينهما، وقال له: «في نفسي أنه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد، واوصيت وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم، اتبعهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت»<sup>(٣)</sup> ولعل المغاربة كانوا أكثر من لبي نداء صلاح الدين للعمل في مجال البحرية، وهم الذين عول عليهم في إعداد الأسطول المصري، حتى أصبح ذلك وقفاً عليهم على حد قول المقرئ، لمعرفةهم الجيدة بشؤون البحر<sup>(٤)</sup>. ومعروف أن استخدام المغاربة في الجيش المصري لم يكن بالأمر الجديد، وسبق أن تحدثنا عن مشاركتهم في تأسيس الجيش الفاطمي، وكانوا أول العناصر التي اعتمد عليهم الفاطميون. ومع هذا فإن الأسطول الصلاحي ظل يعاني من نقص الأيدي الفنية العاملة فيه ومن قلة البحارة، بالنسبة للأسطول الصليبي، كما يظهر من الأحداث التي سنتحدث عنها.

#### ٢- مراكز صناعة السفن في مصر

أما صناعة السفن فإن مصادر العصر لاتلقي الضوء الكافي على مراكزها في العهد الأيوبي بصورة واضحة، باستثناء دار صناعة الفسطاط بمدينة مصر التي كانت مركزاً لهذه الصناعة منذ أن تولى محمد بن طنج الأخشيد حكم مصر سنة ٣٢٤هـ/٩٣٥م، وظل هذا المركز تصنع فيه السفن في العهد الفاطمي والأيوبي وكذلك المملوكي، وقد ذكر المقرئ أن السلطان الأيوبي أنشأ بها مراكز مفصلة

(١) السلوك، ١/١١١.

(٢) الخطط، ٢/١٩٤.

(٣) النوادر، ٢٢. الروضتين، ٢/٢٢٢.

(٤) الخطط، ٢/١٨٩. انظر: ابن جبير، ص ٣٥. سيد علي الحريري، كتاب الاخبار السنوية في الحروب الصليبية، ص ١٣٥.

وحملها على الجمال من القاهرة في عسكر كبير لمحاربة قلعة ايلة على خليج العقبة. وكان الصليبيون قد ملكوها، فنازلها صلاح الدين سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م في عهد وزارته، وحين وصلت قطع المراكب، ربطوها وأنزلوها في البحر وشحنوها بالمقاتلة والأسلحة، وتوجهوا نحو ايلة حيث أوقعوا بالصليبيين وطردوهم من هذه المدينة<sup>(١)</sup>.

وظلت دار صناعة مصر تصنع فيها السفن التي تحتاج إليها دولة صلاح الدين، ومنها أرسلت الأساطيل للدفاع عن البحر الأحمر أو البحر المتوسط أثناء احتدام الصدام مع الصليبيين، وكذلك أرسلت منها الحملات إلى بلاد اليمن. فكانت هذه المراكب تشحن بآلات الحرب والمقاتلة، ثم تقلع في نهر النيل إلى ثغور مصر كالاسكندرية ودمياط أو تنيس للدفاع عن ساحل مصر<sup>(٢)</sup>.

أما المراكز الأخرى لصناعة السفن أو التي انفرد المقيزي بالتحدث عنها فمنها مركز صناعة المقس على شاطيء النيل بالقاهرة، الذي أنشأه المعز لدين الله الفاطمي، وقد احترق سنة ٣٨٦هـ / ٩٩٦م وأتت النار على جميع ما في الأسطول من العدة والسلاح، حتى لم يبق منه غير ستة مراكب فارغة. وأهمل شأن هذا المركز في العهود اللاحقة سواء في العهد الفاطمي والعهد الأيوبي<sup>(٣)</sup>.

ومن مراكز صناعة السفن دار صناعة الجزيرة، أي جزيرة مصر التي تعرف اليوم بالروضة، وهي أول دار لصناعة المراكب ظهرت في مصر الإسلامية، وقد بنيت في سنة ٥٤هـ / ٦٧٤م... وجدد عمارتها الأمير أحمد ابن طولون وقد سميت بدار صناعة الروضة في العصر الفاطمي نسبة إلى البستان الذي عمره الوزير الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي في شمال الجزيرة سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٦م. وكانت هذه الدار تختص بصناعة الحراريق والشلنديات<sup>(٤)</sup>، إلا أن هذا المركز لم يعد يتمتع بأهميته السابقة في العهد الأيوبي، نظراً لتركز صناعة السفن في الفسطاط بمدينة مصر. هذا ويلاحظ أن صناعة السفن في الديار المصرية اقتصرت على مدينتي مصر والقاهرة، ولم تقم في جهات الساحل، عكس ما كانت عليه الحال في بلاد الشام وأفريقيا الشمالية والأندلس، ولعل مرد ذلك هو سهولة إيصال السفن من الداخل إلى الساحل عبر نهر النيل.

### ٣- أنواع المراكب في البحرية الأيوبية

استعملت في البحرية الأيوبية في عهد صلاح الدين أنواع عديدة من المراكب، وكان كل واحد منها يختلف عن الآخر في حجمه وفي شكله والهدف من استعماله ومن ثم في اسمه، ولعل ابن ممتي الذي

(١) الخطط (طبعة بولاق)، ١/١٨٥.

(٢) الخطط، ٢/١٨٩.

(٣) يقول د. أحمد مختار العبادي إن المقس ظلت ثغرا هاما للقاهرة، كما ظلت دار صناعتها تعمل حتى بداية العصر الأيوبي، حينما أخذ ماء النيل ينحسر غربا على ساحل المقس، وعن سور القاهرة الذي ينتهي عند المقس فامتألت المنطقة بالرمال. انظر: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ص ٢٢٢.

(٤) الخطط، ٢/١٩٦. السلوك، ١/٣٠١، الحاشية رقم ١.

عمل في ديوان مصر الأيوبي في عهد صلاح الدين، أبرز من تحدث عن أنواع سفن الأسطول في هذا العهد إلا أن حديثه مقتضب للغاية، ولعل ذلك يعود إلى أن غاية المؤلف لم تكن وصف السفن، أو معنياً بذكر تفاصيلها والتحدث عنها. أما السفن التي استعملت فعلاً<sup>(١)</sup> أيام صلاح الدين فهي:

أ- الطريدة:

وكانت خاصة بحمل الخيل، وهذا يعني أنها امتازت بكبر حجمها بحيث تستطيع أن تحمل أربعين فرساً<sup>(٢)</sup>. وهي تختلف عن الطراوة التي كانت على عكس الطريدة<sup>(٣)</sup> التي إمتازت بصغر حجمها وسرعة جرياتها، كما هي الحال في البواخر التي تستعمل اليوم والتي تسمى بنفس الاسم. وقد استعمل الصليبيون والصقلليون الطريدة في حمل الخيل، فقد ذكر أن الأسطول الصقلي الذي قام بعملية إنزال بحرية في الاسكندرية عام ٥٦٩ - ٥٧٠ هـ/١١٧٣ م كان فيه ست وثلاثون طريدة تحمل الخيل<sup>(٤)</sup>.

ب- الشيني:

وهي من السفن الكبيرة أيضاً، وأكثرها استعمالاً لحمل المقاتلين، بلغت سعتها حداً بحيث تحمل حوالي مائة وأربعين مجدافاً، وقد سميت بالغرابة<sup>(٥)</sup>، لأنها كانت تطلى بالقار، وكانوا يقيمون فيها أبراجاً وقلاعاً خاصة بالسفن لغرض الدفاع والهجوم<sup>(٦)</sup>، وكذلك يضعون فيها مجانيق خاصة بقذف النفط، كما يبدو من وصف الشاعر عبد الجبار أبي بكر الصقلي المعروف بابن حمديس ففي مدحه لأحد الامراء يخاطبه بقوله:

انشأت شواني طائرة	وبنيت على ماء مدنا
ببروج قتال تحسبها	في شم شواهقها قننا
ترمي ببروج إن ظهرت	لعدو محرقه بطنا
وينفط أبيض تحسبه	ماء وبه تذكي السكنا <sup>(٧)</sup>

واستطاع الأسطول الأيوبي من مناوشة أسطول العدو وحرقتها، باستعمال قاذفات النار كما حدث

(١) بلغ عدد السفن التي ذكرتها د. سعاد ماهر في كتابها «البحرية في مصر الإسلامية» ١٥٧ نوعاً من المراكب، أنظر: ص ٣٢٨ - ٣٧٣.

(٢) ابن ممتي، قوانين الدواوين، ص ٣٣٩.

(٣) تاج العروس، مادة (طرد) وكانت الطراوة تقوم بمطاردة سفن العدو.

(٤) سنا البرق الشامي، ١/١٧٠. الكامل، ١١/٤١٢.

(٥) ابن ممتي، قوانين الدواوين، ص ٣٤٠.

(٦) مفرج الكروب، ٢/١٣ هامش ١. د. سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، ص ٣٥٢.

(٧) ديوان ابن حمديس، تصحيح وتقديم: د. احسان عباس، دار صادر، دار بيروت، ١٩٦٠، ص ٥١٣.

في أواخر سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م فقد خرج الأسطول الأيوبي « بشوانه المعجبة المحسنة، ليكبس شواني الفرنج وإحراقها، بقوارير النفط... ونالت من الظفر ما نالت، وأحرقت للكفر شواني برجالها، وغرقتها بأبطالها<sup>(١)</sup> ».

#### ج- البطسة، أو البطشة:

وهي ضرب من المراكب الكبيرة في البحرية الأيوبية، إن لم تكن أكبرها جميعاً، فقد يصل عدد الشراع في البطسة الواحدة إلى أربعين شراعاً. وتوسع لعدد من المقاتلين يصل عددهم زهاء (٧٠٠) شخص<sup>(٢)</sup> وقد لعب هذا النوع من السفن دوراً كبيراً في الحروب التي دارت بين المسلمين والصليبيين. وكانوا يشحنونها بالمقاتلة والأسلحة والذخيرة، وسائر معدات الحرب والحصار، وكانت تتخذ فيها الأبراج الضخمة الشبيهة بالقلاع<sup>(٣)</sup>. وتذكر المصادر أن البحارة العاملين في الأسطول الأيوبي استعملوا بطسة كبيرة، كانوا قد أسروها من البحرية الصليبية، فعمّر عزالدين اسامة (اسامة) مستحفظ بيروت هذه البطسة، وأرسل فيها المؤونة من مدينته إلى عكا في رجب ٥٨٦هـ / ١١٩٠م بأمر السلطان، بعد أن ملأها بأربعمئة غرارة قمح ونقل إليها أنواع الطعام وأصناف الأدام، وقطيعاً من الأغنام<sup>(٤)</sup> وتذكر المصادر أن إحدى البطس الصليبية بلغت ضخامتها وسعتها حداً بحيث إنها حملت زهاء (١٧٠٠) شخص<sup>(٥)</sup>.

#### د- الحراقة:

استعمل هذا النوع من السفن لأغراض النزهة والنقل في مياه الأنهار مثل النيل ودجلة وشط العرب. فقد كان للخليفة العباسي الأمين خمس حراقات في نهر دجلة ببغداد صنعت كل واحدة منها على هيئة حيوان هو: الأسد والعقاب والحية والفيل والفرس<sup>(٦)</sup>. إلا أن الحراقة تطوّر شكلها، والغرض الذي استعملت من أجله، فصارت تستعمل في القتال أيضاً. وهي سفينة متوسطة الحجم تتسع لحوالي مائة مقاتل، ورغم أن الحراقات كانت ضمن تشكيلات الأسطول الأيوبي<sup>(٧)</sup>، إلا أنها لم تكن لها من الأهمية، ما لسفن القتال الأخرى، ولعل ذلك كان راجعاً إلى حجمها الصغير. وقد استعملت الحراقة - كما يبدو - في الأسطول الصليبي أيضاً، فقد ذكر أن الأسطول الأيوبي حين قرر إرسال بطسة من بيروت إلى عكا لا يصل الميرة إليها اعتراضتها الحراقات

(١) الفتح القسي، ٤٦٣.

(٢) الفتح القسي، ٤٨٦. الكامل، ٦٥/١٢.

(٣) أمين الخولي، المجدية والسلم، ص ٩٢.

(٤) الفتح القسي، ٤١٧. النوادر، ١٣٥. الروضتين، ١٦٠/٢. مفرج الكروب، ٣٣٠/٢ - ٣٣١. شفاء القلوب، ١٦٨.

(٥) الكامل، ٤٨٢/١١. السلوك، ٧٧/١. الروضتين، ٢٧/٢.

(٦) الكامل، ٢٩٤/٦. الفلقشندي، مآثر الانافة في معالم الخلافة، ٢٠٥/١.

(٧) قوانين الدواوين، ٣٤٠.

والشواني الصليبية<sup>(١)</sup>. والراجح أنها سميت بالحراقة لأنها صارت توضع فيها قاذفات النار لرمي العدو بها<sup>(٢)</sup>.

#### هـ- المسطح:

نوع من المراكب الكبيرة الحجم، يشبه البطسة<sup>(٣)</sup>، فقد ذكر في نص أورده مؤرخو العصر، أن «الأسطول المصري استولى على مراكب الفرنج، ومنها مسطح ذكر أن فيه خمسمائة نفر وما يزيد عليه»<sup>(٤)</sup> وذكره ابن ممتي ضمن قطع الأسطول الأيوبي، إلا أنه اكتفى بالقول «إن المسطح هو في معناه»<sup>(٥)</sup> ولعله أراد أن يقول إن المسطح شبيه به (الشلندي) الذي ذكره قبل المسطح، أي أن المسطح سفينة ذات طابقين مسقفين يقاتل الغزاة على ظهرها، والجداون يجدفون تحتهم<sup>(٦)</sup>.

#### و- الجمالة:

من سفن الأسطول الخاصة بحمل الغلة<sup>(٧)</sup> وغير ذلك مما يحتاج إليه الجيش ورجال الأسطول من المؤونة والأزواد<sup>(٨)</sup>. والظاهر أن هذه التسمية صارت تطلق على سفن تحمل مواد أخرى أيضاً، منها الخيل والأثقال والجنود، كما يظهر من كلام بعض المؤرخين المتأخرين<sup>(٩)</sup>.

#### ز- البركوس (البركوش):

وهي من السفن الصغيرة، ومهمتها الأساسية هي نقل الماء<sup>(١٠)</sup>. غير أنه يفهم من النصوص التي أوردها العماد وابن شداد وغيرهما، أن البركوس كانت تستعمل لركوب الجند والناس عامة. فقد ذكر هذان المؤرخان أن السلطان استأمن من الفرنج خلقاً عظيماً لجأوا إلى المعسكر الإسلامي بسبب الجوع وعرضوا على السلطان فكرة القيام باقتناص مراكب الصليبيين، وقالوا «نحن نخوض البحر في براكيس، ونكسب من العدو، ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين» فأذن لهم في ذلك، وأعطاهم

(١) النوادر، ١٣٥. الروضتين، ١٦٠/٢ - ١٦١.

(٢) أمين الخولي، الجندية والسلم، ص ٩٢. د. جهادية القره غولي، التنظيمات الادارية والعسكرية، ص ٢٦٦.

(٣) د. سعاد، البحرية في مصر الإسلامية، ص ٣٦٨.

(٤) مفرج الكروب، ٣٧٤/٢.

(٥) قوانين الدواوين، ص ٣٤٠.

(٦) ن. م. ص.

(٧) ن. م، ص ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٨) د. سعاد، البحرية في مصر، ٣٤٠. د. جهادية القره غولي، التنظيمات الادارية، ص ٢٧٢. عبدالفتاح عيادة، سفن الأسطول الإسلامي، ص ٧.

(٩) الظاهري، زبدة كشف المالिक ص ٣٩ - ١٤٠. صالح بن يحيى تاريخ بيروت ٢٢٠ - ٢٢١.

(١٠) قوانين الدواوين، ص ٣٤٠. د. سعاد، البحرية الإسلامية، ٣٣١.

بركوساً وهو المركب الصغير، فركبوا فيه وظفروا بمراكب للتجار من العدو<sup>(١)</sup>. وكان معدل حمولة البركوس حوالي خمسة وعشرين رجلاً، كما أشار إلى ذلك العماد<sup>(٢)</sup>.

ح- الشلندي:

مركب حربي كبير مهمته نقل المقاتلة والأسلحة<sup>(٣)</sup> لا تقل أهميته عن الشواني والحراريق، ولكنه امتاز عن غيره من المراكب في أنه كان مركباً مسقفاً يقاتل على ظهره المحاربون، في حين يجذف الجذافون تحت السقف في الطبقة السفلى، فالشلندي بهذا المعنى كان يتكون من طبقتين على غرار المسطح<sup>(٤)</sup>. إلا أننا لم نعثر في نصوص هذه الفترة على شواهد تثبت استعمال مركب بهذا الاسم.

ط- الأعزازي:

ونفس الشيء يقال بالنسبة لمركب الأعزازي، فعلى الرغم من أن (ابن ممتي) يذكره ضمن مراكب العصر الأيوبي، إلا أننا لم نعثر على ما يؤكد استعماله. يصفه ابن ممتي بأنه مركب خاص بحمل الأوزاد<sup>(٥)</sup>.

ي- العشييري:

من السفن التي استعملت أيام صلاح الدين كما يقول أحد معاصريه<sup>(٦)</sup>، ويضيف أن العشاري مركب كبير «قد سطح بألواح خشب ثخينة محكمة» وكان ذا طابقين ويجري بعشرين مجدافاً<sup>(٧)</sup>.

٤- معدات الأسطول:

ولعل من المفيد أن نتحدث عن بعض المعدات الخاصة بالأسطول والتي اقتصر استعمالها على المعارك البحرية، إضافة إلى أسلحة القتال المعروفة التي استخدمت في شتى المعارك، فقد استعملت في السفن آلات كانت من ملحقات الأسطول، على الرغم من أننا لم نعثر عن استعمالها على نصوص في كتب التاريخ المعاصرة لصلاح الدين، ولكن من المرجح أنها استخدمت فعلاً، إذ بدون هذه المعدات لاتستطيع السفن خوض المعارك. ومن هذه المعدات:

(١) النوادر، ١٥٤. الفتح القسي، ٤٦٠. الروضتين، ١٨١ - ١٨٢. مفرج الكروب، ٣٤٧/٢.

(٢) الفتح القسي، ٤٦٠.

(٣) د. سعاد، البحرية في مصر الإسلامية، ص ٣٥٢.

(٤) قوانين الدواوين، ص ٣٤٠.

(٥) ن. م. ص. د. سعاد، ص ٣٢٩.

(٦) عبداللطيف البغدادي، كتاب الافادة والاعتبار، طبعة لندن ١٩٦٥، ص ١٨٦.

(٧) د. سعاد، البحرية في مصر الإسلامية، ص ٣٥٦.

#### أ- الكلابيب:

وهي نوع من الخطاطيف الحديدية مربوطة في نهاية سلاسل قوية، كانت تلقى على مراكب العدو فتوقفها، ثم يشدونها إليهم، وينصبون عليها ألواحاً خشبية عريضة يرون فوقها ليقاتلوا جند العدو<sup>(١)</sup>.

وقد ذكر ابن القلانسي أن المسلمين من أهل صور استعملوا الكلابيب عندما حاصروهم الفرنج سنة ٥٠٥ هـ/١١١١م، فحين اشتد الحصار والصق الصليبيون الكيش والأبراج على أسوار مدينتهم، صنع رجال البحرية كلابيب من الحديد لاسمك الكيش الصليبية من رؤوسها ثم يجذبها بحبال قوية متصلة بالكلابيب<sup>(٢)</sup>.

#### ب- الباسليقات:

وهي سلاسل من حديد تنتهي رؤوسها برمانة من الحديد كانت تستخدم في القتال على سطح السفن<sup>(٣)</sup>.

#### ج- التوابيت:

صناديق مفتوحة من أعلاها، وموضوعة في أعلى السفن، يصعد إليها الرجال ومعهم حجارة صغيرة في مخلاة معلقة بجانب الصندوق، فيرمون العدو بها وهم مستورون داخل التوابيت<sup>(٤)</sup>. وكذلك يرمون منها بقوارير النفط، وجرار النورة المدقوقة (المسحوقة) غير المطفأة، فإنها تغميهم بغبابها وتلتهب عليهم إذا تبددت، وكذلك يرمون عليهم النفط. ويذكر الحسن بن عبدالله بعض المواد التي كانوا يرمونها على سفن العدو أثناء الصدام، منها رمي قدور الحيات والعقارب وقدور الصابون اللين لكي تزلق أقدام المحاربين من العدو، ولايستطيعون الوقوف والثبات أمامهم<sup>(٥)</sup> لاسيما وأن أرض السفينة ضيقة ومحدودة ولايستطيعون الحركة عليها بحرية ويكونون عرضه لسلح الرماة، فيعلنون استسلامهم.

(١) الحسن بن عبدالله، آثار الاول، ص١٩٧. د. فتحي عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية، ٣٧٥/٢. احسان هندي، الحياة العسكرية، ١٨٩. أمين الخولي، الجندية والسلم، ص٩٧.

(٢) ذيل تاريخ دمشق، ١٧٩.

(٣) الحسن، آثار الاول، ١٩٦. د. فتحي عثمان، الحدود الإسلامية، ٣٧٤/٢. أمين الخولي، الجندية والسلم، ٩٧. د. سعاد، البحرية في مصر الإسلامية، ص٢٠٣. احسان هندي، الحياة العسكرية، ص١٨٩.

(٤) الحسن، ١٩٦. أمين الخولي، ٩٧. د. سعاد، ٢٠٣. احسان هندي، ١٨٨. د. فتحي عثمان، ٣٧٤/٢. د. عبدالعزيز سالم، ص١٤٢.

(٥) آثار الاول، ١٩٦. احسان هندي، ١٨٨ - ١٨٩. د. سعاد، ٢٠٣. عبدالرؤوف عون، الفن الحربي، ص٢٦٦. أمين الخولي، ص٩٨.

#### د- اللجام:

وهي أداة من حديد طويلة محددة الرأس جداً، وأسفلها مجوف كسنان الرمح، تدخل من أسفلها في خشبة كالقناة بارزة في مقدم المركب يقال لها الأسطام، فيصير اللجام كأنه سنان الرمح بارز من مقدم السفينة فيحتالون في طعن المراكب به، وكانوا يضربون بها جانب مراكب العدو بقوة فيخرقونها فيمتلئ المركب بالماء فيطلب أصحابه الأمان ويستسلمون<sup>(١)</sup>.

ولاشك أن مراكب كلا الطرفين كانت مزودة بهذه الآلات والمعدات، ولهذا كان من الضروري أن توضع فيها أجهزة مضادة لتلك الأسلحة والمعدات، ولتقوم بمهمة الدفاع عنها، فلمقاومة الكلاب (الباسليقات) المذكورة وضعوا فؤوساً ثقيلة يضربونها بها فتقطعها وتبطل مفعولها<sup>(٢)</sup>. وللوقاية من المقذوفات النارية، أو رمي القوارير المملوءة بالنفط، فقد علقوا حول مراكبهم اللبود المبللة بالخل والماء، فلا تشتعل النار فيها، وكانوا يمزجون الخل بالشب والنطرون (البورق) أو يطلون السفن بالطين المعجون بالنطرون<sup>(٣)</sup>.

ومن حيل قتال البحر ووسائل التمويه والاختفاء عن العدو Comouflage التي استعملوها، جعل قلوب سفنهم زرقاء لتوافق لون الماء كي لا تظهر من بعد، فيستطيعون بذلك مباغته مراكب العدو<sup>(٤)</sup>. وضمن الاحتياط الضروري اتخاذه حين تكون المراكب في عرض البحر، عدم إشعال النار أو المصباح فيها إذا جن الليل، وعدم وضع الحيوانات التي تحدث أصواتاً قد تنبيه العدو، كالديك مثلاً<sup>(٥)</sup>.

#### هـ- نشاط البحرية الأيوبية:

من المعروف أن دولة نورالدين محمود كانت تفتقر إلى الأسطول، لأن الصليبيين كانوا يحتلون جميع أجزاء الساحل الشامي من الشمال إلى الجنوب، أما ديار مصر فكانت خارج حكم نورالدين وتحت الحكم الفاطمي، وحين تسنى لصلاح الدين حكم هذه الديار بعد وفاة عمه شيركوه، ثم بعد القضاء على حكم آخر الخلفاء الفاطميين، وجد أن حالة الأسطول بالغة السوء، كما ذكرنا<sup>(٦)</sup>. وحاول الصليبيون استغلال هذا الوضع الناجم عما أصاب البحرية المصرية من ضعف طارئ، ووجود جماعة مناوئة لحكم صلاح الدين الفتحي، فعمدوا معاهدة تحالف مع الروم البيزنطيين، وقرروا

(١) الحسن: ١٩٧. نعمان ثابت، ١٧٦. احسان هندي، ١٨٨. د. سعاد، ص ٢٠٣-٢٠٤. عبدالرؤف عون، ص ٢٦٧.

(٢) آثار الأول، ١٩٧. د. سعاد، ٢٠٤. احسان هندي، ١٩٠. أمين الخولي، ٩٩. عبدالرؤف عون، ص ٢٦٧.

(٣) الحسن: ن. ص. عبدالرؤف عون، ن. ص. احسان هندي، ن. ص. أمين الخولي، ن. ص.

(٤) الحسن: ١٩٦. عبدالرؤف عون، ٢٦٧-٢٦٨. احسان هندي، ن. ص. أمين الخولي، ن. ص. د. فتحي عثمان،

(٥) الحسن: ن. ص. محمد فرج، الإسلام والحرب، ص ٩٥. أمين الخولي، ص ١٠٠. احسان هندي، ن. ص. د. فتحي عثمان، ن. م. ص. الحدود الإسلامية البيزنطية، ٣٧٥/٢.

(٦) الخطط، ١٩٤/٢.

القيام بهجوم مشترك على ثغر دمياط، وقد أثبت حادث دمياط، وقرروا القيام بهجوم مشترك على ثغر دمياط. وقد أثبت هذا الحادث، وبعد قيام الهجوم النورماني المتكرر على مصر، حاجة هذه البلاد إلى أسطول قوي يدفع عنها عادية هؤلاء المغيرين<sup>(١)</sup>.

ولأن بلاداً مثل مصر لا يمكن أن تعيش مستقلة آمنة دون أن تكون لها بحرية قوية، فما كان من حاكم مصر الجديد إلا القيام بجملة اصلاحاته الأنفة الذكر، فأعاد تنظيم الأسطول جاعلاً إياه ديواناً مستقلاً تحت امرة أخيه ومنحه السلطة لأخذ ما يحتاج إليه من المواد وتجنيده كل الرجال الذين يحتاجهم فصار للدولة الفتية أسطول استطاع الدفاع - بدعم من قواته البرية - عن ثغور مصر اعتباراً من سنة ١١٦٥هـ/١١٦٨م واستمر الأسطول ينمو نمواً مثيراً، فما إن حل عام ١١٧٩هـ/١١٧٩م إلا وتضاعفت عدته حتى «بلغت ستين شينياً وعشرين طريدة، فسارت الشواني خاصة، فدخلت البلاد الرومية ودوخت السواحل الفرنجية، وأسرت ألف عالج أحضرتهم أسرى في قيد الأسار، وقتلت الرفاق الكبار»<sup>(٢)</sup>.

ويوسعنا أن نلاحظ ثلاث مراحل مرت على البحرية الأيوبية:

#### أ- مرحلة التمهد:

في هذه المرحلة، التي يمكن أن نطلق عليها مرحلة الاعداد ووضع الأساس لقيام أسطول أيوبي في مصر، قام صلاح الدين بإصلاحاته الأنفة الذكر لتشكيل قوة بحرية تستطيع القيام بقسط من النشاط في الخطط الحربية المقبلة لتحرير الأراضي العربية الإسلامية، وفي الحد الأدنى تستطيع الدفاع عن ثغور مصر، للتخفيف عن الأعباء الثقيلة الملقاة على عاتق الجيش الذي استطاع دحر محاولات الغزو والآنزال في الأراضي المصرية، ويمكن اعتبار سنة ١١٨٠هـ/١١٨٠م نهاية لهذه المرحلة، حين صار الأسطول المصري الأيوبي يقوم بنشاط فعال في مياه البحر المتوسط، إلا أننا لا نستطيع أن نحدد متى بدأ صلاح الدين بوضع أساس البحرية. ومن المشكوك فيه أن يبدأ به مع مباشرته الحكم بمصر، وتصفية أنصار الحكم الفاطمي في الداخل. ومعروف أن الصليبيين والبيزنطيين والصقلبيين فشلوا في إيجاد موطيء قدم لهم في مصر<sup>(٣)</sup>، رغم ضخامة حملاتهم البحرية، إلا أن الانتصار الذي أحرزه صلاح الدين عليهم في دمياط ١١٦٥هـ/١١٦٨م، في الإسكندرية ١١٧٣هـ/١١٧٣م لا يمكن اعتبارهما انتصاراً للبحرية المصرية، إذا لم يجر صدام بحري بين الطرفين، فقد قابل الهجوم البحري الصليبي على دمياط مقاومة برية بمساعدة المصريين والخليفة العاضد، وبمساعدة نورالدين محمود. فقد جهز

(١) انظر: د. العريني، الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ص ١٧٥.

(٢) الروضتين، ١١/٢.

(٣) الكامل، ٣٥١/١١، الباهر، ١٤٣. النوادر، ٤٢ - ٤٣. الروضتين، ١٦، ق ٢، ص ٤٥٦. مفرج الكروب، ١٧٩/١ - ١٨٠.

نورالدين العساكر إلى مصر إرسالا، كلما تجهزت طائفة أرسلها فسارت إليه، يتلو بعضها بعضا، على الرغم من أن الاحتلال الصليبي الصقلي لدمياط دام خمسة وخمسين يوماً، استعملوا خلالها مختلف صنوف أسلحة الحصار والهجوم، إلا أنهم اضطروا أمام المقاومة الإسلامية إلى الانسحاب عن هذا الثغر «ورحلوا خائبين خاسرين، فأحرقت مجانيقهم ونهبت آلاتهم وقتل منهم خلق عظيم، وسلم البلد<sup>(١)</sup>. وهذا ما حصل بالنسبة للانزال على الاسكندرية ٥٦٩هـ/١١٧٣م الذي تحدثنا عنه في مكان آخر.

أما انزالهم على تنيس فقد حدث سنة ٥٧٥هـ/١١٨٠م، حين قدم إليها «فرنج عسقلان في عشر حراريق»<sup>(٢)</sup> عليهم يجدون لأنفسهم موطناً طيباً، أو يحدثون في هذه المدينة الخراب قبل أن يقوم صلاح الدين بعمل مضاد بعد أن استكملت عدة أسطوله، إلا أنهم أخفقوا في عملهم هذا أيضاً. ولم يطمئن صلاح الدين إلى التحصينات الموجودة في تنيس، ففي عام ٥٧٧هـ/١١٨٢م انتدب «لعمارة قلعتها وتجديد الآلات فيها عندما اشتد خوف أهلها من الإقامة بها»<sup>(٣)</sup>.

ب- مرحلة قوة الأسطول الأيوبي في مصر:

تمتد هذه المرحلة من سنة ٥٧٥هـ/١١٨٠م وتنتهي مع بداية سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م، أي دامت حوالي أربع سنوات، استطاع الأسطول الأيوبي خلالها أن يقوم بجملته أعمال حربية هجومية ضد الأسطول البحري الصليبي، والرد على الأعمال العدوانية بعد أن تضاعفت عدة الأسطول وقويت واستفرغت فيها عزائم الجهاد<sup>(٤)</sup>.

وأول فعالية حربية ناجحة قام بها الأسطول الأيوبي هي صدامه مع العدو في معركة بحرية في سنة ٥٧٥هـ/١١٨٠م وأحرز النصر عليه، واستطاع أن يظفر ببطسة صليبية «مستصحباً فيها ألف رأس من السبي». ورافق هذا الانتصار البحري أحرار الجيش الأيوبي النصر في موقعة (بيت الأحزان) الوارد ذكرها، «فعم النصر وتساوى فيها البر والبحر»<sup>(٥)</sup>.

ولم يكن من قبيل الصدفة أن يحرز الجيش الأيوبي هذين الانتصارين في وقت واحد، إذ أخذ صلاح الدين يتابع انتصاراته في سرعة بحيث لم يستطع الصليبيون معها ملاحقته، حتى إنه لم يكتف بالانتصار على العدو، وتدمير بيت الأحزان، والاغارة على صور وصيدا وبيروت، بل إنه أمر الأسطول

(١) سنا البرق، ٨٧/١. الكامل، ٣٥٢/١١. الباهر، ١٤٤. الروضتين، ١٤، ق٢، ص٤٥٧. مفرج الكروب، ١٨٣/١. الذهبي، العبر، ١٨٩/٤. د. حسن حبشي، نورالدين والصليبيون، ١٣٤-١٣٦.

(٢) الخطط (ط المعهد الفرنسي) ج٣، ق٢، ص٢١٢.

(٣) الخطط، ن. م. ص.

(٤) الروضتين، ١٣/٢-١٤.

(٥) الروضتين، ٩/٢. البداية والنهاية، ٣٠٢/١٢. السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧٠، ج٧، ص٣٦٦. سيد علي الحريري، كتاب الاخبار السنوية في الحروب الصليبية، المطبعة العمومية، مصر ١٣١٧، ص١٣٣.

بالخروج ثانية من ثغور مصر للهجوم على عكا « قسطنطينية الشام » حسب تعبير القاضي الفاضل<sup>(١)</sup> واستطاع أسر مراكب صليبية عديدة، فنزل عليها « تحطيماً وتكسيراً ونطاحاً » وهذا مما لم يعهده الأسطول الإسلامي في سالف الدهر، « لا في حالة قوة إسلام ولا ضعف كفر »<sup>(٢)</sup>.

وفي سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م وبعد أن استكمل عدة جيشه، كما تحدثنا عن ذلك في مكان آخر<sup>(٣)</sup>، راح يخطط لعملية برية وبحرية مشتركة للاستيلاء على بيروت، وتم تنفيذ الخطة ببراعة، لكن حامية بيروت الصليبية صدت هجماته، واستطاعت قوة صليبية أخرى ان تنجد بيروت في الوقت المناسب ففشلت العملية<sup>(٤)</sup>.

وقد قصد صلاح الدين من الاستيلاء على بيروت، فصل إمارتي طرابلس وأنطاكية عن مملكة بيت المقدس، لكي لا تستطيع احدهما إنجاد الاخرى. وكذلك إيجاد مكان في الساحل الشامي يلجأ إليه الأسطول الأيوبي لأخذ حاجته والتزود بالمؤن، ولجعل بيروت محطة لأخذ قسط من الراحة بدلاً من العودة إلى مصر. ويبدو أن عملية بيروت فشلت لعدم ضبط التوقيت للهجوم عليها بين القوات البرية والقوات البحرية، إذ أن الأسطول قام بالهجوم على ثغر بيروت ومحاصره قبل وصول القوات البرية بقيادة صلاح الدين من دمشق.

وعلى الرغم من هذا الفشل فإن البحرية الأيوبية أحرزت قرب دمياط انتصاراً غير مقصود، فبينما كان صلاح الدين يحاصر بيروت تلقى أنباء تشير إلى أن سفينة ضخمة (بطسة) من سفن الأسطول الصليبية كانت قادمة من مدينة (أبوليا) الإيطالية جنحت تجاه ساحل دمياط، ووقعت في أيدي المسلمين وفيها ألف وستمائة وست وسبعون (١٦٧٦) شخصاً. كانوا في طريقهم إلى بيت المقدس، فضرت البشائر لهذه المناسبة<sup>(٥)</sup>.

ولعل الانتصار الأكبر والأكثر صدق في هذه السنة، هو الذي أحرزه أسطول صلاح الدين في البحر الأحمر (بحر القلزم). ففي شعبان ٥٧٨هـ/ خريف ١١٨٢م استغل الأمير الصليبي المعروف أرناط (رينو دي شاتيون) انشغال صلاح الدين بحصار الموصل، فأعد مشروعاً ضخماً وخطيراً قصد منه الوصول إلى أهداف عديدة أهمها:

أولاً- السيطرة على البحر الأحمر، باحتلال ايلة على خليج العقبة، وعيذاب على الساحل المصري

(١) الروضتين، ١٤/٢.

(٢) ن. م. ص.

(٣) انظر: المقرئ، الخطط (ط بولاق) ٨٦/١. السلوك، ٧٥/١. سيد علي الحري، كتاب الاخبار السنية، ص ١٣٦.

(٤) مضمار الحقائق، ٩٧. الكامل، ٤٨٤/١١. الروضتين، ٢٩/٢. سيد علي الحري، الاخبار السنية، ص ١٣٩.

(٥) الكامل، ٤٨٢/١١. الأيوبي، مضمار الحقائق، ٦٧. الروضتين، ٢٧/٢. البداية والنهاية ١٢/٣١٠. السلوك، ٧٧/١.

الجنوبي الذي يشرف على هذا البحر<sup>(١)</sup>، وكذلك احتلال جدة ورايح على ساحل الجزيرة العربية<sup>(٢)</sup>، ثم احتلال عدن، وبذلك تكون مياه هذا البحر تحت رحمة الصليبيين، وسيسيطرون عن طريقها على منافذ التجارة، ثم يصلون إلى مياه المحيط الهندي. فذكر المؤرخون المسلمون أن أحد مقاصد الحملة كان «قلعة ايلة التي هي على فوهة بحر الحجاز ومدخله. ثم الخوض في هذا البحر الذي تجاوره بلادهم من ساحله»<sup>(٣)</sup>.

ثانياً- محاولة قطع الصلة بين الحرمين، قلبي العالم الإسلامي، وبين بقية أجزاء هذا العالم، سواء في الاتصال البري أو البحري، وهذه المحاولة قصد بها استفزاز مشاعر كافة المسلمين، وبعث موجة من الذعر والرعب فيهم. بل إن الصليبيين عزموا على دخول المدينة المنورة، وإخراج رفات الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم من ضريحه<sup>(٤)</sup> «وينقلوا جسده الشريف إلى بلادهم ويدفنوه عندهم، ولا يمكنوا المسلمين من زيارته إلا بجعل»<sup>(٥)</sup>.

ثالثاً- اقناع مملكة الحبشة المسيحية بالعمل على المشاركة في الحروب الصليبية<sup>(٦)</sup> وقد استعد أرناط لتنفيذ مشروعه البحري من كل الجوانب، فأمر بقطع غابات المناطق الخاضعة له، وقطع نخيل منطقة العريش، فصنع هياكل سفن من أخشابها، وقام بتجربتها في مياه البحر الميت<sup>(٧)</sup>.

كما عهد إلى صليبيي عسقلان بصنع مراكب أخرى، حتى صار لديه أسطول مكون من خمس سفن حربية كبيرة وعدد كبير من المراكب المتوسطة والصغيرة. قام رجاله بنقل أجزائها مفككة إلى ساحل خليج العقبة على ظهر جمال مؤجرة يمتلكها بدو المنطقة بعد أن أغراهم بالمال<sup>(٨)</sup>.

ثم أحضر أرناط جيشاً برياً وسيره إلى بلاد تبوك للحيلولة دون وصول أي مدد عسكري قد يطلبه نائب ايلة من الشام أو مصر. واتخذ أرناط سبيله في البحر وتوجه نحو ايلة التي سقطت في يده بعد مقاومة قليلة. إلا أن قواته عجزت عن احتلال جزيرة القلعة (جزيرة فرعون) القريبة من ايلة، فترك عليها سفينتين لمنازلتها، ولمنع أهلها من الحصول على الماء «فنالوا شدة شديدة وضيقاً عظيماً»<sup>(٩)</sup>

(١) عيذاب: بليدة وتغر مصر على بحر القلزم، وهي مرسى المراكب التي تقدم من عدن. معجم البلدان، ١٧١/٤. وهو من أحفل المراسي في هذا الاقليم لأن مراكب الهند واليمن تحط وتقلع منها، فضلاً عن مراكب الحجاج. انظر: د. سعادوي، التاريخ الحربي، ص ١٤١. وقد زارها الرحالة ابن جببر في سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م ولم يستطع احصاء القوافل الواردة بها لكثرتها، ويعيش أهلها على تعمير سفن الحجاج وصنع المراكب.

(٢) الكامل، ٤٩/١١. الروضتين، ٣٧/٢.

(٣) الروضتين، ٣٧/٢. مفرج الكروب، ١٣٠/٢.

(٤) ابن جببر، ص ٣٤.

(٥) الخطط (ط بولاتق) ٨٦/٢.

(٦) د. سعادوي، التاريخ الحربي، ص ١٤٤.

(٧) رنسيما، ٧٠٦/٢.

(٨) ابن جببر، ٣٤. الروضتين، ٣٧/٢. Lane - Poole, Saladin, p. 176.

(٩) الكامل، ٤٩٠/١١. انظر: الروضتين، ٣٥/٢. السلوك، ٧٩/١. الخطط، ٨٦/٢.

على حد قول ابن الأثير. بينما انطلقت بقية سفن الأسطول للإغارة على الساحل الإفريقي، وأخذوا يغيرون على كل ما صادفهم في طريقهم حتى وصلوا إلى عيذاب، واستولوا فيها على سفن تجارية زاخرة بالسلع قدمت من اليمن<sup>(١)</sup> والجهات الأخرى كالهند وعدن.

وقد فزع المسلمون حين شاهدوا مراكب الصليبيين تجوب عباب البحر الأحمر لانهم «لم يعهدوا بهذا البحر فرنجياً قط لا تاجراً ولا محارباً»<sup>(٢)</sup> وأحدث الصليبيون حوادث شنيعة فأحرقوا نحو ستة عشر مركباً للمسلمين، وأخذوا مركباً يحمل حجاجاً، وأحرقوا مواداً غذائية كانت معدة لميرة مكة والمدينة، هذا فضلاً عن حوادث القتل والأسر والتنكيل التي ارتكبوها في البر والبحر<sup>(٣)</sup>. ومن عيذاب توجه الصليبيون إلى ساحل البحر الأحمر الشرقي (أرض الحجاز) فأشعلوا الحرائق في السفن الراسية (بالحوراء وينبع) مينائي المدينة المنورة، ثم توغلوا إلى الجنوب حتى بلغوا (رابغ) من موانئ مكة، وأغرقوا بالقرب منها سفينة كان يستقلها الحجاج وتوجه نحو جدة<sup>(٤)</sup>.

وصلت هذه الاخبار في رسالة بعث بها مستحفظ قلعة ايلة إلى صلاح الدين وكان نازلاً على الموصل، فبعث السلطان إلى أخيه ونائبه على مصر الملك العادل سيف الدين أبي بكر، يحثه على اتخاذ ما يلزم للرد على المعتدين بالسرعة الممكنة، ويبدو أن الملك العادل استعد لتلك المهمة قبل أن يصله طلب أخيه السلطان<sup>(٦)</sup>. فأوعز إلى قائد الأسطول الحاجب حسام الدين لؤلؤ بالاستعداد للعملية العسكرية. وعمر أسطولاً من السفن في مدينة مصر والاسكندرية ثم فك أجزاءها وحملها على الجمال إلى ساحل خليج السويس. فوصلت الأجزاء بصحبة محاربين مغاربة، قاموا بتركيب تلك الأجزاء.

قسم الحاجب حسام الدين لؤلؤ سفن أسطوله إلى جماعتين، فسارت الاولى إلى قلعة ايلة واستولت على مراكب العدو برمتها، وقتلت أكثر من بها، إلا أن قسماً منهم استطاعوا الهرب والاختفاء في شعاب ووديان المنطقة، فسلط عليهم الحاجب رجاله فعثروا عليهم، وانقضوا عليهم انقضاض العقاب على صيدها<sup>(٧)</sup>.

أما الجماعة الثانية فوجههم نحو عيذاب ولم يجدوا فيها أحداً منهم، فقاموا بتعقيب أسطول العدو، فوجدوا قطعة راسية قبالة الحوراء. فنزلوا من المراكب وبدأوا بمقاتلتهم ومطاردة الفارين منهم وألقوا القبض عليهم، وبلغ عدد من تم أسرهم (١٧٠) مائة وسبعين أسيراً، وحرروا الأسرى المسلمين، ثم استولوا على مراكبهم وما فيها من بضائع<sup>(٨)</sup>.

(١) ابن جبير، ص ٣٤٠.

(٢) الكامل، ٤٩٠/١١. ابن خلدون، ٦٥٥/٥.

(٣) الروضتين، ٣٥/٢. مفرج الكروب، ١٢٧/٢. السلوك، ٧٩/١.

(٤) لقد استنكر بعض المؤرخين الصليبيين هذه العملية التي قام بها أرناط، انظر: Henry Treece, The Crusades, N. Y. 1962, p. 119.

(٥) الكامل، ٤٩٠/١١. مرآة الزمان، ٣٦٩/٨. الروضتين، ٣٥/٢. مفرج الكروب، ١٢٨/٢.

(٦) الكامل، ٤٩٠/١١. الروضتين، ٣٧/٢. مفرج الكروب، ٧٨/٢.

(٧) مرآة الزمان، ٣٦٩/٨. الروضتين، ن. ص. السلوك، ٧٩/١. الأخبار السنوية، ص ١٤٠.

عاد الحاجب بأسطوله المنتصر إلى مصر، ومعه الأسرى وفي أرجلهم القيود وكان دخولهم الاسكندرية في ١ ذي الحجة ٥٧٨هـ/ ٢٧ مارت ١١٨٣م يوماً مشهوداً، وصادف ذلك اليوم وصول الرحالة الشهير ابن جبير إلى هذه المدينة، فشاهد مجتمعاً من الناس عظيماً لمعاينة الأسرى من الروم ادخلوا البلد راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذنايهم، «وحولهم الطبول والأبواق»<sup>(١)</sup>. وأمر الملك العادل «بضرب رقابهم وقطع أسبابهم بحيث لا يبقى منهم عين تطرف ولا أحد يخبر طريق ذلك البحر أو يعرف»<sup>(٢)</sup> وتولى ذبحهم رجال الصوفية والفقهاء وأرباب الديانة<sup>(٣)</sup>.

وكما جاء في رسالة القاضي الفاضل إلى الديوان الخليفة ببغداد: لم يكن «في مقتل هؤلاء الكفار مراجعة، ولا للشرع في ابقائهم فسحة، ولا في استبقاء واحد منهم مصلحة... فليمض العزم في قتلهم ليتناهى أمثالهم عن فعلهم، وقد كانت عزيمة ما طرقت الإسلام بمثلها»<sup>(٤)</sup>.

وتصادف أن كان الموسم موسم الحج فساق المسلمون معهم البعض من الأسرى إلى منى «لذبحهم كما تنحر البدن - الذبائح»<sup>(٥)</sup>. وصار نجاح أسطول صلاح الدين في الرد على عملية الانزال الصليبي تجربة قاسية للمغربين، وأسهم أكثر من أي حادث آخر في تعزيز شهرة صلاح الدين، وتقوية مركزه بين كافة المسلمين، وعزز أيضاً شهرة قائد أسطوله الحاجب حسام الدين لؤلؤ<sup>(٦)</sup>.

أما مدير الحملة الصليبية الأمير أرناط فقد استطاع الإفلات من الأسر والعودة إلى حصنة بالكرك كذئب كسيح يلحق جروحه<sup>(٧)</sup>، ليواصل خططه ومشاريعه العدوانية ضد المسلمين، إلا أن صلاح الدين أعلن بأنه لن يغفر له محاولته في انتهاك الحرمين، ونذر نفسه للانتقام منه<sup>(٨)</sup>. ولم يستطع هذا الأمير الصليبي ولا غيره من القادة الصليبيين، أن يعيد التجربة الميرية في البحر الأحمر الذي ظل بحراً عربياً إسلامياً.

ولعل آخر نشاط قامت به بحرية صلاح الدين في هذه الفترة، خروجها في بداية سنة ٥٧٩هـ/مايس ١١٨٣م إلى عباب البحر المتوسط للبحث عن سفن صليبية، فعشرت على بطسة عليها ثلاثمائة وخمسة وسبعون (٣٧٥) مقاتلاً مع أسلحتهم<sup>(٩)</sup> وعليها أموال وأسلحة يسبغون بها إلى الساحل

(١) ابن جبير، ص ٣٤.

(٢) الروضتين، ٣٦/٢.

(٣) الخطط (ط بولاق)، ٨٦/٢.

(٤) الروضتين، ٣٦/٢.

(٥) الكامل، ٤٩١/١١. الروضتين، ٣٥/٢. مفرج الكروب، ١٢٨/٢. السلوك، ٧٩/١. ابن الوردي، ١٣١/٢. ابن خلدون، ٦٥٦/٥. الخطط، ٨٦/٢.

(٦) الفتح القسي، ٣٤١. الروضتين، ١٤٨/٢. الخطط (ط بولاق)، ٨٦/٢.

(٧) هارولد لامب، شعلة الإسلام، ص ٩٦.

(٨) الكامل، ٥٢٨/١١. مرآة الزمان، ٣٨٩/٨. مفرج الكروب، ١٨٥/٢. ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج ٢، ص ٧٢. ابن الوردي، ١٣٧/٢.

(٩) كما في الروضتين، ٤٧/٢. الأيوبي، مضمار الحقائق، ص ٥٠. السلوك، ١٨٠/١. و (٣٠٠) مقاتلات كما في: الكامل، ٤٩٥/١١. مفرج الكروب، ١٣٩/٢.

الشامي المحتل، فقاتلهم المسلمون، وصبر الفريقان، ثم ظفر المسلمون فأخذوا أفراد البيطسة الباقين أسرى، وعادوا بهم وبالغنائم إلى مصر. ومع أن هذه المرحلة قد امتازت بقوة الأسطول الأيوبي، إلا أن هذا الأسطول لم يستطع أن يحرز انتصاراً بحرياً يرقى إلى مستوى انتصارات صلاح الدين في معاركه وفتوحاته البرية الشهيرة، لكنه استطاع أن يضع حداً لأطماع الصليبيين في البحر الأحمر. هذا وقد أعقبت الحادث الأخير فترة خمود استمرت طيلة سنوات ٥٧٩ - ٥٨٠ هـ - ٥٨١ - ٥٨٢ هـ/١١٨٣ - ١١٨٦ م أي السنوات الأربع التي سبقت حطين، لم يتم خلالها الأسطول الإسلامي بأي نشاط يذكر.

ج- مرحلة ما بعد حطين إلى صلح الرملة ٥٨٣ - ٥٨٨ هـ/١١٨٧ - ١١٩٢ م:

واصل جيش صلاح الدين انتصاراته بعد انتصار حطين الحاسم، في جبهات القتال المختلفة، سواء في فتح ثغور وحصون شمالي الشام أو فلسطين وغور نهر الاردن إلا أن نشاط الأسطول ظل دون المستوى المطلوب في العمل العسكري. وظل دوره في التخفيف عن الأعباء القتالية الثقيلة الملقاة على عاتق الجيش البري في فتح المدن الساحلية محدوداً، وهذا الوضع لم يكن ناجماً عن ضعف البحرية الأيوبية، بقدر ما كان راجعاً إلى قوة البحرية الصليبية. وكان صلاح الدين على علم بهذا الفرق، فلم يشأ أن يشرك أسطوله بمشاركة جادة، ولخشيته من هجوم قد يقوم به العدو على الساحل المصري، إذا حشد كل قواته البحرية في الساحل الشامي. ولهذا نرى أن الجيش البري لم يتم بفتح القلاع والحصون الداخلية فقط، بل قام بفتح المدن البحرية كذلك، كعكا وبيروت وعسقلان واللاذقية وغيرها.

إلا أن هذا لم يمنع أسطوله أن يضطلع ببعض المهام لمعاونة جيشه، ففي صور ضاقت الحيل بجيش صلاح الدين، وصار عليه أن يحارب في ثلاث جبهات، جبهة المدينة المحاصرة بسورها المتين، وفي الجبهة الشمالية، وكذلك الجنوبية المحيطة بالمدينة، حيث تلقفهم الصليبيون بالرمي من سفنهم الراسية في «جانبي الموضع الذي يقاتل المسلمون منه أهل البلد، فيرمون المسلمون من جانبهم بالجروح... فكانت سهامهم تنفذ من أحد الجانبين إلى الجانب الآخر لضيق الموضع، فكثرت القتل والجراحات في المسلمين، ولم يتمكنوا من الدنو إلى البلد»<sup>(١)</sup>.

فما كان من صلاح الدين إلا وأرسل في إثر الشوانى المصرية الراسية في مياه عكا التي تم فتحها حديثاً، فوصلت هذه السفن في الوقت المناسب، فاستطاع المسلمون الاقتراب من سور البلد، فقاتلوه براً وبحراً وضايقوه، وكان من المتوقع أن تسقط هذه المدينة بعد هذا. وفي ضوء هذه الاعتبارات صار للعمل الذي كلف به الأسطول أهمية خاصة وثقيلة، فمن واجبه أن يحاصر الميناء وأن يحاول دون قدوم مساعدة بحرية للصليبيين إلى صور. ولم يكن في استطاعة الحامية بسبب هذه الأحوال أن تصمد طويلاً<sup>(٢)</sup>.

(١) الكامل، ١١/٥٥٤.

(٢) د. عبدالعزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية، ص ١٨٤.

إلا أن المسلمين تماهلوها في واجبيهم، والقيام بمهمة الحراسة للحيلولة دون اقتراب سفن الأسطول الصليبي من صور، فأثناء ما كانت خمس قطع من الأسطول الأيوبي تقوم بالحراسة ليمنعوا الصليبيين من الخروج من صور والدخول إليها تصوروا أنهم قد سيطروا على الوضع، فأمن الحراس وناموا وقت السحر، فاستغل رجال البحرية الصليبية الفرصة للايقاع بهم «فقتلوا من أرادوا قتله وأخذوا الباقين بمراكبهم، وأدخلوهم إلى ميناء صور، وأفراد جيش صلاح الدين في البر ينظرون إليهم»، وكان قائد الأسطول الإسلامي هو عبدالسلام المغربي، الذي يصفه ابن الأثير بالحدق في صناعته وشجاعته<sup>(١)</sup>، ومعه بدران الفارسي<sup>(٢)</sup>.

وقد استطاع بعض رجال الأسطول الذين أسروا في شوانيههم أثناء نومهم، رمي أنفسهم في البحر، فمنهم من سبح ونجا، ومنهم من غرق. أما الشواني الخمس الباقية فقد طلب السلطان من متوليها أن يتجهوا بها نحو بيروت «لعدم انتفاعه بها لقتلها» فسارت، لكن السفينة الصليبية تبعتها، فما كان من البحارة والمقاتلين المسلمين فيها، إلا وألقوا أنفسهم من شوانيههم إلى البر، فنجوا بأنفسهم تاركين شوانيههم، لكن صلاح الدين لم يدع هذه السفن تقع في أيدي الصليبيين فأوعز إلى جماعة من رجاله بالوصول إليها ونقبها، ثم «عاد إلى مقاتلة صور في البر»<sup>(٣)</sup> وكما هو متوقع، فقد «اغتم السلطان بسبب هذه النكبة، وفرح الكفار بتلك الضربة»<sup>(٤)</sup>.

هكذا أخفق الأسطول الأيوبي في المشاركة في معارك إحدى المدن الساحلية التي كانت بيد الصليبيين، وكانت هذه العملية هي الوحيدة التي قام بها هذا الأسطول في هذا المجال، ولم يكررها في فتح المدن الأخرى.

ولكن يلاحظ أن الأسطول عاد إلى نشاطه ثانية أيام الحصار الصليبي الطويل لمدينة عكا، لإنقاذ هذه المدينة وتزويدها بما تحتاج إليه من عتاد وذخيرة ومقاتلين، إلا أنه لم يكن ينجح دائماً في مهمته، ومع هذا فإن النشاط البحري ظل مستمراً إلى سقوط عكا.

ففي منتصف ذي القعدة ٥٨٥هـ/أواخر سنة ١١٨٩م، وصل إلى مياه عكا حسب طلب السلطان، الأسطول المصري وفيه خمسون قطعة من الشواني بقيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ، واعترضتها قطع الأسطول الصليبي الراسية في المنطقة وتصادم الطرفان في معركة لم تدم طويلاً، استطاعت مراكب الأسطول الإسلامي أن تنتصر وتبدد الأسطول الصليبي، وتسلبه بعض قطعه، وتظفر ببطستين كبيرتين بما فيهما من أموال ورجال وغلال<sup>(٥)</sup>.

(١) الكامل، ٥٥٤/١١.

(٢) النوادر، ٨٤. الروضتين، ١١٩/٢. مفرج الكروب، ٢٤٤/٢.

(٣) الكامل، ٥٥٥/١١. مفرج الكروب، ٢٤٤/٢-٣٤٥. وعن هذا الحادث انظر: الفتح القسي، ١٦٠-١٦٣.

الروضتين، ١١٩/٢. مرآة الزمان ٨/٤٠٠. البداية والنهاية، ٣٢٧/١٢.

(٤) الفتح القسي، ١٦١.

(٥) الروضتين، ١٤٨/٢. البداية والنهاية، ٣٣٣/١٢.

واستأنف الأسطول سيره نحو عكا، وأنزلوا حمولته من الأزواد والرجال الأشداء « وكانوا زهاء عشرة آلاف مقاتل»<sup>(١)</sup> أعطوا المدينة المحاصرة قوة بشرية جديدة، وثقة بالنصر عظيمة. وهذا الانتصار البحري الذي أحرزه المسلمون لا يدل على أن التفوق البحري صار للأسطول الأيوبي، في الطريق الذي يوصل بين ثغور مصر وبين عكا، فهذا الانتصار كان بسبب ضخامة هذا الأسطول، وضعف القوه الصليبية في ذلك الموضع. فالأسطول الصليبي ظل هو المسيطر على البحر المتوسط وعلى السواحل الشامية حتى بعد أن خسروا أكثر مدن هذه السواحل. فكان ما عندهم من قطع بحرية يزيد على ما كانت تملكه البحرية الإسلامية. ففي مستهل حصار عكا اجتمع ما لا يقل عن خمسمائة وأربع وخمسين « ٥٥٤ » سفينة صليبية منها خمسمائة « ٥٠٠ » سفينة اسكندنافية وأربع وخمسون « ٥٤ » من بيزا وجنوة والبندقية، وكان هذا العدد يفوق على ما كان لدى صلاح الدين من قوة بحرية<sup>(٢)</sup>.

وقد اعترف بهذا التفوق البحري الصليبي السلطان نفسه، ففي إحدى رسائله التي بعث بها إلى أخيه في اليمن قال فيها « ومن خير الكفار أنهم الآن على عكا يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه، ويخرج منهم أمر من أجابه، قد تعاضدت ملوك الكفر على أن ينهضوا إليهم من كل فرقة منهم طائفة... فإذا قتل المسلمون واحداً في البر، بعث البحر عوضه ألفاً»<sup>(٣)</sup>. ورغم هذا التفوق فان الأسطول الصليبي لم ينهض للقيام بعملية عسكرية بحرية حاسمة ضد المسلمين. بل إن ما حصل بين الفريقين لم يتعد المناوشات المحدودة<sup>(٤)</sup>، كان النصر للأسطول الأيوبي أحياناً.

ولعل أبرز هذه العمليات ما حدث في جمادى الأولى ٥٨٦هـ/ حزيران ١١٩٠م فقد توجه الأسطول الأيوبي إلى عكا مجدداً بتوجيه من السلطان، إلا أن الصليبيين لم يدعوه يقوم بمهمته بسهولة، فعمرؤا أسطولاً اندفع لمواجهة الأسطول الإسلامي، وحاول السلطان أن يمنعهم من ملاحقة الأسطول، فقام بهجوم بري على الصليبيين المحاصرين لعكا لإشغالهم عن قصد أسطوله، إلا أن الصليبيين ردوا على صلاح الدين بالمثل، « والتقى الأسطولان في البحر والعسكران في البر»<sup>(٥)</sup>. وكان يوماً مشهوداً لم يؤرخ مثله حسب قول ابن الأثير. وانتهى الصدام البحري بوصول الأسطول الإسلامي إلى عكا، بعد أن كسب كل فريق مركباً للفريق الآخر، و«قتل من الفرنج عدة وافية»<sup>(٦)</sup>.

(١) الكامل، ٤١/١٢. الروضتين، ن. ص. مفرج الكروب، ٣٠٥/٢. السلوك، ١٠٢/١. انظر: الفتح القسي، ٣٤٠ - ٣٤١.

(٢) Grousset, Histoire des Croisades, Paris, 1935, Vol. 111, p. 23.

(٣) صبح الاعشى، ١٢٧/٧ - ١٢٨.

(٤) الفتح القسي، ٣٨٧، ٣٨٨. مفرج الكروب، ٣١٧/٢. السلوك، ١٠٤/١، ١٠٧.

(٥) النوادر، ١٢٢. الكامل، ٤٧/١٢. الفتح القسي، ٣٨٥. الروضتين، ١٥٤/٢.

(٦) الفتح القسي، ن. ص. الروضتين، ن. ص.

ومن هذا نجد أن مصر ظلت مصدراً لتموين عكا بحاجاتها. ولكننا نرى أن صلاح الدين صار يعتمد على بيروت وحيفاً أحياناً، وذلك لقربهما من هذه المدينة وسرعة الوصول إليها. فنتيجة لحاجة عكا الملحة إلى مواد التموين، ونظراً لشدة الحصار المفروض عليها اضطر المشرفون على شؤون الأسطول إلى استعمال بعض أساليب الحيل لا يصلح المواد إليها، فحين «تواردت الشكوى من البلد أن الذخيرة قد فنيت. وأبطأ وصول البطس المستدعاة من مصر بالغلات... كتب إلى والي بيروت عزالدين اسامة»<sup>(١)</sup> أن يجهز بطسة كبيرة كانت قد أخذت من الصليبيين ويملأها الميرة والسلاح والرجال. وللتمويه على الصليبيين طلب اسامة من البحارة أن يحملوا بعض الخنازير على ظهر البطسة، ويرفعوا على قلع المركب صليباً، وأن يلبس البحارة زياً فرنجياً ويحلقوا شعورهم على طريقة الأوربيين، بل طلب منهم أيضاً أن يشركوا معهم بعض الفرنجية المستأمن لكي يتحدثوا مع أفراد العدو بلغتهم إذا اعترضوا سبيلهم<sup>(٢)</sup>. وبهذه الحيلة استطاع رجال بحرية صلاح الدين إيصال المواد الغذائية إلى البلد «وكان فرحاً عظيماً، فان الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد»<sup>(٣)</sup>.

أما البطس القادمة من مصر والتي تأخر وصولها والتي أمر صلاح الدين بتجهيزها وإرسالها إلى عكا، فقد شحنت بالأقوات والأدام والمير وجميع ما تحتاج إليه المدينة، بحيث تكفيها طوال موسم الشتاء<sup>(٤)</sup>، وسارت باتجاه عكا، إلا أن الأسطول الصليبي اعترض سبيلها لدى اقترابها من المدينة، وجرى قتال بينهما، وكانت «العساكر الإسلامية المرابطة مع صلاح الدين تشاهد ذلك من الساحل، والناس في تهليل وتكبير، وقد كشف المسلمون رؤوسهم يبتهلون إلى الله... والسلطان على الساحل كالوالدة الثكلى يشاهد القتال، ويدعو ربه إلى نصره... ولم يزل القتال حول البطس... حتى وصلت إلى الميناء، وتلقاها أهل عكا تلقي الأمطار عن جذب. وهكذا نجح الأسطول الأيوبي في جعل الاتصال بالمدينة أمراً ممكناً، وأوصل إليها حاجتها من المؤن المختلفة رغم الصعوبات التي اعترضت طريقه.

وحيث رأى الصليبيون صعوبة في منع المسلمين بالاتصال بالمدينة، حاولوا إحراق المرسى الموجود في مدخل الميناء الجنوبي، أو ما سمي ببرج الذبان «وهو برج في وسط البحر، مبني على الصخر على باب عكا تحرس منه الميناء، ومتى عبره المركب أمن من غائلة العدو»<sup>(٥)</sup>. فأراد الصليبيون أولاً السيطرة على هذا الجزء من عكا، لاحكام الحصار بجرماً وبراً عليها ومنع دخول شيء إليها، وحين لم يستطيعوا ذلك حاولوا حرق برج الذبان، فجهزوا لهذا الغرض ثلاث سفن ضخمة «بطسة» ووضعوا في سارية الاولى حطباً ونفطاً، وساروا باتجاه البرج، فاذا قاربت السفينة برج الذبان ولاصقته أحرقوا

(١) الفتح القسي، ص ٤١٧.

(٢) ن. م. ص. ابن العديم، زبدة الحلب، ١١٨/٣. البداية والنهاية، ٣٣٧/١٢.

(٣) النوادر، ١٣٥. الكامل، ٥٣/١٢. الفتح القسي، ٤١٨. مرآة الزمان، ٤٠٤/٨. الروضتين، ١٦٠-١٦١. مفرج الكروب، ٣٣٠/٢-٣٣١. شفاء القلوب، ١٦٨.

(٤) النوادر، ١٣٨. الروضتين، ١٦١/٢.

(٥) النوادر، ١٣٨ الفتح القسي، ٤٢٩. الروضتين، ١٦٢/٢. مفرج الكروب، ٣٣٦/٢.

السارية وألصقوها بالبرج ليحترق بدوره ويحترق من فيه من المحاربين المسلمين، وحملوا في البطسة الثانية كمية كبيرة من الحطب لرميها على البرج، أما البطسة الثالثة فجعلوها على هيئة قبو يختفي تحته المقاتلة بحيث لا يصل إليهم نشاب المسلمين، أو أي سلاح آخر من جانبهم<sup>(١)</sup>.

وفعلاً اندفعت البطسة الأولى وأوقدوا في ساريتها النار وصبوا عليها النفط إلا أن اتجاه الهواء لم يكن نحو البرج، بل كان باتجاه البطسة، فاشتعلت. وحاولوا إطفاءها ولم يقدروا فهلك جميع من فيها. أما البطسة الثانية التي تحمل الحطب، فقد استولى عليها المسلمون، وحاول ربابنة البطسة الثالثة ذات القبو العودة إلى حيث أتوا لخوفهم، ولم يستطع من كان في القبو الخروج «فاضطربوا اضطراباً عظيماً، فانقلبت، وهلك جميع من كان فيها... وكان يوماً مشهوداً»<sup>(٢)</sup>.

وإذا كانت الظروف الطبيعية حالت دون سقوط البرج، فانها لم تحل دون سقوط المدينة بأكملها فيما بعد، بالعمل الدؤوب الذي قام به الصليبيون، والذي قابله المسلمون بالمثل، إلى أن سقطت وبسقوطها انتهت مهمة الأسطول الأيوبي في مياه البحر المتوسط الشرقية، واقتصر عملها على الدفاع عن الثغور المصرية، فصار الأسطول الصليبي مسيطراً بصورة كلية على تلك المياه. ومع ذلك فانه عجز عن القيام بأي عمل هجومي ضد المدن الساحلية التي استعادها المسلمون. كما عجزت البحرية الإسلامية عن المشاركة في عمليات فتح الساحل إلا أن دور الأسطول كان يمتاز بأهميته القصوى بالنسبة للصليبيين، لأن البحر ظل السبيل الوحيد لتزود المعسكر الصليبي بدماء جديدة دائمة، إضافة إلى أن الحملة الصليبية الثالثة، بقيادة ريتشارد قلب الأسد ملك انكلترا، وفيليب اغسطس ملك فرنسا، التي جاءت لايقاف صلاح الدين عند حده، كانت حملة بحرية والتي نتج عنها سقوط عكا، وعقد صلح الرملة. ومع هذا فقد قامت البحرية الأيوبية بدور مشرف وسجلت صفحة بيضاء في تاريخ البحرية الإسلامية، لما أبداه رجالها من بطولات فذة. ففي أواخر سنة ٥٨٦هـ/ بداية سنة ١١٩١م حدث صدام بحري بين الشواني الأيوبية والصليبية واستطاع البحارة المسلمون الصمود بوجه العدو وإحراق بعض سفنهم برجالها، وعند العودة تأخرت إحدى الشواني، وكان يقودها الأمير جمال الدين محمد «بن ارككز»، فأحاطت به مراكب العدو، وقاتلهم مع جماعته إلى النفس الأخير، ثم عرضوا عليه الأمان لقاء تسليم نفسه. ورأى القائد الأيوبي أن لا مجال له سوى التسليم فأجابهم: لن أضع يدي إلا في يد مقدمكم الكبير، فجاء إليه هذا المقدم، وعانقه «ابن ارككز» بقوة، ولم يتركه إلا وأوقعه معه في البحر وغرقاً معاً<sup>(٣)</sup>.

ومن البطولات النادرة لرجال البحرية الإسلامية، ما قام به بحارة إحدى السفن التي كان يقودها شخص من حلب اسمه يعقوب. فحسب طلب السلطان قام المسلمون في بيروت بتجهيز «بطسة عظيمة

(١) النوادر، ١٣٩. الروضتين، ١٦٣/٢. زبدة الحلب، ١١٦/٣. مفرج الكروب، ٣٣٦/٢.

(٢) النوادر، ١٣٩. الفتح القسي، ٤٢٨. الروضتين، ١٦٣/٢. زبدة الحلب، ١١٧/٣. مفرج الكروب، ٣٣٦/٢.

(٣) الفتح القسي، ٤٦٣-٤٦٤. الروضتين، ١٨٢/٢. مفرج الكروب، ٣٤٨/٢.

هائلة وشحنوها بالآلات والسلاح والمير والمقاتلة» ووجهوها إلى عكا. وكانت عدة المقاتلة بها زهاء سبعمائة رجل، وقبل الوصول إلى تلك المدينة التقت بأسطول ضخم فيه أربعون شانياً<sup>(١)</sup> يقوده الملك ريتشارد قلب الأسد<sup>(٢)</sup>. وأوعز الملك إلى جماعته بتطويق البطسة، وبدأ قتال شديد بين الطرفين استمر مدة يومين، استطاع المسلمون خلاله أن يغرقوا ثلاثة مراكب للعدو<sup>(٣)</sup>، ويحرقوا شانياً ويقتلوا عدداً من أفرادهم<sup>(٤)</sup>.

إلا أن المسلمين عجزوا عن مواصلة القتال، ورأوا أن نهايتهم قد قربت، بعد أن ضاقت بهم الحيل، ولم يعد بوسعهم إلا إعلان الاستسلام، فانبرى مقدمهم قائلاً «والله لا نقتل إلا عن عز، ولا نسلم إليهم من هذه البطسة شيئاً»<sup>(٤)</sup>.

(٤) النوادر، ١٦١.

فبدأ رجال البطسة بنقبيها بالمعاول من كل جوانبها، فأمتلأت بالماء فغرق كل من بها من المسلمين وهلك ما فيها، إلا أن الصليبيين استطاعوا إخراج ما أمكن إخراجاً من البحر ونقلوه إلى مراكبهم، وكذلك أخرجوا بعض رجال البطسة من البحر، ثم مثلوا بهم، وأنفذوا إلى عكا من يخبر سكانها بما حدث، للتأثير على نفسية المقاتلين بها، فحزن الناس حزناً شديداً<sup>(٥)</sup>. وقد علق العماد الكاتب على هذه الحادثة بأنها كانت «أولى حادثة للوهن محدثة، وللهم مورثة»<sup>(٦)</sup> أي أنها كانت أحد أسباب ضعف عكا في مقاومة الحصار، لأن هذه المدينة «كانت محتاجة إلى رجال»<sup>(٧)</sup>.

هذا وقد ضعفت البحرية الأيوبية بعد صلاح الدين، فاستغل الصليبيون ذلك، واستطاعوا إعادة سيطرتهم على بعض ثغور الشام، فقد هاجموا بيروت واستولوا عليها سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م بعد أن عجز صاحبها عزالدين اسامة عن إيداء المقاومة فسلمها دون قتال، وقد أثارت هذه الحادثة استياء المسلمين فمن قائل إنه تجبن وتجنب، ومن قال أن ينكب تنكب، ومن قائل: إن رجاله هابوا فغابوا، ولو أنه دعاهم ما أجابوا، حتى نظم بعضهم هذه الأبيات:

سَلِّمَ الحِصْنَ ما عَلَيْكَ مِلامَة ما يُلَامُ الذي يرومُ السَّلامَة  
فَعَطَأُ الحِصونِ من غيرِ حربٍ سُنَّةً سَنَّها بيبيروت «سامَة»<sup>(٨)</sup>

- (١) في زبدة الحلب، ١١٨/٣: واحد وعشرون مركباً.  
(٢) الفتح القسي، ٤٨٦. النوادر، ١٦١. الكامل، ٦٥/١٢. الروضتين، ١٨٤/٢. مفرج الكروب، ٣٥١/٢.  
(٣) زبدة الحلب، ١١٨/٣.  
(٤) الروضتين، ١٨٤/٢. مفرج الكروب، ٣٥١/٢.  
(٥) النوادر، ١٦٢. الروضتين، ١٨٥/٢. مفرج الكروب، ٣٥١/٢. ينفرد ابن العديم بالقول انه لم ينقذ من رجال البطسة سوى رجلين، تخطفهما الفرنج من رأس الماء واحتملوهما في مراكبهم، فأخبرا بهذه الحادثة. زبدة الحلب، ١٩٩/٣.  
(٦) الفتح القسي، ٤٨٦.  
(٧) الكامل، ٦٥/١٢.  
(٨) الروضتين، ٢٣٣/٢.

ولاشك أن هذا يلقي الضوء على الوضع الذي ترتب على وفاة صلاح الدين، حتى «قل الاهتمام بالأسطول، وصار لا يفكر في أمره إلا عند الحاجة إليه» على حد قول المقرئزي<sup>(١)</sup>.

ويصف هذا المؤرخ وضع رجال البحرية في مصر بعد صلاح الدين ويقول: «إذا دعت الضرورة إلى تجهيز أسطول طلب له الرجال وقبض عليهم من الطرقات، وقيدوا في السلاسل نهاراً، وسجنوا في الليل، حتى لا يهربوا ولا يصرف لهم إلا شيء قليل من الخبز ونحوه، وربما أقاموا الأيام بغير شيء، كما يفعل بالأسرى من العدو، فصارت الخدمة في الأسطول عاراً يسب به الرجال، وإذا قبل لرجل في مصر يا أسطولي! غضب غضباً شديداً بعد ما كان من خدم الأسطول يقال لهم: المجاهدون في سبيل الله، والغزاة في أعداء الله، ويتبرك بدعائهم الناس»<sup>(٢)</sup>.

وهذه العبارة عن حالة الأسطول الإسلامي، وحالة المجاهدين المسلمين، هي أبلغ تعبير عن دور صلاح الدين العظيم في رعاية المجاهدين، والاهتمام الكامل الشامل بكل وسائل الحرب ضد الصليبيين المحتلين المعتدين، في البر والبحر.

(١) الخطط، ١٩٤/٢.

(٢) ن. م. ص.



## قِسْمُ الْمَعَارِكِ

### الفَصْلُ السَّادِسُ

#### أَبْرَزُ مَعَارِكِ صَلَاحِ الدِّينِ

تمهيد:

أولاً: معارك الأسوار

- ١- حصار الاسكندرية
- ٢- حصن الكرك وحصاره المتكرر
- ٣- حصار بيت الأحزان
- ٤- حصار الجيش الأيوبي لعكا وفتحها
- ٥- حصار بيت المقدس وفتحه
- ٦- حصار صور الشهير

ثانياً: المعارك المكشوفة:

- ١- معركة الرملة
- ٢- معركة حطين



بعد أن فصلنا في مختلف جوانب جيش صلاح الدين، وتنظيماته والاسس النظرية لخططه وتحركاته، نريد أن نبين ماكان فيه هذا الجيش وهو في حالة الحركة، أي وهو يخوض المعارك الهجومية، والدفاعية. ونظراً لطول موضوع المعارك ارتأينا تقسيمه إلى فصلين، متخذين من حصار عكا الشهير بداية للفصل السابع (الأخير)، على اعتبار أن هذا الحصار كان الحدث الكبير الذي هزم فيه جيش صلاح الدين هزيمة قاسية، واستغرق قرابة السنتين من تاريخ هذا الجيش.

## أبرز معارك صلاح الدين

تمهيد:

نجح صلاح الدين في ضم مدن وقلاع بلاد الشام والجزيرة التي كانت بحوزة أمراء نورالدين محمود، باستثناء حلب التي ظلت بيد الملك الصالح اسماعيل بن نورالدين إلى سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م، حيث ملكها صلاح الدين. وكذلك أتابكية الموصل التي ظل يحكمها ورثة زنكي، حتى دخلت في تبعية صلاح الدين سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م. أي أن صلاح الدين استطاع أن يوحد الجبهة الإسلامية في مصر والشام تحت رايته خلال عقد واحد، منذ أن خرج من مصر سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م إثر وفاة نورالدين محمود ٥٦٩هـ/١١٧٣م.

وخلال هذه الفترة كان صلاح الدين يتردد بين مصر والشام، ويقوم بمناوشة الجماعات الصليبية في عدد من المعارك المكشوفة ومعارك الأسوار. وقبل التحدث عن هذه المعارك نرى ضرورة التمييز بين القلاع والحصون. فالقلاع تعني المدن التي أقاموا في أطرافها أسواراً وحصوناً، وحفروا حولها الخنادق، فجعلوها مدينة حصينة لا يمكن الدخول فيها إلا من المسالك المعلومه بمساعدة حاميتها<sup>(١)</sup>.

أما الحصن فهو ما أقاموه في المناطق الجبلية لسد الطرق والمضائق أو ما يشيدونه في المناطق ذات القيمة الاستراتيجية التي تحتاج إلى الدفاع عنها، للحيلولة دون وقوعها بيد الأعداء. ومن الحصون الشهيرة في بلاد الشام. حصن المرقب بالقرب من طرطوس في شمال الشام. وحصن الكرك الذي سمي لمتانته بصخرة الصحراء، وكان من أعظم حصون النصارى<sup>(٢)</sup> ويصفه ابن الأثير بالحصن العظيم

(١) طه الهاشمي، الجغرافية العسكرية، ص ٢٣٢.

(٢) ابن جبير، ٢٦٠.

والمعقل المنيع<sup>(١)</sup>. وحصن برزية الذي شيد على سن جبل شاهق، ويضرب به المثل في الحصانة في جميع بلاد الافرنج على حد قول ياقوت<sup>(٢)</sup> وحصن الأكراد المنيع المبني على الجبل المقابل لحمص<sup>(٣)</sup> وغيرها.

وما يهمننا هنا هو أن أكثر المعارك التي خاضها صلاح الدين كانت معارك أسوار، وكان موقف جيشه هو الهجوم، وانتصر في أكثرها، ولم يوفق في بعضها. وليس من الضروري أن نتحدث عن جميع معارك حصار المدن التي كان يحتلها الصليبيون، أو المعارك التي حاصر خلالها الصليبيون بعض المدن الإسلامية في فلسطين ومصر، وإنما نشير إلى نماذج منها توضيحاً للفكرة، وتقريباً للصورة العامة.

ومن أبرز مواصفات هذا النوع من المعارك أن الحصار يجعل الجيش المحيط بالمدن جامداً في مواقعه. وسرعان ما يصيبه الملل، كما حصل عند صور. وكذلك تتلوث الأرض سريعاً بفضلات الخيول والجنود، ولاسيما وأن الوسائل الصحية في المعسكرات لم تكن معروفة آنذاك، أو لم تكن متوفرة في ساحة القتال، مما كان يسبب هلاك بعض المحاربين بأمراض تسببها عفونة المكان وفساد الجو. ولم يكن بإمكان أي جيش من جيوش العصور الوسطى أن يربط طويلاً في مكان واحد دون أن يصاب بخسائر، نتيجة المرض والمجاعة وهروب الجند، كما حدث عند عكا. ولهذا فإن المدينة إذا قاومت طويلاً واستبسلت في وجه العدو، كان ينتقم منها بقسوة عندما ينتهي الأمر باستسلامها<sup>(٤)</sup>. كما حصل لسكان عكا حين سقطت بيد ريتشارد فانتقم من أسرى المدينة بمنتهى القسوة والوحشية.

ولكن إذا كان هذا الانتقام يكاد يكون عاماً عند فتح المدن العسية، فإن صلاح الدين كان له قانونه الانساني المتسامح الذي وضعه نصب عينيه لدى فتح المدن. فكان يعامل السكان معاملة كريمة، بعيدة عن روح الانتقام، ولا عجب أن استسلمت المدن التي كان يحتلها الصليبيون بدون مقاومة شديدة، لأن محاربيها وسكانها كانوا مطمئنين إلى أن صلاح الدين لن ينتقم منهم إذا استسلموا، ولا أدل على ذلك من المعاملة السميحة التي عامل بها صلاح الدين الصليبيين عند فتح بيت المقدس، على عكس ما فعله الصليبيون عند فتحهم هذه المدينة سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م، أي قبل اثنتين وتسعين سنة، حين صارت خيولهم تخوض في دماء المسلمين.

هذا وقد عقد الهروي - الذي عاصر صلاح الدين وعاش في حلب في عهد الملك الظاهر غازي - في مصنفه «التذكرة» فصلاً كاملاً يتحدث فيه عن كيفية قتال الحصون وحصارها ومكايد ذلك، والحيلة في ضرب الحصار، وقدم جملة من التوجيهات بهذا الصدد متخذاً من تجارب صلاح الدين مرشداً له،

(١) الكامل، ١١/٥٠٢.

(٢) معجم البلدان، ١/٣٨٣.

(٣) معجم البلدان، ٢/٢٦٤.

(٤) هامرتن، تاريخ العالم ٥/٣٤٤-٣٤٥.

ومما قاله: إن على القائد أن يستميل قلوب أهل الحصن وأجناده وأكابره، ويضمن لهم ما يطلبونه، وذلك قبل البدء بفرض الحصار عليهم<sup>(١)</sup>.

ونرى أن صلاح الدين قد طبق هذه السياسة فعلاً في تعامله مع أكثر من حصن، وأعطى هذا التعامل ثمرته المرجوة دون كثير عناء، فكانت بعض الحصون تسلم نفسها، لأن محاربيها كانوا على ثقة بأنه لن يتوانى عن تنفيذ ما وعد به، من حسن التعامل وعدم التعرض لأرواحهم وممتلكاتهم. ومن تعليمات الهروي أن على القائد المحاصر أن يكون على إطلاع جيد بواسطة جواسيسه بأوضاع البلد المحاصر من حيث كمية الذخائر الموجودة عندهم، أو مقدار الأسلحة التي بحوزة المدافعين، وعدد المقاتلين فيها، أو كيفية حصول أهل المدينة على الماء. وإذا تأكد أن وضع البلد لا يساعده على المقاومة لفترة طويلة «فليرحل إليه وينزل عليه، ويغتنم الفرصة، وليسارع بالزحف إليه، وليباغت أهله بشدة القتال، ومرارة الزحف... ولا يمل ولا يضجر، فإن ذلك يوهن جانبه - كما حصل عند صور سنة ٥٨٣هـ- ويضعف قوته» ثم يقول الهروي إن على القائد أن يكتب أهل الحصن مقدميه، ويضمن لهم ما يطلبونه. وليظهر لهم أن بعضهم يكاتبونه ويريدونه، ولا يعين أحداً منهم، وليترك الأمر مكتوماً... فيظن كل واحد منهم في صاحبه<sup>(٢)</sup>.

ولعل من المفيد أن نراعي التسلسل التاريخي لدى كلامنا عن معارك الأسوار، وسنتحدث عن أبرز تلك المعارك التي خاضها الجيش الأيوبي، سواء حين كان موقفه دفاعياً أو هجومياً<sup>(٣)</sup>.

#### أولاً: معارك الأسوار:

##### ١- حصار الاسكندرية:

كان من أبرز المعارك التي خاضها جيش صلاح الدين في مصر، ودافع عن هذا الثغر الذي تعرض لانزال صقلي في الأيام الأخيرة من عام ٥٦٩هـ/ نهاية تموز ١١٧٤م. وكان الهدف من هذا الانزال هو القضاء على دولة صلاح الدين الفتيية بالتعاون مع أعوان الحكم الفاطمي المحلي من أنصار الشاعر المعروف عمارة اليمني<sup>(٤)</sup>... وقد كشفت محاولة المتآمرين فسيقوا إلى الاعدام. إلا أن خبر اكتشاف المحاولة لم يصل إلى الغزاة الصقليين فاستمروا في تقدمهم نحو الاسكندرية. وكانت الحملة ضخمة جداً، فيذكر المؤرخون أنه اشترك فيها ثلاثون ألف مقاتل منهم ألف وخمسمائة فارس، وخمسمائة تركبولي<sup>(٥)</sup>، ارتقوا سطوح مائتي شيني، وست وثلاثين طريدة تحمل الخيل. وست سفن تحمل آلات

(١) التذكرة الهروية، ص ١٢.

(٢) التذكرة، ص ١٠٤.

(٣) لن نتحدث في هذا السياق عن حصار يافا الفاشل، فسنتحدث عنه في مكان آخر.

(٤) الكامل، ٣٩٨/١١-٣٩٩. الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٥٦١. مفرج الكروب ٢٤٣/١-٣٤٤. ابن الوردي، ١١٧/٢.

(٥) تركبولي: لفظة يونانية معناها ابناء الترك، وهو مصطلح كان يطلقه البيزنطيون على فرقة من فرق جيشهم تلي في الأهمية فرقة الفرسان. وينحدر أفرادها من اب مسلم تركي، وام يونانية. وكانت تعتمد على الكر والفر والحرب السريعة. يرد ذكرهم في معارك الشام. انظر: النوادر ١٤٧، ٢٢٤. مضمار الحقائق، ١٥٢. مفرج الكروب ١٤٩/٢.

الحرب والحصار من الأخشاب الكبيرة « وكانت عدة المراكب الحمالة برسم الأزواد والرجال أربعين مركباً، وفيها من الراجل وغللمان الخيالة، وصناع المراكب، وأبراج الزحف، ودباباته، والمنجنيقية ما يتم خمسين ألف رجل»<sup>(١)</sup> وقد أنزل الصقليون هذه المعدات واستعملوها، ولعل أهم ما أربع المسلمين تلك الأحجار السود التي استصحبوها معهم من صقلية والتي كانوا يجهزون بها مجانيقهم لك أسوار الاسكندرية «فتعجب أصحابنا من شدة أثرها، وعظم حجرها»<sup>(٢)</sup>.

أبدى الجيش الأيوبي وأهالي الاسكندرية شجاعة فائقة، فأحرقوا دبابات العدو التي نصبت قرب السور «وأحسنوا القتال والصير». وكان صلاح الدين غائباً عن الاسكندرية، وحين وصلها «زال ما بالمحاربين من تعب وألم الجراح، وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه، فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله»<sup>(٣)</sup>. فما كان على الصليبيين سوى التسليم «وصاروا بين قتيل وأسير»<sup>(٤)</sup>.

وهكذا وجه جيش صلاح الدين وشجعان الاسكندرية ضربة ماحقه بأصحاب فكرة غزو مصر، بحيث لم يعودوا يفكرون في إعادة التجربة مرة ثانية في عهد صلاح الدين، على الرغم من أنهم لم يتخلوا عن الفكرة كلياً، إذ أعادوا الكرة بعد وفاة صلاح الدين بربع قرن.

## ٢- حصن الكرك وحصاره المتكرر:

صارت الكرك بيد الأمير الصليبي ريجنالد - رينودي شاتيون - أو (أرناط) كما في المصادر العربية، بعد أن قضى خمس عشرة سنة في أسر نورالدين محمود إثر القاء القبض عليه سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، وكان يحكم أنطاكية يومئذ. ثم أطلق سعد الدين كمشتكين وحاكم الموصل وحلب سراحة سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م<sup>(٥)</sup> نكاية بخصمهم صلاح الدين، فذهب الأمير الصليبي إلى الكرك وتزوج من صاحبيتها أرملة أحد الامراء، وصار هو صاحب الكرك. وعرف عن أرناط كرهه الشديد للمسلمين، ولاسيما بعد أن قضى فترة طويلة في معتقل إسلامي، إضافة إلى أنه لم يكن من نوع الفرسان الذين يحرصون على شرفهم ويتمسكون بمبادئ الفروسية، وإنما كان لا يصلح إلا للسلب والنهب وشن الغارات على المسلمين<sup>(٦)</sup>.

وقد وصفه أحد المؤرخين الاوروبيين<sup>(٧)</sup> وقال إنه «نموذج للفارس اللص في عصر اتصف بالجشع

(١) سنا البرق، ص ١٧١. الكامل، ٤١٤/١١. النوادر، ٤٨-٤٩. الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٥٩٩. مفرج الكروب ١٣/٢. النويري، الامام ١٦٤/١-١٦٥.

(٢) سنا البرق ١٧٢. الروضتين، ٥٩٩/١. مفرج الكروب ١٤٢/٢. السلوك ٥٧/١. النويري، الامام ١٦٦/١.

(٣) الكامل، ٤١٣/١١. احمد بن زيني دحلان، الفتوحات الإسلامية، ط مؤسسة الحلبي، القاهرة ١٩٨٦، ج ١، ص ٤٤٤.

(٤) الكامل، ٤١٤/١١.

(٥) الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٦٥١.

(٦) د. عاشور، الحركة الصليبية، ٧٨٥/٢.

(٧) King: The Knights Hospitallers, p. 111.

وعدم الوفاء والغدر والوحشية والتعصب الأعمى، ولم تغلح الخمس عشرة سنة التي قضاها أسيراً في حلب في تعديل سلوكه أو تهذيبه». فكان أشد زعماء اللاتين مغامرة وأكثرهم غدراً وتعدياً<sup>(١)</sup>. وعرف عنه أيضاً أنه كان يمضي في طريقه متجهماً مخيفاً، لا يؤمن بأكثر الأشياء، صلباً قاسياً لا يكتثر لشيء حتى الموت، يذبح بالسيف، ويقطع الطرق إذا رأى ذلك ضرورياً<sup>(٢)</sup>.

والواقع أن صلاح الدين لم يفرض الحصار على الكرك، لمرات عديدة، بسبب سلوكية صاحبها، وإنما لأن هذا الحصن المتين يحتل منطقة حساسة في الطريق بين مصر والشام، إضافة إلى أطماع (أرناط) التوسعية في البر وفي البحر الأحمر، ومحاولاته الاستيلاء على ايلة على خليج العقبة، وكذلك نواياه في الوصول إلى الحرمين الشريفين حيث روع العالم الإسلامي<sup>(٣)</sup>.

فبسبب موقعها الاستراتيجي كانت الكرك هدف الجيش الإسلامي في عهد نورالدين، ثم صلاح الدين، وقبل أن يمتلكها أرناط ويصبح صاحبها. وقد حاول نورالدين مراراً الاستيلاء عليها، إلا أنه لم يقدر على ذلك، ثم أعاد الكرة بعد فتح مصر بالتعاون مع صلاح الدين نائبه في مصر، لكن الظروف لم تساعدهما على اتمام المشروع، في هاتين المحاولتين. وتوفي نورالدين، وقرر صلاح الدين الاستثمار في السير على خطاه. فقد حاصره صلاح الدين في رجب سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م بعسكر الشام، ووافاه أخوه الملك العادل في العسكر المصري. إلا أنهم عانوا من نقص في أعتدة الحصار، رغم أنهم نصبوا عليها سبعة مجانيق ترمي بالحجارة ليلاً ونهاراً، ففشل الحصار هذه المرة أيضاً<sup>(٤)</sup>.

ولعل آخر مرة حاول فيها كان في سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م، إلا أن المحاولة فشلت كالسابقة، رغم مشاركة قوة مصرية بقيادة تقي الدين عمر، وأخرى من بلاد الجزيرة بقيادة نورالدين محمد بن قره أرسلان<sup>(٥)</sup>.

وكذلك قوة حلبية قادها الملك العادل فحاصرت هذه القوات هذا الحصن الجبار، وضيق عليه، وأمر صلاح الدين ينصب المجانيق على ريبض المدينة، واشتد القتال، فملك المسلمون الريبض، وبقي الحصن، وكان بين الريبض والحصن (القلعة) خندق عميق عرضه ستون ذراعاً، فأصر صلاح الدين بالقاء الأحجار والتراب فيه لطمه، فلم يقدر أحد من الدنو منه لكثرة الرمي عليهم بالسهم من الجرح والقوس، والأحجار من المجانيق (الصليبية) فأمر صلاح الدين أن يبني بالأخشاب واللبن ستارة يتمكنون من المشي تحته إلى الخندق، ففعلوا ذلك، فصاروا يمشون تحت السقائف ويلقون في الخندق ما يطمه، ومجانيق المسلمين مع ذلك ترمي الحصن ليلاً ونهاراً. وأرسل الصليبيون في إثر نجدة تأتيهم

(١) فيليب حتى، تاريخ العرب، ص ٧٣٧.

(٢) هارولد لامب، شعلة الإسلام، ص ٩٤.

(٣) ابن جبير، ٣٤-٣٥. مفرج الكروب ٢/١٠٢. وقد تحدثنا عن ذلك في موضوع سابق.

(٤) الكامل ١١/٥٠٢. ابن العديم، ٣/٧٤.

(٥) مضمار الحقائق، ١٨٨. الكامل، ١١/٥٠٦.

لانقاذهم من الحصار، عندها رفع الجيش الأيوبي حصاره مرة أخرى عن الكرك، وسار نحو نابلس ومنها إلى دمشق<sup>(١)</sup>. إلا أن صلاح الدين استطاع أن يفتح الكرك فيما بعد، وكان ذلك في سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م حين وجه إليها عسكرياً بقيادة الأمير سعد الدين كمشبه، فلزم هذا القائد الحصار مدة طويلة حتى نفذت أزواد المدينة «وأكلوا دوابهم، وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال» فاضطروا إلى مراسلة الملك العادل وكان مقيماً بتبنين، يطلبون منه الأمان، فأجابهم إلى ذلك<sup>(٢)</sup>. أما أرناط نفسه فقد قتله صلاح الدين بيده يوم حطين منفذاً بذلك النذر الذي قطعه على نفسه<sup>(٣)</sup>.

### ٣- حصار بيت الأحزان:

ذكرنا أن بيت الأحزان بلد يقع بين دمشق والساحل، وقد تحصن فيه الصليبيون. سار جيش صلاح الدين نحوه في ٥٧٥هـ/١١٧٩م، وأحاط به، ونصب عليه المنجنيقات المصنوعة من أشجار كروم ضياع صغد القريبة منه. وبدأ الزحف، واشتد القتال، وصعد بعض الجنود على باشورة<sup>(٤)</sup> الحصن، وقاتلوا الذين يدافعون عنها، حتى ملكوها. ولما حل الليل، خاف المسلمون أن يفتح الصليبيون أبواب الحصن ويغيروا عليهم على غرة. إلا أنهم لم يفعلوا ذلك بل أوقدوا النار خلف كل باب ليأمنوا جانب المسلمين، فاطمأن هؤلاء وقالوا: «ما بقي إلا ثقب البرج».

فلما أصبحوا وزع السلطان جوانب البرج على الامراء، فأخذ عزالدين فرخشاه ابن أخيه الجانب القبلي، وأخذ السلطان الجانب الشمالي، وأخذ ابن عمه ناصرالدين محمد بن شيركوه بقرية نقياً، وكذلك فعل تقي الدين عمر<sup>(٥)</sup> وبقية أمراء الجيش، وكان البرج محكم البناء، فصعب نقيه، فعمقوا النقب وأشعلوا النيران فيه. وانتظروا سقوط السور، فلم يسقط لعرضه. فأمر السلطان باطفاء النار بعد يومين ليتم نقيه، أعلن أن (من جاء بقرية ماء فله دينار) فجاء الناس بالقرب، وصبوا الماء على النار حتى اطفأوها، فبدأوا بالنقب إلى أن سقط البرج والحصن، فدخله المسلمون و«استولوا عليهم قتلاً وأسراً، وغنموا مائة ألف قطعه من الحديد من أنواع الأسلحة... وجيء بالأسارى إلى السلطان، فمن كان مرتداً أو رامياً ضرب عنقه، ومعظم الأسارى قتلهم المتطوعة»<sup>(٦)</sup>. أما الأسرى المسلمون الذين كانوا في حوزة الصليبيين، فقد أطلق سراحهم. وقد استغرق القتال أسبوعين كاملين<sup>(٧)</sup>.

(١) الكامل، ٥٠٧/١١. زبدة الحلب، ٧٨/٣. النوادر، ٦٦. الروضتين، ٥٤/٢-٥٥. مفرج الكروب، ١٥٧/٢. السلوك، ٨٤/١.

(٢) الكامل، ٢٠/١٢-٢١. الفتح القسي، ٢٦٦. الروضتين، ١٣٤/٢. زبدة الحلب، ١٠٧/٣.

(٣) الكامل، ٥٢٨/١١. النوادر، ٧٨. الفتح القسي، ٨١.

(٤) الباشورة: جمعها بواشير. الحائط الظاهري من الحصن يختفي وراء الجند عند القتال. مفرج الكروب، ٨١/٢ (هامش -١).

(٥) مضمار الحقائق، ٢٧-٢٨. سنا البرق الشامي، ٣٣٤-٣٣٥. الروضتين، ١١/٢. مفرج الكروب، ٨١/٢.

(٦) سنا البرق، ٣٣٦/١. الروضتين، ١١/٢. مفرج الكروب، ٨١/٢.

(٧) مضمار الحقائق، ٣٠. الروضتين، ١١/٢. البداية والنهاية، ٣٠٣/١٢. السلوك، ٦٨/١.

ولعل من المفيد أن نتحدث عن مقاييس هذا الحصن الذي يعطي فكرة - إلى حد ما - عن الحصون الأخرى التي أقامها الصليبيون في الأرض الإسلامية. ففي كتاب حرره القاضي الفاضل، وبعث به إلى الخليفة العباسي وصف فيه الحصن وقال إن «عرض حائطه يزيد على عشرة»<sup>(١)</sup> أذرع، ومعدل طول كل قطعة من قطع الحجر يبلغ سبعة أذرع. وقد استعمل في بنائه عشرون ألف حجر، وأما المادة التي وضعت بين الحجارة لتثبيتها فهي الكلس، وقد بنوا حائطين في السور، حشوا ما بينهما من فراغ بالحجارة الصم»<sup>(٢)</sup>.

#### ٤- حصار الجيش الأيوبي لعكا وفتحها:

موقع عكا: تقع عكا في موقع استراتيجي هام على ساحل الشامي الفلسطيني، وخاصة بالنسبة لمملكة بيت المقدس، وتشرف على شبه جزيرة صغيرة، تمتد جنوباً إلى داخل حيفا، يحميها البحر المتوسط من الجنوب والغرب، فكانت تبدو من بعيد شديدة الشبه بقبضة يد ناتئة من الشاطيء<sup>(٣)</sup>، يحيط بها سور متين يقع على ساحل البحر، ويمتد حاجز للأمواج منقطع صوب الجنوب الشرقي إلى صخرة يعلوها برج اشتهر باسم برج الذبان، ومن وراء الحاجز يقع الميناء. ويحتمي المدينة من الشمال والشرق سوران ضخمان يلتقيان في زاوية قائمة عند حصن صغير اشتهر باسم البرج الملعون، في الطرف الشمالي الشرقي. وعند كل طرف للسورين، قرب الشاطيء، يقع على البر بابان، وللمدينة باب ضخم من جهة البحر، ويفتح على الميناء، بينما يطل باب آخر على مرسى السفن<sup>(٤)</sup>.

وقد درج صلاح الدين على التردد عليها وتفقدتها بعد أن فتحها إثر انتصار حطين، واهتم بما خربه القتال، فأضحت حصناً منيعاً، ترابط به حامية قوية، وتتوافر به المؤن، وغدا من القوة بحيث استطاع مقاومة الصليبيين زمنناً قارب السنتين. والواقع أن عكا تم تحصينها منذ أمد طويل، فحين زار ابن طولون حاكم مصر (٢٥٤-٢٧٠هـ/٨٦٨-٨٨٣م) مدينة صور ورأى سورها المستدير الحصين، أراد أن يتخذ لعكا مثل ذلك<sup>(٥)</sup>.

وحيث وصل ناصر خسرو إلى عكا سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٧م رأى فيها قلعة «غاية في الاحكام، يطل جانبها الغربي والجنوبي على البحر، وعلى الأخير ميناء... وحائطاها داخلان في البحر، وعلى امتدادهما مدخل مفتوح طوله خمسون ذراعاً وقد شدت السلاسل بين الحائطين، فإذا أريد ادخال سفينة إلى الميناء أرخيت السلسلة حتى تغوص في الماء فتمر السفينة فوقها، ثم تشد حتى لا يستطيع

(١) في الكامل ٤٥٧/١١ تسعة اذرع بالبخاري، يكون الذراع ذراعاً ونصفاً.

(٢) الروضتين، ١٠٣/٢. مفرج الكروب، ٨٤/٢-٨٥. البداية والنهاية ٣٠٤/١٢.

(٣) هارولد لامب، شعلة الإسلام، ص ١٧١.

(٤) رنسيان ٥٤/٣-٥٥.

(٥) معجم البلدان، ١٤٣/٤. القزويني، آثار البلاد، ٢٢٣.

عدو أن يقصدها بسوء»<sup>(١)</sup>، وعلى غرار ما كان في ثغر دمياط في مصر. وشبه ابن جبير هذه المدينة في عظمتها بالقسطنطينية، وقال إنها قاعدة مدن الافرنج بالشام ومحط الجوّاري المنشآت في البحر كالأعلام، ومرفأً كل سفينة، شوارعها تغص بالزحام، وهي ملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق. وقد زار هذا الرحالة عكا في جمادى الآخرة سنة ٥٨٠هـ/ أواخر صيف ١١٨٤م، في وقت كان الصليبيون يحتلونها، أي قبل أن يحررها صلاح الدين بحوالي ثلاث سنوات، لذا يقول: «إنها تستعر كفراً وطغياناً، وتفور خنازير وصلباناً»<sup>(٢)</sup>.

بعد حطين لم يهمل صلاح الدين الصليبيين فوجه قواته المكلفة بالغار صوب عكا، وكان هذا التوجه أحد مظاهر عبقرية هذا القائد العسكرية وبعد نظره، إذ اختار أن يبدأ أولاً بالاستيلاء على المدن الساحلية المهمة ليحرمهم من قواعدهم البحرية التي تربطهم بأوروبا، وليغدوا محصورين داخل بلاد الشام، وبعد ذلك تتساقط في يده المعاقل والمدن الصليبية في الداخل. هذا فضلاً عن أن استيلاء صلاح الدين على عكا وغيرها من ثغور الشام، سيمكنه من تحقيق الاتصال البحري السريع بين شطري دولته في مصر والشام<sup>(٣)</sup>، ففضى فترة الشهرين والنصف التي تلت حطين في تحرير هذه المدن، وفضل أن يبدأ بالتوجه نحو عكا التي يصفها المؤرخون بأنها «أم البلاد وأخت إرم ذات العماد»<sup>(٤)</sup>.

والواقع أن هذه المدينة كانت في وضع لا يحسد عليه، نظراً لذهاب رجالها إلى حطين ومقتل وأسر الكثيرين منهم<sup>(٥)</sup>. ولكن استطاع حاكمها (الصنجيل الثالث جوسلين دي كورتناي) أن ينجو مع بعض القادة الآخرين من أمثال ريموند صاحب طرابلس الذي فر من ميدان القتال، وما لبث أن مات كمدأً لتشنيع أقرانه عليه، وكذلك نجا (باليان بن بيرزان - أو بارزان - الثاني) الذي وصل القدس وقاد المقاومة الصليبية فيها بوجه الجيش الأيوبي.

أما جوسلين فلم يقدر أن يقاوم الجيش الزاحف، فوافق على تسليم عكا إلى صلاح الدين على أن يكفل لقاطنيها من النصارى حياتهم وممتلكاتهم فقبل صلاح الدين هذا الشرط، فامتلك عكا في مستهل جمادى الأولى ٥٨٣هـ/ ١٠ تموز ١١٨٧م، وكان هذا القائد يأمل في إقناع التجار النصارى بالبقاء فيها، غير أنهم خافوا ما قد يحدث لهم مستقبلاً، فغادروها بكل أموالهم المنقولة<sup>(٦)</sup>.

أما المستودعات الضخمة الحافلة بالسلع التجارية من الحرير والمعادن والجواهر والأسلحة التي تركها التجار وراءهم والتي «من كثرتها يعجز الإحصاء»<sup>(٧)</sup> لأن عكا كانت مظنة التجار<sup>(٨)</sup>، فقد تم

(١) سفرنامه، ص ٥١.

(٢) ابن جبير، ص ٢٧٦.

(٣) د. عاشور، الحركة الصليبية، ٨١٣/٢.

(٤) الروضتين، ٨٩/٢. الذهبي، مخطوط، تاريخ الإسلام، ورقة ٩.

(٥) الكامل، ٥٣٩/١١. مرآة الزمان، ٣١٤/٨.

(٦) الكامل، ٥٣٠/١١.

(٧) الكامل، ٥٣٩/١١. النوادر، ٧٩. الروضتين، ٨٦/٢.

(٨) النوادر، ٧٩ الروضتين، ن. ص.

توزيعها على أمراء الجيش، ولاسيما الملك الأفضل نورالدين علي ابن السلطان الأكبر الذي تولى حكم المدينة<sup>(١)</sup>.

#### ٥- حصار بيت المقدس وفتحه:

من أحداث معارك الأسوار البارزة في تاريخ الحروب الصليبية أيام صلاح الدين، فتح بيت المقدس لما له من قدسية في قلوب المسلمين كافة، فهو أولى القبلتين وثالث الحرمين، وفيه معراج الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم. لذا هلل وكبر لهذا الفتح المبين لجميع المسلمين.

لقد كان من نتائج انتصار حطين الباهرة مقتل عدد هائل من خيرة محاربي الصليبيين، وأسر الكثيرين منهم، حتى لم يبق سوى عدد قليل منهم استطاعوا الهرب، وانقذوا أنفسهم من المصير المحتوم، مما أدى إلى حدوث نقص كبير في الفرسان المحاربين، ولاسيما من جنود مملكة بيت المقدس التي جرت في أرضها موقعة حطين وأسر ملكها جي لوسينيان، وضاعت هيبة المملكة وسلطة ملكها الفعلية. «فمن كثرة قتلى الصليبيين وجراحهم صار من شاهد القتلى قال: ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال: ما هناك قتيل»<sup>(٢)</sup>. وقد اجتاز المؤرخ ابن الأثير بموضع حطين بعد سنة من الانتصار، ورأى «الأرض ملاءى من عظامهم تبين على البعد، منها المجتمع بعضه على بعض، ومنها المفرق، هذا سوى ما جرفته السيول، وأخذته السباع في تلك الآكام والوهاد»<sup>(٣)</sup>.

من كل هذا نعلم مدى الخسارة العظيمة التي ألحقت بالوجود الصليبي وقد غدت مدنهم - التي ما زالوا يحتلونها - شبه خاوية على عروشها. إلا أنهم كانوا يخشون من ضياع بيت المقدس أكثر من أي شيء آخر. وكان من الأمراء الذين ظلوا على قيد الحياة من حطين الأمير باليان الثاني (باليان بن بيرزان، كما في المصادر العربية) صاحب الرملة. «وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك»<sup>(٤)</sup> وكان قد تزوج الملكة ماريلا كومتين أرملة الملك اموري الأول. وقد طلب باليان الأسير، من صلاح الدين بعد حطين أن يسمح له بالتوجه إلى القدس ليجلب منها أسرته ويرجع، فسمح له السلطان بذلك، على ألا يبني فيها أكثر من ليلة واحدة، فوافق باليان على الشرط. ولكن ما أن وصل إلى القدس إلا ووجدها في حالة مزرية، وقد انهارت فيها معنويات سكانها من الصليبيين، لفناء محاربيها في حطين. ولكن بالمقابل جاءها بعض من فرسانهم المتقدمين... ثم اجتمع بها كثير من الخلق بلغ عددهم ستين ألفاً<sup>(٥)</sup>.

وكان جميعهم يرى الموت أيسر عليه من أن يمتلك المسلمون بيت المقدس، ويأخذوه منهم. ويرون أن بذل أنفسهم ومالهم وأولادهم هو بعض ما يجب عليهم في سبيل حفظه، لذا حصنوه بكل ما وجدوا

(١) الكامل، ٥٣٩/١١. مرآة الزمان، ٣١٥/٨. الفتح القسي. ٩٠. الروضتين، ٨٦/٢.

(٢) الكامل، ٥٣٦/١١. الروضتين، ٧٨/٢. مفرج الكروب، ١٩٣/٢.

(٣) الكامل، ٥٣٧/١١.

(٤) الكامل، ٥٤٦/١١. مفرج الكروب، ٢١١/٢.

(٥) النجوم الزاهرة، ٣٦/٦. الذهبي، مخطوط تاريخ الإسلام، ورقة ٩٦. السلوك، ٩٦/١. شفاء القلوب، ١٢٨.

العلمي، الانس الجليل، ٣٢٨/١.

إليه سبيلاً، وصعدوا على أسواره بحدهم وحديدهم، مجمعين على الذب عنه بجهدهم وطاقتهم، مظهرين العزم على المناضلة دونه بحسب استطاعتهم، ونصبوا المجانيق على أسواره ليمنعوا من يريد الدنو منه والنزول عليه<sup>(١)</sup>. وقد بلغت التحصينات فيه حداً بحيث إن المسلمين حين نزلوا على أسواره، رأوا من الرجال ما هالهم. بل إن الصليبيين أبدوا المقاومة للجيش الأيوبي أثناء توجهه إلى هذه المدينة، واستطاعوا من قتل أحد الامراء وجماعة «من كانوا معه، فأهم المسلمين قتله، وفجعوا بفقده» إلا أن الجيش سار قدماً نحو هدفه حتى وصله.

بدأ صلاح الدين وأمرأؤه يبحثون عن موضع يصلح للجيش أن يعسكر فيه، وظلوا خمسة أيام يطوفون حول المدينة، إلى أن عثروا على مكان في جهة الشمال من السور، نحو باب عمودا وكنيسة صهيون، فانتقل إلى هذه الناحية في العشرين من رجب ٥٨٣هـ/١١٨٧م، ونزلها، وحين حل الليل بدأوا بنصب المجانيق<sup>(٢)</sup>. وفي نهار اليوم التالي بدأ الجيش برشق الحجارة وقذف النار. ولم يقف الصليبيون مكتوفي الأيدي، فنصبوا المجانيق على السور ورموا بها، وقاتلوا بحمية فكان كل فريق «يرى ذلك ديناً، وحتماً واجباً، فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني، بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون، ويزجرون ولا ينزجرون»<sup>(٣)</sup> وقتل من الطرفين بعض المحاربين ومن ضمنهم الأمير عز الدين عيسى بن مالك ابن صاحب قلعة جعبر، وعظم مقتله على المسلمين، فما كان منهم إلا وحملوا حملة رجل واحد، فأزالوا الفرنج عن مواقعهم، حتى وصلوا الخندق، والتصقوا بسور البلد وبدأوا بنقبه، وكان الرماة يحمون ظهورهم، والمجانيق توالي الرمي، وتزيح الصليبيين عن الأسوار.

ولما رأى مقدمو الصليبيين شدة القتال، وأنهم قد أشرفوا على الهلاك، عقدوا اجتماعاً للتشاور فيما بينهم، فاتفقوا على طلب الأمان، وتسليم بيت المقدس إلى المسلمين، فأرسلوا وفداً إلى صلاح الدين بهذا الصدد، إلا أن السلطان رفض طلبهم لأنه أوشك على فتحه بحد السيف، وقال: «لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين واربعمائة من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها»<sup>(٤)</sup>.

عاد الوفد إلى باليان بين بيرزان بخفي حنين، فما كان من هذا إلا وطلب الأمان، والسماح له بمقابلة صلاح الدين، فأجيب طلبه. ولدى لقائه به حاول أن يستعطف صلاح الدين «فلم يعطف عليه، واسترحمه فلم يرحمه» فلما أيس من ذلك قال له: «أيها السلطان اعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير، وإنما يفترقون عن القتال رجاء الأمان، ظناً منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم»<sup>(٥)</sup>.

(١) الكامل، ٥٤٧/١١.

(٢) النوادر، ٨١. الكامل، ٥٤٦/١١. الروضتين، ٩٢/٢، النجوم الزاهرة، ٣٦/٦. شفاء القلوب، ١٢٨.

(٣) الكامل، ن. ص. مفرج الكروب، ٢١٢/٢.

(٤) الكامل، ٥٤٨/١١. مفرج الكروب، ٢١٣/٢. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٢١.

(٥) الكامل، ن. ص. مفرج، ٢١٤/٢. العليمي، الاتس الجليل، ٣٢٨/١.

وهذا يوضح لنا مدى جدوى سياسة صلاح الدين القائمة على حسن معاملة الصليبيين المستسلمين، ومنح الأمان للمدن والقلاع التي حاصرها جيشه في جعل المقاتلين الصليبيين يفترون حماسهم لتأكيده بأن السلطان سيوافق على منح الأمان حين يطلبون. وأضاف بالبيان إلى كلامه: إن المقاتلين الصليبيين «يكرهون الموت ويرغبون في الحياة، فإذا رأينا أن الموت لا بد منه، فوالله لنقتل أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا، ولا نترككم تغتمون منها ديناراً ولا درهماً، ولا تسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة، وإذا فرغنا من ذلك أخبرنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع، ثم نقتل من عندنا من أسرى المسلمين، وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه، ثم خرجنا إليكم كلنا فقاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه، وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله، وفوت أعزاء أو نظفراً كراماً»<sup>(١)</sup>.

دعا صلاح الدين مجلس حربه للتشاور في أمر ما ينبغي فعله، فأجمعوا على اجابتهم إلى الأمان، على أن يعتبر كل من يبقى في المدينة أسيراً، ومن يخرج منها عليه أن يدفع عشرة دنانير يستوي فيه الغني والفقير، وتدفع المرأة خمسة دنانير، ويدفع الطفل ديناراً. وقد عامل صلاح الدين أهل مدن وحصون أخرى بمثل هذه الطريقة، وفرض على سكانها مثل هذا المبلغ<sup>(٢)</sup>. وحددت فترة الدفع بأربعين يوماً، وإذا انقضت المدة، ولم يؤد الصليبي ما عليه صار مملوكاً. ووصل عدد من لم يدفع المبلغ المقرر ستة عشر ألف شخص ما بين رجل وامرأة وطفل، وأخذوا أسرى<sup>(٣)</sup> وسلمت المدينة إلى صلاح الدين يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣هـ/١١٨٧م، أي في ليلة المعراج المباركة وكانت صدفة لها وقعها في نفوس المسلمين<sup>(٤)</sup>. ورفعت الأعلام الصفراء على أسوار المدينة المقدسة، في يوم مشهود في تاريخ الإسلام وتاريخ الحروب الصليبية.

وهكذا، ففي مشارف حطين، وعلى أبواب بيت المقدس، انتقم صلاح الدين بطريقته الخاصة، لما حدث في الحروب الصليبية الأولى للمسلمين من المهانة والاذلال والمجازر. وأظهر كيف يحتفل القائد الشهم بانتصاره... وأثبت بالدليل القاطع ما لدى الشرق من قوة وروح كامنة<sup>(٥)</sup>.

والواقع أن ما تم لدى فتح القدس من تفاصيل، عسكرية حصل في فتح المدن الأخرى، مع اختلاف في الجزئيات بحسب المقاومة التي تبديها هذه المدينة أو ذاك الحصن. هذا وقد حصن صلاح الدين بيت المقدس حتى لا يتمكن الأعداء من فتحه ولا سيما بعد الانتكاسة التي مني بها الجيش الأيوبي بسقوط

(١) الكامل، ٥٤٩/١١. مفرج الكروب، ٢/٢١٤. ابن العبري، تاريخ الدول السرياني، مجلة المشرق، ٤، ٥، ص ٤٤٦.

(٢) النوادر، ٩١.

(٣) الكامل، ٥٤٩/١١-٥٥٠، الفتح القسي، ١٢٧. الروضتين، ٩٥/٢. العليمي، الانس الجليل، ١/٣٢٨.

(٤) الكامل، ن. ص. النوادر، ٨٢. الفتح القسي، ن. ص. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ٢٢١. مفرج الكروب،

٢/٢١٥. السلوك، ٩٦/١. شفاء القلوب، ١٢٩. العليمي، الانس الجليل، ١/٣٣٠.

(٥) رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ٢/٧٦٥.

عكا بيد الصليبيين وتهديم بيت المقدس لقربه من عكا التي كانت جزءاً من مملكة بيت المقدس، مما أثر في نفسية سكانه، لأنهم خشوا أن يحصل لمدينتهم ما حصل لعكا بيد ريتشارد قلب الأسد، ولكن حين قدم عسكر من مصر يقوده الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين قويت نفوس المسلمين فيها<sup>(١)</sup>. ثم أمر صلاح الدين حين قدم إليها بإقامة التحصينات فيها، فأوعز بعمارة أسوارها، وتجديد ما رث منها، وأتقنها، وحفر خنادق حولها، وتسليم كل برج إلى أمير يتولى عمله، واشترك الامراء في إقامة هذه التحصينات وعمارة السور، فعمل ولده الملك الأفضل من ناحية باب عمود إلى باب الرحمة، وقد أرسل الأتابك عزالدين مسعود جماعة من الجصاصين المختصين من الموصل، وممن لهم في قطع الصخر اليد الطولى، فعملوا له هناك برجاً وبدنة، وكذلك اشترك في عملية التحصين أمراء آخرون<sup>(٢)</sup>.

واشترك صلاح الدين بنفسه في نقل الحجارة على دابته من الأمكنة البعيدة، وصار قدوة يقتدي به العسكر «فكان يجمع عنده من العاملين في اليوم الواحد ما يعملونه عدة أيام»<sup>(٣)</sup>. حتى صارت المدينة من المناعة بحيث لم يستطع ريتشارد من فتحها فيمجرد أن وصفوا له هيئة المدينة وتحصيناتها، حسب طلبه قال: هذه مدينة لا يمكن حصرها، ما دام صلاح الدين حياً، وكلمة المسلمين مجتمعة<sup>(٤)</sup>.

#### ٦- حصار صور النشهير:

قصة قدوم (المركيز كونراد مونتفرات) إلى مدينة صور إثر سقوط بيت المقدس وعكا بيد المسلمين، شبيهة بقصة وصول (باليان بن بيرزان) إلى القدس، إلا أن الأثر الذي تركه وصول المركيز كان أعمق من الأثر الذي تركه (باليان) المذكور. وقد وصل هذا القائد الصليبي إلى صور في وقت كانت معنوية مقاتليها قد انهارت حتى إنهم عزموا على مراسلة صلاح الدين وطلب الأمان وتسليم صور<sup>(٥)</sup>. لكن ما أن وصلها المركيز إلا وردهم عن تنفيذ ما عزموا عليه، فبدأ يقوي نفوسهم، وضمن لهم حفظ المدينة وبذل ما معه من الأموال، واشترط على أهل صور أن تكون المدينة وأعمالها له دون غيره، فأجابوه إلى ذلك، فأخذ أيانهم عليه وتولى تنظيم الدفاع عنها. وبدأ المركيز بتحصين المدينة، فرمم استحكاماتها وحصن أسوارها، مما زاد في مناعتها<sup>(٦)</sup>. ثم حفر خندقاً في الجانب الشرقي، الجانب الوحيد الذي يربط المدينة بالساحل، يمتد من البحر إلى البحر، فصارت المدينة كالجزيرة، أو السفينة

(١) الكامل، ٧٤/١٢. الفتح القسي، ٥٦٢.

(٢) الكامل، ٧٤/١٢. الفتح القسي، ٥٦٤.

(٣) الكامل، ٧٤/١٢.

(٤) ن. م، ص ٧٥.

(٥) ن. م، ٥٤٤/١١.

(٦) ن. م، ٥٥٣. مفرج الكروب، ٢٠٩/٢.

وسط الماء، لا يمكن الوصول إليها، ولا الدنو منها<sup>(١)</sup>.

والواقع أن الصليبيين قد أقاموا التحصينات في صور قبل هذا الحادث. فقد وصفها ابن جبير الذي زارها سنة ٥٧٩هـ/١١٨٤م، بأنها مدينة « يضرب بها المثل في الحصانة، لا تلقي لطالبيها بيد طاعة ولا استكانة، قد أعدها الفرنج مفزعةً لحادثة زمانهم، وجعلوها مثابة لأمانهم » ويضيف ابن جبير إلى قوله: وأما حصانتها ومناعتها فاعجب ما يحدث به، وذلك أنها راجعة إلى باين في البر، والآخر في البحر، وهو يحيط بها إلا من جهة واحدة، فالذي في البر يفضي إليه، بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة، كلها في ستائر (حيطان) مشيدة محيطة بالبواب، وأما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ليس في البلاد البحرية أعجب وضعاً منها، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحدها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص. فالسفن تدخل تحت السور وترسو فيها، وتعرض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج، فلا مجال للمراكب إلا عند إزالتها. فشان هذا الميناء شأن عجب في حسن الوضع<sup>(٢)</sup>. وقد دخل هذا الرحالة مدينة صور وأقام فيها أحد عشر يوماً، في وقت كانت المدينة بيد الصليبيين.

ووصف القزويني صور وصفاً موجزاً، وتحدث عن سورها وقال: إنه استدار على مينائها استدارة عجيبية<sup>(٣)</sup>. يحيط بها البحر من جميع جوانبها إلا الرابع الذي منه شروع بابها<sup>(٤)</sup>، فكان موقعها من الأرض مكن في البحر ثلاثة أرباعها، وفي السماء ارتفاع بقاعها، وطريقها الذي يسلك من البر إليها، فأحاط به البحر من جانبيه، وقد قطعوه بخندق في عرضه، وعمقوه ونزلوا في أرضه<sup>(٥)</sup>. ولهذا كان من الصعب احراز النصر على مدينة كهذه بأساليب الحصار التقليدية، بسبب وضعها الطبوغرافي المنيع ولاسيما وقد صارت مدينة مكتنزة بالصليبيين - وخاصة المحاربين منهم - سكان المدن التي فتحها الجيش الأيوبي، وسمح لهم صلاح الدين بالتوجه إليها، بعد أن منحهم الأمان، وبهذا الصدد يقول العماد: « كانت صور على كل من خرج من القدس وبلاد الساحل محتوية<sup>(٦)</sup> ». ولا شك أنهم اختاروا هذه المدينة لحصانتها، ثم زادوها حصانة حتى غدت « مرتجة أبوابها، مغتصة جوانبها، مرتصة عصائبها، مشحونة أبراجها<sup>(٧)</sup> ».

ويذكر المؤرخون أن القتال كان يجري عادة في الساعد الذي يوصل بين المدينة (الكف) وبين البر

(١) مرآة الزمان ٨/٤٠٠. الكامل، ١١/٥٥٣. الروضتين. ٢/١١٩. شفاء القلوب، ١٥١.

(٢) رحلة ابن جبير، ٢٧٨. وانظر: رحلة بنيامين، المطبعة الشرقية، بغداد ١٩٥٤، ص ٩١-٩٢. الحميري، الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق د. احسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٥، ص ٣٦٩. وقد صمدت هذه المدينة في وجه الاسكندر مدة سبعة اشهر، وقبله وقفت في وجه الغزاة من العراق القديم. انظر: د. فيليب حتي، صانعو التاريخ العربي، طبعة دار الثقافة، بيروت ١٩٦٩، ص ١٨٧.

(٣) آثار البلاد، ٢١٧.

(٤) معجم البلدان، ٣/٤٣٣.

(٥) الفتح القسي، ١٥٧.

(٦) ن. م، ١٥٤. وانظر مرآة الزمان ٨/٣٩٨.

(٧) الفتح القسي، ١٥٦.

لأن «المدينة كالكف في البحر، والساعد متصل بالبر، والبحر في جانبي الساعد»<sup>(١)</sup>. فالقتال كان يجري في هذا المكان الضيق، وكان هذا أحد أسباب هزيمة المسلمين.

توجه صلاح الدين بقواته إلى صور من عكا فوصلها يوم تاسع رمضان ٥٨٣هـ/١١٨٧م «وأقام أياماً يتفكر ويتدبر. ويستشير ويستخير» عما ينبغي فعله، وكان على رأس الداعين للهجوم على صور سيف الدين المشطوب الذي صار يدفع السلطان «ولا يمهلة. ويحرض ويحذر من المكث ويقول: الفرصة تدرك بالحث، وتفوت باللبث» فسار السلطان لندائه مليباً ولجيش النصر معيباً، ولرأيه مقلداً، وبالله - عز وجل - متأيداً. فوصل إلى صور بجحافلهم وجموعه، ونزل بعيداً من سورها... وجاءته المدد «واستحضر آلات الحصار، واستكثر من المجانيق الصغار والكبار» ثم تقدم إليها وخيم عليها في الثاني والعشرين من الشهر في جيش يسير كالأسد في الغابة<sup>(٢)</sup>. وبدأ المحاربون بدك أسوار المدينة بقذفها بأحجار المنجنيق، والدبابات تطير من أوكارها عقبان المجرخ. حتى امتد الزمان. وضاق الحصر<sup>(٣)</sup>. واستعملوا مختلف أنواع الأسلحة، وخاصة أسلحة الرشق<sup>(٤)</sup>.

وقد جلب صلاح الدين معه (الماركيز مونتفرات) والد (كونراد) قائد صور، من دمشق، واستعرضه أمام أسوار المدينة، لكي يراه ابنه وأتباعه، وهدد بإعدامه ما لم تستسلم المدينة له. غير أن ما كان لدى كونراد من عاطفة البنوة لم تكن من القوة ما تكفي لصرفه عن تأدية واجبه، على أنه محارب مسيحي، على حد تعبير رنسيما<sup>(٥)</sup> لأنه لم يشأ أن يضحى بهذه المدينة المنيعه، المكتنزة بالصليبيين من أجل رجل مسن هو والده. فلم يتأثر بما أعلنه صلاح الدين، خاصة وأنه كان يعرف ما اشتهر عن صلاح الدين من العطف على المسنين والرفق بالأسرى.

ولجأ صلاح الدين إلى خطة القتال بالتناوب، تلك الخطة التي طبقها في برزية ونجح فيها، فقسم جنده إلى مجموعات تحارب كل مجموعة فترة محددة، وحين يبدو عليها التعب، تنزل مجموعة جديدة لتحل محل الأولى «بحيث يتصل القتال» وكان أهل صلاح الدين يتناوبون القتال، فكان على رأس كل جماعة أحد أقاربه المقربين، مثل ولده الأفضل علي، وولده الظاهر غازي، وأخيه الناصر بن أيوب، وابن أخيه تقي الدين عمر<sup>(٦)</sup>.

إلا أن هذه الأساليب في القتال، والآلات الثقيلة التي استعملها الجيش لم تجد نفعاً مع هذه المدينة، فظلت بيد الصليبيين. وكان من جملة أسباب ذلك، إضافة إلى تحصيناتها، وكثرة المدافعين عنها، وضيق المكان الذي يحارب فيه الجيش، أن محاربي جيش صلاح الدين، كما قال العماد الكاتب وابن

(١) الكامل ٥٥٤/١١. ابن العبري، ٢٢١.

(٢) الفتح القسي، ١٥٤.

(٣) ن. م، ص ١٥٨.

(٤) الكامل، ٥٥٤/١١.

(٥) رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ٧٦٣/٢.

(٦) الكامل، ٥٥٤/١١.

الأثير - قد ألقوا تيسر الفتح وتسرع النجاح، فصعب عليه حين صعب، وتبع هواه لما تعب. ولم يألف الناس إلا فتح ما يقصدونه من البلاد بغير مهلة. فلما توقف هذا الفتح توقفوا، وملوا وضجروا<sup>(١)</sup>. وذكر ابن الأثير أن المحاربين لما رأوا شدة أمر صور ملّوها، وطلبوا الانتقال عنها<sup>(٢)</sup>. والواقع أن التعود على الفتح السهل، كما يذكر هذان المؤرخان، إن كان ينطبق على مدن معينة، فإنه لا ينطبق على كثير من القلاع المتينة، والمدن الحصينة، التي ذاق منها جيش صلاح الدين الأمرين لدى فتحها، ومن ثم فإن محاربي هذا الجيش وقادتهم لم يألوا جهداً، حتى حينما كانت المدن في غاية المتانة، ولا أدل على ذلك هجومهم على صور نفسها، وفرض الحصار مدة قاربت الشهرين. وكذلك فعلى أبواب حصن برزية - على سبيل المثال - ذلك الحصن القائم على سن جبل شاهق والذي يضرب به المثل في جميع بلاد الأفرنج والمسلمين بالحصانة<sup>(٣)</sup>، تحمل الجيش الأيوبي الكثير من المشاق والعنت من أجل فتحه واستعمل فيه صنوف أسلحة الحصار<sup>(٤)</sup>، واتبع أسلوب القتال بالتناوب<sup>(٥)</sup> إلى أن استطاع فتحها.

يقول ابن الأثير الذي وصف الجيش الأيوبي بالتقاعس في قتال صور لتعوده على القتال السهل: إن جيش صلاح الدين قاتل في حصار برزية قتالاً شديداً، وكان الزمان حراً شديداً، فاشتد الكرب على الناس، وصلاح الدين في سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم، وكان تقي الدين ابن أخيه كذلك<sup>(٦)</sup>، واستطاعوا أخيراً من فتح برزية التي كانت «قلعة شماء في الذرا، لاتكاد من سموها ترى»<sup>(٧)</sup>. ولهذا فإن دحض قول ابن الأثير وغيره ليس بالأمر العسير، على الرغم من أن بقية القلاع لم تكن على غرار قلعة برزية، ومن ثم فإن الجيش الأيوبي فتح فعلاً بعض المدن والقلاع بسهولة ومن غير مشاق.

ونرى أن عملية الانسحاب من صور كان عملاً حكيماً، نظراً لوضع الجيش الأيوبي النفسي بعد أن رأى الصعوبة في فتح المدينة، والمؤرخ ابن الأثير الذي يتخذ من صلاح الدين موقفاً صارماً ينسب إليه فشل الفتح، بعد أن نسب هذا الفشل إلى الجيش قبل قليل، ويقول: لم يكن لأحد ذنب في أمرها غير صلاح الدين، فإنه هو الذي جهز إليها جنود الفرنج، وأمدّها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان

(١) الفتح القسي، ١٥٩.

(٢) الكامل، ٥٥٥/١١.

(٣) معجم البلدان، ٣٨٣/١. النوادر، ٩٢. الفتح القسي، ٢٤٨. (أنظر بحثنا المعنون: مسؤولية صلاح الدين في فشل حصار صور. المجلة العربية للعلوم الإنسانية. المجلد ٧/ العدد ٢٦ / ١٩٨٧. مجلة كلية الآداب - جامعة الكويت).

(٤) الكامل، ١٥/١٢.

(٥) النوادر، ٩٢. الفتح ٢٤٩. الكامل، ١٥/١٢. الروضتين، ١٣١/٢. ابن العديم ١٠٥/٣. مفسر الكروب، ٢٦٥/٢.

(٦) الكامل، ١٥/١٢.

(٧) الفتح، ٢٤٨.

والقدس وغير ذلك، فكان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور، فصار فيها من سلم من فرسان الفرنج بالساحل، بأموالهم وأموال التجار<sup>(١)</sup>.

والراجح أن صلاح الدين لو كان يرمي بثقله على صور وحدها، ويصر على اتمام فتحها لكان من المحتمل جداً ألا يستطيع من ذلك، وكما حصل فعلاً، ولأضاع فرصة فتوح الساحل والداخل، حيث توالت عليه الانتصارات ولكانت الحملة الصليبية الثالثة تصل لتزيحه عن موقعه، كما أزاحتها عن عكا بعد حوالي ثلاث سنوات، في وقت كانت عكا بيد المسلمين، وليست بيد الصليبيين، أي أن صلاح الدين بمرابطته على صور كان يفوت على جيشه فرصة فتح المدن التي فتحها في نفس الوقت، ولكنه لم يشأ أن يخسر الكل في سبيل صور، بل اضطر أن يضحي بهذه المدينة، رغم أهميتها، لكي ينجح في بقية الفتوح، وهي عظيممة ولاشك. ومع هذا فإن تساهل صلاح الدين مع صليبي المدن المفتوحة والسماح لهم بالتجمع في صور كان من أسباب صمود هذه المدينة، وكان من الأخطاء التي سجلت على هذا القائد.

والسؤال هنا هو ماذا كان يوسع صلاح الدين أن يفعل بهذا العدد الغفير من الأسرى الصليبيين؟ أكان عليه أن يقتل كل صليبي يقع أسيراً في حوزة قواته أم يضعهم في الأسر؟ وعند ذلك كان على صلاح الدين أن يوفر ماوي لهم، ومورداً ضخماً للصرف عليهم. وعلى الأغلب فإن ما كان يفكر فيه صلاح الدين بالدرجة الأولى هو تحرير هذه المدن الإسلامية من الاحتلال الصليبي، ولم يفكر جدياً بما سيخلفه المطرودون من مشاكل، ولعله لم يدر أنهم سيجعلون من صور بؤرة تجمعهم، وأن هذا التجمع سيخلق له المشكلة، هذا على الرغم من أن حصانة صور جعلتها تصمد وتتحدى قوات صلاح الدين، وأثرت تأثيراً بليغاً أكثر من تأثير التجمع الصليبي فيها.

ومن أسباب صمود صور أيضاً، استمرار ورود المون والعتاد إليها من أوروبا وقبرص ومن الامارات الصليبية. ومع أن المون كانت تصل إلى الجيش الأيوبي أيضاً، سواء من البر أو من البحر، حيث كانت مراكب عكا وبيروت وجبيل تتوجه إليه، إلا أن سفن الصليبيين كانت تحول دون الوصول إلى غايتها<sup>(٢)</sup>.

وبهذا الصدد ذكر صلاح الدين في خطاب بعث به لأخيه سيف الإسلام «ولولا أن البحر ينجدها، والمراكب تردّها، لكان قيادها قد أمكن، وجماعها قد أذعن»<sup>(٣)</sup>.

ومع ذلك فإن صلاح الدين لم يكن رأيه عند رأي الداعين إلى الانسحاب، فكما يقول ابن الأثير

(١) الكامل، ٥٥٥-٥٥٦/١١. الروضتين، ١١٩/٢. مفرج الكروب، ٢٤٥/٢.

(٢) الفتح القسي، ١٦١. النوادر، ٨٤. الكامل، ٥٥٤-٥٥٥/١١. الروضتين، ١١٩/٢. ابن العسري، ٢٢١. مرآة الزمان ٨/٤٠٠. النجوم الزاهرة ٦/٣٨. عن الاساليب والحيل التي لجأ إليها الصليبيون للقضاء على الأسطول

الايوبي، انظر كلاري روبرت، فتح القسطنطينية على يد الصليبيين، ط ١٩٦٤ ص ٧٤-٧٦.

(٣) صبح الاعشى، ج٧، ص ٢٤، ٣٤١.

نفسه، فإن الامراء الأغنياء أو الممولين في الجيش، هم الذين دعوا صلاح الدين إلى ترك صور لأنهم خافوا أن يقترض منهم ما ينفقه في العسكر إذا أقام<sup>(١)</sup>. في حين كان رأي السلطان مع رأي «أتقيا» أمراءه، كالفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري، وعزالدين جورديك وحسام الدين طمان<sup>(٢)</sup> أي أن صلاح الدين كان يريد أن يبقي الجيش مرابطاً على صور لفترة أخرى، وأنه فكر في الاقتراض من الامراء والأغنياء لسد نفقات الحصار، لكن هؤلاء الامراء ألحوا عليه برفع الحصار، وبهذا الصدد يذكر العماد أن صلاح الدين «كان يزداد في حده حدة، وفي شدة شدة، وفي جده جدة. يثبتهم بحثه، ويحثهم على الثبات، ويقويهم بجوده، ويوجههم القوات، ويقول لهم: إن الله أمرنا بالمصابرة، ولا مصابرة إلا بالمثابرة، فاصبروا تفلحوا، وصابروا تفتحوا»<sup>(٣)</sup>. إلا أنه أذعن أخيراً إلى قرار مجلس حربه «على تمنع منه»<sup>(٤)</sup> ولم يشأ أن يقف ضد ارادتهم. فأمر بفك آلات الحصار، وإحراق ما يعجزون عن نقله، ورحل عن صور في آخر شهر شوال ٥٨٣هـ/ بداية سنة ١١٨٨م متجهماً نحو عكا، ووزع أمراءه الذين رجعوا إلى أوطانهم على أن يعودوا إلى الميدان بعد انقضاء فصل الشتاء<sup>(٥)</sup>.

إلا أن هذا الاخفاق في فتح صور، الذي أعقب انتصاري حطين وفتح القدس لم يثبط من عزيمة الجيش الصلاحي، فقد واصل سيره لفتح الحصون والمدن التي كانت بيد الصليبيين، ففتح مدناً وحصوناً كانت على جانب كبير من الأهمية والحصانة، مثل صفد وكوكب والكرك وبرزية وصهيون وغيرها. على الرغم من أن ما حصل عند أسوار صور من هزيمة صار نقطة تحول خطيرة في تاريخ جيش صلاح الدين المقبل كما سنرى<sup>(٦)</sup>.

والواقع أن فشل فتح هذه المدينة كان أمراً خطيراً، إذ صارت صور نقطة تركز قوات الصليبيين الفارين من البقاع الاخرى<sup>(٧)</sup>. أو القادمين الجدد من الغرب الأوربي، وخطورتها الأساسية هي أن صور غدت مخلب القط الذي وجه نحو عكا، فعند أسوار هذه المدينة بدأت صفحة جديدة من تاريخ جيش صلاح الدين تختلف عن الصفحات المطوية، رغم روح الجهاد العالية التي أبداها هذا الجيش<sup>(٨)</sup>.

(١) الكامل، ٥٥٦/١١.

(٢) الروضتين، ١١٩/٢. مفرج الكروب، ٢٤٥/٢-٢٤٦.

(٣) الفتح القسي، ١٥٩ الروضتين، ١١٩/٢. مفرج الكروب، ٢٤٦/٢.

(٤) البداية والنهاية، ٣٢٧/١٢.

(٥) الكامل، ٥٥٦/١١. الفتح القسي، ١٧٥. زبدة الحلب، ١٠٠/٣. الروضتين، ١٢٠/٢. مفرج الكروب، ٢٤٦/٢.

السلوك، ٩٧/١.

(٦) Lane - Pool Saladin, p. 241. د. سعداوي، التاريخ الحربي، ١٩٨. د. عبدالقادر اليوسف، علاقات بين الشرق

والغرب، ص ١٤٣. قدرى قلعي، صلاح الدين الايوبي، قصة الصراع بين الشرق والغرب، دار الكاتب العربي،

مطابع شركة المطابع الحديثة، بيروت، ١٩٦٦، ص ٣٦٠.

(٧) مرآة الزمان، ٣٩٨/٨.

(٨) ما جعل صور تسقط بيد المسلمين بعد أكثر من قرن من هذا التاريخ، ما أصاب تحصيناتها من تخريب وانهيار بسبب

الزلازل واهمال صيانتها، وما أصاب الصليبيين من ضعف من جراء الصراع المتصل الذي نشب بين مدن الساحل، =

## ثانياً: المعارك المكشوفة:

ثمة اختلافات بين هذا النوع من المعارك، وتلك التي أطلقنا عليها اسم معارك الأسوار، أو معارك الحصون، ولا نريد الدخول في تفاصيل الفروق، أو نقاط الخلاف والتشابه، الموجودة بينهما، إلا أن الملاحظ أن المواجهة بين مقاتلي الطرفين كانت مباشرة في المعارك المكشوفة، وأساليب القتال المتبعة (التكتيكات) في إحدهما تختلف عما يتبع في الأخرى، وكان المطلوب من مقاتلي المعارك المكشوفة - ولاسيما القادة منهم - أن يكونوا على جانب كبير من الشجاعة للصدوم أمام العدو، والانتصار عليه، فقد تكون هزيمة أحد القادة في ميدان المواجهة أو مقتله، سبباً لهزيمة جيشه برمته، ولهذا كان يختار لقيادة الجيش باجنحته المختلفة، ولاسيما في المقدمة، أمراء عرفوا ببسالتهم وكفاءتهم وقدرتهم على الصمود لدى الاشتباك.

ويلاحظ أن أمد القتال المكشوف كان قصيراً، وكانت النتيجة تقررها عوامل يظهر مفعولها بسرعة أكثر من العوامل التي كانت تؤثر على نتيجة معارك الأسوار، فقد يطول الحصار أمداً طويلاً يستغرق أشهراً عديدة، مادامت المدينة المحاصرة تتمتع بأسوار متينة، وما دام مقاتلوها وسكانها قد احتاطوا للأمر مسبقاً، ويحصلون على قوتهم وحاجاتهم الأخرى، كما حصل لصور ولعكا، حين طال حصارهما. وكذلك كان لحجم الجيش المقاتل، والمعدات التي يستعملها، أثرهما في حسم المعارك المكشوفة، فالجانب الأكبر حجماً، والأكثر عدة وتسليحاً، يتفوق - عموماً - على الجيش الأصغر حجماً، والأقل عدة وتسليحاً. على الرغم من أن في أحداث التاريخ شواهد تثبت عكس ما نقول. فكم قوة عسكرية صغيرة هزمت قوة أكبر منها حجماً، وأعظم منها عدة وعدداً، كما حصل في معارك صدر الإسلام (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة)<sup>(١)</sup>. وكذلك في معارك الفتوح الإسلامية. وكان يحسب حساب الحجم في معارك الأسوار أيضاً، بحيث يتناسب حجم الجيش المحاصر مع ضخامة المدينة وحجم المدافعين عنها، وامتانة أسوارها.

والواقع أن مصطلح المعارك المكشوفة ينطبق على كافة المصادمات التي وقعت بين جيش صلاح الدين والصليبيين خارج المدن والحصون، إلا أننا لن نتحدث عن المناوشات الصغيرة نظراً لأن أكثرها يدخل ضمن الأعمال التي قام بها البيزنطيين، والتي تحدثنا عنها، بل سنتحدث عن أبرز تلك الأعمال العسكرية المنظمة التي يطلق عليها اسم المعارك التي كان لنتائجها تأثيرها الواضح على كلا الجانبين، المنتصر والمنهزم. وسنكتفي بالتحدث عن معركتي الرملة وحطين<sup>(٢)</sup>.

=والأسطولين البندقي والجنوي. ولما سقطت عكا بيد المسلمين سنة ٦٩٢هـ/١٢٩١م لم تستطع صور وغيرها من المدن القليلة الباقية في أيدي الصليبيين أن تصمد. انظر هونيمان Honigmann في دائرة المعارف الإسلامية، ط سنة ١٩٣٣، ج٤، ص ٣٧.

(١) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ٢٤٩.

(٢) وستحدث عن وقعة (ارسوف) التي انتهت بهزيمة الجيش الأيوبي، في مكان آخر.

## ١- معركة الرملة:

كانت هذه المعركة تجربة مريرة لصلاح الدين، ولعله تعلم منها أن من الخطأ مقارعة الصليبيين قبل أن يحقق توحيد الجبهة الإسلامية، فيتحقيقه لهذه الوحدة سيحصل على قوة زاخرة هائلة مستعدة للذلل في سبيل تحطيم قوة العدو المحتل، إضافة إلى أنه سيكون يوسع جيشه التحرك في رقعة أوسع. على الرغم من أن صلاح الدين كان قد ألحق جزءاً لا يستهان به من بلاد الشام بدولته في مصر، منذ أن توجه إلى دمشق عام ٥٧٠هـ/١١٧٤م، ثم ضم حمص، وحماة، وحارم. إلا أن أجزاء واسعة ظلت خارج نطاق نفوذه.

بعد أن عاد صلاح الدين إلى مصر، سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م قرر أن يقوم بحملة ضد الصليبيين، فخرج من القاهرة في عشرين ألف مقاتل<sup>(١)</sup>، في شهر جمادى الأولى ٥٧٣هـ/ تشرين الثاني ١١٧٧م، وخيم بمدينة بلبيس المصرية الواقعة على بعد عشرة فراسخ من مدينة مصر على طريق الشام<sup>(٢)</sup>. ثم توجه منها إلى الأجزاء الجنوبية من فلسطين، فنزل على عسقلان التي يحتلها الصليبيون، وتمكن من أسر بعض الصليبيين، فأمر بضرب أعناقهم<sup>(٣)</sup>.

لم يجد صلاح الدين أية مقاومة تذكر من العدو، فتفرق جنده يكتسحون القرى مغيرين، وأخذوا يجمعون الغنائم، ثم جمع صلاح الدين بعض جنوده وتقدم بهم نحو بلدة الرملة القريبة من الساحل والتي كانت من أكبر المدن الفلسطينية يومئذ<sup>(٤)</sup>، فاعترضهم نهر تل الصافية، فتفرقوا يبحثون عن مكان يصلح لعبورهم، وبينما هم في هذه الحالة، هجمت عليهم قوة صليبية، قبل أن يرتبوا أوضاعهم، والظاهر أن الصليبيين كانوا يراقبون تحركاتهم، فباغتوهم في الوقت المناسب. وكان يقودهم الأمير الشهير أرناط، ويسانده في مهمته بلدوين الثالث ملك بيت المقدس<sup>(٥)</sup>. ولم يكن مع صلاح الدين في تلك اللحظة سوى عدد ضئيل من أمرائه وجنده، لأن أكثرهم تفرقوا في طلب الغنيمة<sup>(٦)</sup>. ثم بدأت المصادمات وتجمع جند صلاح الدين، واشتبكوا مع الصليبيين وقد أبلى بعض قادة صلاح الدين وأقاربه بلاءً حسناً، ولاسيما تقي الدين عمر وابنه أحمد وكذلك ضياء الدين عيسى الهكاري وأخوه ظهير الدين، وقد أسرا وبقيا في الأسر سنتين فافتدى صلاح الدين الفقيه عيسى بستين ألف دينار<sup>(٧)</sup>. فقد تقدم تقي الدين عمر وياشر القتال ببسالة بين يدي عمه، وقتل عدداً من الصليبيين، ثم

(١) مرآة الزمان، ٣٤٣/٨.

(٢) معجم البلدان، ٤٧٩/١.

(٣) مفرج الكروب، ٥٩/٢.

(٤) يصفها ياقوت بأنها مدينة عظيمة بفلسطين، وكانت قصبته سابقا. معجم البلدان ٦٩/٣.

(٥) كاستلان، تاريخ الجيوش، ص ٥٩.

(٦) الكامل، ٤٤٢/١١. أحمد بن زيني دحلان، الفتوحات الإسلامية، ج١، ص ٤٤٥.

(٧) الكامل، ٤٤٣/١١. مفرج الكروب، ٦١/٢ أبو الفداء، المختصر، ٨١/٥. أحمد بن زيني، الفتوحات، ٤٤٦/١.

تقدم ابنه أحمد، وأبدى ضرورياً من الشجاعة، وقتل عدداً من أفراد العدو، وعاد إلى أبيه سالماً، ثم أمره أبوه بالعودة إليهم ثانية، قائلاً له: «عد يا أحمد، فإن العود أحمد» فعاد إليهم وقتلهم فاستشهد<sup>(١)</sup>.

إلا أن المسلمين لم يستطيعوا الصمود بوجههم. وقد تحدث صلاح الدين عن الهزيمة، وكيف أدى تغيير مواقع الجنود وأجنحة الجيش إلى هذه النتيجة المؤسفة، قائلاً: «في وقت صار العدو على مقربة منهم رأى بعض الجنود أن يعبروا المينة إلى جهة المسيرة، والمسيرة إلى جهة القلب، ليكون التل الموجود بأرض الرملة خلف ظهورهم، وليس أمامهم فبينما هم مشغولون بهذه الخطة هاجمهم العدو»<sup>(٢)</sup>. ووقت الهزيمة على المسلمين والتي من أسبابها:

- ١- مباغطة الصليبيين للجيش الأيوبي أثناء تفرق أفرادهم قبل أن يرتبوا أنفسهم في الوقت المناسب.
- ٢- هذه المباغطة أثرت إلى حدوث خلل في صفوف وأجنحة الجيش الأيوبي، وتفرق قادة الجيش، وجوئهم إلى أسلوب المبارزة الفردية التي لم تجد نفعاً في مثل هذه الحالة.
- ٣- اختفاء صلاح الدين عن الأنظار، حتى ظن أنه قتل.

٤- ابتعاد الجيش الأيوبي عن خطوط التموين، وانقطاع الزاد والماء عنه<sup>(٣)</sup>.  
ومما يؤكد فداحة الخسارة التي ألحقت بالجيش الأيوبي في هذه الموقعة قول المؤرخين إن الهزيمة «كانت وهناً لم يجبره الله إلا بوقعة حطين»<sup>(٤)</sup>. وقد عد كاستلان هذه المعركة أكبر انتصار أحرزه الصليبيون رغم أن عدد الفرسان الصليبيين لم يزد عن خمسمائة فارس، يشد أزهرهم ثمانون من فرسان الداوية<sup>(٥)</sup>. وقد قتل في هذه الوقعة وجرح وأسر معظم من كان مع صلاح الدين<sup>(٦)</sup>، وخرج هو من وسط المعركة سالماً بأعجوبة، فبعد أن تمت الهزيمة، حمل أحد الصليبيين عليه، فقاربه حتى كاد أن يصل إليه، فقتل الصليبي بين يديه، «وتكاثر الفرنج على صلاح الدين، فمضى منهزماً يسير قليلاً ويقف ليلحقه العسكر، إلى أن دخل الليل، فسلك طريق البرية، ومضى في نفر يسير إلى مصر، ولقوا في طريقهم مشقة شديدة، وقل عليهم القوت والماء، وهلكت دوابهم جوعاً وعطشاً وسرعة سير»<sup>(٧)</sup>. وفي الطريق إلى مصر اختفى صلاح الدين عن الأنظار، فأوقع ذلك الرعب في الصفوف، فخرج

(١) سنا البرق الشامي، ٢٥٦/١. الكامل، ٤٤٢/١١. الروضتين، ج١، ٢، ص ٧٠٠.

(٢) النوادر، ٥٣. الروضتين، ٧٠٣/١. مفرج الكروب، ٥٩/٢.

(٣) مرآة الزمان، ٣٤٣/٨. مفرج الكروب، ٦٠/٢، ٦١.

(٤) النوادر، ٥٣. مرآة الزمان، ٣٤٣/٨. الروضتين، ج١، ٢، ص ٧٠٣. مفرج الكروب ٦٠/٢. وفيات الاعيان،

١٦٨/٧. النجوم الزاهرة، ٢٧/٦.

(٥) تاريخ الجيوش، ص ٥٩.

(٦) الكامل، ٤٤٣/١١.

(٧) مرآة الزمان، ٣٤٣/٨. مفرج الكروب، ٦٠/٢. أبو الفداء، المختصر، ٨٠/٥. السلوك، ٦٤/١.

القاضي الفاضل مع بعض رفاقه يتلمس مكانه، وبثهم وسط الصحراء، حتى اهتدوا إلى مكانه، وأسعفوه بما كان معهم من الزاد، ثم وصل الركب إلى القاهرة في منتصف جمادى الآخرة ٥٧٣هـ/ كانون الأول ١١٧٥م<sup>(١)</sup>.

إلا أن خبر سلامته قد وصل إلى مصر على الهجن السريعة<sup>(٢)</sup> قبل وصوله هو، لكي يضع حداً لكل من تسول نفسه التمرد على حكمه، ولاسيما من أعوان الفاطميين، وليؤكد أنه ما زال على قيد الحياة، ولدى وصوله إلى القاهرة حمل الحمام الزاجل بطائق البشرى إلى أنحاء مصر، لتهدئة الخواطر، ومع هذا فإن هيبة صلاح الدين قد تعرضت لمحنة قاسية<sup>(٣)</sup>.

## ٢- معركة حطين:

تهيأت الظروف لصلاح الدين لإعلان الحرب على الصليبيين، بعد أن حقق توحيد جبهته الداخلية في الشام والجزيرة ومصر، ويعد أن تهيأت أذهان القادة والامراء، بحيث تفرغ تماماً لتحقيق الهدف الذي جاهد من أجله طوال سنوات حكمه. ولكنه لم يشأ أن يكون هو البادئ بالحرب، نظراً لوجود هدنة بينه وبين الوصي على مملكة بيت المقدس الأمير ريموند الثالث صاحب طرابلس، وزوج أشييفا صاحبه طبرية<sup>(٤)</sup>. وقد ساندت ريموند جماعة من الصليبيين لذا «اختلفت كلمة الفرنج وتفرق شملهم»<sup>(٥)</sup>.

وصار الملك جي لوسينيان ملك بيت المقدس ينظر إلى ريموند بريية. واعتبره متواطئاً مع صلاح الدين. وكان على صلاح الدين أن ينتظر حتى يزوده العدو بذريعة لنقض الهدنة، وإعلان الحرب، ولم يطل انتظاره كثيراً، فقدم أرناط باستيلائه على القافلة المصرية، وقطعه الطريق، الحجة لصلاح لنقض الهدنة. عندها أرسل السلطان في إثر قواته التابعة له، في مصر وحلب والموصل والجزيرة وديار بكر وغيرها، مستنفراً إياها للجهاد المقدس، أما هو فقد برز من دمشق مستهل سنة ٥٨٣هـ/ ١٣ آذار ١١٨٧م<sup>(٦)</sup> وطلب من الملك الأفضل أن يقيم مع عساكره عند رأس الماء قرب دمشق لتجتمع عنده العساكر المستنفرة<sup>(٧)</sup>. وتوجه هو نحو الجنوب لحماية الحاج من غدر أرناط<sup>(٨)</sup>.

وصار من المتوقع أن يتوجه لمهاجمة الكرك، إلا أنه أوعز إلى ابنه أن يرسل قوة من بضعة الاف

(١) الكامل ٤٤٣/١١. مفرج الكروب ٦٢/٢.

(٢) سنا البرق الشامي ٢٦٠/١.

(٣) رنسيان، ٦٧٣/٢. Stevenson, p. 200.

(٤) وكان سبب الهدنة أن خلافاً دب بين ريموند وبين زوج ملكة بيت المقدس (جي لوسينيان) جعله ينحاز إلى صلاح الدين. عن تفاصيل الخلاف بين ريموند والملك انظر: الكامل ٥٢٦/١١، ٥٢٧.

(٥) الكامل، ٥٢٧/١١. وانظر: ابن العسيري، تاريخ الدول السرياني، في مجلة الشرق، السنة ٤٧، ج٤، ٥ لسنة ١٩٥٣، ص٤٤٣.

(٦) النوادر، ٧٤. مفرج الكروب، ١٨٦/٢. ابن خلدون، مجلد ٥، ق٣، ص٦٦٨.

(٧) الفتح القسي، ٥٩. مرآة الزمان، ٣٩٢/٨. الروضتين، ٧٦/٢. مفرج الكروب، ١٨٦/٢.

(٨) الكامل، ٥٣٢/١١. زبدة الحلب، ٩٣/٣، ١١٨-١١٩.

لتقوم بالاغارة على عكا، وكان لابد لهذه القوة من المرور على أرض اقليم طبرية، فاستأذن صلاح الدين ريموند بذلك، فوجد هذا الأمير نفسه في موقف حرج، فبحكم تحالفه مع صلاح الدين مضطر إلى مماثلته على حساب الصليبيين. فسمح للقوات الأيوبية بالمرور. إلا أنه أعطى تعليماته لمدن اقليم طبرية، مثل الناصرة وطبرية، باغلاق أبوابها بوجه هذه القوات .

أدرك الصليبيون خطورة ما يحصل بسبب تمزق صفوفهم، فأسرع ريموند إلى الوفاق مع الملك جي، ونفض يده من اتفاهه السابق مع صلاح الدين، وأعلن أنه مستعد للسير مع الصليبيين لمحاربة المسلمين<sup>(١)</sup>.

وصل هذا النبأ إلى السلطان، فرأى نفسه في حل عن الهدنة. وحين علم الصليبيون تحشدوا وتهيأوا للهجوم، سار صلاح الدين من نواحي الكرك إلى عشترا<sup>(٢)</sup>، وخيم بها، واجتمعت عنده العساكر جميعاً، ثم سار هذا الموكب الضخم نحو ثغر الأفحوانة في جنوبي طبرية، فأقاموا هناك خمسة أيام، قام صلاح الدين خلالها بتهيئة جيشه استعداداً للمعركة الحاسمة، ومكث ينتظر ما سيفعله العدو. ثم قام بتعيين مواقع الامراء، وأمرهم بالتحرك باتجاه الغرب للوصول إلى قرية الصنبرة<sup>(٣)</sup> الواقعة عند منطقة التلال المحيطة بالمنطقة القريبة من بحيرة طبرية.

إن اختيار صلاح الدين لهذا الموضع لنزول قواته كان اختياراً خطيراً، إذ جعل ظهر جيشه إلى البحيرة، وهو موقف محفوف بالمخاطر من الناحية الاستراتيجية العسكرية، لأنه أهمل طريق التقهقر في حالة الهزيمة المحتملة. إلا أن هذا الاختيار - من ناحية أخرى - كان ذا فائدة، إذ حال بين الصليبيين وبين انتفاعهم من ماء نهر الاردن أو مياه الينابيع الموجودة بالواديان التي تنتهي في البحيرة، وتم عبر التلال التي غدت تحت سيطرة جيش صلاح الدين<sup>(٤)</sup>.

ويصدد هذا الاختيار الصعب يعلن أبو شامة: أن المسلمين «تحققوا أن من ورائهم نهر الاردن وبين أيديهم بلاد القوم ولا ينجيهم إلا الله»<sup>(٥)</sup>.

من الصنبرة قام صلاح الدين بإرسال الكشافة لجمع المعلومات عن جيش العدو، للتأكيد من حجمه ومعداته وتحركاته، وعلى ضوء هذه المعلومات بدأ مع قواده بوضع الخطط. وقد بدت قدراته ومهارته العسكرية في هذه الخطط، إذ أنه، رغم توفقه للاشتباك في معركة فاصلة، إلا أنه أراد أن يدفعهم للتحرك والمسير نحوه، لكي يصلوا، وقد أضناهم السير، في حين يكون هو قد اذخر جهد جيشه المتحفر<sup>(٦)</sup>. لكنه لم يشأ أن يظل مرابطاً بكل قواته عند قرية الصنبرة حيث نزل عليها. فأبقى نصف

(١) الكامل، ١١/٥٣٠. شفاء القلوب، ١١٨-١١٩.

(٢) عشترا: موضع بحوران من أعمال دمشق. معجم البلدان، ٤/١٢٥.

(٣) الصنبرة: موضع بالاردن بينه وبين طبرية مسافة ثلاثة أميال. معجم البلدان ٣/٤٢٥.

(٤) السرساوي، من روائع التاريخ العسكري، ص ٣٣-٣٤.

(٥) الروضتين، ٢/٨١. وفيات الاعيان، ٧/١٧٥. النجوم الزاهرة، ٦/٣٢.

(٦) د، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ٨٠٤.

جيشه هنا، وهاجم بالنصف الثاني مدينة طبرية ذاتها، فسقطت المدينة - دون قلعتها - بأيديهم. وكانت تدافع عنها صاحبته التي ظلت تقاوم في القلعة مع حاميتها. وبعثت رسلاً إلى زوجها (ريموند) تخطره بما حصل. وهذا ما كان يريده صلاح الدين، إذ أنه بانقضاضه على طبرية حرك نخوة القادة الصليبيين للدفاع عن مدينة ما زالت قلعتها صامدة وتدافع عنها امرأة، هي زوجة أحد القادة الصليبيين، من الثلاثة الكبار المتجمعين في عكا.

وصلت الاستغاثة إلى القادة فجن جنوبهم، وزاد حنقهم على صلاح الدين، وعقدوا مجلساً للحرب لبحث الموقف، ورأى البعض منهم ضرورة التحرك السريع ومقاومة صلاح الدين. في حين ظهر بينهم تيار متعقل يدعو إلى التأنى في اتخاذ القرار لكي لا يكون ذلك وبالاً عليهم، ولاسيما وأن ثمة صعوبة في الحصول على الماء والزاد.

وكان المتوقع أن يكون ريموند على رأس القائلين بالرأي الأول، إلا أن ما حصل كان بالعكس، لأن ريموند أدرك خطورة الاقدام على مغامرة عسكرية غير مأمونة النتائج. وقد لخص ابن الأثير موقفه بقوله إن أهم الأدلة التي حاول بها ريموند أن يدعم وجهة نظره، هي كما قال: إن المسلمين لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً بعد الاستيلاء على طبرية، فإنهم عساكر عظام ما رأيت مثلها كثرة وقوة، وأنهم لم يلبثوا أن ينصرفوا، لأنه لا يمكنهم المقام بها بهذا العدد، فمتى ما فارقوها وعادوا منها أخذناها، وإن أقاموا بها لا يقدرنا على المقام بها إلا بجميع عساكرهم، ولا يقدرنا على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهاليهم، فيضطرون إلى تركها، ونفتك من أسرنا<sup>(١)</sup>.

إذن ينبغي أن يتحاشى الصليبيون الاصطدام بهم، كما حدث في مرات سابقة. فإذا زحفوا على الصليبيين، فإن هؤلاء سيكونون في مركز أفضل، لأن المسلمين سيصلون مجهدين بسبب وعورة الطريق وطوله وحرارة الجو اللافتحة وقلة الماء. وأنه - أي ريموند - يؤثر أن تضع طبرية بكل ما فيها، على أن لاتضيع مملكة بيت المقدس. وكان معظم الفرسان يميلون إلى اتباع هذه النصيحة<sup>(٢)</sup>.

إلا أن الأمير أرناط رد على ريموند وأنصاره بعنف وقال له: «قد أطلت من التخويف من المسلمين، ولاشك أنك تريدكم، وتميل إليهم، وإلا ما كنت تقول هذا، وأما قولك إنهم كثيرون فإن النار لا يضرها كثرة الحطب<sup>(٣)</sup>. فأرناط هو الذي قوى عزمهم على التقدم إلى طبرية لقتال المسلمين، بعد أن لم يعد بوسع أحد أن يستمع بجديّة إلى صوت الحكمة. وقد أيد الملك (جي لوسينيان) الأمير أرناط في موقفه، لذا أصدر الأوامر إلى الجيش بالتحرك، فرحلوا من عكا متوجهين نحو طبرية، وقد اختاروا مدينة صفورية القريبة من طبرية مركزاً لتحشداتهم<sup>(٤)</sup>. وهي منطقة ملائمة جداً لأن يقوم بها معسكر،

(١) الكامل، ٥٣٣/١١.

(٢) رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ٧٣٥/٢.

(٣) الكامل، ٥٣٣/١١.

(٤) الفتح القسي، ٧٣. النوادر، ٧٥. الكامل، ٥٣٢/١١. الروضتين، ٧٦/٢. مفرج الكروب، ١٨٩/٢.

لما يتوفر فيها من الماء والمراعي لخيولهم<sup>(١)</sup>.

وكان المسلمون قد قاموا بتسميم وطم الآبار والصحاريج التي يمكن للصليبيين أن يستفيدوا منها<sup>(٢)</sup>. فالتعطيش كان أحد الأسلحة الفعالة التي استخدمها المسلمون - بذلك - ضد عدوهم. في وقت كان المسلمون ينعمون بالماء الوفير والظل الظليل، مكننزين قواهم لساعة الفصل لذا كانت غبطة صلاح الدين كبيرة حين سمع نبأ تحرك العدو نحوه، وهتف: «قد حصل المطلوب، وكمل المخطوب، وجاءنا ما نريد»<sup>(٣)</sup>. وتقدم بقواته نحو خمسة أميال صوب غربي طبرية حيث عسكر فيه، بعد أن ترك على قلعة طبرية بعضاً من رجاله<sup>(٤)</sup>. واختار أسفل تلال تقع في محاذاة قرية حطين، وهي بقعة وفيرة المياه وتنتشر حولها المروج، على غرار صفورية. والواقع أن اختيار صلاح الدين لهذا الموقع لم يأت اعتباطاً، ففيه يستطيع أن يقطع الطريق المباشر الذي يؤدي إلى طبرية، ويسيطر في الوقت ذاته على الدروب التي تجتاز الحافة الشرقية إلى طبرية، وتنتهي إلى ماء البحيرة<sup>(٥)</sup>.

استعد الطرفان لخوض غمار معركة مكشوفة بمستوى عسكري محكم، لأنهما ادركا أنهما يخوضان معركة قد تكون ذات تأثير بليغ على مستقبلهما، ولكن إذا كان استعداد الجيشين بهذا المستوى، فإن النصر سيكون حليف الجيش الذي يحافظ على وحدة قيادته، وانضباط صفوفه، وصمود مقاتليه إلى النهاية قدر المستطاع، ومن يملك إمكانية استخدام أسلحة المواجهة المعروفة أفضل من الطرف المقابل، ولعل أهمها جميعاً هو قدرته على دفع جيش العدو إلى المبادرة بالزحف.

وإذا كان الهجوم هو أفضل أنواع الدفاع في حساب واضعي الخطط العسكرية فالذي يصح في مثل وضع الجيشين هنا، هو مدى قدرة أحد الطرفين في جذب الآخر نحوه، في ظروف غير ملائمة للجانب المهاجم، وهذا ما أدركه صلاح الدين جيداً، واستثمره بشكل دقيق، في وقت كان هو المبادر في البداية على اتخاذ موقف الهجوم، حين زحف على طبرية.

هذا وقد أظهر تكتيك صلاح الدين البارع على أنه قائد محنك من الطراز الأول. فالصليبيون عزموا على اتخاذ خطة الدفاع وجذب صلاح الدين إلى ميدانهم، وحرصوا على أن يثيروا المسلمين كيما يبدوا بالقتال، غير أن خطتهم لم تتحقق بسبب ما وقع في صفوفهم من تمزق تجاه ما ينبغي فعله تجاه طبرية، وقلعتها التي كانت لاتزال صامدة. في حين تمتع جيش صلاح الدين بوحدة القيادة ووحدة الهدف. فما كان من صلاح الدين إلا وأن قام بتلك الالتفاتة السريعة لاثارة عدوه ليكون الباديء في التحرك، حين استطاع أن يثير تخوفه تجاه الأميرة المحاصرة.

(١) رنسيان، ٧٣٦/٢. - Stevenson, pp. 244 - 245. Lane - Poole, pp. 205 - 206.

د. الباز العريني، الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ص ٧٦.

(٢) الكامل، ٥٣٤/١١.

(٣) الفتح، ٧٧. الروضتين، ٧٦/٢.

(٤) النوادر، ٧٦. مفرج الكروب، ١٨٩/٢.

(٥) د. الباز العريني، الشرق الأوسط، ٨٣١/١.

عباً صلاح الدين جيشه تعبئة القتال، ووقف يوم العرض يرتب الأجنحة المختلفة، وقرر - كما يقول العماد - لكل أمير أمراً، ولكل مقدم مقاماً... ولكل كمين مكاناً... ولكل يمان مقبضاً... ولكل رام مرتقى... وعين لكل أمير موقفاً في الميمنة والميسرة لا ينتقل عنه... وأخرج الجاليشية الرماة الكماة من كل ثلب<sup>(١)</sup>. أما عن حجم هذا الجيش فقال: «ما رأيت عسكرياً أبرك منه ولا أكبر»<sup>(٢)</sup>. إلا أنه - أي العماد - لا يقدر حجم الجيش في كتابه الفتح القسي، عكس بقيقة المؤرخين، رغم أنه كان مع الجيش<sup>(٣)</sup>. وقد قدر المؤرخون عدد الفرسان فيه باثني عشر ألف فارس<sup>(٤)</sup>، عدا المشاة والمتطوعين المجاهدين<sup>(٥)</sup>. ولم يكن الجيش الصليبي أقل عدداً وعدة من الجيش الأيوبي<sup>(٦)</sup>، إذا لم يكن يضارعه<sup>(٧)</sup>.

وقدر المؤرخون المسلمون عدد أفراد القوات الصليبية بحوالي خمسين ألف مقاتل بين فارس وراجل<sup>(٨)</sup>، أو حوالي أربعين ألفاً<sup>(٩)</sup>، في حين قدرهم بعض المؤرخين بأكثر من ذلك<sup>(١٠)</sup>. في صبيحة يوم زحف الصليبيين نحو حطين في ٢٤ ربيع الثاني ٥٨٣هـ/ تموز ١١٨٧م، اشتدت الحرارة وركد الهواء، وصاروا يشقون طريقهم فوق التلال الجرداء وقد تولى ريموند صاحب طرابلس، باعتباره زوج أميرة طبرية، قيادة الجيش، بينما تولى الملك جي لوسينيان قيادة القلب، أما أرناط ومعه باليان ابلين (ابن بيرزان) والفرسان الرهبان من الداوية والاسبتارية فقد وكلت إليهم مؤخرة الجيش<sup>(١١)</sup>. وكانت صفورية تتصل بطبرية عبر طريقين، أفضلهما هو الطريق الذي يتجه صوب الشمال الشرقي، مجتازاً تلال الجليل، ثم يهبط إلى البحيرة على مسافة ميل شمال المدينة (مدينة طبرية)، وهو الطريق المباشر الذي سلكه الصليبيون في سيرهم. أما الطريق الآخر فيتجه إلى الجسر المقام عند الصنبرة، ومن هذا الموضع يسيّر بطريق فرعي على امتداد شاطئ البحيرة، صوب الشمال<sup>(١٢)</sup>.

- (١) الفتح القسي، ٦٩-٧٠.
- (٢) الفتح القسي، ٦٤. الروضتين، ٧٦/٢.
- (٣) وهذا ينطبق على ابن شداد كذلك.
- (٤) الكامل ٥٣١/١١. زبدة الحلب، ٩٢/٣. الروضتين، ٧٦/٢. مفرج الكروب ١٨٧/٢. البداية والنهاية ١٢/٣٢٠.
- (٥) السلوك ٩٣/١. الذهبي، مخطوط تاريخ الإسلام، ق ١، ورقة ٧ب. شفاء القلوب ١١٩.
- (٦) وقد تحدثنا عن ذلك في الفصل الأول.
- (٧) ارنست باركر، الحروب الصليبية، ٢٣٢.
- (٨) رنسيما ٧٣٦/٢. الباز العريني، الشرق الاوسط، ٨٢٩/١.
- (٩) الفتح القسي، ٧٤. الروضتين، ٧٦/٢. مفرج الكروب ١٨٩/٢. البداية والنهاية، ١٢/٣٢٠.
- (١٠) اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ط ٢، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ١٩٧٠، ج ٣، ص ٤٢٤.
- (١١) الذهبي، ن. م. و.
- (١٢) رنسيما ٧٣٧/٢. د. عاشور، مصر والشام في عهد الايوبيين والمماليك، ٣٤/٣٣. الباز العريني، الشرق الاوسط، ٨٣١/١.
- (١٣) الباز العريني، ن. م. ص.

هكذا نجح صلاح الدين في اختيار الزمان والمكان في لقاءه مع العدو ودفعه في التوجه نحوه. والواقع أن الصليبيين لو ظلوا مقيمين بصفورية دون الهجوم على طبرية لكانت النتيجة تتغير. ومما يذكر أن الصليبيين آثروا في مرة سابقة عدم الانسياق وراء محاولات صلاح الدين في استدراجهم، وذلك في غزوة بيسان في جمادى الآخرة سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م عند عين جالوت<sup>(١)</sup>. وهذا يعني أن تكتيك استدراج العدو كان ضمن خطط صلاح الدين قبل حطين. وكان على علم أن الصليبيين، رغم ما عرف عنهم من شجاعة اعترفت بها المصادر الإسلامية<sup>(٢)</sup>، إلا أنهم اعتادوا منذ أمد ألا يقاتلوا إلا في قرى محصنة وكذلك لا يقاتلون إلا على نجاة متيقنة، كما يقول العماد<sup>(٣)</sup>.

اذن فإن النجاح في استدراجهم وخوض غمار معركة مكشوفة معهم في ذلك الطقس الحار، مع شحه الماء، وابتعادهم عن مصادر التموين، كانت عوامل أثرت كثيراً على نتائج المعركة لصالح الجيش الأيوبي. وكذلك أثرت الحرارة على ما كان يحمله الجنود من أسلحة وخوذات، ودروع ثقيلة، وكلها من حديد، حتى كادت أجسامهم تشتعل من تأثير الحرارة المنبعثة من عتادهم<sup>(٤)</sup>.

وأثناء سيرهم الشاق دأب رماة المسلمين من الكمناء والجاليشية على مناوشتهم بالسهام، وصرعوا بعض رجالهم، وأكثروا من قتل خيولهم، مما أربكهم كثيراً<sup>(٥)</sup>. ثم وصلوا إلى أرض المعركة، وقد أخذ منهم التعب والعطش، بحيث لم يستطيعوا القيام بعبء الصدام مع عدوهم، ومواجهتهم كما ينبغي. وجرى بينهما قتال، حين هاجم أحد فرسان صلاح الدين، وهو منكورس<sup>(٦)</sup> عليهم، وقاتل قتالاً مجيداً أعجب منه الناس، ثم تكاثر عليه الصليبيون فقتلوه، عندها حمل المسلمون حملة منكرة عليهم فضعفهم<sup>(٧)</sup>. وانتهى ذلك اليوم دون نتيجة، رغم ما ظهر على الصليبيين من امارات الضعف والعطش أكثر من ذي قبل.

رأى الصليبيون ضرورة قضاء الليل فوق هضبة حطين قرب قرية اللوبية، عساهم يحصلون على الماء في اليوم التالي: في وقت كان صلاح الدين قد سد عليهم أبواب الحصول على الماء، وطوق الطريق المؤدي إلى بحيرة طبرية. فقضوا ليلتهم وهم يئنون من العطش والانهك، وكانت ليلة عسيرة عليهم، واختباراً عنيفاً لهم. وكانوا طوال الليل يسمعون أصوات المسلمين في سهل حطين وقد «أكثروا من التكبير والتهليل، وحاول البعض من أفراد الجيش الصليبي الحصول على الماء بالتسرب ليلاً إلى

(١) الكامل، ٥٠١/١١. النوادر، ٦٢. زبدة الحلب، ٧٢/٣. الروضتين، ٥٠/٢. مفرج الكروب، ١٤٨/٢ - ١٥٠.

(٢) على سبيل المثال يقول اسامة بن منقذ، أحد معاصري صلاح الدين، إن في الافرنج فضيلة الشجاعة والقتال (الاعتبار ص ١٣٢). وفي مكان آخر يقول: ما فيهم غيرة ولا نخوة، وفيهم الشجاعة العظيمة. (ن. م. ص ١٣٧) وانظر أيضاً

(الكامل، ٣٥٣-٣٥٤) والنوادر، ص ١٦٧، ٢٢٣، ٢٢٤) والروضتين، ١٨٦/٢.

(٣) الروضتين، ٢٨/٢.

(٤) محمد سعيد العريان، قصة الكفاح، ص ٣٧، فيليب حتي، تاريخ سورية، ص ٢٣٧.

(٥) الكامل، ٥٣٥/١١.

(٦) الروضتين، ٧٧/٢.

(٧) الكامل، ٣٥٣/١١.

الينابيع الموجودة بوادي الحمام حول قرية حطين، لكن المسلمين وقفوا لهم بالمرصاد، وقضوا عليهم قبل أن يصلوا إلى غرضهم<sup>(١)</sup>». بل إن المسلمين قاموا بعمل ذكي بارع، عجل في حسم الموقف، وهزيمة الصليبيين، حين أشعلوا النار في الأعشاب والأشواك التي كانت تكسو هضبة حطين. وقام بهذا العمل ثلة من المتطوعين المجاهدين بقيادة الأمير مظفر الدين كوكبري، فأضرموا النار في هشيم الحشائش المتبقية من حصاد الصيف، فتأججت في وجوههم بلهبها المحرق، وأزعجتهم كثيراً في ذلك اليوم الحار، كما أزعجت خيولهم واجتمع عليهم حر الجو وحر النار وكذلك الظم الشديد وألم الجراح وحر القتال<sup>(٢)</sup>.

لما رأى ريموند أولاً أمل في الحصول على الماء، حمل من ناحيته على المسلمين بقيادة تقي الدين عمر، فلم ير هذا القائد بدأ من إفساح المجال له كي يخرج هو ومن معه من دائرة حصار المسلمين، فخرجوا وهم يحسبون ذلك نصراً، ثم مالبت الدائرة أن التأمت بمهارة القائد الأيوبي المذكورة<sup>(٣)</sup>. ووجد ريموند بهذه الطريقة سبيله للخلاص، فأفلت من القتال وهرب إلى مدينة صور، ومنها إلى إمارته في طرابلس، حيث لقي حتفه كمدماً ومرضاً بعد مدة قصيرة، إذ شاع بين قومه أنه خان القضية الصليبية وتخلّى عنها في ذلك الظرف الحرج. ولحق به في عملية الفرار وليم بورل رئيس طائفة الاسبتارية، وباليان بن بيرزان صاحب يبنى<sup>(٤)</sup>، ورينولد أمير صيدا، وريموند الصغير ابن صاحب أنطاكية<sup>(٥)</sup>.

والواضح أن ما أصاب المحاربين الصليبيين من تعب قبل بدء الاشتباكات، كان سبباً في حدوث الخلل في صفوفهم، وهزيمة الامراء الذين فروا من ميدان القتال بصحبة ريموند، واستمر ذلك الخلل أثناء الاشتباكات، فما كان على الباقيين سوى الاندفاع إلى أعلى التل، فربما تكون فيه نجاتهم. والراجح أنهم قصدوا من ذلك ليس الفرار من القتال فحسب، إنما ليكونوا في مكان مناسب لهم، لتوجيه سهامهم نحو المسلمين كذلك. في حين ارتد إلى الخلف في فوضى واضطراب فرسانهم المثقلون بالأسلحة والاعتدة المعدنية. ثم تجمعوا قرب ملكهم وصلبهم المقدس. ويلاحظ أن انهيار المشاة الصليبيين يعتبر سبباً هاماً من أسباب ضعف الصليبيين لأنهم كانوا عاملاً هاماً في صمود الفرسان، فما اشتهر به الفرسان الصليبيون من شجاعة، كان بسبب مساعدة المشاة لهم<sup>(٦)</sup>.

(١) الكامل، ٥٣٥/١١. مفرج الكروب ١٩٠/٢.

(٢) الكامل، ٥٣٥/١١. مفرج الكروب، ١٩٠/٢. النوادر، ٧٧. مرآة الزمان ٣٩٣/٨. زبدة الخلب، ٩٤/٣. الروضتين، ٧٧/٢. البداية والنهاية، ٣٢١/١٢. الذهبي، مخطوط تاريخ الإسلام، ورقة ٨.

Stevenson, The Crusades, p. 247.

(٣) الكامل، ٥٣٥/١١. النوادر، ٧٧. الفتح القسي، ٧٩ الروضتين، ٧٧/٢. مفرج الكروب، ١٩٠/٢. ابن العبري، تاريخ الدول السرياني، مجلة المشرق، ج٤، ٥، ص ٤٤٤.

(٤) يبنى، بليد قرب الرملة، معجم البلدان، ٤٢٨/٥.

(٥) الروضتين، ٧٧/٢.

(٦) Lane - Pool, Saladin, pp 8210 - 2118

وعلى كل فإن الملك جي وجماعته رأوا أن لا خلاص لهم من الموت إلا بالقتال فاستبسوا فيه، وحملوا على المسلمين حملة المستميت<sup>(١)</sup>. لكن المسلمين ظلوا محيطين بهم إحاطة الدائرة بقطرها - حسب تعبير ابن الأثير -، ومليكمهم جي يستثيرهم، ويدعوهم إلى الهجوم، فيجيبونه بأنهم يضطرمون عطشاً، ولا يستطيعون الحرب مع هذه اللظى المستعرة في جوانحهم والشمس المتوهجة تعش لها أبصارهم، والرمال المحرقة تلتهب تحت أقدامهم<sup>(٢)</sup>. عندها أمرهم الملك بنصب خيامهم في مكان مرتفع، فأمر صلاح الدين بمتابعتهم<sup>(٣)</sup>. فاشتبكوا معهم، وأخذ المسلمون منهم صليبهم الأعظم الذي فيه قطعة الخشب التي صلب عليها السيد المسيح، وكان أخذ الصليب منهم من أعظم المصائب عليهم<sup>(٤)</sup>.

بقي مع الملك على التل حوالي مائة وخمسين فارساً، إلا أن القتال ظل مستمراً، وأخيراً زحف المسلمون نحو الخيمة الوحيدة التي استطاعوا إقامتها لملكهم. فاستولوا عليها. وقد لخص ابن الأثير اللحظات الأخيرة لما جرى في حطين، وروى الحادث على لسان ابن صلاح الدين البكر الملك الأفضل نورالدين علي الذي كان في صحبة والده، وسجل انطباعاته ومشاهداته، وحالة والده في تلك اللحظات الحرجة التي سبقت تسليم فلول الصليبيين الفارين إلى قمة حطين. فقد ذكر الأفضل: كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف، فلما سار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة، حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي. فنظرت إلى والدي، وقد علتة كآبة، واربد لونه، وأمسك بلحيته، ثم انطلق صائحاً: «كذب الشيطان». فعاد المسلمون على الفرنج، فرجعوا فصعدوا إلى التل، فلما رأيت الفرنج قد عادوا، والمسلمون يتبعونهم، صحت من فرحي: هزمناهم! فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى حتى ألحقوا المسلمين بوالدي، وفعل مثل ما فعل أولاً، وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل، فصحت أنا أيضاً: هزمناهم! فالتفت والدي إلى وقال: اسكت! مانهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة. وأثناء ذلك سقطت الخيمة، فترجل والدي وسجد شكراً لله تعالى وبكى من فرجه<sup>(٥)</sup>.

وكان سبب سقوط الخيمة هو التعب الذي عانوا منه، مضافاً إلى عطشهم الشديد، فلما لم يجدوا طريقاً للخلاص، نزلوا عن دوابهم، وجلسوا إلى الأرض، فصعد المسلمون إليهم، فألقوا خيمة الملك، وأسروهم عن بكرة أبيهم<sup>(٦)</sup>. والذي أسر الملك هو درياس الكردي، أما أرناط فقد أسره ابراهيم غلام

(١) الفتح القسي، ٧٩-١١/٥٣٥.

(٢) قدرى قلعي، صلاح الدين، ص ٣٢٠.

(٣) الكامل، ١١/٥٣٥. مفرج الكروب ٢/١٩١.

(٤) الكامل ١١/٥٣٦.

(٥) الكامل ١١/٥٣٦. مفرج الكروب ٢/١٩١.

(٦) الكامل ١١/٥٣٧. مفرج الكروب ٢/١٩٢.

الأمير المهراني الكردي<sup>(١)</sup>. ومن بين الأسرى مقدم الداوية والاسبتارية وصاحب جبيل وبيروت وصيدا، وأرسلوا جميعاً إلى دمشق، في حين قضى السلطان بيده على أرناط منفذاً بذلك نذره الذي قطعه على نفسه. وأطلق سراح الملك جي الذي عاهد صلاح الدين أن لا يرجع إلى محاربة المسلمين، لكنه سرعان ما نكث بعهده فيما بعد.

من هنا... من حطين بدأ عهد جديد للجيش الأيوبي، إذ باحرازه النصر على القوى الصليبية استطاع أن يحرر مجموعة كبيرة من القلاع والمدن المحتلة. وألحقت خسارة فادحة بالصليبيين، لأنهم كانوا قد انزلوا إلى ميدان حطين أفضل فرسانهم وأكثر محاربيهم، حتى صارت المدن والقلاع الصليبية شبه خالية من المدافعين، فما كان من صلاح الدين إلا أن يستغل هذه الفرصة انسجاماً مع الحديث الشريف الذي يحث على استغلال فرصة فتح باب الخير، بقوله صلى الله عليه وسلم: «من فتح له باب خير فلينتهزه، فإنه لا يعلم متى يغلق دونه»<sup>(٢)</sup>.

ولابد أن نقول ونحن ننهي كلامنا عن حطين أن نجاح صلاح الدين الباهر في هذه الموقعة لم يكن بسبب شجاعة جنده وبراعته الاستراتيجية التي اتبعها في مواجهة العدو، فحسب، بل كان بسبب أخطاء الصليبيين كذلك، وقصر نظرهم في عدم تقديرهم الأمور بعين ثاقبة، وانسياقهم خلف خطط صلاح الدين، ولاسيما في إستدراجهم حيث ماشاء وكان على صلاح الدين أن يضع في حسبانته لدى وضعه هذا الاستراتيجي، إمكانية استغلال أخطاء الصليبيين، فاستغلال أخطاء العدو يعد جزءاً من الاستراتيجية التي يضعها القادة العسكريون عادة.

توضع الصورة الموجودة مقابل ص ٤٤٧ من الكتاب الأصلي

(١) مرآة الزمان ٣٩٣/٨. الذهبي، مخطوط تاريخ الإسلام، ورقة ٨.

(٢) النوادر، ص ٨١.



الفصل السابع  
الأحداث العسكرية  
بين حصار عكا وحصار يافا

أولاً- عكا وحصارها الطويل:

١- حملة ريتشارد قلب الأسد

٢- سقوط عكا وأسبابه

ثانياً: بعد عكا:

١- المسير نحو عسقلان

٢- وقعة أرسوف وهزيمة جيش صلاح الدين

٣- خراب عسقلان

٤- تنظيم الدفاع عن القدس

٥- استعداد ريتشارد لفتح القدس

٦- حصار يافا الفاشل



## الأحداث العسكرية بين حصار عكا وحصار يافا

أولاً- عكا وحصارها الطويل:

لم يهناً صلاح الدين بفتح عكا أكثر من عامين، فسرعان ما استجمع الصليبيون صفوفهم وتوجهوا نحو هذه المدينة واندفعوا للاستيلاء عليها بسرعة، بعد اخفاق صلاح الدين في فتح صور. وقد تهاون صلاح الدين في الوقوف بوجه الصليبيين حينما لم يبادر بالزحف على عكا ليسبقهم في الوصول إليها، والحيلولة دون فرض الحصار عليها. بل إنه تمهل بضعة أيام، ثم توجه إليها عن طريق طبرية لاتساع هذا الطريق، وهو طريق بعيد ولاشك، فكان الصليبيون أسرع منه في التحرك.

وكان الصليبيون يقودهم الملك (جي لوسينيان) الذي استعاد معنوياته وبعض نفوذه إثر اطلاق صلاح الدين سراحه بعد أسره يوم حطين، والتف حوله طائفة من الفرسان والمتطوعين سار بهم نحو صور في البداية، إلا أن هذه المدينة نبذته بأمر من حاكمها المركزي كونراد دي مونتفرات، لخشيته بأن لوسينيان، بصفته ملك بيت المقدس، سيزيحه عن صور، فما كان من هذا إلا التوجه نحو عكا مع عدد من أنصاره، وانضم إليه البيزيون الذين كانوا في صور، فأصبحت لديه قوة قوامها نحو ألف مقاتل من الفرسان والمشاة.

وهنا بوسعنا أن نقسم تاريخ جهاد الجيش الإسلامي الصلاحي إلى مرحلتين تفصل بينهما بداية سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م. الأولى منهما مرحلة تنظيم الصفوف والانطلاق نحو تحرير الأراضي العربية في الهجوم على المدن والقلاع التي يحتلها الصليبيون.

والمرحلة الثانية مرحلة الدفاع لمقاومة الهجمة التي بدأ بها العدو بعد كبواتهم والهزائم المتلاحقة التي ألحقت بهم، وكذلك تحصين القلاع التي فتحها الجيش الأيوبي، وتخريب البعض منها لكي لا تتحول إلى مراكز حصينة يبدأون منها بالهجوم على الجهات الأخرى ولاسيما على الديار المصرية وبيت المقدس.

وقد اتضح هذا التقسيم منذ تلك السنة حين وصلت مجهودات الجيش الأيوبي الحربية إلى أعلى حدودها، في الوقت الذي بدأ الصليبيون يملكون صفوفهم، متزامناً ذلك مع بدء الحملة الصليبية الثالثة التي تعتبر من أخطر الحملات السابقة واللاحقة، ولا أدل على ذلك من مشاركة أعظم ملوك أوروبا يومئذ وهم فريدريك باربروسا (ذو اللحية الحمراء) ملك ألمانيا، وفيليب أغسطس ملك فرنسا ووليم الثاني ملك صقلية ثم ريتشارد ملك انكلترا الشهير بقلب الأسد<sup>(١)</sup>، في وقت صار جيش صلاح الدين لا يقوي - عكس السابق - على مغالبة بقايا الصليبيين، ولاسيما في صور بقيادة المركزي

(١) يعرف في المصادر العربية المعاصرة بملك الانكتار أو الانكتير، والمقصود (انكلترا) (ويذكر العماد اسمه بصيغة - ليجرت) الفتح، ٤٧٧.

كونراد دي مونتفرات، وكذلك في إمارة طرابلس التي ظلت محافظة على كيائها، باستثناء فتح مدينة جبيل التابعة لهذه الإمارة<sup>(١)</sup>.

أما أنطاكية فقد عقد صلاح الدين مع ملكها يوهيمند الثالث هدنة أمدها ثمانية أشهر، بعد أن انتزع منها أهم حصونها مثل: بكاس والشغر وسرمينية وبغراس، ودريساك، إلا أن مدة الهدنة انتهت وصارت أنطاكية في حل منها وبوسعها أن تنضم إلى صفوف بقية الصليبيين.

كل هذا دفع صلاح الدين إلى أن يتحول في خطته من الهجوم إلى الدفاع، لتفادي حدوث خسائر كبيرة. إلا أن هذا القائد لم يكن بمقدوره أن يتفرغ للدفاع عن عكا وحدها، إذ اضطر أن يوزع جيشه على أنحاء البلاد. فإضافة إلى قواته المرسله إلى هذه المدينة، فإن قسماً منه كان مع ابنه الملك الأفضل نورالدين علي يربط عند حمص لمراقبة ما قد ينجم من أعمال عدائية واستعداداً للقتال من جانب إمارة طرابلس، وقسم آخر من الجيش يراقب صور خشية قيام المركز كونراد بعمل معاد ضد المسلمين، وثالث يربط في ثغور مصر ولاسيما عند دمياط والاسكندرية لحماية سواحل مصر من انزال بحري صليبي محتمل، وقسم رابع مقابل أنطاكية ليردوا عادية يوهيمند عن أعمال حلب وغيرها، غداة انتهاء الهدنة المذكورة معها<sup>(٢)</sup>.

ويفهم من تحول صلاح الدين إلى اتباع أسلوب الدفاع أن الصليبيين قد ضموا صفوفهم وصاروا أقرباء، وأن الامدادات التي تلقاها جيش صلاح الدين من الامارات التابعة مثل الموصل وديار بكر وسنجار وغيرها، وقدوم تقي الدين عمر ومظفر الدين كوكبري، وهما أبرز قواد معركة حطين، هذه الامدادات كانت غير كافية، وهي أقل عدداً واندفاعاً من قوات العدو الصليبي، كما يبدو.

لقد أحكمت القوات الصليبية، بوصولها إلى عكا، السيطرة على المناطق المحيطة بها «فنزلوا عليها من البحر إلى البحر، ولم يبق للمسلمين إليها طريق»<sup>(٣)</sup>. أو على حد تعبير ابن شداد «استداروا بعكا بحيث منعوا من الدخول والخروج منها»<sup>(٤)</sup>.

ولكن بدلاً من أن يقيم الصليبيون معسكرهم تحت أسوار المدينة، تقدموا إلى التلال القريبة منها فنصبوا خيام معسكراتهم، وذهب قسم منهم لحفر خندق حول المعسكرات، ثم حولوا الماء إلى الخندق حتى امتلأ، وهكذا أصبح معسكرهم محاطاً بالخندق من جهة، وأسوار المدينة من جهة أخرى، وصار اتصالهم مع خارج المعسكر عن طريق البحر فقط<sup>(٥)</sup>. ثم شرعوا في إقامة سدّ ترابي وراء الخندق. وكتب لهذه البقعة أن تشهد قتالاً أشد هولاً من معركة واترلو<sup>(٦)</sup>. وصار على جيش صلاح الدين أن

(١) الروضتين، ١٣٧/٢.

(٢) الكامل، ٣٦/١٢. الروضتين، ١٣٦/٢. شفاء القلوب، ١٦١. Stevenson, the Crusades, pp. 260 - 261.

(٣) الكامل، ٣٤/١٢. الروضتين، ١٤٧/٢. البداية والنهاية، ٣٣٣/١٢. ابن الوردي، ٤٤/٢. السلوك، ١٠٢/١.

(٤) النوادر، ص ١٠٥.

(٥) الكامل، ٣٤/١٢. النوادر، ١٠٥. الروضتين، ١٤٢/٢.

يحيط بالصليبيين المحيطين بعكا، خلف الخندق، فكان هناك حصار على حصار، إذ لم يكن بوسع صلاح الدين أن يفعل غير هذا فربط على تل كيسان الواقع إلى الشرق من عكا وعلى مروجها<sup>(٢)</sup>، وامتدت ميمنة الجيش إلى تل العياضية ومسيرته إلى النهر الجاري، في حين انزلت الأتقال في صفورية الواقعة بين عكا وطبرية. أما الامدادات من العتاد والرجال والغذاء فكانت تصل إلى صلاح الدين بسهولة عن طريق البر المفتوح، لكنها كانت تصل بصعوبة شديدة إلى المدينة المحاصرة. أما بالنسبة إلى الصليبيين فكانت تصلهم - كما ذكرنا - عبر البحر.

لقد كان البحر في الحق مساعد الصليبيين الأكبر، ذلك أنه كان يجلب لهم المواد الحربية والذخيرة والمؤن والنجادات من أوطانهم. ولما نزل الجيش الإسلامي عليهم في رجب ٥٨٥هـ/ آب ١١٨٩م، لم يقدر على الوصول إليهم، ولا إلى عكا، حتى انسحب شهر رجب، ثم قاتلهم مستهمل شعبان، فلم ينل منهم ما يريد، ويات الناس على تعبئة، ثم باكرهم القتال بحده وحديده، واستدار عليهم من سائر جهاتهم إلى الظهر، وصبر الفريقان صبراً حاراً له من رآه على حد تعبير ابن الأثير<sup>(٣)</sup>.

فلما كان وقت الظهر حمل عليهم تقي الدين عمر حملة منكراً، وكان يقود ميمنة الجيش، ولجأ إلى استدراج الداوية، وأرسل صلاح الدين جزءاً من قلب عسكره لمساعدة الميمنة، فضعف القلب ومع ذلك استطاعت الميسرة التي كان يقودها صلاح الدين بنفسه، من القضاء على هجوم العدو الذي استغل بقاء الميسرة لوحدها في جيش المسلمين، وكذلك استطاع تقي الدين من إزاحتهم من أماكنهم حيث كانوا ملتصقين بالسور، وأحل قواته مكانهم واستطاع إدخال قواته إلى البلد، ولاسيما من المحاربين، وعلى رأسهم «الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين، وهو من أكابر أمراء عسكره، من الأكراد الحكيمة من بلد اربيل»<sup>(٤)</sup> وكذلك أدخل الذخائر والأموال والسلاح، ولو واصل المسلمون زحفهم لحققوا النصر «فإن للصدمة الأولى روعة» إلا أنهم استهانوا بالعدو، مكتفين بما أحرزوه، فأخذوا إلى الراحة، وتركوا القتال وقالوا: «نباكرهم غداً، ونقطع دابرهم»<sup>(٥)</sup>.

لقد تكررت المصادمات بين الطرفين حتى كادت تتحول إلى عمل يومي، ولا نريد سرد هذه الأحداث، ولكن ما يهمنا هو ذكر الوقائع التي تخص أمور الجيش في خططه، والآلات التي استعملها الفريقان، وعدد قتلاهما، وقد تحدثنا عن بعض هذه الأمور في الفصول الخاصة بها، وستحدث عن الأمور البارزة في هذا الحصار الطويل الذي يعد من أعظم وقائع الحروب الصليبية، ومن أبرز الأعمال الحربية في العصور الوسطى<sup>(١)</sup>، وقد دام نحو سنتين (٦٨٥ يوماً) من ٢٧ آب ١١٨٩م إلى ١٥ تموز

(١) هارولد لامب، شعلة الإسلام، ١٥٥.

(٢) معجم البلدان، ٤٣/٢، النوادر، ١٠٤.

(٣) الكامل، ٣٥/١٢.

(٤) ن. م. ص. ن. ابن الوردي، ١٤٥/٢.

(٥) ن. م. ص. وانظر النوادر، ١٠٦-١٠٧. الروضتين، ١٤٣/٢.

١١٩١ م (١٧ جمادى الآخرة ٥٨٧هـ)، تقابلت فيه كافة ما لدى الطرفين من عبقريات عسكرية، واشترك أعظم قادة وأمراء الحروب الصليبية، واستعملت أساليب جديدة في القتال، وبلغت أنظمة البريد والجناسوسية مستوى جديداً، ووقع خلاله الآلاف من القتلى والجرحى بينهم قادة بارزون، وعدد آخر ماتوا بسبب المجاعة وفساد الجو والماء والمرض، وقد تمرض أثناءه صلاح الدين نفسه<sup>(٢)</sup>، وكذلك تمرض ريتشارد، وقتل ومات من قادة صلاح الدين الكثيرون مثل ظهير الدين أخي الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري والي بيت المقدس<sup>(٣)</sup>، والأمير مجلي ابن مروان والحاجب خليل الهكاري<sup>(٤)</sup>، والشيخ جمال الدين أبي علي بن راحة والأمير نصير الحميدي<sup>(٥)</sup>، ويعقوب الحلبي مقدم الأسطول المصري<sup>(٦)</sup>. ومات مرضاً الأمير حسام الدين طمان، صاحب الرقة<sup>(٧)</sup>، وزين الدين يوسف صاحب أربيل<sup>(٨)</sup>، والفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري بمنزل الخروبة<sup>(٩)</sup>، وحسام الدين سنقر الخلاطي والأمير عز الدين موسك ابن جكو ابن خال صلاح الدين<sup>(١٠)</sup>.

وشملت الجيوش الإسلامية التي اشتركت في هذه العملية العسكرية الفرق القادمة من مصر بالدرجة الأولى، ولاسيما في الوقائع البحرية، سواء في قتال أساطيل الصليبيين المرابطة في البحر المتوسط، أو في تزود عكا بالمؤن والمقاتلين ولاسيما حين تأزمت أوضاع عكا، فقد انقذ العسكر المصري عكا مراراً، وزودها بالسلاح اللازم، وسد النقص الحاصل فيها إلى الرجال<sup>(١١)</sup>.

وكذلك اشتركت في الحصار جيوش مدن الشام التي كان عليها العبء الأكبر في معارك صلاح الدين البرية، ولاسيما جيوش مدن دمشق وحلب وحماه، إضافة إلى مدن الجزيرة كديار بكر وحران وجزيرة ابن عمر وسنجار وحران وكذلك أربيل، وجيش أتابكية الموصل الضخم التي زودت صلاح الدين اعتباراً من سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م بالرجال والعتاد والنفط الأبيض<sup>(١٢)</sup>. واشترك فيه متطوعون من مختلف جهات العالم الإسلامي، من العراق والمغرب ومن بلاد العجم<sup>(١٣)</sup>.

ولعل أبرز حوادث الحصار الدامية ما حصل في صيف عام ٥٨٥هـ/أيلول ١١٨٩م، ففي ٢ من

(١) فيليب حتي، تاريخ العرب، ص ٧٤٠. تاريخ سورية، ٢٣٩.

(٢) الكامل، ٣٩/١٢ - ٤٠.

(٣) النوادر، ١١٣.

(٤) الكامل، ٣٧/١٢.

(٥) الفتح القيسي، ٢٦٤.

(٦) النوادر، ١٦١. الفتح القيسي، ٤٨٦. الروضتين، ١٨٤/٢. مفرج الكروب، ٣٥١/٢.

(٧) الفتح القيسي، ص ٣٠٥. مفرج الكروب، ٢٩٤/٢. السلوك، ١٠٣/١.

(٨) الفتح القيسي، ٤٣٨. الروضتين، ١٦٤/٢.

(٩) النوادر، ١١٦. الفتح القيسي، ٢٣٦. الروضتين، ١٥٠/٢. السلوك، ١٠٣/١.

(١٠) الروضتين، ١٤٩/٢. السلوك، ١٠٣/١.

(١١) الفتح القيسي، ٣٤٠ و ٤٩٥. الروضتين، ١٤٨/٢ و ١٨٦/٢. الكامل ٤١/١٢.

(١٢) ن. م، ٣٥٠. الروضتين، ١٤٨/٢. مفرج الكروب، ٣٠٧/٢.

(١٣) الكامل، ٢٩/١٢.

شعبان أنفذ صلاح الدين طائفة من شجعان المسلمين باتجاه شمالي عكا، في محاولة لفتح الطريق إلى المدينة، ووقعت بين الطرفين معركة سيطر فيها المسلمون على الموقف واستطاعوا قتل بعض أفراد الصليبيين، وانكفأ السالمون منهم إلى خيامهم، وهجم المسلمون خلفهم، واستطاع اليزك الإسلامي منعهم من الخروج من المعسكر، فأخلى الطريق واستطاع الجيش الإسلامي إيصال المؤن والأعتدة إلى عكا، ودخل السلطان إلى المدينة، وارتقى سورها وأشرف على معسكر العدو، ليستأكد من حجم قواته<sup>(١)</sup>. وكان القاضي المؤرخ ابن شداد ضمن من دخلوا، وركي السور مع السلطان، وقد استمر فتح الطريق أسبوعاً<sup>(٢)</sup>.

ومن المحتمل أن يقوم صلاح الدين بإعطاء توجيهاته إلى المدافعين عن عكا، ومحاولة التنسيق بين القوتين الإسلاميتين داخل وخارج عكا للوقوف بوجه العدو. إلا أن صلاح الدين لم يستغل هذه الفرصة التي سنحت لجيشه لكي يطوق العدو، بل اجتمع أمراؤه وانشغلوا بتبادل الآراء والاستهانة بأمر العدو، وفريق يرى أن «نصيحهم بالزحف، ونزورهم بالحتف» وفريق يرى أن الأفضل أن تدخل كل القوات الإسلامية إلى البلد، ثم يبدأون بالهجوم على العدو داخل البلد، وفريق ثالث يرى ترك أمر العدو، وأنهم سوف يضجرون ويتركون الحصار... «وإذا ظهرنا عليهم» في حين أبدى فريق آخر خوفه من العدو، وشك في قدرة المسلمين على منازلتهم، وأن من الضروري الانتظار ريثما تأتي قوات جديدة من مصر ومن الأطراف، فالعدو «في عدد النمل، وكثرة الرمل وظلام الليل»<sup>(٣)</sup>. أما رأي السلطان فكان «توسيع الدائرة عليهم» وابعادهم عن عكا مسافة أكبر، وأمر بنقل الثقل من صفورية إلى تل العياضية قبالة عكا<sup>(٤)</sup>، ليشرف على هذه المدينة وعلى معسكر العدو<sup>(٥)</sup>. وحدث أكثر من مرة أن انتقل السلطان بين هذه التلال القريبة من عكا، ليشرف على قوات الصليبيين، إضافة إلى أنه كان ينتقل بين موضع وآخر حين يتلوث الجو، وتنتشر الروائح الكريهة، وتؤدي إلى حدوث الأوبئة، التي سببت التيباً في مزاج السلطان<sup>(٦)</sup> وقد تعرض صلاح الدين للانتقاد لتغيير مواضعه<sup>(٧)</sup>، لأنه بانتقاله إلى الخروبة، أو غيرها من المواضع، جعل الصليبيين يشعرون بالاطمئنان، وتهدأ نفوسهم. مر أسبوعان على فتح الطريق نحو عكا، تهيأ خلالها الصليبيون للرد على المسلمين، لأخذ المبادرة منهم لكي لا يستمروا في اتخاذ القرار حسب مشيئتهم. ففي ٢١ شعبان قامت جماعات منهم بحركة «لم يكن لهم مثلها عادة» على قول ابن شداد إذ انتظموا في صفوف وأجنحة منتظمة، واشترك

(١) النوادر، ١٠٦. الفتح القسي، ٣٠٠. الروضتين، ١٤٤/٢. مفرج الكروب، ٢٩٣/٢.

(٢) النوادر، ١٠٨.

(٣) الفتح القسي، ٣٠١-٣٠٢.

(٤) وهو تل يقع تل المصلبين (تل المصلبة في بعض المصادر). الفتح القسي ٣٠٥.

(٥) النوادر، ١٠٨. الفتح القسي ٣٠٥. مفرج الكروب، ٢٩٤/٢.

(٦) الفتح القسي، ٣٢٥. ابن الوردي، ١٤٥/٢. البداية والنهاية، ٣٣٣/١٢.

(٧) مفرج الكروب، ٣٠٣/٢. البداية والنهاية، ن. ص. الدواداري، ١٠٢/٧. شفاء القلوب، ١٦٢.

ملكهم في الحملة، وسار في قلب العسكر وبين يديه الانجيل محمولاً، مغطى بقطعة ثوب أطلس، يسك أربعة أشخاص أطرافه الأربعة، وهم يسبرون بين يدي الملك. واستعد الجيش الصلاحي للرد على الحركة، وانتظم في صفوف مقابلة لصفوف العدو، فالميمنة مقابل ميسرتهم، والميسرة مقابل ميمنتهم كالعادة، وكان العسكر الصليبي من الضخامة بحيث وصل طرفه إلى النهر الواقع جنوبي عكا، والطرف الآخر إلى البحر شمالي المدينة، وقد ملكوا الرؤوس والتلال المحيطة بها.

تحمس صلاح الدين، فأمر الجاوش (مناذي العسكر) أن ينادي في الجيش الهتاف الخاص بطلب الاستعداد التام وهو «يا للإسلام وعساكر الموحدين» نظراً لخطورة الموقف. وقد أطلق المؤرخون على هذه المعركة اسم «المصاف الأعظم»<sup>(١)</sup> أو «الوقعة الكبرى»<sup>(٢)</sup>.

ولعل العدو أعلن الحرب في هذا الظرف بعد أن أدرك حرجة موقف صلاح الدين لغياب عسكر مصر عن الميدان وانتهاء أمد الهدنة مع أنطاكية، فخرجوا «من معسكرهم كأنهم الجراد المنتشر»<sup>(٣)</sup> قاصدين الميمنة وعليها تقي الدين عمر كالعادة، فلما رأى صلاح الدين الحال، وكان في القلب أمد تقي الدين برجال من عنده ليتقوى بهم، وكان عسكر ديار بكر وبعض الشرقيين في هذا الجناح الذي ضعف بسبب انتقال قسم من رجاله إلى الميمنة، فهجم عليه الصليبيون، وقتلوا بعض رجاله وقادته، منهم الأمير مجلي بن مروان وظهير الدين أخو الفقيه عيسى، والحاجب خليل الهكاري وغيرهم من الشجعان، وهزم الكثيرون منهم، حتى لم يبق في القلب من يقف بوجههم سوى «عسكر سنجار، فكله محرب مجرب للامور»<sup>(٤)</sup>، ورأى الصليبيون أن الفرصة مؤاتية للهجوم على خيمة صلاح الدين المنصوبة على التل، وفي طريقهم إلى الخيمة قتلوا من مروا به، وبدأوا بأعمال السلب والنهب، وكان ضمن من قتلوه الشيخ جمال الدين أبو علي بن رواحه الحموي، إلا أنهم لم يعثروا على خيمة صلاح الدين، فعادوا القهقري خشية انقطاع خط التموين عنهم. فسرعان ما تجمع المسلمون في الميسرة ووقفوا قبالة العدو، وحملوا عليهم، وكذلك فعل قلب الجيش الإسلامي بقيادة صلاح الدين نفسه، فتناوشتهم الأيدي بالضرب والطعن «واخذتهم سيوف الله من كل جانب، فلم يفلت منهم أحد»<sup>(٥)</sup> بين قتيل وأسير، وضمن من تم أسرهم مقدم الداوية الذي كان قد أسره صلاح الدين سابقاً ثم أطلق سراحه، فلما ظفر به الآن قتله، وقد قدر عدد قتلى الصليبيين بالآلاف، رغم ما في الأرقام من مبالغة محتملة، فقد قدره ابن شداد بحوالي سبعة آلاف قتيل<sup>(٦)</sup>. وتولى أحد المسلمين عددهم، فكان «قتلى الميسرة أربعة آلاف ومائة وكسر، وبقي قتلى الميمنة وقتلى القلب فلم يعددهم، فقد تولى أمر عددهم

(١) النوادر، ١٠٩. الروضتين، ١٤٤/٢.

(٢) الفتح القسي، ٣٠٨. الكامل، ٣٦/١٢. مفرج الكروب، ٢٩٤/٢.

(٣) الكامل، ٣٦/١٢.

(٤) الفتح القسي، ٣١٥-٣١٦.

(٥) الكامل، ٣٨/١٢. وانظر الفتح القسي، ٣١١. الروضتين، ١٤٥/٢.

(٦) النوادر، ١١٣. الروضتين، ١٤٥/٢. مفرج الكروب ٢٩٩/٢.

غيره<sup>(١)</sup>». في حين قدر ابن الأثير عددهم «بنحو عشرة آلاف قتيل»<sup>(٢)</sup> والعماد بخمسة آلاف<sup>(٣)</sup>. فأمر صلاح الدين بإلقاء هذا العدد الضخم من الجثث في البحر «في المكان الذي يشرب الفرنج منه»<sup>(٤)</sup>. وكان ضمن الأسرى الصليبيين ثلاث نسوة فرنجيات كن يقاتلن على الخيل، فلما أسرن، وألقى عنهن السلاح عرفن أنهن نساء<sup>(٥)</sup>.

إن هذا المصاف أثبت تماماً أن ثمة توازناً - إلى حد ما - بين الجانبين، إذ لم يستطع الصليبيون من اقتحام المدينة، واستطاع محاربو عكا الصمود بوجه المحاربين وكذلك لم يستطع صلاح الدين إزاحتهم فتشبت كل طرف بموقعه في انتظار ما سيحدث. ويبدو لنا أن الصليبيين كانوا واثقين من النصر، فلم يخشوا أن يطوقوا من قبل قوات صلاح الدين رغم ما اتخذوه من احتياطات تحول دون اقتراب هذه القوات منهم بسهولة<sup>(٦)</sup>. ولعل ما جعلهم يصمدون طوال هذه الفترة هو أن خط تموينهم ظل مفتوحاً، ولاسيما وأن البحرية الصليبية كانت متفوقة على البحرية الأيوبية، «فالبحر يدهم والبر لا يصددهم، فبلاء البلاد بهم دائم»<sup>(٧)</sup>. فدويلات المدن الإيطالية (بيزا والبندقية وجنوا) لاتني ترسل البضائع الضرورية إليهم. ومن ناحية أخرى كان الصليبيون المطوقون لعكا يتربصون وصول إمدادات جديدة إليهم من أوروبا الغربية.

أما صلاح الدين فإنه لم يقدر أن يخوض غمار معركة حاسمة، نظراً لاختلاف مواقف أمراء جيشه حول كيفية مواجهة العدو، حين طرحوا آراء متباينة تجاه ذلك، كما بينا، ولعل الرأي الذي صارت له الغلبة في مجلس الحرب الاستشاري هو تحصين عكا، وإبصال المؤون والأعتدة إليها بصورة مستمرة عن طريق فتح طريق بري إليها، كما رأينا، أو عن طريق البحر بواسطة أسطول مصر، أو من بيروت مباشرة، وكذلك إرسال البدائل من المحاربين إلى داخل البلد بين آونة وأخرى، ليحلوا محل من عجز عن القتال أو ضجر من «طول المقام بها، ومعاناة التعب والسهر»<sup>(٨)</sup>.

وكأن المجلس أراد تطبيق ما فعله صليبيو صور حين حاصره صلاح الدين، وصمدوا بوجهه حتى ضجر المحاصرون، وأدى هذا الصمود إلى بقاء صور بيدهم، وانسحاب المسلمين منها. إلا أن محاصري عكا كانوا أكثر صبراً وتحملاً للمشاق، كما يبدو، إضافة إلى أن موقع صور، وضيق بقعة الأرض جعلها من فتحها أمراً صعباً للغاية، في حين أن محاصري عكا كانوا في موضع يتيسر فيه

(١) النوادر، ١١٣.

(٢) الكامل، ٣٨/١٢.

(٣) الفتح القسي، ٣١٤. الروضتين، ١٤٧/٢.

(٤) الكامل، ٣٨/١٢. الفتح القسي، ٣٢٠. الروضتين، ١٤٧/٢. مفرج الكروب، ٣٠٢/٢.

(٥) الكامل، ٣٨/١٢.

(٦) الكامل، ٣٤/١٢. الروضتين، ١٤٧/٢. البداية والنهاية، ٣٣٣/١٢. السلوك، ١٠٢/١.

(٧) الفتح القسي، ٣١٦.

(٨) النوادر، ١٥٢-١٥٣. عن إرسال البدائل انظر أيضاً: الفتح القسي، ٤٥٨. الكامل، ٥٥/١٢. الروضتين، ١٨١/٢.

ابن خلدون، ٧٠٥/٥، شفاء القلوب، ١٦٩.

الحصار، ويتمتعون بحرية الحركة وسهولة التموين فكانوا «رابضين وعلى يد الصبر قابضين، ويتعذر الوصول إليهم والدخول عليهم»<sup>(١)</sup>.

ويلاحظ أن هذا الموقف «الحصار المزدوج» استمر أمداً طويلاً حتى بعد وصول امدادات الحملة الصليبية الثالثة، إلا أن كفة الصليبيين باتت راجحة بوضوح.

والواقع أن طول فترة حصار عكا، وما أصاب الصليبيين من فشل مع الحملة الألمانية الضخمة<sup>(٢)</sup> بعد غرق الامبراطور فريدريك قرب مدينة طرسوس الساحلية في آسيا الصغرى<sup>(٣)</sup>، وتشتيت الحملة وموت ابن الامبراطور في نهاية عام ٥٨٦هـ / مطلع عام ١١٩١<sup>(٤)</sup>، إن هذين السببين جعلتا الحاجة إلى وصول قوات جديدة بقيادة ملكي فرنسا وانكلترا، ضرورة أكثر من أي وقت مضى، ليسهما في النزاع المرير الحاسم الناشب على الساحل الشمالي لفلسطين<sup>(٥)</sup>.

والظاهر أن شتاء هذا العام (٥٨٦هـ-٥٨٧هـ / ١١٩٠م-١١٩١م) كان ثقيلاً على الصليبيين، ليس بسبب نتائج الحملة الألمانية السيئة فقط، بل لتفشي المجاعة في معسكرهم أيضاً، ولم تعد المؤونة تصل إليهم عن طريق البر، وكذلك لم تهبط طوال أيام هذا الفصل على ساحل عكا الذي يشرفون عليه، إلا مقادير ضئيلة من المواد الغذائية لم تكف حاجتهم، فهلك بعض المحاربين، وكذلك هلك بعض سادتهم<sup>(٦)</sup>. إضافة إلى موت البعض منهم بسبب مrapبتهم الطويلة في بقعة ضيقة، في حين كان المعسكر الصلاحي يتمتع بحرية أوفر في الانتقال بين تل وآخر. يقول العماد عن وضع العدو المزري إنه «غلت الأسعار عند الفرنج واستعرت الغلغل، وعرثهم العلل. وبأؤوا بالوباء، وبلوا من البلاء وغلوا من الغلاء، وتضوروا من الضراء... وعمت المجاعة... وزاد جوعهم، وزال هجومهم... وأملحت ربوعهم، وبعثهم الرهب على الهرب، والقحط على الشحط (الاضطراب)<sup>(٧)</sup>» حتى بلغت غرارة الحنطة أكثر من مائة دينار صوري، والبيضة الواحدة بستة دنانير، وأمعاء الحصان بعشرة<sup>(٨)</sup>.

وطلب البعض منهم الأمان، ودخلوا الإسلام<sup>(٩)</sup>، وجرى ذبح كثير من الجياد حتى يتزود أربابها بالطعام، وتناولوا الحشائش، ومضغوا العظام العارية من اللحم. وحاول كبار رجال الكنيسة أن ينظموا

(١) الروضتين، ١٤٨/٢.

(٢) قدر المؤرخون عدد محاربي الحملة الألمانية بين مائتي ألف مقاتل. (النوادر، ١١٥ و١٣٧. الروضتين، ١٥٠/٢-١٥١. مفرج الكروب، ٣١٧/٢) وثلاثمائة ألف (الفتح القسي، ٣٣٠) وستمائة ألف (شفاء القلوب، ١٦٣).

(٣) الفتح القسي، ٣٩١. النوادر، ١٢٣-١٢٤. الكامل، ٤٩/١٢. زبدة الحلب، ١١٤/٣. ابن الوردي، ١٤٦/٢. وانظر تفاصيل ذلك في (رنسيما، ٣٩/٣-٩٤٠).

(٤) النوادر، ١٥٤. الروضتين، ١٨١/٢.

(٥) رنسيما، ٤٣/٣.

(٦) رنسيما، ٦٨/٣. هارولد لامب، شعلة الإسلام، ١٩٥.

(٧) الفتح القسي، ص ٤٣٩.

(٨) د. سعادوي. التاريخ الحربي، ص ٢٤٦.

(٩) الفتح القسي، ٤٣٩-٤٤٠. وانظر الكامل، ٥٤/١٢. الروضتين، ١٨١/٢، البداية والنهاية، ٣٤١/١٢. هارولد لامب، شعلة الإسلام، ص ١٩٦.

نوعاً من المعونة لتقديمها الى المحتاجين، غير أن جشع التجار البيازنة الإيطاليين الذين سيطروا على معظم المؤن الغذائية حال دون إتمام مشروع الكنيسة (١).

غير أن صلاح الدين لم يقدر أن يستغل هذا الوضع، إذ أن عدداً كبيراً من عساكره حل بهم الارهاق والتعب، فصرف بعض قواته لينالوا قسماً من الراحة على أن يعودوا بعد انقضاء الشتاء، وتحول بعض أمراء صلاح الدين إلى تجار استغلوا فرصة المجاعة النازلة بالصليبيين، فحملوا الطعام والغلل من المناطق الإسلامية لبيعها بأثمان باهظة، ومن هؤلاء الأمراء عزالدين اسامة مستحفظ بيروت، وسيف الدين علي بن أحمد المشطوب. فكانوا يحملون الغذاء من بيروت وصيدا وعسقلان وغيرها (٢). ولولا أطماع هؤلاء الأمراء المسلمين لزادت متاعب الصليبيين. وما لبث بعد أشهر أن وصلت السفن الصليبية المليئة بالقمح، وأنزلت حمولتها إلى البر ولاسيما بعد أن هدأت العواصف بانقضاء الشتاء، ولقيت هذه السفن حفاوة بالغة لأنها لم تجلب الميرة فحسب، بل حملت أيضاً أنباء تؤكد بأن ملكي فرنسا وانكلترا أصبحا آخر الأمر في المياه الشرقية.

أما صلاح الدين فإنه ما فتى يطلب النجدة من القوى الإسلامية الأخرى التي لم تشترك في الحروب المعلنة ضد المحتلين، لمساعدته في التغلب على العدو المشترك الذي جاء ليحتل أراضي إسلامية صار تحريرها ليس من مسؤولية حكام وجيوش هذه البلاد وحدها، إنما هي مسؤولية مشتركة لكافة القوى الإسلامية القريبة منها أو البعيدة، ولاسيما وأن أحد الأطراف الصليبية - وهو الأمير أرناط - مد بصره - في وقت سابق - لاحتلال الحرمين الشريفين، وحاول أن يعرقل وصول المسلمين إليها لأداء فريضة الحج، واستطاع صلاح الدين من ردع هذا الصليبي، وكذلك فإن العدو ما يرنو إلى إحتلال بيت المقدس بل إن أوروبا الغربية نظمت الحملة الصليبية الجديدة في أعقاب استعادة المسلمين لبيت المقدس، فكان الغرض الأساس للحملة هو إعادة احتلالهم لهذه المدينة المقدسة. على هذا الأساس طلب صلاح الدين من الحكام المسلمين كافة أن يعوا مسؤولياتهم، ويقدروا خطورة الموقف فاتصل بالخليفة العباسي الناصر لدين الله، ويملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن.

والحقيقة أن صلاح الدين كان على اتصال دائم بالخليفة، يدل على ذلك كثرة الخطابات التي كان يبعثها إلى بغداد، بإنشاء القاضي الفاضل والعماد الكاتب، وكذلك تبادل البعث بين الطرفين. فكان صلاح الدين يعتبر نفسه من أتباع الخليفة (٣). وقد تجاوب الخليفة المستضيء مع صلاح الدين، وأنعم عليه بالسلطنة على مصر والشام، وأرسل له التشرifications السنوية والتحف والتقليد (٤) واستمرت العلاقات الطيبة بين الطرفين إلى وفاة هذا الخليفة (١).

(١) رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية. ج٣، ص٧٠.

(٢) الكامل، ٥٥/١٢. ابن خلدون، ٧٠٤/٥.

(٣) مضمّن الحقائق، ص٦٤.

(٤) سنا البرق الشامي، ١٩٢/١. الكامل، ٤٢٢/١١. السلوك، ٦٠/١.

صلاح الدين والخليفة الجديد الناصر لدين الله. ولا نبغي التحدث عن تفاصيل العلاقات بين الطرفين، فلسنا بصدد هذا الموضوع، ولكننا نقول إن دولة الخليفة كان بإمكانها أن تضطلع بدور ما للتخفيف عما نزل على مسلمي الشام وخاصة في فلسطين، وأن ترسل بعض المعنويات الفعلية إلى ميدان الجهاد.

ونلاحظ آثار هذه العلاقات السلبية أثناء حصار عكا، ففي خريف ٥٨٥هـ/١١٨٩م طلب صلاح الدين مساعدات من الخليفة، فأرسل مستشاره القاضي بهاء الدين ابن شداد المؤرخ إلى بغداد. غير أنه لم يأخذ المسألة بعين الجد، ويرتفع إلى مستوى الحدث، واكتفى بإرسال حملين من النفط وخمسة من زراقي النفط وكذلك أرسل (ورقة) موقعة منه تتضمن الاذن لصلاح الدين باقتراض مبلغ عشرين ألف دينار من تجار الشام ينفقه في الجهاد على حساب الخليفة<sup>(٢)</sup>. وما كان على السلطان غير قبول إرساليات الخليفة «واستعفى عن الرقعة والتثقيب بها»<sup>(٣)</sup>. وقال لرسول الخليفة: «كل ما معي، من نعمة أمير المؤمنين، ولقد أنعشني ما شملني من عاطفته. ولعل الله يوفقني للقيام بالغرض ويغنيني عن الالتزام بالقرض»<sup>(٤)</sup>. وهذه الإرسالية هي كل ما حصل عليه صلاح الدين من مساعدات من الخلفية مما جعل القاضي يطلق ملاحظات مريرة بهذا الصدد فيقول: «كتاب بغداد كتاب بارد غث جامد، ما فيه مقصود لقاصد، ولا صلة ولا عائد، ونحن نطلب الذهب الحار فيضرب في حديد بارد»<sup>(٥)</sup>.

وكذلك اتصل صلاح الدين بملك المغرب الوارد ذكره، وبعث إليه عدة خطابات منذ أن أشتد الحصار على عكا، والملاحظ أن المؤرخين المعاصرين (كالعماد وابن شداد وابن الأثير وغيرهم) لم يتطرقوا إلى موضوع هذه المراسلات في حين ذكرها كل من (أبي شامة والذهبي والقلقشندي)<sup>(٦)</sup>، وقد استطاع أبو شامة الحصول على الخطاب من بعض الشيوخ الثقات وهو بخط القاضي الفاضل مستشار صلاح الدين، والذي يأمر فيه شمس الدين بن نجم الدين بن مرشد الكنانني<sup>(١)</sup> بالسفر إلى المغرب بأمر صلاح الدين

(١) للمزيد، انظر كتاب دريد عبدالقادر نوري (سياسة صلاح الدين) ص ٣٩٢-٣٩٦ وكتاب د. القزاز، الحياة في العراق في العصر العباسي الاخير ٥١٢-٦٥٦هـ. مطبعة القضاء، النجف ١٩٧١، ص ٢٦٥-٢٦٨.

(٢) النوادر، ١١٩. الفتح القسي، ٣٦٥. الروضتين، ١٥٢/٢.

(٣) ن. م. ن. ص.

(٤) الفتح القسي، ٣٦٥.

(٥) الروضتين، ١٧٦/٢. يقول د. القزاز «كان موقف الخليفة من الحروب الصليبية يدعو للثأر... لأنه لم يقدر خطورة الصليبيين على البلاد، ولم يعمل على توحيد كلمة المسلمين في المنطقة ليسند القوة الأيوبية التي كانت تتصدى لهم». انظر كتابه (الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير، ٥١٢-٦٥٦هـ. ص ١٠٠). انظر بحثنا: رسائل صلاح الدين... الفحوى والمغزى. المنشور باللغة الكردية في مجلة مةتين- دهور. العدد ٥٤ لسنة ١٩٩٦. ص ٣١-٢٠.

(٦) حتى إن أبا شامة يقول، كان بلغني أن السلطان لما اشتد أمر الفرنج على عكا أرسل إلى ملك المغرب يستنجد به عليهم، ليقطع عنهم مادتهم من جهة البحر، وكنت اتطلب حقيقة ذلك وأبحث عن شرح الحال فيه فإن العماد والقاضي (يقصد ابن شداد) لم يتعرضا له في كتبهما «الروضتين، ١٧٠/٢».

يستنصر بملكه يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن (ت ٥٩٥هـ/١١٩٩م).

وقد وجه صلاح الدين مجموعة من الخطابات إلى هذا الملك الذي عرف عنه حرصه الشديد على مصالح المسلمين في المشرق أو في الأندلس أو في شمالي أفريقيا، وشدة تدينه<sup>(٢)</sup>. إلا أن الملك لم يشأ أن يعين صلاح الدين في محنته لسبب لانراه مقبولاً هو أن السلطان «لم يخاطبه بأمر المؤمنين، بل خاطبه بأمر المسلمين، فعز ذلك عليه ولم يجبه إلى ما طلبه»<sup>(٣)</sup>، ونرى أن الظروف التي كانت تمر بها الدولة الموحدية المهدية المغربية، ودفاعها المستميت عن مسلمي الأندلس ضد الاسبان كان أهم أسباب امتناعه عن مساعدة صلاح الدين، حتى إنه خرج بنفسه، واستعاد ما أخذ من بلاد الأندلس، ثم عاد إلى مراكش بل إنه في نفس السنة التي استنجد به صلاح الدين (٥٨٦هـ/١١٩٠م) تجهز بنفسه وحاصر «أشلب في غرب الأندلس وأخذها»<sup>(٤)</sup>.

هذا وقد ضمن صلاح الدين خطاباته الموجهة إلى الملك العديد من الألقاب الفخرية إرضاءً لحاطره، علّه يساعده في محنته، إلا أن جهوده ذهبت سدى، في حين ذكر صلاح الدين اسمه المجرى مرفقاً بلفظ التواضع «الفقير إلى رحمة ربه يوسف بن أيوب»<sup>(٥)</sup> وبعث مع خطاباته طائفة من الهدايا الثمينة<sup>(٦)</sup>. والظاهر أن مراسلة صلاح الدين لهذا الملك قد بدأت منذ سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م<sup>(٧)</sup>. واستمرت إلى سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م، حين غادر رسول صلاح الدين مدينة مراكش في المحرم، ووصل الاسكندرية في ٢٨ جمادى الآخر من السنة المذكورة<sup>(٨)</sup>. ومهما يكن من أمر فإن صلاح الدين لم يحصل على المساعدة اللازمة، لا من الخليفة العباسي ولا من ملك المغرب الموحد، ولا من أية جهة باستثناء الجهات التي ذكرناها آنفاً، وهي كلها كانت ضمن الدولة الصلاحية أو تابعة لها، بل لم تشترك في القتال جهات كانت ضمن هذه الدولة مثل بلاد اليمن وبلاد برقة (ليبيا). وبالمقابل نجد أن بعض الجماعات الإسلامية كانت تطلب مساعدة صلاح الدين في صراعاتها مع جماعات أخرى<sup>(٩)</sup>، «فاعتذر السلطان بما هو فيه من شغل الجهاد»<sup>(١٠)</sup> في سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م.

(١) ابن أخي اسامة بن منقذ الكناني صاحب كتاب (الاعتبار) الشهير.

(٢) انظر ترجمة حياته في وفيات الاعيان، ٣/٧-١٩. ذيل الروضتين، ١٦. النجوم الزاهرة، ١٥٣/٦.

(٣) وفيات الاعيان، ١٢/٧. وانظر ذيل الروضتين، ص ١٦.

(٤) ن. م. ٤/٧.

(٥) الروضتين، ١٧١/٢.

(٦) ن. م. ص ١٧٣.

(٧) صبح الاعشى، ٥٢٦/٦.

(٨) الروضتين، ١٧٤/٢. وانظر عن أمر هذه المراسلة. مفرج الكروب، ٣٦١/٢ والبداية والنهاية، ٣٣٩/٢. وأنظر

بحثنا: طبيعة وأسباب اتصال صلاح الدين مع الخليفة المنصور الموحد. مجلة جامعة الملك سعود، كلية الآداب المجلد

الثاني. سنة ١٩٩٠. ص ٣٠٣-٣٢٦.

(٩) الفتح القسي، ٢٣٤-٢٣٥.

(١٠) ن. م. ص ٢٣٥.

## ١- حملة ريتشارد قلب الأسد:

وصلت سفن حملة ريتشارد إلى بر الشام، وأنزلت حمولتها قرب صور في مساء يوم ١٥ جمادى الأولى ٥٨٧هـ/٦ حزيران ١١٩١م، ولم يستطع الملك النزول في هذه المدينة، لأن حاميتها رفضت السماح له بالدخول إليها بناء على أوامر الماركيز كونراد دي مونتفرات، وأوامر فيليب أغسطس ملك فرنسا الذي وصل إلى المشرق قبله بأيام. واضطر ريتشارد أن يواصل سفره بحراً متوجهاً نحو عكا، فوصلها في خمس وعشرين سفينة<sup>(١)</sup>. فبعث الثقة والأمل في نفوس القوات الصليبية، التي تحاصر عكا منذ أمد طويل دون جدوى. واحتفاءً بمقدم الملك الانكليزي، أطلق الصليبيون الصواريخ وضربوا النقارات داخل المعسكر<sup>(٢)</sup>.

لا نريد أن ندخل في تفاصيل ما حدث من تطورات سياسية على ساحة القتال، ولكننا نقول إن كلتا الحملتين - الانكليزية والفرنسية - كانت تكمل إحداهما الأخرى، ضمن الحملة الصليبية الثالثة، رغم ما كان بين ملكيهما من صراعات كشفت عنها الأحداث المقبلة<sup>(٣)</sup>. وكذلك وجود اختلافات بين أهدافهما والأساليب التي ينبغي اتباعها لمقارعة جيش صلاح الدين. ومهما يكن من أمر فإن شهرة ريتشارد قلب الأسد قد طغت على شهرة غريمه الفرنسي، ليس في المصادر الصليبية بل في المصادر العربية كذلك<sup>(٤)</sup>.

ولدى توجه ريتشارد نحو عكا بدأ المسلمون استعداداتهم لاستئناف القتال بحراً وبراً، فأمر صلاح الدين بتجهيز سفن ضخمة ملأها بالعدة والقوات وسبعمائة مقاتل، وسيرها من بيروت نحو عكا لملاقاة القوات الغازية الجديدة. إلا أن هذه القوة لم تستطع فعل أي شيء. وحين أيس المقاتلون من الخلاص، أمر مقدمهم، وهو يعقوب الحلبي الرجال بإحداث ثقب في أسفل سفنهم بالمعاول لاغراقها، والحيلولة دون وقوع المقاتلين وما معهم من الذخائر في أيدي ريتشارد، فغرق جميع ما فيها<sup>(٥)</sup>، ولدى وصوله إلى منطقة عكا أمر ريتشارد قواته بإزالة آلات الحصار وتوجيهها على أسوار المدينة، فنصبوا سبعة مجانيق<sup>(٦)</sup>، وعدة دبابات وكباشات<sup>(٧)</sup>، وأحدثت هذه الآلات أضراراً في سور المدينة، إلا أنهم

(١) النوادر، ١٦١. الفتح القسي، ٤٨٤. الكامل، ٦٥/١٢.

(٢) النوادر، ١٦١. الفتح القسي، ٤٨٤.

(٣) رنسيما، ٩٧/٣.

(٤) يصف ابن الأثير ريتشارد بـ«رجل زمانه شجاعة ومكراً وجلداً وصبراً، وبلي المسلمون منه بالدهية التي لا مثيل لها» (الكامل، ٦٥/١٢). ويصفه ابن شداد بـ«شديد البأس، عظيم الشجاعة، قوي الهمة، له وقعات عظيمة وجسارة على الحرب» ثم يقارنه بالملك الفرنسي فيليب أغسطس ويقول إنه «دون الفرنسي في الملك والمرتبة، لكنه أكثر منه مالا، وأشهر في الحرب والشجاعة» (النوادر، ١٥٧).

(٥) الكامل، ٦٥/١٢. النوادر، ١٦١. الفتح القسي، ٤٨٦. الروضتين، ١٨٤/٢. الحموي، التاريخ المنصوري، ص ٢٠٠. مفرج الكروب، ٣٥١/٢. ابن الفرات، ج ٢، مجلد ٤، ص ٧.

(٦) النوادر، ١٥٨. الفتح، ٤٧٨-٤٧٩. الروضتين، ١٨٤/٢. مفرج الكروب، ٣٥٠/٢.

(٧) الكامل، ٦٥/١٢.

أخفقوا في فتحها. ولخطورة الموقف العسكري بوصول هذه القوات، اضطر صلاح الدين إلى تغيير موضعه الذي كان نازلاً فيه، وهو شفرعم، وانتقل إلى تل الخروية، ليكون مع قواته الخاصة على مقربة من الصليبيين، وليشرف بنفسه على الوضع، وما سيفعله العدو خلف الحيطان والخنادق التي أقامها لكي يكون ستاراً بينه وبين قوات صلاح الدين المحيطة به. إلا أن هذا لم يوقف العدو من الزحف على المدينة، عندئذ زاد الضغط على من بها، فأرسلوا إلى صلاح الدين يعرفونه بالحال، إلا أنه لم يستطيع أن يردهم<sup>(١)</sup>.

ويبدو أن القتال الدائر بين الفريقين كان القصد منه جس نبض ما لدى الطرف الآخر، ومعرفة مدى قوته، وأراد صلاح الدين أن يثبت لريتشارد أن جيشه ما زال قوياً، وأن بوسعه التجهيز لملاقاته. أما ريتشارد فإنه أراد من جانبه أن يتأكد عما إذا كان بوسعه أن يفرض على صلاح الدين إرادته بقوة السلاح، أو أن يفرض عليه المفاوضات عبر سيف مسلط عليه، بعد أن يلحق بالمسلمين هزيمة تجعلهم يوافقون على شروطه. والواقع أن الظروف العسكرية والسياسية كانت مهيأة لريتشارد، وكان هو على علم بذلك، فأراد أن يستثمر هذه الظروف.

ونرى أن الانتصار الذي أحرزه ريتشارد في عكا، لا يعود سببه إلى قوة وبراعة الصليبيين، وضخامة الحملة الثالثة، أو إلى شجاعة ريتشارد وقيادته الناجحة فحسب، بل يعود إلى سوء أحوال الجيش الإسلامي كذلك، فما كان من قادة الحملة الثالثة إلا حسم هذا الوضع بسرعة، فكان أن سقطت عكا.

فقد بدأ الصليبيون يضايقون المدينة ويطمون خندقها بالقاء جثث دوابهم وموتاهم فيه، بل إنهم لم يأنفوا حتى من إلقاء جرحاهم فيه، فقد ذكر ابن شداد، أن الصليبيين قرروا «إذا جرح منهم واحد جراحه مؤسبة مثخنة ألقوه فيه»<sup>(٢)</sup>. واضطر المسلمون بالمقابل، إلى تنظيف الخندق، فقسموا أنفسهم إلى جماعات ثلاثة: «الأولى ينزل أفرادها إلى الخندق ويقطعون جثث الموتى والدواب الملقاة فيه، قطعاً قطعاً، ليسهل نقلها. وقسم ينقلون ما يقطعه القسم، ويلقونه ويرمونهم في البحر، وقسم ثالث كانوا بمثابة فرقة حماية، يذبون عن رجال القسم الثاني، ويدافعون عنهم، حتى أخذ منهم التعب»<sup>(٣)</sup>.

وقد بلغ هجوم الصليبيين على المدينة مستوى جديداً بوصول ريتشارد. فاعتباراً من ١٩ جمادى الأولى زاد عدد الحملات، ففي هذا التاريخ «زحفوا على البلد زحفاً عظيماً، وضايقوه مضايقة شنيعة»<sup>(٤)</sup>، واستطاعوا من إضعاف البلد، ثم انفض القتال ليسأنفوه بعد أربعة أيام، ففي ٢٣ جمادى الأولى/١٤ حزيران ثار القتال ثانية ولج العدو في مضايقة البلد، وجرت بينهم وقعة عظيمة،

(١) ن. م. ص.

(٢) النوادر، ص ١٦٠.

(٣) النوادر، ص ١٦٠، الروضتين، ١٨٤/٢.

(٤) الروضتين، ١٨٤/٢.

وللتخفيف عن المدافعين عن عكا، قام جنود صلاح الدين بالهجوم على خيام الصليبيين، واضطروهم إلى التراجع... وحملوا على المسلمين حملة الرجل الواحد، فثبت المسلمون لهم بشجاعة عظيمة والتحم القتال، فصبروا صبر الكرام - على حد تعبير ابن شداد - ودخلوا في الحرب باقتحام<sup>(١)</sup>. وحدثت في ٢٨ من الشهر وقعة أخرى، حين خرج العدو راجلهم وفارسهم على المسلمين من جانب البحر شمالي البلد، وعلم السلطان ذلك، فركب وركب العسكر وانتشب القتال، ثم حال بين الطائفتين<sup>(٢)</sup>، وتجدد القتال بينهما في اليوم التالي.

ولعل صمود المسلمين في هذه الوقعات كان سبباً دفع الملك ريتشارد إلى طلب المفاوضات، وأعلن عن رغبته في الاجتماع بالسلطان، فأنفذ إلى معسكره رسولاً، وبصحبه ترجمان. وكان الملك حريصاً على أن يجتمع بالقائد الإسلامي. غير أن صلاح الدين أجاب على طلب ريتشارد في حذر، وذكر له أنه ليس من الحكمة أن يلتقي ملكان متعاديان، حتى تنعقد بينهما هدنة، وقال: «الملوك لا يجتمعون إلا على قاعدة وما يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع، والمؤاكلة، وإذا أراد ذلك فلا بد من تقرير قاعدة قبل الحالة، ولا بد من ترجمان نثق فيه في الوسط، يفهم كل واحد منا ما يقوله الآخر، فليكن الرسول بيننا ذلك الترجمان، فإذا استقرت القاعدة وقع الاجتماع»<sup>(٣)</sup> ومع ذلك فإن صلاح الدين أعلن عن استعدادده، لأن يسمح لأخيه - كما سنرى - بالاجتماع إلى ريتشارد، وتقرر وقف القتال لمدة ثلاثة أيام.

وحدث أن خرَّ ملكا انكلترا وفرنسا مريضين فجأة، واشتدت العلة على ريتشارد فأرسل إلى صلاح الدين يطلب منه أن يمده ببعض الفواكه والتلج. ويذكر المؤرخون أن ريتشارد بعد شفائه طلب من صلاح الدين دجاجاً وطيوراً وذلك لاعطاء لحومها إلى الطيور الجوارح التي يملكها والتي ضعفت كثيراً ثم فهم أنه طلب ذلك لنفسه، لأنه حديث عهد بمرض<sup>(٤)</sup>. وكان قصده «تفتير العزمات وتضييع الوقت على المسلمين، وهم مع ذلك مشتغلون بمحاصرة البلدة، ومواترة رميه بالمجانيق»<sup>(٥)</sup>. وفي تلك الأثناء تلقى صلاح الدين امدادات جديدة في نهاية جمادى الأولى ٥٨٧هـ/ حزيران ١١٩١م، فقد وصل إلى الحروبوية قوة من سنجار، ثم تلاها وصول قوة من مصر وكذلك من الموصل، فرحب بها السلطان كلاً على حدة<sup>(٦)</sup>. إلا أن ذلك لم يجد نفعاً، فكان البلد قد ضعف ضعفاً شديداً، واشتد الخناق بمن فيه، وهدمت مجانيق الصليبيين جزءاً هاماً من سورته، بما مقداره قامة رجل<sup>(٧)</sup>.

(١) النوادر، ١٦٣. الفتح القسي، ٤٩٠.

(٢) النوادر، ١٦٣. الفتح القسي، ٤٩١.

(٣) النوادر، ص ١٦٣.

(٤) النوادر، ص ١٦٥. ابن الفرات، مجلد ٤، ج ٢، ص ١١. البداية والنهاية، ٣٤٣/١٢.

(٥) مفرج الكروب، ٣٥٥/٢. ابن الفرات، مجلد ٤، ج ٢، ص ١١.

(٦) النوادر، ص ١٦٥. الفتح القسي، ٤٩٥. الروضتين، ١٨٦/٢.

(٧) النوادر، ص ١٦٥. الفتح القسي، ٤٩٧.

وتواصل ضرب الأسوار بالمنجنيقات، حتى دخلوها، وأضعفوا بنيانها، وأنهك التعب والسهر أهل البلد، لقلة عددهم وكثرة أعمالهم، حتى إن جماعة منهم بقوا أياماً لا ينامون لا ليلاً ولا نهاراً.

وفي ٧ جمادى الآخرة وصلت بطاقة من البلد يقولون فيها: إنا قد بلغ بنا العجز درجة ما بعدها إلا التسليم، ونحن في الغد إن لم تعملوا من أجلنا شيئاً نطلب الأمان ونسلم البلد، ونشتري مجرد رقابنا<sup>(١)</sup>. وكان هذا - كما يقول ابن شداد - أعظم خبر ورد على المسلمين وأتكاها في قلوبهم، فإن عكا كانت تحوي جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر، وجميع البلاد الإسلامية، واحتوت على كبار أمراء العسكر وشجعان الإسلام، كسيف الدين المشطوب وبهاء الدين قراقوش<sup>(٢)</sup>.

وقد خرج سيف الدين المشطوب بنفسه إلى الملك فيليب اغسطس يطلب الأمان وقال: «إنا قد أخذنا منكم بلاداً عدة، وكنا نهدم البلد ندخل فيه، ومع هذا إذا سألونا الأمان أعطيناهم وحملناهم إلى مأمئهم وأكرمناهم، ونحن نسلم البلد وتعطينا الأمان على أنفسنا، فأجابه الملك الصليبي جواباً تضمن إهاتته، فما كان من المشطوب إلا أن يرد عليه بالمثل»، ثم قال له: «إنا ما نسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا، ولا يقتل واحد منا حتى يقتل خمسين نفساً من كباركم وانصرف عنه»<sup>(٣)</sup>.

إلا أن بعض الأمراء استطاعوا الهرب من عكا، منهم أرسل وحسام الدين تمتراش بن جاولي الكبير وسنقر الوشاقى الأسدي وعبدالقادر الحلبي، ثم اعتقلوا فيما بعد، وعاقبهم السلطان، الذي لم يقف مكتوف الأيدي تجاه ما يجري، بل قرر القيام بهجوم على الصليبيين، إلا أن عسكره خذلوه، وقالوا: إن الهجوم مخاطرة بالإسلام كله، ولا مصلحة في ذلك. رغم أن بعض القادة من أمثال الجناح أخي سيف الدين المشطوب ولفيف من الأمراء من أمثال عزالدين جوردرىك النوري وصارم الدين قايماز النجمي، زحفوا على الصليبيين حتى بلغوا أسوارهم، وقاتلوهم قتالاً شديداً<sup>(٤)</sup>.

واستطاعوا إيقاف زحفهم على عكا مؤقتاً، بل إن الأحداث أظهرت وكأن الأمل في إجراء المفاوضات بدأ يلوح في الأفق ثانية. إذ قام رسل ريتشارد بزيارة صلاح الدين، وطلبوا منه أن يسمح لهم بابتساع بعض الفواكه والثلج، ولوحوا بأنهم مستعدون لأن يتناقشوا في أمور الصلح، إلا أن صلاح الدين كان متلهفاً إلى إرسال ما يمكن إرساله إلى عكا التي ظهرت وكأن محاربيها مازالوا ينتظرون من صلاح الدين أن يفعل شيئاً يدفع العدو عن السور، فوصل في ١٢ جمادى الآخرة ٥٨٧هـ/٧ تموز ١١٩١م، أحد العوامين ومعه بلاغ من المدينة يقولون فيه: «إنا قد تبايعنا على الموت، ونحن لا نزال نقاتل حتى نقتل، ولا نسلم البلد ونحن أحياء، فأبصروا كيف تصنعون في شغل العدو

(١) النوادر، ص١٦٧. الروضتين، ١٨٦/٢. مفرج الكروب، ٣٥٥/٢.

(٢) النوادر، ص١٦٧. شفاء القلوب، ١٧٠.

(٣) النوادر، ص١٦٨. الفتح القسي، ٥٠٥. الكامل، ٦٦/١٢. الروضتين، ١٦٨/٢-١٨٧. مفرج الكروب، ٣٥٦/٢.

٣٥٧. البداية والنهاية، ٣٤٣/١٢.

(٤) النوادر، ١٦٨. الروضتين، ١٨٧/٢. مفرج الكروب، ٣٥٨/٢.

عنا، ودفعه عن قتالنا، فهذه عزائمتنا، وإياكم أن تخضعوا لهذا العدو أو تلبنوا له فأما نحن فقد فات أمرنا»<sup>(١)</sup>.

## ٢- سقوط عكا وأسبابه:

استمر الصليبيون في هجومهم على أسوار المدينة، وإحداث ثغرات جديدة فيها، وتوسيع الثغرات التي أحدثوها من قبل، وذلك بحشوها بالمواد واشعال النار فيها، فضعف وضع المدينة كثيراً، فما كان من أمرائها إلا وأن أرسلوا مع العوام بلاغاً أخيراً إلى صلاح الدين أعلنوا فيه: إن أهل البلد ضاق بهم الأمر، وتيقنوا أنه متى أخذ البلد عنوة ضريت رقابهم عن آخرهم، وأنهم قد صالحوا الفرنج على أنهم يسلمون إليهم البلد بما فيه من الآلات والعدد والمراكب، ومائتي ألف دينار، واطلاق سراح خمسمائة أسير مجاهيل ومائة أسير يختارونهم بأنفسهم، وتسليم صليب الصليبيون إليهم، مقابل السماح للمسلمين بالخروج من المدينة سالمين، ومعهم أموالهم وذرايعهم، واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الفرنج (٢). «وما اطلع السلطان على فحوى الاتفاق، رفضه بشدة، وعظم عليه الأمر، فجمع أعضاء مجلسه للتشاور معهم فيما ينبغي فعله في هذا الظرف الحرج، «وعزم على أن يكتب في تلك الليلة مع العوام، ينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه» إلا أن الصليبيين كانوا أسرع منه، ولم ينتظروا جوابه، فهجموا على المدينة «وارتفعت أعلامهم وصلبانهم وشعارهم على المباني الرئيسية، وأشعلوا النيران على الأسوار، وكان ذلك في نهار الجمعة ١٧ جمادى الآخرة ٥٨٧هـ/ ١٢ تموز ١١٩١م». فما كان على المسلمين إلا الصياح والنحيب مرددين: «إنا لله وإنا إليه لراجعون»<sup>(٣)</sup>.

عندها أمر السلطان الحزين بنقل الأثقال إلى الموضع السابق بشفرعم، فلم يبق مبرر في بقاء قواته على حصارها وموقعها. وصار ينتظر ما سيحصل. ويبدو أن صلاح الدين توقع أن يقوم الصليبيون بحركة ضده. فأخذ استعدادة بدوره. يقول ابن شداد بهذا الصدد: إن السلطان أقام جريدة راجياً من الله تعالى أنه ربما حملهم غرورهم وجهلهم، بالخروج إليه، والهجوم عليه، فينال منهم غرضاً، ويلقي نفسه عليهم ويعطي الله النصر لمن يشاء، فلم يفعل العدو شيئاً من ذلك<sup>(٤)</sup>. ثم اتصل السلطان بالقيادة الصليبية لمعرفة الفترة التي حدودها لتنفيذ بنود الاتفاقية، ولاسيما المتعلقة منها بالمال وتبادل الأسرى، فأجابوا أنها حددت في تروم ثلاث<sup>(٥)</sup>. ثم بعثوا رسولاً ليشاهد صليب الصليبيون،

(١) النوادر، ١٦٩-١٧٠. الروضتين، ١٨٧/٢-١٨٨. مفرج الكروب، ٣٥٩/٢ البداية والنهاية، ٣٤٤/١٢.

(٢) النوادر، ١٧٠. الفتح القسي. ٥١٣. الكامل، ٦٧/١٢. الروضتين، ١٨٨/٢. مفرج الكروب، ٣٥٩/٢-٣٦٠. الدوداري، الدر المطلوب، ص ١٠٧. شفاء القلوب، ١٧٠.

Stevenson, The Crusaders, p. 270. - Lane - Pool, Saladin, p. 302.

(٣) النوادر، ١٧١. مرآة الزمان، ٤٠٨/٨. مفرج الكروب، ٣٦٠/٢. الروضتين، ١٨٨/٢. الذهبي، مخطوط تاريخ الإسلام، ورقة ٦٢٧أ.

(٤) النوادر، ١٧٢. الروضتين، ١٨٨/٢.

(٥) هكذا ترد في المصادر العربية (النوادر، ١٧٣. الفتح، ٥٢٧. الروضتين، ١٨٩/٢)، مفرداً (ترم)، والمقصود =

وليتأكد إن كان هو الصليب الحقيقي<sup>(١)</sup>.

وتردد الرسل بينهما لتنفيذ ما جاء في الاتفاقية. وجمع السلطان لهم ما كانوا طلبوه من الأسارى والمال المعين الخاص بالترم (الشهر) الأول، وهو الصليب، ومائة ألف دينار، وألف وستمائة أسير، وبعث الصليبيون ممثلين عنهم ليطلعوا بأنفسهم على مدى تطبيق صلاح الدين لشروطهم. وشاهدوا كل شيء جاهزاً ما عدا الأسارى المعينين المطلوب اطلاقهم. لأن الصليبيين لم يكونوا قد اختاروا أسماء الذين يريدون من صلاح الدين أن يطلق سراحهم. والظاهر أن الصليبيين لم يكونوا جادين في موقفهم، وأرادوا أن يتشبهوا بحجة ما تحول دون تنفيذ الاتفاقية، فيكونون في حل من أمرهم. فأخذوا «يطاولون ويفضون الزمان حتى انقضى الترم الأول»<sup>(٢)</sup>. ثم طالبهم صلاح الدين بتنفيذ البند الخاص بهم، فأبوا. عندها أدرك صلاح الدين عزمهم على الغدر<sup>(٣)</sup> فرفض أن يسلمهم الصليب والمال. فما كان من ريتشارد إلا أن أقام مجزرة بشعة على أرض عكا، حين أمر بجلب ثلاثة آلاف مسلم موثوقين في الحبال وقتلهم بالطعن والضرب. ولم يبقوا منهم إلا من له القدرة في خدمة الصليبيين والإفادة منهم في أعمال السخرة؛ وغشى المسلمين حزن عظيم<sup>(٤)</sup>. وبكى صلاح الدين مع الحاضرين واتفق لحيته، كعادته حين يحزن بشدة، ثم أمر أن يرد الأسرى الصليبيين الذين جلبهم من دمشق، لاجراء التبادل ولم يسمح لأحد بالانتقام منهم رداً على ما ارتكبه جنود ريتشارد، فأعادهم ثانية إلى مأواهم. والراجح أن ريتشارد قام بالإجهاز على هذا العدد الغفير من الأسرى المسلمين، لكيلا يستفيد منهم صلاح الدين في المستقبل، ولأنه كان على عجلة من أمره في تنظيم الهجوم على القدس أو عسقلان، فأراد أن يتخلص منهم بهذه الطريقة الغادرة<sup>(٥)</sup>. وكان ثمة أسباب عديدة تجمعت وأدت إلى سقوط عكا المربع، بعد أن دافع عنها المسلمون قرابة السنتين، ولعل من أبرزها:

أولاً- وصول قوات أوربية جديدة، حسمت الموقف لصالح الصليبيين. فعلى الرغم من كثرة من قتل منهم، إلا أن البحر كان يزودهم بإمدادات جديدة، حتى أضحو في أعداد لا تحصى، من أمم كثيرة<sup>(٦)</sup>. تلك التي اشتركت في هذه الحملة الصليبية الضخمة، فتجهز لها الأمراء بما أعدوه من الأموال والأدوات، وبما تكلفت به المدن الايطالية من بذل المساعدة والاشتراك في نقل العساكر

=بالكلمة (Term) الانكليزية التي تعني: المدة - الأجل - الاوان الطبيعي للمخاض - أي الشهر القمري. انظر: قاموس المورد). انكليزي - عربي. ط ٧، ص ٩٥٩).

(١) مفرج الكروب، ٣٦٣/٢.

(٢) النودار، ١٧٣. الفتح، ٥٢٧. الروضتين، ١٨٩/٢.

(٣) الكامل، ٦٨/١٢.

(٤) النودار، ١٧٤. الفتح، ٥٢٨. الحموي، التاريخ المنصوري، ٢٠٠. مرآة الزمان، ٤٠٨/٨، الروضتين، ١٨٩/٢. مفرج الكروب، ٣٦٤/٢. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٢٢. البداية والنهاية، ٣٤٥/١٢. الدر المطلوب، ١٠٧. شفاء القلوب، ١٧١. ابن الوردي، ١٤٨/٢. السلوك، ١٠٥/١. الذهبي، مخطوط تاريخ الإسلام ورقة ٢٧، ابن العبري، تاريخ الدول السرياني، مجلة المشرق، جزء ٤، ٥ لسنة ١٩٥٣ ص ٤٥٥-٤٥٦.

(٥) Stevenson, the Crusaders, p. 273.

(٦) الروضتين، ١٨٥/٢.

والمعدات، وعدم السماح للسفن الإسلامية بإيصال المؤن والمعدات اللازمة إلى المدينة المحاصرة، فكان تفوقهم البحري واضحاً<sup>(١)</sup>.

ثانياً- استعمل الصليبيون في قتال عكا أنواعاً كثيرة من الأسلحة والمعدات الحربية، القديمة منها أو التي أدخلوا إليها التحسينات سواء الهجومية منها لك أسوار المدينة أو لحماية أنفسهم خلف الجدران والخنادق التي أقاموها لمنع وصول قوات صلاح الدين، وإستطاعوا بعد مرابطتهم الطويلة بين أسوار عكا وقوات صلاح الدين إحداث الخلل في الأسوار، ففي رسالة حررها القاضي الفاضل وبعث بها صلاح الدين إلى الخليفة العباسي أعلن فيها أن الصليبيين، «قاتلوا مرة بالأبرجة، وأخرى بالمنجنيقات، ورادفة بالدبابات، وتابعة بالكباش، وآونة باللوالب، ويوماً بالنقب، وليلاً بالسرايات، وطورا بطم الخنادق، وأنا بنصب السلاالم، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار. وأحياناً في البحر بالمراكب»<sup>(٢)</sup>. وكان رجال ريتشارد يستطيعون أن يتسلقوا جدران السور بواسطة آلة جديدة مستحدثة سموها «الهر» ومجانيق تستطيع رمي الحجارة الضخمة التي تزعزع الجدران، وتحصد الهزات حيث تقع في المدينة<sup>(٣)</sup>.

ثالثاً- التعب الذي أصاب المسلمين لطول مدة الحصار البري والبحري، وما سببه ذلك من ضجر، رغم ما كان يحدثه صلاح الدين من تبديل بين المحاربين بإرسال البديل إلى داخل المدينة، إلا أنه لم يستطع الاستمرار على ذلك، ولاسيما حين شدد الصليبيون من حصارهم عليها، وكذلك لم تجد نفعاً النجاحات التي أحرزها الجيش الصلاحي - الذي يحاصر الصليبيين - بين فترة وأخرى ولاسيما في بداية الحصار الصليبي<sup>(٤)</sup>. وكانت النتيجة الحتمية هي التواني في بذل المجهود الحقيقي، ثم ابداء الأمراء التذمر من صلاح الدين، فلم يلبث التذمر حتى صار عادة، وتطور إلى نقد ثم معارضة، ولاسيما في المرحلة المتأخرة من الحرب، عندما بدأ سقوط عكا كدليل يبرهن على الضعف في قيادة صلاح الدين العسكرية<sup>(٥)</sup>.

رابعاً- كشف الصراع الطويل مع الصليبيين، وسقوط عكا عن مواطن الضعف المادية في جيش صلاح الدين. ومعروف عن صلاح الدين أنه لم يول اهتماماً كافياً بالإدارة المالية ولم يدخر المال ليوم الحاجة. ويفسر بذل المال الذي عرف عنه، بأن ظروف الجهاد اقتضت ذلك «فقد أنفق المولى مال مصر في فتح الشام، وأنفق مال الشام في فتح الجزيرة، وأنفق مال الجميع في فتح الساحل»<sup>(٦)</sup>.

(١) الفتح القسي، ٤٨٦. الروضتين، ١٨٤/٢.

(٢) الروضتين، ١٨٥/٢.

(٣) فيليب حتي، صانعو التاريخ العربي، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٩، ص ١٩٠.

(٤) Oman, A History of the art war in the middle ages

(٥) جب، صلاح الدين، ص ٢٠٠.

(٦) أبو شامة على لسان القاضي الفاضل، الروضتين، ١٧٧/٢.

وسرعان ما لقيَ نفسه بحاجة شديدة إلى المال، لسد نفقات الأسلحة والمؤن والعلف والمعدات وعطاء الجنود. وكذلك لم يقدر على التخفيف من الضائقة المالية عن العساكر المرابطين على عكا، والذين اضطروا على الاستدانة، وكذلك احلال خيول وأسلحة جديدة بدلاً من المستهلكة، فالخيول «أجهدها الجهاد... والعدد فقدت بالكلية وعمدت، وتكسرت وتحطمت... وأما الشباب فإنه قد فني... ونفضت الكنائس<sup>(١)</sup> ويضيف العماد إلى كلامه أنه «احتيج في هذه السنين... إلى أحمال كثيرة لايفي بها الصناع ولايرفعها العمال»<sup>(٢)</sup>.

سقطت عكا إلا أن التاريخ سجل لها ولحاميتها الإسلامية موقفاً رائعاً، إذ ظلت صامدة أمام زحف الصليبيين المتوالي الممثل بالصليبيين القدامى والجدد الذين أتوا مع الحملة الثالثة التي قادها أعظم ملوك العصر. وأظهرت حامية عكا تحت قيادة الامراء الشجعان من أمثال المشطوب وبهاء الدين قراقوش شجاعة نادرة تسترعي الأنظار.

أما الجيش الذي قاده صلاح الدين بنفسه، فكانت مهمته صعبة للغاية، ليس لحساسية الموقع الذي رابط فيه، ولا لقوة العدو فحسب، إنما لصعوبة الحفاظ على جيش تحت السلاح مدة طويلة في ذلك العهد.

وعلى كل حال فلم يكن امتلاك عكا بالشيء الساحق، فبعد أن قضى الصليبيون حوالي سنتين من الزمن، لم يستطيعوا تحطيم جيش صلاح الدين، أو يستردوا ما خسروه بعد معركة حطين<sup>(٣)</sup>.

#### ثانياً- بعد عكا:

كان لسقوط عكا تأثيره الكبير على وضع المسلمين. وعلى الرغم من أن الضربة لم تكن قاضية، إلا أن هذا الحدث أضعف المسلمين كثيراً، بحيث ركنوا بعده إلى الدفاع السلبي، والذي من مظاهره تخريب بعض القلاع والحصون لكي لا تقع بيد العدو ثم يجعل منها مرتكزاً للهجوم على المناطق الإسلامية الأخرى.

صحيح أن فشل جيش صلاح الدين في حصار صور يعتبر بداية لخط الانكسار الإسلامي، إلا أن هذا الفشل يوضع في التحليل الأخير ضمن اخفاقات جيش صلاح الدين، وليس ضمن انتصارات الصليبيين، والقصد من ذلك أن ما حصل في صور هو عدم نجاح حصار المسلمين لاحدى المدن، أما في عكا فقد هزم المدافعون عنها وانتصر الصليبيون.

(١) الفتح القسي، ٥٥٣.

(٢) الفتح القسي، ص ٥٥٣.

(٣) د. زكي النقاش، العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية، منشورات دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٥٨، ص ٣٣. ود. أحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام. مطبوعات جامعة بيروت العربية ١٩٧٢ ص ٢٩٢. ود. سعيد عاشور، الحركة الصليبية ج ٢، ص ٩٠٢.

ومن ثم فإن ما قام به ريتشارد من ذبح حوالي ثلاثة آلاف أسير كان له أثره في إضعاف جيش المسلمين، وفقد صلاح الدين نفراً من أمرائه وعساكره، الحبيرين بشؤون القتال وقواعده، وفنه إضافة إلى ما خسره من أسلحة وأعتدة حربية وذخائر، إضافة إلى الأثر النفسي المرعب الذي تركته المجزرة في نفوس المسلمين، كما سنرى، ولعل أكبر مغزى في انتصار الصليبيين هو أنهم اقتنعوا بأن صلاح الدين، ليس بالقائد الذي لا يقهر، وأنه يمكن أن يتعرض لهزيمة فعلية، وأن بيت المقدس يمكن استرداده إذا حاولوا.

إلا أن صلاح الدين من طرفه أراد أن يثبت لمحاربي جيشه ولعدوه معاً، أنه إذا كان قد تعرض للهزيمة، فهذا لا يعني أنه تحطم، بل إنه ما زال قوياً، رغم ما أعتور نشاطه الشخصي من فتور بسبب حالته الصحية وتقدم سنه، فلم يعد له من القدرة على المقاومة والتأثير كما كان له في سنوات شبابه<sup>(١)</sup>.

#### ١ - المسير نحو عسقلان:

كان صلاح الدين يخشى أن يتحرك ريتشارد نحو عسقلان ليحتلها ويتخذ منها قاعدة يقطع بها طريق الاتصال بين صلاح الدين من جهة والقدس ومصر، التي تعتبر المصدر الرئيسي لقوته الضاربة، من جهة أخرى. وفعلاً قام ريتشارد بتنظيم زحف نحو الأجزاء الجنوبية من فلسطين. وقد وضع خطته على أساس أن يهبط على الساحل حتى يافا وعسقلان، وبعد أن يقيم له قاعدة حصينة، يتوجه إلى بيت المقدس متخذاً الطريق الروماني القديم<sup>(٢)</sup>.

وقد دلت هذه العملية على براعة ريتشارد في وضع الخطط الاستراتيجية، لأنه سلك طريقاً جنبه الاصطدام مع الجيش الأيوبي في معركة مكشوفة، إلى أن وصلوا إلى أرسوف. وسار جيش ريتشارد على مقربة من أسطوله الذي اعتمد عليه في حماية ميمنته من ناحية البحر، فضلاً عن أن هذا الأسطول أمده بالمؤن والرجال والعتاد. غير أن ذلك الطريق الساحلي اعترضته سلسلة من التلال الرملية المنخفضة، والغابات الكثيفة والمليئة بالحيوانات المفترسة، فضلاً عن الحشرات الضارة والأفاعي وحرارة الشمس (صيف ١١٩١ / أول شعبان ٥٨٧هـ)<sup>(٣)</sup>. إلا أن صلاح الدين أمر جيشه بملاحقتهم أثناء مسيرهم الساحلي. هذا وقد سار الجيش الصليبي في ثلاثة طوابير، الأول: وهو أقربها إلى التلال الداخلية، وقريب من الجيش الإسلامي، وكان مؤلفاً بكامله من المشاة في صفوف مترصة.

(١) يقول ابن شداد بهذا الصدد ان «التياب مزاج السلطان كان سبب سلامة هذه الطائفة، كونه لا يقدر على مباشرة الامر بنفسه... فأئشده متمثلاً:

(اقتلاتي ومالكاً - واقتلا مالكا معي) يريد بذلك: اني رضيت أن اتلف إذا تلف أعداء الله». النوادر، ١٥٠. الروضتين، ١٨٠/٢.

(٢) Lane - Poole, Saladin, p. 308.

(٣) Stevenson, The Crusaders, p. 275, Lane - Pool, Saladin, p. 308, Oman, A History of the art, Vol. 1, p. 309.

وكان اولئك الذين يسيرون في الأطلاب الخارجية معرضين لسهام المسلمين، إلا أن الصليبيين كانوا يردون عليهم بالمثل، إضافة إلى أنهم يرتدون الدروع<sup>(١)</sup>.

وكان الطابور الثاني يتألف من الفرسان، وهم القوة الحقيقية للجيش. وكانوا في منجاة من سهام المسلمين، لأنهم كانوا يسيرون وراء ستار المشاة. وعلى مقربة من البحر. وفي منأى عن المسلمين سار الطابور الثالث ومعه العربات والأمتعة والمرضى وكان بإستطاعة، رجال هذا الطابور أن ينالوا الراحة، وبين آونة وأخرى كانوا يستبدلون بجماعة من مشاة الطابور الأول<sup>(٢)</sup>. وكانوا يدفعون أمامهم عربة شدوا عليها علمهم، وكان كالمنارة العظيمة<sup>(٣)</sup>.

أما الفترة التي استغرقها سير العسكرين فبلغت ثمانية عشر يوماً. وقد تحدث عن هذه المسيرة ابن شداد بتفصيل وذكر ما حدث عند كل منزلة منها، حتى بلغ إحدى عشرة منزلة، بدأت مع مستهل شعبان وانتهت في ١٨ شعبان حين وصل السلطان الى يبنى قرب الرملة، فإنتهت الجولة الاولى من المسير الشاق<sup>(٤)</sup>.

أي أن ريتشارد قرر أن يسير بجيشه ببطء، بسبب الحر، وبمعدل ثمانية أميال أو عشرة في اليوم الواحد وكان يدع جيشه يأخذ قسطاً من الراحة في الأيام التي يتم فيها التبديل بين فرق المشاة<sup>(٥)</sup>. وقد أبدى ابن شداد دهشته من تحمل الصليبيين وقدراتهم على الأعمال الشاقة مما جعله يقول: «انظر إلى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشاقة»<sup>(٦)</sup>.

وفي المناطق التي مرت عليها هذه القوات حدثت المجاعات، ولاسيما عند المنزلة الثالثة قرب مجدل يابا، حتى بلغ رطل الشعير درهمين ونصف، أما الخبز فلم يوجد أصلاً<sup>(٧)</sup>. «و طراً على الناس الضيق في المأكول والقصيم»<sup>(٨)</sup>. لكن هذا الضيق لم يستمر طويلاً، إذ بدأت الأسعار بالانخفاض، فصار الخبز موجوداً بكثرة، ويبيع الرطل منه بنصف درهم<sup>(٩)</sup>.

هذا ولم تخل المسيرة من أعمال خطف أفراد الصليبيين ثم قتلهم لما جرى لأسرى عكا من المسلمين بيد رجال ريتشارد<sup>(١٠)</sup>. إذ أقسم صلاح الدين أنه لا يظفر بأحد منهم إلا قتله بمن قتلوا بعكا<sup>(١١)</sup>.

(١) سرهنك، حقائق الاخبار ٣/٧٩. د. سعداوي، التاريخ الحربي، ٢٦٦ النوادر، ص١٧٩. مفرج الكروب، ٣٦٥/٢. وانظر مرآة الزمان، ٨/٤٠٨-٩-٤.

(٢) النوادر، ص١٧٩ مفرج الكروب، ٣٦٥/٢.

(٣) النوادر، ص١٧٩. الروضتين، ٢/١٩٠.

(٤) النوادر، ص١٧٥-١٨٦.

(٥) Oman, A History of the art, Vol. 1. 309.

(٦) النوادر، ١٨٠. الروضتين، ٢/١٩٠.

(٧) النوادر، ١٧٧.

(٨) النوادر، ١٧٧.

(٩) النوادر، ١٨١.

(١٠) النوادر، ص١٧٧، ١٧٨. الكامل، ١٢/٧٠.

(١١) الكامل، ١٢/٧٠.

وقد وصف أحد الصليبيين تكتيكات المسلمين في الهجوم السريع على أعدائهم ومضايقتهم لهم، وكيف أنهم كانوا يفرون بخيولهم السريعة إذا رد عليهم الصليبيون، ويشبه المسلمين بأنهم كانوا على غرار طير السنونو في سرعة الهجوم ثم العودة بسرعة إلى حيث أتى، وأنهم كانوا غير مسلحين بدروع وزرود من قمة رأسهم حتى أخص قدمهم وأصابعهم - أما في إلحاحهم في الكر والفر فإن المسلمين مزعجون كالذباب المزعج على حد قول هذا المؤرخ الصليبي<sup>(١)</sup>.

وكان صلاح الدين يهدف بتحركاته أن يقوم الصليبيون بالرد على جيشه فينجح في استدراجهم إلى القتال، عندها ينحرفون عن سيرهم بمحاذاة الساحل، ويستطيع أفراد جيشه التغلغل في صفوفهم. إلا أن ريتشارد حافظ على كياسته ودعى رجاله إلى الحفاظ على النظام، وألا ينساقوا وراء استفزازات المسلمين، فلم يعط لصلاح الدين الفرصة التي كان تواقاً إليها<sup>(٢)</sup>.

## ٢- وقعة أرسوف وهزيمة صلاح الدين:

بلغ السلطان أن العدو قد تحرك باتجاه غابة أرسوف، فاستعد للقائهم وبدأ بتعبئة الجند، وسار نحو الغابة عله يحدث اضطراباً في صفوفهم، وأرسل اليكزك لجلب أخبار العدو المتجددة، وجرى بين اليكزك وبين حشاشة العدو قتال، أدى إلى جرح أفراد من الطائفتين<sup>(٣)</sup>. وحين علم ريتشارد نية صلاح الدين، أرسل في إثر نجدة من عكا، فوصلتهم عند منزلة نهر القصب في ثمانين بطس (سفن ضخمة) مملوءة بالرجال والمؤن<sup>(٤)</sup>. واتصل القتال بين الفريقين، وألح صلاح الدين في المسير وسبق العدو في الوصول إلى غابة أرسوف التي تقع شمال شرقي المدينة. وحاول ريتشارد تسوية ما بين الطرفين بالطرق السلمية، واجتمع بالملك العادل في ١٢ شعبان/ ٥ أيلول، إلا أن العادل رفض شروط الملك الانكليزي القاسية، حيث طلب أن يتنازل المسلمون عن الأماكن التي فتحوها في مملكة بيت المقدس<sup>(٥)</sup>. وحاول صلاح الدين أن يستفيد من جو المفاوضات ريثما تتجمع عنده عساكره، ولاسيما من كان منهم في الطريق إليه، وقال لأخيه: إن قدرت أن تطاول الفرنج في الحديث. حتى يلحقنا التركمان، فإنهم قد قربوا منا<sup>(٦)</sup>. وحين وصلت هذه الجماعة قام صلاح الدين بتعبئة جيشه تعبئة القتال: ووضع على أجنحته ولده الملك الأفضل وعلاء الدين خرمشاه ابن عزالدين مسعود صاحب الموصل، وسيف الدين أيازكوش وعزالدين جورديك وغيرهم، ووقف يتنسم ما يرد إليه من أخبار العدو، ثم اجتمع إلى أخيه الذي قطع المفاوضات مع ريتشارد وعاد إلى العسكر تواقاً، ليطلع على نتيجة ما جرى بينه وبين الملك

(١) انظر. Oman, Vol. 1, p. 309. عن مؤلف: Itsinerarium

(٢) النوادر، ١٨٣. . Oman, Vol. 1, p. 309.

(٣) النوادر، ١٨١.

(٤) النوادر، ١٨١. الروضتين، ١٩٠/٢.

(٥) النوادر، ص ١٨٢. مفرج الكروب، ٣٦٧/٢.

(٦) النوادر، ص ١٨٢.

ريتشارد.

أما ريتشارد فإنه سار يبحث عن مكان صالح لجيشه، فنزل على موضع يسمى بركة. والظاهر أن صلاح الدين اختار موضع أرسوف ليجري فيه القتال بسبب اتساعه، لأن السهل فيه من الاتساع ما يكفي لاستخدام الفرسان، رغم أن الغابات القريبة الممتدة إلى مسافة ميلين<sup>(١)</sup> من البحر كانت تعرقل حرية الحركة.

وفي صباح الرابع عشر من شعبان/٧ أيلول بلغ صلاح الدين أن العدو قد تحرك للرحيل نحو مدينة أرسوف ووصل إلى موضع قريب من الغابة. فركب صلاح الدين ورتب الأطلاب وبدأ الجاليش (مقدمة الجيش) يرمون الصليبيين بالسهام، وطوقهم من الطرف الشمالي والشرقي، وضايقوهم، ثم تقدم المقاتلون المسلمون نحوهم «وظمعوا فيهم طمعاً عظيماً حتى وصل أوائل راجلهم إلى بساتين أرسوف»<sup>(٢)</sup>. ورد عليهم الصليبيون بقوة، حتى انقلبت الآية لصالحهم.

يقول ابن شداد إنه رأى الفرسان الصليبيين «وقد اجتمعوا في وسط الرجالة، وأخذوا رماحهم، وصاحوا صيحة الرجل الواحد... وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها، فحملت طائفة على الميمنة، وطائفة على الميسرة وطائفة على القلب، فاندفع الناس (الجند) بين أيديهم»<sup>(٣)</sup>. هكذا تحول موقف العدو من الدفاع إلى الهجوم المنظم، وكان هذا التغيير مفاجئاً للمسلمين وأدى إلى حدوث خلل وتداع في صفوفهم، مما أدى إلى فرار عدد منهم من القتال<sup>(٤)</sup>.

وصادف أن كان ابن شداد في جناح القلب «ففر القلب فراراً عظيماً» فانضم إلى الميسرة، وحين وصلها انكسرت كسرة عظيمة، فمال المؤرخ إلى الميمنة فرآها وقد فر مقاتلوها هي الأخرى، فاضطر أن ينضم إلى «طلب السلطان، وكان أبدأ الأطلاب كلها، كما جرت العادة، حسب تعبيره، فأتيته ولم يُبق السلطان فيه إلا سبعة عشر مقاتلاً لا غير» ويحاول صلاح الدين أن يمنع رجاله من الفرار، واستطاع أن يجمع حوله بعض الرجال، وتوقف القتال، ووقف العدو قبالتهم على أعالي التلال، ثم تراجعوا. وكان حزن السلطان كبيراً على ما حصل، بحيث لم يقبل مؤاساة قاضي عسكره ومؤرخه ابن شداد، بسبب مقتل بعض أمرائه وجنده، من أمثال الأمير (شكار موسك) و(قايماز العالي) و(أيعوش)<sup>(٥)</sup>. وقد بلغ عدد قتلى المسلمين اثنين وثلاثين أميراً وأكثر من سبعين ألف جندي<sup>(٦)</sup>. تعتبر أرسوف أول معركة مكشوفة جرت بين الطرفين منذ حطين وأول هزيمة ألحقت بالمسلمين بعد

(١) رنسيان، ١٠٩/٢، Vol. p. 312. Oman, A History of the art,

(٢) النوادر، ص ١٨٣.

(٣) ن. م. ص.

(٤) Oman, A History of the art, Vol. p. 315.

(٥) النوادر، ١٨٥.

(٦) Oman, Vol. 1. p. 316 ولاشك أن هذا الرقم مبالغ فيه كثيراً، علماً أن المصادر العربية لاتشير إلى عدد القتلى.

سقوط عكا. وأثناء الصدام لم يستطع الصليبيون أن يعرفوا إن كانوا منتصرين، ولو كانوا يعرفون ذلك لاقتفوا أثر المسلمين في الغاية حتى أفنؤهم عن آخرهم<sup>(١)</sup>. إلا أن دخول المسلمين إلى الغاية جعل الصليبيين يظنون أنه مكيدة (كمين) دبرها المسلمون. ولاشك أنهم تأسفوا حين فاتتهم الفرصة، ولم يستغلوها كما ينبغي، وهذا يعني أن انتصارهم لم يكن حاسماً. ومع ذلك فإنه كان انتصاراً معنوياً كبيراً للصليبيين<sup>(٢)</sup>. وكانت خسائهم من الضالة ما يدعو إلى الدهشة، مع أنه كان من بين الضحايا أحد فرسانهم الكبار الذي أحاطت به خمس عشرة جثة للمسلمين<sup>(٣)</sup> مما يدل على شدة نكايته بمهاجميه من المسلمين الذين قتلهم قبل أن يُقتل.

وتأتي أهمية هذه المعركة بالنسبة للصليبيين في أنها دلت على أن صلاح الدين يمكن أن يهزم في معركة مكشوفة، واعتراهم حماس لازالة آثار حطين التي ما زالت عالقة في أذهانهم. وأثبتت المعركة أن المد قد تحول فعلاً، منذ سقوط عكا وصمود صور إلى جانب الصليبيين، وأن الوصول إلى بيت المقدس بات ممكناً أكثر من السابق، وبلغت شهرة ريتشارد إلى ذروتها<sup>(٤)</sup>.

### ٣- خراب عسقلان:

بعد أن حلت الهزيمة بجيش صلاح الدين في أرسوف، توجه ريتشارد نحو يافا وأخذها دون مقاومة، إذ «لم يكن بها أحد من المسلمين» ليدفعوا عنها، على حد قول ابن الأثير<sup>(٥)</sup>، وشرع في إعادة بناء استحكاماتها. أما صلاح الدين فتوجه نحو الرملة، وعقد فيها مجلس حربه، واستشارهم فيما يفعل، فأشار عليه الأمير علم الدين سليمان بن جندر، بإخلاء عسقلان ومن ثم تخريبها<sup>(٦)</sup>، لأن هدف العدو، بعد عكا ويافا، هو عسقلان ومن ثم القدس، ولأن يافا، التي نزل عليها ريتشارد، تتوسط القدس وعسقلان، ولا سبيل إلى حفظ المدينتين معاً<sup>(٧)</sup>.

ولاشك أن هذا التفكير، الذي سيطر على بعض أمراء صلاح الدين، يدل على مدى الفزع من قوة الصليبيين، ومن ثم يعكس الوضع النفسي المتردي الذي صاروا يعيشون فيه. وقد أعلن الأمراء الداعين إلى تخريب عسقلان أن الدفاع عن هذه المدينة يتطلب وجود حامية كبيرة فيها، تعدادها ثلاثون ألف مقاتل<sup>(٨)</sup>، أو عشرون ألفاً<sup>(٩)</sup>. وأعلنوا لصلاح الدين: قد رأيت ما كان منا بالأمس، وإذا

(١) الكامل، ٧٠/١٢.

(٢) النوادر، ١٨٤. الفتح القسي، ٥٤٤-٥٤٥. الكامل، ٧٠/١٢. الروضتين، ١٩١/٢. مفرج الكروب، ٣٩٦٨/٢.

(٣) هارولد لامب، شعلة الإسلام، ٢٣٦. Oman, Vol. 1, p. 317.

(٤) رنسيما، ١١١/٣. د. العريني، الشرق الاوسط، ٩٦٥/١.

(٥) المصدر نفسهن والصفحتين.

(٦) الكامل، ٧٠/١٢. وانظر النوادر، ١٨٦. الروضتين، ١٩٢/٢. شفاء القلوب، ١٧٢.

(٧) الفتح القسي، ٥٥٠. الروضتين، ١٩١/٢. مفرج الكروب، ٣٦٩/٢.

(٨) المصادر والصفحات السابقة. مرآة الزمان، ٤١٠/٨.

(٩) الروضتين، ١٩٣/٢.

جاء الفرنج إلى عسقلان، ووقفنا في وجوههم نصددهم عنها، فهم لاشك يقاتلوننا للنزاح عنها، فينزولوا عليها، فإذا كان ذلك عدنا إلى مثل ما كنا عليه على عكا، ويعظم الأمر علينا، لأن العدو قد قوي بأخذ عكا وما فيها من الأسلحة وغيرها، وضعفنا نحن بما خرج عن أيدينا، ولم تطل المدة حتى نستجد غيرها<sup>(١)</sup>. فاعترض صلاح الدين على هذا الرأي، وطلب من بعض أمرائه الدخول إلى عسقلان، وتنظيم الدفاع عنها، فامتنعوا، بل إنهم ردوا عليه بخشونة غير مألوفة، صاروا يعتادون عليها من الآن فصاعداً، كما يظهر من رواية العماد وإبن الأثير، وقالوا إن أردت حفظها فادخل أنت معنا، أو بعض اولادك الكبار، وإلا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا<sup>(٢)</sup>.

ولم يستطع صلاح الدين إقناع الأمراء، ولذلك حزن كثيراً، وبات ليله مهموماً. يقول ابن شداد إنه «ما نام الليلة إلا قليلاً، ولقد دعاني إلى خدمته سحراً، فحضرت وأحضر ولده الملك الأفضل وشاوره في الأمر... ثم قال: «والله لأن أفقد أولادي كلهم أحب إليّ من أن أهدم من عسقلان حجراً واحداً، ولكن إذا قضى الله بذلك وعينه لحفظ مصلحة المسلمين طريقاً فكيف أصنع»<sup>(٣)</sup>.

واضطر أخيراً إلى الانصياع إلى قرار أمرائه، ووافق على تخريبها، فأمر والي المدينة بأن يتولى ذلك بنفسه، فوضع الوالي المعول عليها فجر ١٩ شعبان ٥٨٧هـ/ ١٢ أيلول ١١٩١م. ثم استنفر الناس، وقسم سور المدينة عليهم، وجعل لكل أمير وطائفة جزء من السور. واشترك هو وولده في تخريبها. وأرسل إلى أخيه العادل، الذي كان نازلاً على بلدة يبنى بالقرب من الرملة ويافا، وطلب منه أن «يسوف القوم ويطول حديث الصلح معهم، ريثما نتمكن من خراب البلد»<sup>(٤)</sup>.

وقد تألم الناس على ما يفعلونه، ووقع فيهم الضجيج والبكاء، لأن عسقلان كانت مدينة نضرة خفيفة على القلب، محكمة الأسوار، عظيمة البناء، مرغوبة في سكانها حتى سميت (عروس الشام) لحسنها<sup>(٥)</sup>.

وبعد إكمال تخريبها أمر بإضرام النار فيها. وهاجرها أهلها وتفرقوا بين مصر والشام<sup>(٦)</sup>، واستمرت أعمال التخريب والحرق إلى مستهل رمضان ٥٨٧هـ/ نهاية أيلول ١١٩١م<sup>(٧)</sup>. ولم يكد الجيش يفرغ من تخريب عسقلان حتى سار إلى يبنى مقر قيادة العادل، ثم مضى إلى الرملة<sup>(٨)</sup>.

أما ريتشارد فإنه انشغل بإقامة التحصينات في يافا، ولم يخاطر في الهجوم على بيت المقدس،

(١) الفتح القسي، ٥٥٠.

(٢) الفتح القسي، ٥٥٠. الكامل، ٧١/١٢. الروضتين، ١٩٢/٢. شفاء القلوب، ١٧٢.

(٣) النوادر، ١٨٦. مرآة الزمان، ٤١٠/٨. الروضتين، ١٩٢/٢. مفرج الكروب، ٣٦٩/٢. وفيات الأعيان، ١٩٨/٧.

النجوم الزاهرة، ٤٦/٦.

(٤) النوادر، ١٨٨.

(٥) معجم البلدان، ١٢٢/٤. آثار البلاد، ص ٢٢٢.

(٦) النوادر، ١٨٧. النجوم الزاهرة، ٤٦/٦.

(٧) النوادر، ١٨٨. السلوك، ١٠٦/١. وفيات الأعيان، ١٨٩/٧.

(٨) النوادر، ١٨٩. الروضتين، ١٩٢/٢. مفرج الكروب، ٣٧٠/٢.

لأنه إذا غامر بالمسير نحو هذه المدينة، فثمة احتمال قوي أن يقوم جيش صلاح الدين بقطع طريق الاتصال بينه وبين البحر، فكان من الحكمة والتعقل أن يتأكد من مناعة يافا قبل أن يشرع في مغامراته، لأن الخسارة تكون أشد وجعاً لسمعة الصليبيين إذا استولوا على المدينة ثم يضطرون إلى تركها ثانية<sup>(١)</sup>.

ومع ذلك فإن التمهّل والارجاج أضحيا بالغي الطول، فتهيأت لصلاح الدين الفرصة لتدعيم وسائل الدفاع عن المدينة المقدسة، وتنظيم صفوف جيشه للجولة التالية في وقت كان الصليبيون ينعمون بأسباب الراحة في يافا. فاهتمام ريتشارد بيافا وتعميرها لم يقل عن اهتمام صلاح الدين بتدمير عسقلان، لأن القائد الصليبي أدرك أنه يتعذر عليه أخذ بيت المقدس دون إحكام سيطرته على يافا ولاسيما وأن عسقلان قد تم تخريبها.

#### ٤- تنظيم الدفاع عن القدس:

لم يعد صلاح الدين إلى القدس إلا متأخراً، في آخر ذي القعدة ٥٨٧هـ، إلا أنه أرسل إليها الملك العادل لتفقد أحوالها، والنظر في عمارتها<sup>(٢)</sup>. وفضل أن يقيم في المناطق القريبة منها التي خربها الجيش، أي بالقرب من الرملة. وقصد من ذلك أن يكون قريباً من العدو، ومن القدس معاً، حتى إذا فكر العدو بالاغارة على القدس منعهم وتصادم معهم في لقاء مكشوف.

وفي ٦ شوال جمع صلاح الدين «أكابر أمرائه وأرباب الامراء في دولته وشاورهم كيف يصنع إن خرج العدو، وكان قد تواصلت الأخبار عنهم أنهم قد اتفقوا على الخروج إلى العسكر الإسلامي، فاتفق الرأي على أنهم يقيمون في منزلتهم، فإن خرج الفرنج كانوا على لقائهم»<sup>(٣)</sup>.

وفعلاً وصل اثنان من الصليبيين المستأمنين إلى معسكره وأخبراه أن العدو على عزم الخروج بعد غد. ثم وصل أحد المسلمين الذي كان أسيراً لديهم، وهرب من معتقله، وأخبر أنهم ينوون الخروج، عندها بدأ صلاح الدين بتحسين القدس، وأرسل إلى البلاد يطلب رجالاً يقومون بهذه الأعمال. وعمل السلطان وأولاده وأمراؤه فيها، ومعهم القضاة والعلماء والفقهاء<sup>(٤)</sup>. ووصل من الموصل جماعة كبيرة تقدر بخمسين رجلاً من الحجارين برسم قطع الصخور، لتقوية أسوار القدس وخذقها<sup>(٥)</sup>.

وحين انتهى من هذا العمل أمر الجاوش أن ينادي بالعسكر حتى يتجهز وشدت الرايات، للوقوف بوجه العدو. وفي هذا الوقت نكب الجيش الأيوبي بوفاة أبرز قواده هو تقي الدين عمر في منطقة

(١) Kerr, The Crusades designed, p. 55.

(٢) النوادر، ١٩٢.

(٣) النوادر، ص ١٩٦-١٩٧.

(٤) الفتح القسي، ٥٦٥. مفرج الكروب، ٣٧٥/٢. الروضتين، ١٩٤/٢.

(٥) الكامل، ٧٤/١٢. الفتح القسي، ٥٧٩. الروضتين، ١٩٤/٢. مفرج الكروب، ٣٧٥/٢.

الجزيرة، وقد تألم له السلطان كثيراً، إلا أنه أخفى الخبر عن العسكر لكي لا يصل الخبر إلى العدو في تلك اللحظة الحرجة<sup>(١)</sup>. وكذلك توفي القائد الشجاع الأمير حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ابن أخت صلاح الدين، لمرض اعتراه، يوم وفاة تقي الدين عمر، وهو ١٩ من رمضان ٥٨٧هـ / خريف ١١٩١م<sup>(٢)</sup>.

ويحتمل أن خبر استعدادات الجيش الأيوبي وصل إلى ريتشارد، فلم يشأ أن يلتقي معه في مصاف، إضافة إلى إلحاح هذا الملك على مبدأ المفاوضات، لتكون الأساس للعلاقة بين الطرفين، كما أظهرت أحداث الأيام التالية. وما ان حل شتاء ٥٨٧هـ / ١١٩١م إلا توقف الطرفان ولم يحصل أي صدام أو لقاء بينهما، فرحل صلاح الدين حين اشتدت الأمطار إلى القدس، وعاد الصليبيون إلى يافا، وذهب قسم منهم إلى عكا. لكن ريتشارد ما انفك يبعث برسله إلى صلاح الدين، يحثه على الصلح. ونجد أن صلاح الدين كان غير متحمس في عقد الصلح، لكنه كان يبغى الاستفادة من جو المفاوضات في هذا الفصل الذي رحلت عنه جيوش أمرائه، وقفلت راجعة إلى أوطانها. لذا طلب من الملك العادل - مرة أخرى - أن يماطل ريتشارد إلى أن تصل عساكر الأطراف. فغادر الملك العادل القدس في بداية ربيع الأول سنة ٥٨٨هـ / آذار ١١٩٢م<sup>(٣)</sup>. إلا أن المفاوضات لم تشر، عندها قامت جماعات من الصليبيين باحتلال بعض المدن والحصون التي كان دفاعها ضعيفاً، مثل مدينة عسقلان التي أعاد ريتشارد تعميرها<sup>(٤)</sup>، وجعلها أمنع قلعة على كل الساحل الفلسطيني<sup>(٥)</sup>. وكذلك احتلوا حصن الداروم الذي أمر صلاح الدين بتخريبه في وقت سابق، وحين احتله ريتشارد نكل بالمدافعين عنه<sup>(٦)</sup>. واحتلوا حصوناً ومواقع أخرى صغيرة على الساحل الفلسطيني.

#### ٥- استعداد ريتشارد لفتح القدس:

مع فجر يوم جمادى الآخرة ٥٨٨هـ / حزيران ١١٩٢م، قام ريتشارد بالاستيلاء على قافلة كبيرة قادمة من مصر محملة بالبضائع. وقد ساعده في عمله هذا جماعة من بدو صحراء النقب الذين يسميهم ابن شداد (العرب المفسدون)<sup>(٧)</sup> الذين تعاونوا مع الصليبيين. وأخبروا ريتشارد بنياً قدوم القافلة وارشده على الجهة التي نزلت فيها، وكان تأثير هذا الحادث كبيراً، نظراً لحاجة الجيش الإسلامي الشديدة إلى ما كانت تحمله القافلة، وما كان فيها من رجال محاربين الذين تددوا في

(١) النوادر، ١٩٨. الفتح القسي، ٥٦٦. الروضتين، ١٩٤/٢. مفرج الكروب، ٣٧٥/٢.

(٢) النوادر، ١٩٣. الفتح القسي، ٥٧١. الروضتين، ١٩٥/٢.

(٣) النوادر، ٢٠٥.

(٤) الكامل، ٧٨/١٢.

(٥) رنسيما، ١٢٠/٣.

(٦) النوادر، ٢١٠. الروضتين، ١٩٦/٢.

(٧) النوادر، ١١٣، الروضتين، ١٩٨/٢. مفرج الكروب، ٣٨٣/٢.

البرية، ورموا ما كان معهم، وكان السعيد فيهم - حسب قول ابن شداد - من نجا منهم. ووصف هذا المؤرخ وغيره هذه الكيسة بأنها «وقعة شنعاء لم يصب الإسلام بمثلها منذ مدة مديدة»<sup>(١)</sup>. وقالوا: «قد حصل للفرنج من الظهر ما يحملهم وينهضهم، ومن المال ما يبظروهم ويحرضهم. ومن الآن يقابلهم وبأي عسكر وعدة نقاتلهم»<sup>(٢)</sup>. وتضايق السلطان من الحادث كثيراً، إذ «ما مر به خبر أنكى منه في قلبه، ولا أكثر تشويشاً منه لباطنه» وأخذ ابن شداد يسكن من روعه ويسليسه، وهو لا يقبل التسلية<sup>(٣)</sup>. في حين كان للحادث أثره الطيب على الصليبيين، فبنجاحهم فيه «صح عزمهم على القدس، وقويت نفوسهم بما حصلوا عليه من الأموال والجمال والميرة والأزواد الواصلة من مصر مع عسكرها»<sup>(٤)</sup>.

عندها قام صلاح الدين بتقسيم أسوار القدس على أمرائه، وتقدم إليهم بتهيئة أسباب الحصار وأخذ في إفساده المياه المحيطة بالمدينة، وأخرب الصهاريج والجباب، بحيث لم يبق حول القدس ما يشرب أصلاً. مما سيجعل العدو في حالة عطش شديد، إذا حاول الهجوم على القدس، كما حصل لهم عند حطين، ولاسيما وأنه كان من الصعب عليهم حفر آبار جديدة فيها، لأن أرض القدس كانت أرضاً صخرية صلبة للغاية<sup>(٥)</sup>. ثم أرسل في إثر قواته للقدوم وتنظيم الدفاع عن القدس. فجاءه الملك، الأفضل مع العساكر الشرقية. وكان قد وصل منذ أمد بدارالدين دلدوم البياروقي مع خلق كبير من التركمان، وكان أول القادمين، وتبعه عزالدين ابن المقدم<sup>(٦)</sup>.

أما القادة الذين كانوا مع السلطان في القدس فمنهم ولده الملك الظافر والأمير أبو الهيجاء الهذلي (السمين) وبهاء الدين قراقوش وسيف الدين المشطوب الذي خرج من أسره في عكا توأماً، ووصل القدس في مستهل جمادى الآخرة من السنة. واستطاع الأمير شيركوه بن باخل الهرب من السجن في عكا بطريقة عجيبة بمساعدة الأمير الأسير ابن باريك<sup>(٧)</sup>.

دعا صلاح الدين هؤلاء الأمراء وغيرهم إلى مجلس حريه، لاستشارتهم واتخاذ قرار بشأن كيفية الدفاع عن القدس، فحضرها جميعاً، وكان على رأس الحضور الأمير أبو الهيجاء السمين الذي حضر بمشقة عظيمة، وجلس على كرسي في خدمة السلطان. وطلب السلطان من القاضي ابن شداد أن يفتتح الجلسة، فتحدث هذا في بداية كلامه عن فضل الجهاد، ودعاهم إلى الاقتداء بالرسول الأعظم. فاستحسن الجميع كلامه، ثم سكتوا وكان على رؤوسهم الطير، وبعد هنيهة شرع صلاح الدين في

(١) النوادر، ٢١٤. مرآة الزمان، ٤١٥/٨. الروضتين، ١٩٨/٢. مفرج الكروب، ٣٨٤/٢. شفاء القلوب، ١٧٤.

(٢) الفتح القسي، ٥٩٤.

(٣) النوادر، ٢١٥.

(٤) النوادر، ٢١٥. مرآة الزمان، ٤١٦/٨. الروضتين، ١٩٨/٢. مفرج الكروب، ٣٨٤/٢.

(٥) النوادر، ٢١٥. الروضتين، ١٩٨/٢. مفرج الكروب، ٣٨٥/٢.

(٦) النوادر، ص ٢١١.

(٧) النوادر، ١٩٤. مفرج الكروب، ٣٧٣/٢.

الكلام، وضمن ما قاله: «إن دماء المسلمين وأموالهم وذرايبهم معلقة في ذمكم، فإن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم، فإن لو يتم أعنتكم، طوى البلاد كطي السجل للكتاب، وكان ذلك في ذمتكم، فإن أنتم الذين تصديتكم لهذا وأكلتم مال بيت المال، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام»<sup>(١)</sup>. فانتدب لجوابه الأمير سيف الدين المشطوب، وقال: «يا مولانا، نحن مماليكك وعبيدك، وأنت الذي أنعمت علينا وكبرتنا وعظمتنا وأغنتنا، وليس لنا إلا رقابنا وهي بين يديك، والله ما يرجع أحد منا عن نصرتك إلى أن يموت». ووافق على كلامه بقية الحضور، فسر بذلك السلطان.

لكن الأمراء سرعان ما تراجعوا عن موقفهم في اليوم التالي، كما أخبر بذلك أبو الهيجا. فقد أعلنوا بأن من الخطأ أن يحصروا أنفسهم داخل القدس، لأنهم يخافون أن يجري عليهم ما جرى على أهل عكا. وأنهم يرون أن يكون لقاءهم خارج أسوار القدس، وقالوا: «إن قدر الله أن نهزمهم ملكنا بقية بلادهم، وإن تكن الأخرى - أي الهزيمة - سلم العسكر ومضت القدس»<sup>(٢)</sup>.

لم يقتنع صلاح الدين بجواب الأمراء لأن «أمر القدس عنده أمر عظيم لا تحمله الجبال» بل إنهم ردوا عليه بخشونة اعتادوا عليها منذ أمد، كما ذكرنا، ويبدو أن الصراع بين عناصر جنده وأمرائه من الأكراد والتركمان قد ذر قرنه، وبلغ مستوى خطيراً، وظهر ذلك من كلامهم حين قالوا: «إنك إن أردتنا فتكون (داخل القدس) معنا، أو بعض أهلك، حتى نجتمع عنده، وإلا فالأكراد لا يدينون للأتراك والأتراك لا يدينون للأكراد»<sup>(٣)</sup>.

والواقع أن صلاح الدين صار في وضع لا يحسد عليه، وقد أحس ابن شداد بهذا العجز بوضوح حين طلب منه أن يفوض أمره إلى الله، وأن يعترف بعجزه أمامه فيما تصدى له، لعل الله يستجيب لدعائه. وقد رآه المؤرخ وهو يصلي، و«دموعه تتقاطر على مصلاه» حين يسجد. ومر يوم الجمعة الثقيل، ثم جاء رجال استخباراته ليعلنوا أن الصليبيين قرروا إيقاف زحفهم تجاه القدس.

يقول ابن الأثير إن ريتشارد طلب من الصليبيين القدامى (الفرنج الشاميين) أن يصوروا له وضع مدينة القدس، والاستحكامات التي أقامها صلاح الدين حولها، فصوروا له كل ما طلب. وحين دقق في وضع المدينة قال: هذه مدينة لا يمكن حصارها مادام صلاح الدين حياً، وكلمة المسلمين مجمعة<sup>(٤)</sup>. وهذا الموقف جعل الصليبيين ينقسمون بين من يطلب بالهجوم على القدس، وبين من ينادي بالتوقف، وكان ريتشارد مع الفريق الثاني.

في حين كان الفرنسيون مع الرأي الأول حين قالوا: «نحن إنما جئنا من بلادنا بسبب القدس، ولا

(١) النوادر، ٢١٦. الروضتين، ١٩٨/٢. مرآة الزمان، ٤١٦/٨. مفرج الكروب، ٢٨٦/٢.

(٢) النوادر، ٢١٧. الروضتين، ١٩٩/٢. مرآة الزمان، ٤١٦/٨. مفرج الكروب، ٢٨٧/٢.

(٣) النوادر، ٢١٧. الروضتين، ١٩٩/٢. مفرج الكروب، ٣٨٨/٢.

(٤) الكامل، ٧٥/١٢.

نرجع دونها». ورد عليهم ريتشارد: «إن هذا الموضوع قد افسدت مياهه، ولم يبق حوله ماء أصلاً، فمن أين نشرب؟ فقالوا: نشرب من ماء نقوع<sup>(١)</sup>» الواقعة بالقرب من القدس بمقدار فرسخ... ونكتفي بالشرب في اليوم مرة واحدة<sup>(٢)</sup>. وقد لجأ الصليبيون إلى مبدأ الانتخاب، وأخذ الأصوات، لتحكيم رأي الأغلبية، فكان القرار هو إيقاف الهجوم، فرحلوا نحو الرملة<sup>(٣)</sup>. وسر بذلك السلطان كثيراً. ويبدو أن كلا من القائدين الإسلامي والصليبي لم يكن يدرك تماماً ما وقع في مقر قيادة كل منهما. ومن المرجح أن الصليبيين قد بالغوا في تقدير ما قد يتعرضون له من مقاومة من المسلمين، وما تعرض له صلاح الدين من قلق شديد. ولا ريب أن حدة قلق صلاح الدين كانت تتضاءل لو أنه علم ما كان يجري في المعسكر الصليبي من انقسام في الرأي، وصراع بين الفرنسيين والانكليز، أدى إلى قرار إيقاف الزحف على بيت المقدس<sup>(٤)</sup>.

#### ٦- حصار يافا الفاشل:

يعتبر حصار يافا، وما نجم عنه، آخر صدام مسلح بارز وقع بين الجيش الأيوبي وبين الصليبيين. فكما أسفلنا اتخذ ريتشارد من هذه المدينة الغنية بالفواكه، وذات المناخ الطيب، قاعدة لجيشه، إثر انتصاره على صلاح الدين في أرسوف، نظراً لقربها من مدينة القدس. وأراد صلاح الدين وأمرؤه استغلال وجود ريتشارد في عكا، ومحاولته غزو بيروت<sup>(٥)</sup>، في تنظيم حملة على يافا. ومن المحتمل أن صلاح الدين استهدف من عمله تحقيق هدفين اثنين، فقد أراد الحصول على يافا في غياب ريتشارد، لعله يحرز انتصاراً بعد مرارة الهزائم المتكررة التي صارت تلاحق جيشه، واستهدف بعمله هذا أن يعيد الثقة إلى جنده<sup>(٦)</sup> الذين باتوا ينظرون إلى قائدهم غير النظرة السابقة. ومن المحتمل أنه أراد أيضاً أن يمنع ريتشارد عن قصد بيروت. بدأ صلاح الدين يعيبيء جيشه ويرتب أطلايه، ووضع على جناح الميمنة ولده الملك الظاهر صاحب حلب، وعلى اليسرة وضع أخاه الملك العادل، أما هو فقد قاد القلب، وحملوا في المؤخرة المؤن والاعتدة وآلات الحصار وسار نحو يافا صباح ١٥ رجب ٥٨٨هـ/٢٦ تموز ١١٩٢م، فوصلوا إلى أسوارها، فنصبوا على المواضع الضعيفة منها المنجنيقات. وفي اليوم التالي بدأ المسلمون بزحفهم، وأخذ النقبابون بنقب أسوار الجهة الشمالية من الباب

(١) نقوع: قرية من قرى بيت المقدس. معجم البلدان.

(٢) النوادر، ٢١٧-٢١٨. الروضتين، ١٩٩/٢. مفرج الكروب، ٣٩٠/٢.

(٣) النوادر، ٢١٨. مرآة الزمان، ٤١٧/٨. الروضتين، ١٩٩/٢. مفرج الكروب، ٣٩١/٢. السداية والنهاية، ٣٤٩/١٢. شفاء القلوب، ١٧٥.

(٤) Grousset, Vol. 111, p. 109.

(٥) الفتح القسي، ٥٩٨. النوادر، ٣٢٢. الروضتين، ٢٠٠/٢. مفرج الكروب، ٣٩٣/٢.

(٦) النوادر، ٢٢٥.

المذكور، واستطاعوا إحداث ثغرة فيها. واستمر نقب السور ونصب المنجنيقات ليلاً حتى دخلوا المدينة. ولعلها المعركة الوحيدة التي ظلت مستمرة «إلى أن مضى من الليل مقدار ثلثه»<sup>(١)</sup>. وأبدى المدافعون عن يافا شجاعة في الذب عن المدينة، مما أضعف قلوب المهاجمين، واسترعى انتباه المؤرخ ابن شداد الذي شارك في هذه العملية العسكرية.

وعلى الرغم من أن الجنود نصبوا منجنيقاً ثالثاً، إلا أن السلطان لاحظ أن حماسهم قد فتر. والواقع أن الفتور صار شيئاً ملحوظاً على جند صلاح الدين في أكثر من موقعة. ففي الوقت الذي نراهم يتحمسون في بداية الصدام، إلا أنهم سرعان ما يصيبهم الفتور.

لم يدع صلاح الدين جنده بهذا الحال، بل «حملهم على الزحف، والتحم القتال واشتد الأمر حتى أشرف البلد على الأخذ»<sup>(٢)</sup> إلا أن العدو استطاع أن يصرع البعض وجرح آخرين بالسهم والزنبورك، وكان من بين الجرحى الحاجب أبو بكر وختلج والي بعلبك، الذي أصيب بعينه، وطفول لتاجي، وسراستقر في وجهه، أما اياز جركس فقد أصيب في يده، وكانوا من الامراء المعروفين.

رأى الصليبيون أن دفة القتال صارت تسيير لغير صالحهم، فاضطروا إلى طلب الصلح، فبعثوا رسولين كان أحدهما من نصارى المدينة لمعرفته بالعربية. وحين وصل الرسولان إلى السلطان طلب منهم قاعدة القدس وقطيعتها، فوافقوا على ذلك، إلا أنهم طلبوا من صلاح الدين التريث إلى يوم السبت (١٩ رجب) ريثما تصلهم النجدة وإلا تمت القاعدة. فرفض السلطان ذلك لمرتين متتاليتين. إلا أن جو المفاوضات أثر على حماس المحاربين المسلمين، وجعلهم يفترون مرة أخرى «سكوناً إلى الدعة على جاري العادة» حسب تعبير ابن شداد<sup>(٣)</sup>.

لكن صلاح الدين أمرهم بحشو النقوب ووضع النار فيها، فسقط جزء آخر من السور، فعمد المدافعون إلى وضع قطع ضخمة من الأخشاب لمنع المسلمين من الدخول من الثلمة، ومرة أخرى يشيد المؤرخ المذكور بشجاعة الصليبيين ودفاعهم المستميت عن يافا، واستمر القتال إلى أن حل الظلام، دون الوصول إلى نتيجة واضحة، رغم ما أحدثته المسلمون من نقوب في السور. وقرر السلطان مع أمرائه أن يقيموا خمسة مجانيق أخرى لك أسوار المدينة، وأرسل الجنود إلى أماكن بعيدة ليجمعوا حجارة المنجنيق من بطون الأودية.

بدأ الجيش بأجنحته الثلاثة بقيادة صلاح الدين والملك العادل والملك الظاهر هجوماً منتظماً شديداً، وارتفعت الأصوات، وضربت الكوسات، وخفقت البوقات، ورميت المنجنيقات... واشتد عزم النقبين في إيقاد النار، واستطاعوا من إسقاط بدنة السور قبل أن ينتصف النهار، وكان وقوعها كوقوع الصاعقة عليهم، عندها بدأ الزحف الجماعي، ومع ذلك فهم «على القتل أشد وأحزم، وعلى الموت أعز

(١) النوادر، ٢٢٣. مفرج الكروب، ٢/٣٩٤.

(٢) النوادر، ٢٢٣.

(٣) النوادر، ٢٢٣.

وأكرم، ورأى المسلمون هولاً عظيماً من صبر القوم وثباتهم» فقد سدوا النقب بأسنة حرابهم حتى «سدت الثلمة عن نفوذ الأبصار».

كرر الصليبيون إرسال الرسولين لعرض مشروع الصلح على السلطان، فوافق على ذلك، وطلب أن يجري تبادل الأسرى بين الطرفين بحيث يكون الفارس بفارس والتركلي بمثله والرجل بالرجل<sup>(١)</sup>. إلا أنه عاد عن كلامه، إذ رأى شدة قتال بني قومه، فطلب من السلطان أن يأمر بإيقاف القتال ريثما يعود إلى جماعته للتشاور. فرد عليه صلاح الدين بقوله: «لا أقدر على منع المسلمين من هذا الأمر، لكن ادخل إلى أصحابك، وقل لهم ينحازون إلى القلعة ويتركون الناس يشغلون بالبلد، فما بقي دونه مانع»<sup>(٢)</sup>.

عاد الرسول إلى جماعته، وأبلغهم طلب صلاح الدين، فانحازوا إلى قلعة المدينة واشتدت القاعدة على الوجه الذي قرره السلطان. فدخل الناس المدينة عنوة، ونهبوا ما فيها من أقمشة كثيرة وغلال، من الأحمال المأخوذة من القافلة المصرية التي سبق وأن كيسها الصليبيون<sup>(٣)</sup>.

وفي عصر اليوم التالي العشرين من رجب وصل أحد رجال البريد قادماً من عند الأمير قايماز النجمي الذي كان نازلاً في طرف المدينة ليستطلع أخبار ريتشارد، أو أخبار ورود نجدة للمدينة من عكا، وأخبر رجل البريد أن ريتشارد حين سمع خبر ما يحدث في يافا أعرض عن قصد بيروت، وأنه الآن في طريقه من عكا إلى يافا<sup>(٤)</sup> فاشتد عزم السلطان على أخذ المدينة بما فيها القلعة «غير أن الناس قد أفعدهم التعب عن امتثال الأمر، وأخذ منهم الحديد وشدة الحر ودخان النار» بحيث لم تعد لهم القدرة على الاستمرار في مضايقة القوم.

وفي فجر اليوم التالي سمعوا صوت البوق، فعلموا أن النجدة في طريقها إلى الصليبيين. عندها أوعز صلاح الدين إلى المؤرخ ابن شداد أن يذهب إلى الملك الظاهر ويطلب منه أن يأمر جنده بالقيام بحراسة الباب الجنوبي (القبلي) للمدينة، فصعد (ابن شداد) إلى القلعة ومعه الأمراء عزالدين جورديك وعلم الدين قيصر ودرباس المهراني وشمس الدين<sup>(٥)</sup> لإخراج الصليبيين منها، والاستيلاء عليها وعلى ما فيها من الأموال والأسلحة. إلا أن الصليبيين امتنعوا من ترك القلعة، فقد علموا أن

(١) النوادر، ٢٢٤. الروضتين، ٢٠١/٢. وهذا النص له أهميته الخاصة، إذ انه يدل على ان الجيش الايوبي وجدت فيه جماعات التركلي. انظر المفرج ٣٩٥/٢ على الرغم من ان الشواهد التاريخية تنفي وجودها، إذ ان الجيش الإسلامي لم يحارب في صفوفه سوى الجماعات الإسلامية. علما ان ابن شداد ينفرد بذكر التركلي في هذه المناسبة، ولا يذكره العماد او غيره من المؤرخين المعاصرين.

(٢) النوادر، ص ٢٢٤

(٣) النوادر، ص ٢٢٤. الفتح القسي، ٥٩٨. الكامل، ٨٤/١٢. الروضتين، ٢٠١/٢. مفرج الكروب، ٣٩٥/٢.

Lane - Pool, p. 345.

(٤) النوادر، ٢٢٥. الروضتين، ٢٠١/٢.

(٥) النوادر، ٢٢٥. الروضتين، ٢٠١/٢، مفرج الكروب، ٣٩٦/٢.

ريتشارد في طريقه إليهم فينبغي عدم التفريط بالقلعة. بل إنهم نظموا هجوماً على المسلمين وحملوا من القلعة حملة الرجل الواحد، وأخرجوا من كان في البلد من الأجناد. فذهب ابن شداد ليخبر السلطان على ما جرى، فأمر الجاوش ونادى في العسكر وضرب الكوس للقتال، وهاجموا البلد، وحاصروا العدو في القلعة من جديد، واضطروهم إلى طلب الأمان مرة أخرى، فأرسلوا بطريقتهم ومعه مستحفظ القلعة مبعوثين إلى السلطان ليعتذروا عن ما جرى، ويطلبان الصلح على القاعدة.

كل هذه الظروف المؤاتية لم يستثمرها صلاح الدين كما ينبغي لحسم الموقف بشكل نهائي، وفرض شروطه عليهم بقوة السلاح كما كان الصليبيون يفعلونه. فظلت المسألة معلقة دون حل، وكان صلاح الدين لم يكن يعرف ماذا يريد، ولماذا يحارب جيشه، فكانت النتيجة وصول ريتشارد، وخروج المسلمين من دون مكسب. وهنا نلمس الفرق الواضح بين وضع الجيش الأيوبي المتضعع، وبين اندفاعه العارم في أعقاب حطين، وكيف تهاوت القلاع والمدن الحصينة، الواحدة بعد الأخرى، بتلك السرعة المدهشة. إلا أن هذا العمل العسكري الفاشل كان ينسجم مع الخط التنازلي الذي صار سمة عملياته منذ اخفاقه في صور وما تلاه.

وكان سبب تأخير وصول ريتشارد إلى يافا طيلة تلك الفترة، رغم وصوله قرب الميناء منذ أمد، هو أنه وجماعته رأوا البلد من بعيد ترفرف عليه بيارق المسلمين، فتصوروا أن القلعة قد أخذت، ولاسيما وأن صوت البحر كان يمنع صوت إغاثة صليبيي يافا من الوصول إلى ريتشارد، إضافة إلى «كثرة الضجيج والتهليل والتكبير من جانب المسلمين». وكان الصليبيون يشاهدون مراكب ريتشارد الخمسين قد رست في الميناء، ولكنها لا تستطيع مد يد العون إليهم.

فما كان من رجل صليبي إلا ووهب نفسه للمسيح - حسب تعبير ابن شداد - وقفز من القلعة إلى الأسفل، ووقع على الرمال المحيطة بالقلعة، فلم يصب بأذى، فهرع مسرعاً إلى البحر، فنقلته إحدى السفن إلى الملك الانكليزي في الحال، فأخبره بما يجري في يافا، وأن قلعتها ما زالت بيدهم. فانطلق ريتشارد نحو المدينة بقوة لم تتجاوز ثمانين فارساً مدرعاً، وأربعمائة من الرماة، ونحو ألفين من البحارة الايطاليين<sup>(١)</sup> فوصلوا إلى يافا وحملوا على المسلمين حتى دحروهم.

وكان ابن شداد يراقب ما يجري ويشاهد تحركات ريتشارد بنفسه، فذهب مسرعاً إلى صلاح الدين وأخبره بما شاهده. فأمر السلطان عسكره بالحملة على الصليبيين والوقوف في وجه ريتشارد، فامتنعوا عن ذلك، وتقدم إليه الأمير الجناح، أخو سيف الدين المشطوب وكلمه بأسلوب قاس. فغضب صلاح الدين من كلامه<sup>(٢)</sup>. ولم ير صلاح الدين بدأً من الانسحاب من يافا، فطلب من أصحابه التوجه إلى يازور) الواقعة على مسافة خمسة أميال من البحر، إلى الشرق من اللد، مخلفين وراءهم الغنائم

(١) رنسيان، ١٣٦/٣.

(٢) الكامل، ٨٥/١٢. مرآة الزمان، ٤١٨/٨.

التي حصلوا عليها خلال احتلالهم القصير ليافا<sup>(١)</sup>. ومع ذلك فإن ريتشارد جدد طلب عقد الصلح، ورغب اللقاء ببعض أمراء صلاح الدين الذين توطدت بينه وبينهم أواصر صداقة، من أمثال بدرالدين دلدرم وأبي بكر العادلي وأبيك العزيزي وسنقر المشطوب<sup>(٢)</sup>، وحين حضروا قال لهم: هذا السلطان عظيم، وما في الأرض للإسلام ملك أكبر ولا أعظم منه، كيف رحل عن المكان بمجرد وصولي، والله ما لبست لأمة حربي، ولا تأهبت لأمر، وليس في رجلي إلا زربول (حذاء) البحر. وأضاف إلى قوله: «والله إنه عظيم، ما ظننت أنه يأخذ يافا في شهرين، فكيف أخذها في يومين وألح على مطلبه في الصلح<sup>(٣)</sup> وقد أثمر إلحاحه هذه المرة، كما رأينا.

(١) النوادر، ٢٢٧. الروضتين، ٢/٢٠١. مرآة الزمان، ٨/٤١٨. مفرج الكروب، ٢/٣٩٨.

Lane - Pool. saladin, p. 308.

(٢) النوادر، ٢٢٧. الروضتين، ٢/٢٠١. مفرج الكروب، ٢/٣٩٨.

(٣) النوادر، ٢٢٨. الروضتين، ٢/٢٠٢. مفرج الكروب، ٢/٣٩٨ البداية والنهاية، ١٢/٣٥٠.

## THE SCOPE OF THE RESEARCH

The study of the military aspects in history is one of the most important subjects of which our libraries are in dire need. For the military researchers in the Islamic history are still in the initial stage, whereas the other aspects had received much the greater share, especially its political and cultural aspects. It is this that prompted me to select that period in which Salahud-din led the Islamic armies to liberate the Syrian lands from the crusade occupation, as soon as the circumstances became propitious for him to assume the position of the supreme responsibility, after the death of the Sultan Nurud-din Mahmud bin Imadud-din Zengi, and depending on the enormous human power reserve which came under his discretion and the economic capacities of Syria, Egypt and Jazerah, in addition to his talents for organization and leadership, and his military accomplishment.

The military type of the study requires refraining from following the lead of the political history, so we avoid tailing in detail of the early seventh through which Salahud-din had lived together with his family in Syria, then the developments in Egypt had witnessed and how he could weld in his hand the reign of power there, as well as his coming to Damascus and the details of his movements in Syria, then his assuming the remainder of Nurud-din authority there; we also avoid entering into details of his relations with the other Islamic dynasties, such as the Abbasid caliphate in Baghdad and the Atabegs of Mosul and the Jazerah princes and others, also his relations with Armenian leaders and the Byzantine Empire, except where extreme necessity requires some casual comments.

We try not to limit ourselves entirely to the quarter of a century during which Salahud-din governed Egypt, then Syria. For organizations and institutions (military, administrative, economic, etc) would not disappear with the end of a period and of the new period, but they continue in the bosoms of the new regime for a while, then start to weaken and wither away if such was the destiny deemed for such institutions or else, they would commence a new period of growth and prosperity. For it is a thorny problem in the study of organizations to demonstrate a proof of the contribution rendered by this state or that regime, i.e, the new types of institutions and traditions. It is a fact that a certain state can not lay the bases of its organizations without borrowing those which are older than itself, in particular those military organizations which suited its circumstances. Then new fermentations begin, and new issues sprout in order to be added to the previous experiences; and from all that

emerge organizations attributable to the new state.

The organizations of the Ayyubid military state did not deviate from this rule. And if we exclude the radical changes carried out by Salahud-din in Egypt especially in the structure of the Fatimid Army and Navy, we shall see that the Ayyubid state followed, mostly, in the footsteps the Zengid traditions which tainted it with its own color, and this is because the Ayyubid originally rose to prominence on the behest of Imadud-din Zengi and his son Nurud-din Mahmud, and because Syria had become the arena on which the army of Salahud-din moved, and in this way the Ayyubid organizations appeared as if they were extensions from the organizations of Nurud-din's state. Qalquashandi would mean the same when he states that: "The Ayyubids upon succeeding the Fatimid state and replacing it in Egypt, differed much in structure from it, and changed most of its appearances, and it followed on the footsteps of the Atabeg state as it was standing at the time of Imadud-din at Mosul, then his son Al Malik Al adil Nurud-din Mahmud in Syria". Perhaps this continuity is more applicable to the army organization and the increase in recruits and to the feudalism and maintenance of mamluks than to other aspects. We do explain this through the chapters of this thesis.

We are not concerned with the detailed study of the military organization in the Nurid or Zengid state, for this will drag us beyond the scope of this subject and returning backward to organizations preceded the Atabegid organizations, in particular to Saljuqid state from which the Atabegids sprang. Or, as Abdul-Mahasin Ibn Taghri Barada stated that: "The Buwayids promoted the Saljuquids and Saljuquids promoted Artuquids an Aq Sungur the grand father of Zengids. Then the latter sponsored the Ayyubids the Sultans of Egypt (and Syria), then the Ayyubids sponsored the Mamluks and the state of the Turks, and, behold, such are the twists and turns of fortune as dynasties auspices and sponsor one another to this day?" (i.e up to the time of the historian).

In addition, our thesis is not a comparative study including the study of the Ayyubid Salahud-din an army as it stood, with shedding, whenever necessary, the light on the preceders in the Nurid army in Syria and Jazerah, and in the Fatimid army in Egypt; we shall see that our knowledge of the structure of the Nurid regiment which Asadud-din Sherkow, Salahud-din's uncle, has led to Egypt. in particular in the third (last) campaign that permanently settled in that country of the Nurid army structure in general, taking at the same time into consideration the changes and expansions occurred in the Ayyubid army after it had settled in Syria.

We ought to refer to the fact that we do not take into consideration the Ayyubid

force dispatches to the lands of Yaman, under Salhud-din's brother Al Malik Al Mu'aaz'am Shamsuldawlwh Toran Shah bin Ayyuyb (569-577 H/1137-1181 A.D) because we limit the research to the Ayyubid sultan's army in Egypt and Syria, and because the Yaman did not contribute to any extent in the military efforts of Salahud-din's armies. But we point out otherwise that this campaign of Umar, nephew of Salahud-din to Burqua (Lybia), the news of which soon disappeared, had engaged part of the army by garrisoning these two territories. In fact Turan Shah took a thousand knights to accompany him, except those of his own entourage.

We divide the thesis into seven chapters. In the first chapter we consider the characteristics of the period in which the Fatimid state has passed its last days, and how Egypt deteriorated to a weak state, descending from a zenith power, of a strong, expansive state included within its limits wide regions of Syria and North Africa, and it was its weakness that had motivated the crusaders to aspire for the acquisition of the inexhaustible resources, and to use it to impose their complete control over the Arab lands in Syria, Palestine and Egypt. The internal rivalry for acquisition of ministerial position in Egypt, however, impelled apart among crusaders to request help from Nurud-din Mahmud, who dispatched his forces in successive campaigns to Egypt, and in this way could stop the crusaders' attempts, and settle in Egypt and pave the way for the coup de etat against the Fatimid caliphate.

In this chapter we consider the organization of the Ayyubid army and expatiate in the description of the city of Damascus, and the reasons that made Salahud-din choose it as a centre of his army, from where it was despatched to various battlefields, and how it was made the asylum of the crusaders' captives, and the seat of the department of the army in Syria; we make an exposition of the changes occurred to the military uniform and costumes at Salahud-din's time and his successors such as the head gear or clothes of footwear. Then we deal with the subject of provisions and victuals, with Nurid and Fatimid military feudalism and their extensions under Salahud-din, we deal with the problem of military mobilization and the methods applied, and the case of the private entourage, as well as the Mamluks of the Sultan, the system of (Atlab) and the army ranks according to the weapons of each rank. We consider the case of the volunteers in the Ayyubid army who had been prompted by love of Jihad (holy war) to volunteer and combat the crusading enemy. Then we consider the regiments attached to the army, such as the engineering regiment, the medical regiment and the military musical band, as well as the banner bearers of the army.

In the third chapter we continue the discussion of other auxiliary institutions of the army organization and the management of the battle, peace and prisoners affairs. We divide the chapter into two parts; in one part we discuss the case of the post and Al-Yazak (connaître detachment) and pigeon carrier post (Al-Huwadi) and ambush. We point out that the intelligence of Salahud-din was acquainted with cryptology. In the second part of the chapter we deal with the military consultative council whose members were the princes and commanders who assisted Salahud-din with their opinions on the serious military affairs especially in critical military situations. Then the plans and schemes laid out at each of the battles, the seasons of the military actions or their cessation. Then we discuss the ways of dealing with the crusader's captives, and conclude the chapter with discussing the treaties concluded between Salahud-din and the crusaders, the last of which was the treaty of (Ramla), after which there followed the evacuation of Richard the Lion Heart from Palestine and his return to his country.

We dedicate the fourth chapter to the discussion of weapons of the Ayyubid army, and we have to adopt one of two alternative ways: a discussion of the preliminary usage of these weapons in the Arabic and Islamic history, to single out the innovations introduced by the Arabs or the borrowings from other nations; or a research in the weapons and equipments in use in that period. We choose the second alternative, for we do not search after weapons in general, but only the weapons in use at the time of Salahud-din, we consider the arms arsenal, or the so-called (Silah-Khana) or (Zard Khana), as it was known at the time of the Mamluks. We point out to the places where available the basic natural materials for the manufacturing of arms, such as wood or iron, then we divide the weapons to five kinds, firstly we consider the personal weapons carried by one person, as the sword, the lance, hatchet, and the bow, this last weapon had been developed greatly and many kinds of this weapon appeared; we consider five kinds among which bows implemented by more than one person, and in this way stopped from being personal weapon, yet we regarded them among the bows.

We consider the heavy weapons, among which were fire-throwers; we describe the mangonel and its various kinds, the tank and accessories, we refer to many weapons of the sort of body protection, such as Maghfara, Al- Baida, Jawshan, lastly we consider triangulars and wellers.

In the fifth chapter we consider the sea force navy at Salahud-din's Time, in order to complete the picture of Salahud-din's army. We describe the position and status of Egyptian sea power at the end of the Fatimid era, the reforms Salahud-din

introduced in this domain, then the centres of Egyptian shipbuilding, and the various vessels in the Ayyubid Navy, the equipments and the weapons used in the warships, also the special apparatus used to counter the equipments of the enemy. We consider the successive stages of the development of the Ayyubid sea force. We divided it into three stages: for after the preparatory stage and the laying of basis, there came the second stage, when the Ayyubid navy played a prominent role in the struggle against the powerful crusading sea force in the Mediterranean sea as the arena on which the two navies contested, excluding the unsuccessful landing attempt which the crusaders carried out in on the coast of the Red Sea. The last stage of the sea force building came after the battle of Hattin.

In the last two chapters (6th - 7th) we consider the military activities of Salahud-din's army in the most famous wars he waged against the crusaders, in order to demonstrate the organizations and plans of this army as it a state of movement and practice. In the sixth chapter we try to distinguish between siege battles and open battles, and point to the exemplars among his battles. We did not expatiate all the battles for the details are similar. We consider the failures of the Ayyubid army. We do not confine our considerations to the battles on Syrian and Palestinian arenas, but also describe the blockade of Alexandria carried out by the crusaders and the way the Muslims triumphed over them and foiled their plan to occupy Egyptian coast land once more, after their failure at Dimiatt. Then the successive siege of Karak and the successes of the Ayyubid army in capturing it after Hattin, and also the blockade of the Syrian coast towns, and Salahud-din's success in capturing them, also the liberation of Jerusalem which had a resounding effect all over the Islamic world. We consider the siege of Tyre and its failure, and how this became a turning point in the future behaviour of the Ayyubid army. In the sixth chapter we stop at the end of the decisive battle of Hattin.

In the seventh chapter we consider the prolonged blockade of Acre which had lasted about two years, and the struggle waged between the crusade army besieging the city and the Ayyubid army which was surrounding the crusading army, then the tragic fall of the city, despite the unprecedented courage displayed by the city in opposing the enemy, and the reasons of this fall at the hand of Richard. We consider the events that followed this disaster and the weakness befall the army of Salahud-din, especially at the time of the march towards Askalon. Despite this his army never ceased from harassing crusaders who were led by the king who was able to defeat the Muslims in the woods of Arsuf. These two events (the fall of Acre and the defeat at Arsuf) had compelled Salahud-din to change his previous defensive

plan to new defensive importance which the Ayyubid army was unable to defend, and which were apt to fall into the hands of the crusaders who could make them the starting point for attacking the important centres in Egypt and Jerosalem. This prompted Salahud-din to destroy these castles, and after completing this work he rverted to the organization of the defences of Jerosalem against the expected onslaught of Richard. In the end the Ayyubid army staged the first attack since a long time, taking advantage of the absence of Richard, and tried to capture Jafa, but the undertaking ended in failiure, especially after Richard had come back and continued his negotiations with the comanders of the army of Salahud-din, displaying his desire to conclude armistices eith the Sultan.

As I conclude this exposition Iam under obligation to confess that my study can not succeed in the full exposition of the whole truth, and the expatiation of the in its entirety; this is a far-fetched aspiration, because it is difficult for one study to comprehend all the facts of a subject, and what Iam trying to achieve is no more than an attempt to pave the way for complimentary studies in future. I hope that I have been able to contribute , even to a small degree to the study of this history of Salahud-din, the liberator and holy warrior.

## مصادر ومراجع البحث

### أولاً- المصادر القديمة:

- ابن أبي أصيبعة الخزرجي. أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم (ت١١٦٨هـ/١١٦٩م).
- ١- عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، إصدار دار الفكر، بيروت ١٩٥٧. ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم بن محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزري (ت ١٢٣٣هـ/١٢٣٣م).
- ٢- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل وحلب، تحقيق د. عبد القادر أحمد طليمات، طبع دار الكتب الحديثة بالقاهرة ١٩٦٣.
- ٣- الكامل في التاريخ، دار صادر ودار بيروت، بيروت ١٩٦٦.
- ابن الأزرقي. أبو عبدالله محمد بن علي بن محمد بن علي بن قاسم بن مسعود (ت٨٩٦هـ/١٤٩٠م).
- ٤- بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق د. علي سامي النشار، منشورات وزارة الأعلام العراقية، دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٧٧.
- ابن إياس. أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري (ت٩٣٠هـ/١٥٢٢م).
- ٥- تاريخ مصر (بدائع الزهور في وقائع الدهور)، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، مصر ١٣١١هـ.
- ابن تغري بردي. أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م).
- ٦- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٨.
- ابن جبير. أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير (ت٦١٤هـ/١٢١٧م).
- ٧- رحلة ابن جبير، دار صادر ودار بيروت، بيروت ١٩٦٤.
- ابن الجوزي. أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي (ت٥٩٧هـ/١٢٠١م).
- ٨- المنتظم في تاريخ الملوك والامم، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٥٨هـ/١٩٣٩.
- ابن الجيعان. شرف الدين يحيى بن المقر (ت٨٨٥هـ/١٤٨٠م).
- ٩- التحفة السنوية بأسماء البلاد المصرية، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٧٤.
- ابن حمديس. عبدالمجبار أبو بكر بن محمد (ت٥٢٧هـ/١١٣١م).
- ١٠- ديوان ابن حمديس، قدم له د. إحسان عباس، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦١.
- ١١- العبر وديوان المبتدأ والخير، (تاريخ ابن خلدون) دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٦١.
- ابن خلدون. أبو زيد عبدالرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م).
- ١٢- المقدمة (مقدمة ابن خلدون)، المطبعة البهية، القاهرة (سنة الطبع بلا).

- ابن خلكان. أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر الأربلي (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م).
- ١٣- وفيات الاعيان وأنباء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، مطبعة الغريب، دار الثقافة، بيروت، ثمانية أجزاء ١٩٦٨-١٩٧١م.
- ابن زيني دحلان. سيد أحمد.
- ١٤- الفتوحات الإسلامية، الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، مطبعة المدني، القاهرة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م.
- ابن الساعي الخازن. أبو طالب تاج الدين علي بن الجب بن عثمان البغدادي (ت ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م).
- ١٥- الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، عني بنسخه ونشره د. مصطفى جواد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، بغداد ١٩٣٤.
- ابن سيده. أبو الحسن علي بن اسماعيل النحوي الأندلسي (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٤م).
- ١٦- كتاب المخصص، المكتب التجاري، بيروت، المطبعة الأميرية الكبرى، طبعة بولاق ١٣١٦هـ.
- ابن شاهين الظاهري. غرس الدين خليل (ت ٨٧٣هـ/ ١٤٦٧م).
- ١٧- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باعتناء وتصحيح بولس راويس المطبعة الجمهورية، باريس ١٨٩٤.
- ابن شداد. أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع الأسدي (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م).
- ١٨- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين)، تحقيق د. جمال الدين الشيبان، طبعة الدار المصرية، القاهرة، ١٩٦٤.
- ابن شداد. أبو عبدالله عزالدين محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م).
- ١٩- الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (تاريخ لبنان والاردن وفلسطين) تحقيق د. سامي الدهان، مطبعة المعهد الفرنسي للدراسات العربية ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م، ج ٢، ق ٢.
- ابن الصيرفي. أبو القاسم أمين الدين علي بن منجب بن سليمان المصري (ت ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م).
- ٢٠- الاشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق وتعليق عبدالله مخلص، طبع المعهد العلمي الفرنسي، ١٩٢٤.
- ابن الطقطقا. محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م).
- ٢١- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، طبعة دار صادر، بيروت ١٩٦٦.
- ابن طلحة الوزير. أبو سالم كمال الدين محمد بن طلحة (ت ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م).
- ٢٢- العقد الفريد للملك السعيد، مطبعة الوطن. القاهرة ١٣٠٦هـ.
- ابن العبري. أبو الفرج غريغوريوس أهرون الملطي (ت ٦٨٥/١٢٨٦م).
- ٢٣- تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية، ط ٢، بيروت ١٩٥٨.
- ٢٤- تاريخ الدول السرياني. صنفه باللغة السريانية، ترجمه إلى العربية إسحاق ارملة السرياني. منشور في مجلة المشرق البيروتية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت من السنة ٤٦ لعام ١٩٥٢ إلى السنة ٤٩ لعام ١٩٥٥، ج ٤، ٥.

- ابن العديم. أبو الفاسم كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله الخليلي (ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م).
- ٢٥- زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق، د. سامي الدهان. المطبعة الكاثوليكية، بيروت ج ٢، طبع سنة ١٩٥٤، ج ٣، طبع ١٩٦٧.
- ابن العماد الخنبلي. أبو الفلاح عبدالحفي (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م).
- ٢٦- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مطبعة القدسي، القاهرة، ط ١٣٥٠هـ/١٩٣١م.
- ابن الفرات. ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم (٨٠٧هـ/١٤٠٤م).
- ٢٧- تاريخ ابن الفرات، تحقيق د. حسن محمد الشماع، مطبعة حداد، البصرة ١٩٦٧.
- ابن قاضي شهبة. أبو الفضل بدرالدين محمد بن تقي الدين بن قاضي شهبة الأسدي الشافعي (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م).
- ٢٨- الكواكب الدرية في السيرة النورية (تاريخ السلطان نورالدين محمود ابن زنكي) تحقيق د. محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٧١.
- ابن قتيبة. أبو محمد عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م).
- ٢٩- المعارف، تحقيق ثروت عكاشه، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٦٠.
- ابن القلانسي. أبو يعلى حمزة (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م).
- ٣٠- ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨.
- ابن كثير. أبو الفداء عماد الدين اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م).
- ٣١- البداية والنهاية، مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٣٢م.
- ابن ماتي. الأسعد بن الخطير المهذب بن مينا المصري (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م).
- ٣٢- قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، طبع مصر ١٩٤٣.
- ابن منقذ. أبو المظفر مؤيد الدين اسامة بن مرشد بن منقذ الكناني الشيزي (ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م).
- ٣٣- الاعتبار، تحقيق فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة ١٩٣٠.
- ابن منظور. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصري (ت ٧١١هـ/١٣١١م).
- ٣٤- لسان العرب، دار صادر، دار بيروت، لبنان ١٣٧٤-١٣٧٥هـ/١٩٥٥-١٩٥٦م.
- ابن منكلي. محمد الناصر بن محمود بن منكلي المصري (ت ٧٧٨هـ/١٣٧٦م).
- ٣٥- التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية، مخطوط مصور بالفوتستات في المجمع العلمي العراقي، تحت رقم (٦٤٦- سلاح).
- ابن ميسر. محمد بن علي بن يوسف (ت ٦٧٣هـ/١٢٧٨م).
- ٣٦- أخبار مصر، باعثناء هنري ماسيه، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، ١٩١٩.
- ابن واصل. جمال الدين محمد بن سالم الحموي (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م).
- ٣٧- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق د. جمال الدين الشيبان ج ١، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة ١٩٥٣، ج ٢، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٥٧.

- ابن الوردي. أبو حفص زين الدين عمر (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م).
- ٣٨- تاريخ ابن الوردي (ذيل المختصر في أخبار البشر) المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف ١٩٦٩.
- ابن هذيل. علي بن عبدالرحمن بن هذيل الأندلسي (ق ثامن هـ).
- ٣٩- حلية الفرسان وشعار الشجعان، تحقيق محمد عبدالغني حسن، مطبعة دار المعارف، بغداد ١٩٥١.
- ابن يحيى. صالح (النصف الأول من القرن التاسع الهجري/ النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي)
- ٤٠- كتاب تاريخ بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٩.
- أبو شامة. شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي الدمشقي (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م)
- ٤١- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية) ج١، ق١، نشر وتحقيق محمد حلمي محمد أحمد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٦.
- ج١، ق٢، تحقيق د. محمد حلمي محمد أحمد، مراجعة د. محمد مصطفى زيادة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٢م.
- الكتاب نفسه بجزأيه، مطبعة وادي النيل، القاهرة ١٢٨٧-١٢٨٨هـ.
- ٤٢- الذيل على الروضتين (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) باعثناء محمد زاهد الكوثري (القاهرة ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م).
- أبو الفداء. عماد الدين اسماعيل بن محمد بن تقي الدين عمر الأيوبي. صاحب حماه (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م)
- ٤٣- المختصر في أخبار البشر، مطبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت.
- أبو يعلى الفراء. محمد بن الحسن بن محمد (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٤م)
- ٤٤- الأحكام السلطانية، شركة مكتبة مصطفى البايي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م.
- أبو مخزومة. أبو محمد عبدالله الطيب بن عبدالله بن أحمد (القرن العاشر الهجري)
- ٤٥- تاريخ ثغر عدن، مطبعة بريل، ليدن ١٩٣٦.
- الأصفهاني. عماد الدين الكاتب. أبو عبدالله محمد بن محمد بن حامد بن عبدالله بن علي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م)
- ٤٦- خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر) نشر أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥١.
- الكتاب نفسه، قسم شعراء الشام، تحقيق د. شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، دمشق ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م.
- ٤٧- الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبيح، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٥.
- الأوسى الأنصاري. عمر بن إبراهيم (أوائل القرن التاسع/ أوائل القرن الخامس عشر الميلادي)
- ٤٨- تفريغ الكروب في تدبير الحروب، حققه وترجمه إلى الانكليزية الدكتور جورج سكانلون، منشورات الجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٩٦١.

- الأيوبي. الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب. صاحب حماه (ت ١١٧هـ/ ١٢٢٠م) ٤٩- مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق د. حسن حبشي، دار الهنا، طبع عالم الكتب، القاهرة، ١٩٦٨.
- البغدادي. عبداللطيف بن يوسف بن محمد (ت ٦٢٩هـ/ ١٢٣٠م) ٥٠- الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، نشر كمال حافظ زند وجون آ. وايبي أي. فيدين، طبعة لندن ١٩٦٥.
- البنداري. قوام الدين الفتح بن علي (ت قرن سابع هـ/ ثالث عشر م) ٥١- سنا البرق الشامي (تلخيص البرق الشامي للعماد الكاتب الأصفهاني) تحقيق. د. رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٧١، ج١.
- بنيامين التطيلي. بنيامين بن يونه الأندلسي (ت ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م) ٥٢- رحلة بنيامين، ترجمه من العبرية، عزرا حداد، المطبعة الشرقية، بغداد ١٩٤٥.
- الثعالبي. أبو منصور عبدالملك بن محمد (ت ٤٢٩هـ/ ١٠٣٦م) ٥٣- فقه اللغة وسر العربية، مطبعة الاستقامة، القاهرة ١٩٥٩.
- المجاط. أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٦هـ/ ٨١٨م) ٥٤- الحيون، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٨م).
- ٥٥- رسائل المجاط، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي ١٩٦٤-١٩٦٥.
- الجواليقي. أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد (ت ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م) ٥٦- العرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، طهران ١٩٦٦.
- الجوهري. اسماعيل بن حماد أبو نصر بن حماد الفارابي (ت ٣٩٨هـ/ ١٠٠٦م) ٥٧- الصحاح، تاج اللغة، طبعة دار الكتاب العربي، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م.
- حاجي خليفة. مصطفى بن عبدالله (كاتب جلبي) ٥٨- كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون، المطبعة الإسلامية، طهران ١٣٨٧هـ/ ١٩٤٧م.
- الحسيني. أبو الحسن صدرالدين علي ناصرالدين بن علي (عاش في القرن السابع الهجري) ٥٩- أخبار الدولة السلجوقية، باعتناء محمد إقبال، طبع نشرات كلية بنجاب، لاهور، ١٩٣٣.
- الحموي. أحمد بن محمد (ت ١١٤٢هـ/ ١٧٢٩م) ٦٠- النفحات المسكية في صناعة الفروسية، تحقيق عبدالستار القره غولي، مطبعة التفتيش، بغداد ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.
- الحموي. أبو الفضائل محمد بن علي بن العزيزي بن علي بن مزهر بن بركات (ت ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م) ٦١- التاريخ المنصور، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، نشر بطرس غريا زنيويج، موسكو، دار النشر للأدب الشرقية ١٩٦٠.

- الحموي أبو عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي (ت ١٢٢٦هـ/١٢٢٨م)
- ٦٢- معجم الادباء، نشر د. أحمد فريد رفاعي، مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر.
- ٦٣- معجم البلدان، دار صادر، دار بيروت ١٩٥٥-١٩٥٧.
- الحميري. أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالمنعم (عاش في القرن التاسع الهجري)
- ٦٤- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، مكتبة لبنان، طبع دار القلم للطباعة، بيروت ١٩٧٥.
- الخنيلي. ابو البركات عزالدين أحمد بن ابراهيم بن نصرالله العسقلاني المصري (ت ٨٧٦هـ/١٤٧١م)
- ٦٥- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق ناظم رشيد، من مطبوعات وزارة الثقافة والفنون، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٧٨م.
- الخرزجي. الشيخ علي بن الحسن (ت ٨١٢هـ/١٤٠٩م)
- ٦٦- العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تصحيح وتنقيح محمد بسيوني عسل، مطبعة الهلال، القاهرة ١٩١١.
- الخوارزمي. جمال الدين أبو بكر بن العباس (ت ٣٨٣هـ/٩٩٣م)
- ٦٧- مفيد العلوم ومبيد الهموم، المطبعة الشرقية، القاهرة ١٣٢٨هـ/١٩٠٩م).
- الخوارزمي. أبو عبدالله محمد بن أحمد بن يوسف (ت ٣٨٧هـ/٩٩٧م)
- ٦٨- مفاتيح العلوم، مطبعة الشرق، إدارة المطبعة المنيرية، القاهرة ١٣٤٢هـ.
- الدميري. كمال الدين أبو البقاء (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)
- ٦٩- حياة الحيوان الكبرى، دار الطباعة، القاهرة ١٢٩٢هـ.
- الدوادري. أبو بكر بن عبدالله بن أبيك (ت بعد ٧٣٦هـ/١٣٣٥م)
- ٧٠- الدرّة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق د. صلاح الدين المنجد. مطبعة المعهد الألماني للآثار، القاهرة ١٩٦١.
- ٧١- الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، تحقيق د. سعيد عبدالفتاح عاشور، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧٢.
- الذهبي. أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد الدمشقي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)
- ٧٢- مختصر تاريخ الإسلام، مخطوط مصور في مكتبة الدراسات العليا، (قسم ١، ٢) تحت رقم ١٦٥٩، ١٦٦٠.
- ٧٣- العبر في خبر من غير، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت ١٩٦٣.
- ٧٤- دول الإسلام، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن الهند (١٣٦٥هـ/٢ط).
- الزبيدي. أبو الفيض محب الدين محمد مرتضى الحسيني الواسطي (ت ١٢٠٦هـ/١٧٩١م)
- ٧٥- تاج العروس من جواهر القاموس، المطبعة الخيرية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٣٠٦هـ.

- سبط ابن الجوزي. أبو المظفر شمس الدين قزاوغلي التركي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م)
- ٧٦- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٩٥١، ج ٨ قسم أول.
- السبكي. أبو نصر تاج الدين عبد الوهاب ابن نقي الدين (ت ٧٧١هـ/١٣٧٠م)
- ٧٧- طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧٠.
- السيوطي. جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)
- ٧٨- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، المطبعة الشرقية ١٣٢٧هـ.
- الصفدي. صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م)
- ٧٩- الوافي بالوفيات، نشر باعتماد هلموت ريتز، دار النشر فرانز شتاينر فيسبادن، ألمانيا ١٣٨١هـ/١٩٦٢م.
- الطبرسي. أبو علي الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م)
- ٨٠- مجمع البيان في تفسير القرآن، ط ٢، طبع ونشر دار الفكر، بيروت ١٩٥٥.
- الطبري. أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)
- ٨١- تاريخ الرسل والملوك، مطبعة الاستقامة، القاهرة ١٩٣٩.
- الكتاب نفسه، ط انتشارات جهان - طهران عن طبعة دي غوية.
- الطرسوسي. مرضي بن علي بن مرضي (ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م)
- ٨٢- تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء.
- مخطوط مصور بالميكروفيلم، نسخة شخصية للمؤلف عن نسخة مكتبة بودليان باوكسفورد تحت رقم (٢٦٤).
- الطرطوشي. أبو بكر محمد بن الوليد الفهري المالكي (ت ٥٢٠هـ/١١٢٦م)
- ٨٣- سراج الملوك، مطبعة بولاق ١٢٨٩هـ.
- العباسي. الحسن بن عبدالله (بدأ بتأليفه سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م)
- ٨٤- آثار الأول في ترتيب الدول، مطبعة بولاق، ١٢٩٥هـ.
- العصاصي المكي. عبدالملك بن حسين بن عبدالملك (ت ١١١١هـ/١٦٩٩م)
- ٨٥- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المطبعة السلفية، القاهرة.
- العليمي المقدسي. أبو اليمن مجير الدين عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن الحنبلي (ت ٩٢٨هـ/١٥٢٠م)
- ٨٦- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، قدمه محمد بحر العلوم، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

- عمارة اليميني. أبو محمد نجم الدين عمارة بن أبي الحسن الحكمي (ت ٥٦٩هـ/١١٧٣م)
- ٨٧- النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية، تحقيق هرتويغ دانبرغ، مطبعة مرسو، شالون، فرنسا ١٨٩٧م.
- العصري. شهاب الدين أبو فضل الله العمري (٧٨٦هـ/١٣٨٤م)
- ٨٨- التعريف المصطلح الشريف، مطبعة العاصمة، القاهرة ١٣١٢هـ.
- الغساني. الملك الأشرف أبو العباس عماد الدين اسماعيل بن العباس (ت ٨٠٣هـ/١٤٠٠م)
- ٨٩- العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، دراسة وتحقيق د. شاكر محمود عبدالمعتم، دار التراث الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - دار البيان - بغداد ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
- القزويني. زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م)
- ٩٠- آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، دار بيروت ١٩٦٠.
- القلقشندي. أبو العباس أحمد بن علي بن عبدالله (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)
- ٩١- صيغ الاعشى في صناعة الإنشا، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩١٣-١٩١٧.
- ٩٢- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق إبراهيم الأبياري، مطبعة السعادة، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٣.
- ٩٣- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، نشر وتحقيق علي الخاقاني، مطبعة النجاح، بغداد ١٩٥٨.
- الماوردي. أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م)
- ٩٤- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٠.
- المقدسي البشاري. أبو عبدالله شمس الدين محمد (ت ٣٨٧هـ/٩٩٧م)
- ٩٥- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط لندن، ١٩٠٦.
- المقريزي. أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م)
- ٩٦- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق د. جمال الدين الشيبان، دار الفكر العربي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٨.
- الكتاب نفسه، تحقيق محمد حلمي محمد، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة ١٩٧١.
- ٩٧- البيان الاعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق د. عبدالمجيد عابدين، ملتزم الطبع والنشر عالم الكتب، القاهرة ١٩٦١.
- ٩٨- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٤.
- ٩٩- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مطبعة بولاق، ١٢٩٤ اوفسيت مكتبة المثنى.
- الكتاب نفسه، طبعة المعهد الفرنسي، القاهرة ١٩١٣-١٩٢٢. مؤلف مجهول
- ١٠٠- خزنة السلاح، مخطوط مصور بالفوتوستات في مكتبة الدراسات العليا، كلية الآداب، تحت رقم ١٢٣٢.
- النابلسي. عثمان بن إبراهيم (كان حياً في سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م).
- ١٠١- لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية، طبعة المعهد الفرنسي، دمشق ١٩٦١.

- ناصر خسرو. (ت ٤٥٢هـ/١٠٦٠م)
- ١٠٢- سفرنامه، ترجمه من الفارسية د. يحيى الخشاب، ط: دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٧٠.
- النويري. شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م)
- ١٠٣- نهاية الأرب في فنون الأدب، مصورة عن نسخة دار الكتب، القاهرة ١٩٥٤.
- النويري. محمد بن قاسم بن محمد الاسكندراني (ت بعد سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٢م)
- ١٠٤- الامام بالأعلام فيما جرت به الأحكام، والامور المقضية في وقعة الاسكندرية، تحقيق د. ايتن كومب و د. عزيز سوربال عطية، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٩٦٨.
- الهرثمي أبو سعيد (صاحب الخليفة المأمون العباسي)
- ١٠٥- مختصر سياسة الحروب، تحقيق عبدالرؤف عون، طبعة المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة (سنة الطبع بلا).
- الهروي. علي بن أبي بكر بن علي (ت ١١١هـ/١٢١٥م)
- ١٠٦- التذكرة الهروية في الحيل الحربية، تحقيق مطيع المرابط، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٢.
- الهمداني. بدرالدين محمد بن حاتم بن علي حاتم بن أحمد الهمداني
- ١٠٧- السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن، تحقيق ركس سمث، مطبعة جامعة كمبردج، ١٩٧٤.
- اليافعي. أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي اليمني المكي (ت ٧١٨هـ/١٣٦٦م)
- ١٠٨- مرآة الجنان وعبرة اليقظان، طبعة منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ١٩٧٠.
- اليمني. تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد (ت ٧٤٣هـ/١٣٤٢م)
- ١٠٩- تاريخ اليمن، المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق مصطفى حجازي، مطبعة مخيمر، اليمن ١٩٦٥.
- ١١٠- ذيل مرآة الزمان، طبعة حيدر آباد الدكن - الهند، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م.

## ثانياً- الكتب الحديثة والمترجمة إلى العربية:

د. إبراهيم علي طرخان

١١١- النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٨.

إحسان هندي

١١٢- الحياة العسكرية عند العرب، مطبعة الجمهورية، دمشق ١٩٦٤.

أحمد رضا

١١٣- متن اللغة، مطبعة دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٨.

أحمد مختار العبادي

١١٤- قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٩.

أدوين جون ديفيز

١١٥- فرنسا الجريحة على ضفاف النيل، ترجمة زكي شنودة المحامي، مطبوعات كتابي (سنة الطبع بلا).

ادي شير

١١٦- الألفاظ الفارسية المعربة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٠٨.

آرنستت باركر

١١٧- الحروب الصليبية، ترجمة د. الباز العريني، مطبعة لجنة البيان العربي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٠.

إسماعيل سرهنك

١١٨- حقائق الأخبار عن دول البحار، المطبعة الأميرية، بولاق، ج١، سنة ١٣١٤هـ، ج٢، ١٤١٦هـ، ج٣، ١٣٢٣.

أمين الخولي

١١٩- الجندي والسلم، مطبعة الرسالة، دار المعرفة، القاهرة ١٩٦٠.

د. الباز العريني

١٢٠- الشرق الأدنى في العصور الوسطى (الأيوبيون)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٧.

١٢١- الشرق الأوسط في الحروب الصليبية، دار النهضة العربية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٣.

١٢٢- المماليك، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٧.

برنارد لويس

١٢٣- العرب في التاريخ، ترجمة نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٥٤.

البستاني. بطرس وابنه سليم

- ١٢٤- دائرة المعارف، المطبعة الأدبية، بيروت ١٨٨٧.
- البستاني. بطرس
- ١٢٥- محيط المحيط، معجم لغوي، بيروت ١٩٧٠.
- البستاني. الشيخ عبدالله البستاني
- ١٢٦- البستان، معجم لغوي، المطبعة الأميركية، بيروت ١٩٢٧.
- بوليك أ. ن.
- ١٢٧- الاقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، ترجمة عاطف كرم. منشورات دار المكشوف، بيروت ١٩٤٨.
- جان سوفاجيه
- ١٢٨- دمشق الشام، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٣٦.
- جب. السير هاملتون أ. ر.
- ١٢٩- صلاح الدين الأيوبي، دراسات في التاريخ الإسلامي، حررها يوسف أيبش المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٣.
- جرجي زيدان
- ١٣٠- تاريخ التمدن الإسلامي، منشورات دار مكتبة الحياة، مؤسسة خليفة للطباعة بيروت ١٩٦٧.
- جوزف نسيم يوسف
- ١٣١- العدوان الصليبي على مصر، دار الكتب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٦٩.
- د. جهادية القردغولي
- ١٣٢- التنظيمات الادارية والعسكرية في العراق والشام خلال العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٣٢هـ) رسالة دكتوراه، مطبوعة على الآلة الكاتبة (الرونيو) القاهرة ١٩٧٤.
- د. حسن إبراهيم حسن
- ١٣٣- تاريخ الإسلام السياسي والديني، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٩٦٧.
- ١٣٤- تاريخ الدولة الفاطمية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٢.
- ١٣٥- الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٣٢
- د. حسن الباشا
- ١٣٦- الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة ١٩٦٥-١٩٦٦.
- ١٣٧- الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة ١٩٦٥.
- د. حسن حبشي
- ١٣٨- نورالدين محمود والصليبيون، القاهرة ١٩٤٨.

- حسين يوسف موسى وعبدالفتاح الصعيدي  
 ١٣٩- الافصاح في فقه اللغة، مطبعة المدني، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦٤.
- د. خالد جاسم الجنابي  
 ١٤٠- تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني ٢١٨-٣٣٤هـ، رسالة ماجستير مطبوعة بالآلة الكاتبة (الرونيو) بغداد ١٩٧١.
- د. دريد عبدالقادر نوري  
 ١٤١- سياسة صلاح الدين في بلاد مصر والشام والجزيرة، مطبعة الارشاد، بغداد، ١٩٧٦،  
 دوزي رينهارت
- ١٤٢- المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة د. أكرم فاضل، مطبعة وزارة الاعلام العراقية، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٧١-١٣٩١.
- دهومبين. م. غودفروي  
 ١٤٣- النظم الإسلامية، ترجمة د. فيصل السامر، ود. صالح الشماع، مطبعة الزهراء، بغداد ١٩٥٢.
- د. رشيد الجميلي  
 ١٤٤- دولة الأتابكية في الموصل بعد عماد الدين زنكي، دار النهضة، بيروت ١٩٧٠.
- د. زكي النقاش  
 ١٤٥- العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية، منشورات دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٥٨.
- ستيفن رنسيमान  
 ١٤٦- تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة د. الباز العريني، ط: دار الثقافة بيروت ١٩٦٨.
- سعيد الديويجي  
 ١٤٧- الموصل في العهد الأتابكي، مطبعة شفيق، بغداد ١٩٥٨.
- د. سعيد عبدالفتاح عاشور  
 ١٤٨- الحركة الصليبية، مكتبة الانجلو المصرية، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة ١٩٦٣.
- ١٤٩- مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٢.
- سوبر نهيم  
 ١٥٠- أ- مادة (اقطاع) دائرة المعارف الإسلامية، القاهرة ١٩٣٣.  
 ب- مادة (صلاح الدين) دائرة المعارف الإسلامية، القاهرة ١٩٣٣.
- سيد أمير علي  
 ١٥١- مختصر تاريخ العرب، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٧.

- سيد علي الخيري  
 ١٥٢- الاخبار السنوية في الحروب الصليبية، المطبعة العمومية، القاهرة ١٣١٧هـ.  
 د. سيده اسماعيل كاشف  
 ١٥٣- أحمد بن طولون، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٥.  
 شاخت وبوزورث  
 ١٥٤- تراث الإسلام، ترجمة د. محمد زهير السمهوري، تعليق وتحقيق د. شاکر مصطفى، مراجعة د. فؤاد زكريا. صدر عن (عالم المعرفة) سلسلة كتب ثقافية شهرية، اصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب، الكويت، ١٩٧٨.  
 د. صابر محمد دياب  
 ١٥٥- سياسة الدول الإسلامية في حوض البحر المتوسط، دار الثقافة العربية للطباعة، القاهرة ١٩٧٣.  
 طه الهاشمي  
 ١٥٦- الجغرافية العسكرية، مطبعة دار السلام، بغداد ١٩٢٧.  
 ١٥٧- دروس في المعلومات الجغرافية، مطبعة الشعب، بغداد ١٩٣٦.  
 عبدالرؤف عون  
 ١٥٨- الفن الحربي في صدر الإسلام، مطبعة دار المعارف، القاهرة ١٩٦٠.  
 د. عبدالرحمن زكي  
 ١٥٩- السلاح في الإسلام، دار المعارف، القاهرة ١٩٥١.  
 ١٦٠- السيف في الإسلام، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٥٧.  
 ١٦١- قلعة صلاح الدين، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، المطبعة الثقافية، القاهرة ١٩٧١.  
 د. عبدالعزيز سالم و د. أحمد مختار العبادي  
 ١٦٢- تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، مطبوعات جامعة بيروت العربية، ١٩٧٢  
 ١٦٣- أيام صلاح الدين، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت ١٩٦١.  
 د. عبدالقادر أحمد ظلمات  
 ١٦٤- ابن الأثير الجزري المؤرخ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩.  
 د. عبدالقادر أحمد اليوسف.  
 ١٦٥- العلاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر، منشورات المكتبة العصرية، صيدا - بيروت ١٩٦٩.  
 د. عبدالنعم ماجد. من حقيقه وجمعه كتاب:  
 ١٦٦- السجلات المستنصرية، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٥٤.  
 ١٦٧- ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، طبعة دار المعارف، الاسكندرية ١٩٦٨.  
 ١٦٨- العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، ١٩٦٦.

- د. عطية مصطفى مشرفة
- ١٦٩- نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين، مطبعة الاعتماد، نشر دار الفكر العربي، القاهرة (بلا سنة الطبع).
- علي بيومي
- ١٧٠- قيام الدولة الأيوبية في مصر، دار الفكر الحديث، القاهرة، ١٩٥٢.
- علي مبارك
- ١٧١- المخطط التوفيقية الجديدة لمصر، دار الكتب، ١٩٦٩.
- فازلي بارتولد
- ١٧٢- تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة د. أحمد السعيد سليمان، القاهرة ١٩٥٨.
- د. فتحي عثمان
- ١٧٣- الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، نشر الدار القومية، القاهرة ١٩٦٦.
- د. فيليب حتي
- ١٧٤- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة د. كمال اليازجي، مراجعة د. جبرائيل جبور، دار الثقافة ومؤسسة فرانكلين، المطبعة البولسية، بيروت ١٩٥٩.
- د. فيليب حتي مع ادوارد جرجي ود. جبرائيل جبور
- ١٧٥- العرب، دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٧٤.
- ١٧٦- صانعو التاريخ العربي، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٩.
- قدري قلعجي
- ١٧٧- صلاح الدين الأيوبي، قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، دار الكاتب العربي، مطابع شركة المطابع الحديثة، بيروت ١٩٦٦.
- كارل بروكلمان
- ١٧٨- تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٥.
- كلاري روبرت
- ١٧٩- فتح القسطنطينية على يد الصليبيين، ترجمه عن الفرنسية وقدم لها د. حسن حبشي، مطابع دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٦٤.
- د. محسن محمد حسين
- ١٨٠- اربيل في العهد الأتابكي، مطبعة أسعد، بغداد ١٩٧٦.
- ١٨١- موضوعان في التاريخ الكردي، مطبوعات جمعية الثقافة الكردية، مطبعة الحوادث، بغداد ١٩٧٦.
- د. محمد التوجي
- ١٨٢- المعجم الذهبي. دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٩.

- د. محمد جمال الدين سرور  
 ١٨٣- الدولة الفاطمية في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦٦.
- د. محمد حسنين ربيع  
 ١٨٤- النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٦٤.
- محمد خالد  
 ١٨٥- قصة التعمية، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٦٩.
- محمد سعيد العريان. د. جمال الدين الشيبان  
 ١٨٦- قصة الكفاح بين العرب والاستعمار، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٠.
- د. محمد صالح داوود القزاز  
 ١٨٧- الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير، مطبعة القضاء، النجف، ١٩٧١.
- محمد العروسي المطوي  
 ١٨٨- الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الكتب الشرقية، تونس ١٩٥٤.
- د. محمد عمارة  
 ١٨٩- عندما أصبحت مصر عربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٤.
- محمد فرج  
 ١٩٠- السلام والحرب في الإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٠.
- ١٩١- المدرسة العسكرية الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦٩.
- محمد كرد علي  
 ١٩٢- خطط الشام، مطبعة الترقى، دمشق ١٩٢٥.
- محمد موسى هندواي  
 ١٩٣- المعجم في اللغة الفارسية، مكتبة مطبعة مصر ١٩٥٢.
- محمد ياسين الحموي  
 ١٩٤- تاريخ الأسطول العربي، مطبعة الترقى، دمشق ١٩٤٥.
- ١٩٥- دمشق في العصر الأيوبي، المطبعة الهاشمية، دمشق ١٩٤٦.
- محمود محمد السرساوي  
 ١٩٦- يوم حطين، من روائع التاريخ العسكري العربي، مطابع الدار القومية القاهرة (بلا سنة الطبع).
- مصطفى غالب  
 ١٩٧- سنان راشد الدين، اصدار دار اليقظة العربية، ومنشورات حمد ١٩٦٧.
- مكسيموس مونروند  
 ١٩٨- من تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة كيريو كيريو مكسيموس مظلوم سنة ١٨٤١، طبع دير الرهبان

- اورشليم (القدس) ١٨٦٥.
- مؤلف مجهول (صليبي)
- ١٩٩- أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة د. حسن حبشي، ملتزم الطبع دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٥٨.
- ميخائيل صباغ (ت١٨١٦).
- ٢٠٠- مسابقة البرق والغمام في سعاة الحمام، رسالة منشورة في مجلة المورد البغدادية، المجلد ٢، عدد ٣، بغداد ١٩٧٣.
- ميخائيل عواد
- ٢٠١- المآصر في بلاد الروم والإسلام، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٤٨.
- مينورسكي. البروفيسور ف. ف.
- ٢٠٢- الأكراد ملاحظات وانطباعات، ترجمه عن الروسية وعلق عليه د. معروف خزندار، مطبعة النجوم، بغداد ١٩٦٨.
- د. نظير حسّان سعداوي
- ٢٠٣- التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٧.
- ٢٠٤- جيش مصر في أيام صلاح الدين، مكتبة النهضة المصرية، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٥٦.
- ٢٠٥- المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي، مكتبة النهضة المصرية، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة ١٩٦٢.
- نعمان ثابت
- ٢٠٦- الجندية في الدولة العباسية، مطبعة أسعد، بغداد ١٩٥٦.
- هارولد لامب
- ٢٠٧- شعلة الإسلام (قصة الحروب الصليبية) ترجمة محمود عبدالله يعقوب، مطبعة الارشاد، منشورات مؤسسة فرانكلين ودار المتني، بغداد ١٩٦٧.
- هامرتن. السبير جون آ.
- ٢٠٨- تاريخ العالم، مقال (السلح) لتشارلز.ج. فولكس، ادارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم، مكتبة النهضة (بلا سنة الطبع).
- هونكمان. أي.
- ٢٠٩- مادة (صور) في دائرة المعارف الإسلامية، القاهرة ١٩٣٣.
- ٢١٠- تاريخ الجيوش، ترجمة كمال دسوقي، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦.

الكتب الاجنبية:

\* شمس الدين سامي

٢١١- قاموس الاعلام (تركي) مهران مطبعة سي، باب عالي جاده سنده استانبول ١٣٠٦-١٣١٤.

\* علي اصغر شميم

٢١٢- فرهنگ امير كبير، مؤسسة چاپ وانتشارات امير كبير. تهران ١٣٤٣هـ. محمد حسين بن خلف التبريزي.

٢١٣- برهان قاطع. قاموس لغوي فارسي، تصحيح واهتمام محمد عباس، طبعة مؤسسة مطبوعاتي امير كبير، سنة ١٣٣٦.

- 214- Bosworth, C.E. Recruitment, muster, and review in medieval Islamic armies.
- 215- Cahen, Claude. Les changements techniques militaires dansle proche Orient medieval et leur impotence histotique.
- 216- War Technology and Society in the Middle East. Edited by: V. J. Parry and M. E. Yap, London, Oxford University Press, 1975.
- 217- Cahen, Claud. La Syrie du Nord, Paris, 1940.
- 218- Dozy. R. Supplement aux Dictionnaires Arabes, Librairie du Liban-Beyrouth, 1968.
- 219- Kerr, Anthony J. C., The Crusades, Printed in Britain, 1966.
- 220- Crousset, Histoire des Croseries, Paris, 1935.
- 221- Heyd W. Histoire du Commerce du Levant au moyan - age, Amsterdam, 1959.
- 222- Lane - Poole, Stanley. A History of middle age, London, 1901.
- 223- Lane - Poole, Stanley. Salahud-din and the fall of the kingdom of Jerusalem, Beirut, 1962.
- 224- Oman, C. W. C., The arts of war in the middle ages, N.Y. 1924.
- 225- Rosebault, Charles J. Saladin: Prince of Chivalry. London, 1930.
- 226- Setton, K. M. A History of the Crusades, Wisconsin, 1969.
- 227- Smail, R. C. Crusading Warfare, Cambridge, 1956
- 228- Stevenson, W. B. The Crusaders in the East, Cambridge, 1907.
- 229- Treece, Henry. The Crusades, New York, 1962.
- 230- Von Kremer. The Orient under the Caliph, Calcuta, 1920.

### البحوث والمقالات في المجلات:

- ٢٣١- مجلة آفاق عربية، السنة (٤) العدد (٥) كانون الثاني ١٩٧٩، بحث د. صلاح حسين (المنجنيق سلاح عربي).
- ٢٣٢- مجلة دراسة عربية (١٤) العددان (٩، ١٠) لسنة ١٩٧٨، بحث أحمد صادق سعد (مصر الفاطمية).
- ٢٣٣- مجلة سومر، مجلد ٣٢، ج ١+٢، لسنة ١٩٧٦، بحث (منجنيق من الحضرة) د. صلاح حسين.
- ٢٣٤- مجلة سومر، مجلد ٣٣. ج ١ لسنة ١٩٧٧.
- بحث عن منجنيق الحضرة ل(دايتولف باتز) ترجمة عن الانكليزية د. واثق اسماعيل.
- ٢٣٥- مجلة كلية الآداب، العدد ٢٥، شباط ١٩٧٩.
- بحث (المنجنيق سلاح عربي) د. صلاح حسين.
- ٢٣٦- مجلة المورد، مجلد (٢) العدد (٣) رسالة كتبها ميخائيل صباغ «مسابقة البرق والغمام في سعة الحمام» نشرها حكمت توماش.
- ٢٣٧- المجلة العربية للعلوم الإنسانية. كلية الآداب- الكويت. المجلد (٧) العدد (٢٦) لسنة ١٩٨٧. بحث «مسؤولية صلاح الدين في فشل حصار صور» د. محسن محمد حسين.
- ٢٣٨- مجلة كلية الآداب- جامعة الملك سعود- الرياض. العدد الأول- المجلد الثاني (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م) بحث (أسباب وطبيعة إتصال صلاح الدين مع الخليفة المنصور الموحد). د. محسن محمد حسين.
- ٢٣٩- مجلة مهتدين- دهوك. العدد (٥٤) لسنة ١٩٩٦. بحث (رسائل صلاح الدين- الفحوى- والمغزى) د. محسن محمد حسين.

## الفهرست

5	إشارة وشكر
7	المقدمة (نطاق البحث)
13	تحليل مصادر البحث الأساسية
33	القسم الأول: في المؤسسات العسكرية
	الفصل الأول: نهاية الدولة الفاطمية وقيام الجيش الأيوبي
35	١- الحملة النورية الأولى على مصر- أسبابها ونتائجها
39	٢- الحملة النورية الثانية على مصر
41	٣- الحملة الثالثة (الأخيرة) واستقرار شيركوه وصلاح الدين في مصر
43	٤- مقومات الفرقة النورية المرسله إلى مصر
47	٥- عناصر الجيش الفاطمي
47	أ- المغاربة (البربر)
49	ب- السودان (الزنوج)
50	ج- العرب
52	د- الأتراك
53	هـ- عناصر أخرى: الأرمن والأكراد وغيرها
55	٦- حجم الجيش الفاطمي
56	٧- اضطراب أوضاع مصر وتصفية الجيش الفاطمي
62	٨- نواة الجيش الأيوبي
66	٩- حجم الجيش الأيوبي وتطوره
73	الفصل الثاني: تنظيمات الجيش الأيوبي
75	١- دمشق مركز للجيش الأيوبي
76	٢- ديوان الجيش
77	٣- زي الأجناد
80	٤- التموين
82	٥- الإقطاع العسكري
91	٦- التعبئة العسكرية
91	أ- نظام التخميمس

94	ب- الحلقة الخاصة والمماليك السلطانية
97	٧- الأطلاب وأصناف الجيش حسب سلاح كل صنف
97	أ- صنف الفرسان (الخيالة)
98	ب- صنف المشاة (الرجالة)
98	ج- أصناف أخرى مساعدة
99	٨- المتطوعون في الجيش الأيوبي
102	٩- الفرق الملحقة بالجيش
102	أ- الفرقة الهندسية
103	ب- الفرقة الطبية
105	ج- فرقة الموسيقى العسكرية
106	د- حملة أعلام الجيش
109	الفصل الثالث: مؤسسات مساعدة في تنظيم الجيش وإدارة شؤون القتال والسلم والأسرى
111	أولاً: البريد والاستخبارات
111	١- تنظيم أمور البريد
113	٢- اليك « فرق الاستكشاف »
115	٣- حمام البريد
120	٤- الكمائن
125	ثانياً: إدارة شؤون القتال والسلم الأسرى
125	١- مجلس حرب جيش صلاح الدين
130	٢- خطط وأساليب القتال
137	٣- موسم القتال
140	٤- معاملة الأسرى
149	٥- المعاهدات بين صلاح الدين والصليبيين
150	الهدنة الثانية مع أنطاكية
152	صلح الرملة
161	الفصل الرابع: أسلحة الجيش الأيوبي
163	مدخل
163	خزانة السلاح وصناعة الأسلحة
166	أنواع الأسلحة
166	أولاً: الأسلحة الفردية
166	١- السيف

169	٢- الخنجر
169	٣- الرمح
171	ومن الأسلحة الفردية: الفأس أو الطبر
172	٢- النبوت والعمود والدبوس
173	٣- القوس ( وأنواعها )
174	أ- قسيّ الزيار
176	ب- قسيّ الجروح
177	ج- الزنيورك
178	د- قوس الرجل
179	هـ- قوس الحسيبان
179	و- القوس المتعددة الاتجاه
180	ز- قوس قاذفة النفط
180	٤- المقاليع
181	ثانياً: الأسلحة الثقيلة
181	١- النفط وقاذفات النار
186	٢- الآلات الجماعية
186	أ- المنجنيق
190	ب- الدبابة وملحقاتها
194	ثالثاً: أسلحة وقاية الجسم
195	١- الترس
197	٢- أغطية الجسم
197	أ- المغفرة والبيضة
197	ب- الجوشن
199	ج- التجفاف
200	رابعاً: المثلثات- وحالات استعماله
201	خامساً: العجلات
203	الفصل الخامس: البحرية الأيوبية
205	تمهيد
205	١- إصلاحات صلاح الدين في مجال البحرية
209	٢- مراكز صناعة السفن في مصر
210	٣- أنواع المراكب في البحرية الأيوبية
211	أ- الطريدة

211	ب- الشيني
212	ج- البطسة أو البطشة
212	د- الحراقة
213	هـ- المسطح
213	و- الحمالة
213	ز- البركوس
214	ح- الشلندي
214	ط- الأعزاي
214	ي- العشيرى
214	٤- معدات الأسطول وأسلحة المقاومة
215	أ- الكلاب
215	ب- الباسليقات
215	ج- التوابيت
216	د- اللجام
216	٥- نشاط البحرية الأيوبية
217	أ- مرحلة التمهيد
218	ب- مرحلة قوة الأسطول الأيوبي في مصر
223	ج- مرحلة ما بعد حطين إلى صلح الرملة
231	الفصل السادس: (قسم المعارك) أبرز معارك صلاح الدين
233	تمهيد
235	أولاً: معارك الأسوار
235	١- حصار الإسكندرية
236	٢- حصن الكرك وحصاره المتكرر
238	٣- حصار بيت الأحران
239	٤- حصار الجيش الأيوبي لعكا وفتحها
241	٥- حصار بيت المقدس وفتحه
244	٦- حصار صور الشهير
250	ثانياً: المعارك المكتشوفة
251	١- معركة الرملة
252	أسباب هزيمة المسلمين فيها
253	٢- معركة حطين
263	الفصل السابع: الأحداث العسكرية بين حصار عكا وحصار يافا

265	أولاً: عكا وحصارها الطويل
276	١- حملة ريتشارد قلب الأسد
280	٢- سقوط عكا
281	أسباب سقوط عكا
283	ثانياً: بعد عكا
284	١- المسير نحو عسقلان
286	٢- وقعة أرسوف وهزيمة صلاح الدين
288	٣- خراب عسقلان
290	٤- تنظيم الدفاع عن القدس
291	٥- استعداد ريتشارد لفتح القدس
294	٦- حصار يافا الفاشل
299	خلاصة للبحث باللغة الإنجليزية
305	مصادر ومراجع البحث
305	أولاً: المصادر القديمة
316	ثانياً: الكتب الحديثة والمترجمة إلى العربية
325	ثالثاً: البحوث والمقالات في المجالات

## الدكتور مُحسنُ مُحَمَّدُ حُسَيْنٍ - السيرة العلمية

- \* ولد في أربيل، وأكمل دراسته الإبتدائية والثانوية فيها عام ١٩٥٨.
- \* تخرّج من قسم التاريخ - كلية التربية - جامعة بغداد عام ١٩٦٢.
- \* خدم في التعليم الثانوي تسع سنوات ثم إلتحق بالدراسات العليا/ كلية الآداب - جامعة بغداد، فنال درجة الماجستير في العام ١٩٧٤ عن موضوع «أربيل في العهد الأتابكي».
- \* إلتحق بدراسة الدكتوراه عام ١٩٧٧ ونال درجتها في ١٩٨١ عن موضوع «الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين: تكوينه، تركيبه، تنظيمه، أسلحته، بحريته، معاركه» من الكلية.
- \* عمل في جامعة بغداد، كلية الآداب ثم التربية منذ ١٩٧٤-١٩٨٢، في قسم اللغة الكردية - وقسم التاريخ ١٩٨٢-١٩٩٤.
- \* إلتحق بجامعة صلاح الدين - أربيل ١٩٩٤-١٩٩٦.
- \* غادر للعمل في جامعة مصراته - ليبيا ١٩٩٦-٢٠٠١.
- \* ساهم في مؤتمرات وندوات عديدة في العراق وإقليم كردستان وفي الخارج.
- \* عضو لجنة التاريخ الكردي في المجمع العلمي العراقي - بغداد.
- \* عضو هيئة تحرير مجلة «رؤشنبيري نوئ» الأكاديمية (١٩٨٢-١٩٩٤) في بغداد.
- \* ترقى الى مرتبة أستاذ - ١٩٩١.
- \* له تسع مؤلفات طُبعت في بغداد وعمان وبيروت وأربيل.
- \* له بحوث منشورة باللغتين الكردية والعربية في بغداد في مجلات: كلية الآداب - المجمع العلمي العراقي (الهيئة الكردية) - رؤشنبيري نوئ - سهنتهري برايه تي - ههولير - كاروان. وفي صحف عديدة، وبحوث أخرى نُشرت في الكويت والرياض (مجلة كلية الآداب).
- \* له إهتمام خاص بفلسفة التاريخ، التدوين التاريخي، منهج البحث التاريخي، الفكر السياسي، إضافة الى تخصصه في تاريخ أربيل الإسلامي وتاريخ صلاح الدين حيث أُلّف عنه أكثر من ثلاث كتب.
- \* أشرف على رسائل ماجستير ودكتوراه عديدة.
- \* يعمل حالياً في جامعة صلاح الدين - أربيل.